

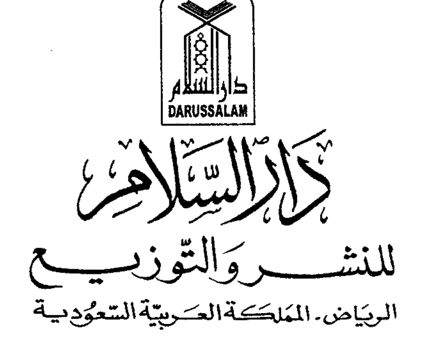

العلاّمة شِبْلي النّعماني

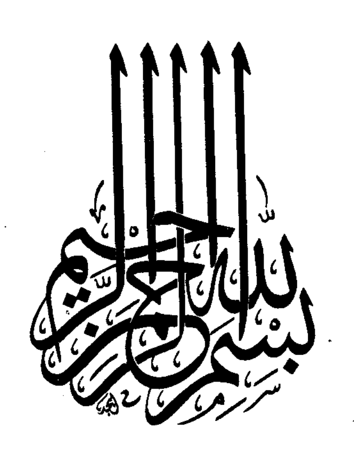
تعـريب

بجنة التّأليف والتّرجمة دار السّلام

د. سمير عبد الحميد إبراهيم

الأستاذ بجامعة الإمام مُحمّد بن سُعود الإسلاميّة





بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الناشر

الحمد لله الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور، وجعلنا من خير أمة أخرجت للناس، والحمد لله الذي فرّق بين الحق والباطل بإسلام الفاروق عمر ابن الخطاب، والحمد لله الذي خصَّنا بمزيد فضله، ومنَّ علينا بتتابع إحسانه، وهيأ لنا العمل في خدمة كتابه ونشر السنة، فلله الحمد والشكر أن اختارنا لهذا العمل المبارك، ويسر لنا أسبابه، فنجدد الحمد والشكر طمعًا في المزيد، عملًا بقول العزيز الحميد: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

ونشهد أن لا إله إلا الله الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له صاحبة ولا ولد، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبعوث بخير الرسالات في خير الأمم. يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ [يس: ١٢] وقال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: من علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده» أخرجه مسلم.

ونحن القائمين في مكتبة دار السلام بالرياض يسعدنا أن نقدم اليوم للقارىء الكريم تحفة نادرة ودرة ثمينة غالية من تراثنا الإسلامي العزيز بعد مرور قرن من الزمان من طباعته بالأردية وقد نشر هذا الكتاب أيضًا بالفارسية والإنجليزية.

### لماذا هذا الكتاب ؟

سؤال قد يدور في أذهان بعض الأخوة: لماذا يترجم هذا الكتاب إلى العربية؟ ونجيب بحقٍّ وصدقٍ بأن هذا الكتاب من أفضل ما كتب في سيرة الخليفة الراشد أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والكتاب بحمد الله لقي قبولاً وإحسانًا وانتشارًا واسعًا باللغات الثلاث المشار إليها، فلم نجد بدًّا من ترجمته إلى العربية لكي نتحف القارىء العربي بهذا الكتاب الطيب المبارك الفريد في نوعه.

ونحن إذ نقدمه في ثوبه القشيب وحلته الزاهية ليكون لنا الشرف في أننا أول من يكشف الستار عن هذا الكنز في سيرة الفاروق، ويدفع بهذه الذخيرة إلى عالم النور باللغة العربية خدمة لديننا الحنيف.

وهذا الكتاب هو حلقة من حلقات عمل هذه المؤسسة المباركة إن شاء الله - مكتبة دار السلام - التي أخذت على عاتقها نشر علوم القرآن والسنة، وأداءً للأمانة التي حملنا الله إياها أن نبلغ العلم في مشارق الأرض ومغاربها، ونحن والحمد لله في سبيل نشر العلم باللغات المختلفة، فها نحن قد ترجمنا باللغات الأردية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية وغيرها، وكذلك ترجمنا من الأردية إلى العربية هذا الكتاب الذي بين أيديكم ومن قبله كتاب «رحمة للعالمين» في سيرة سيد المرسلين ﷺ.

ونحن بهذه المناسبة نزجي آيات الثناء والشكر للأستاذ الدكتور/ سمير عبدالحميد إبراهيم الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض الذي تفضل مشكورًا بقراءة الكتاب ومراجعته والتقديم له، ونشكر الأخوة المراجعين العاملين بلجنة البحث والإعداد العلمي بمكتبة دار السلام، ولا يخفى على القارىء الكريم ما لعمر الفاروق في النفوس من هيبة وتعظيم وإجلال وتكريم، ولعل في هذا الكتاب يجد القارىء الكريم مطلبه في أن يقف على ملامح من حياة الفاروق تنير له حياته، وتأخذ بناصيته إلى طريق الهدى والنور، وتأخذ بزمامه إلى درب السعادة، وتهديه إلى أقوم سبيل.

قال عبدالله بن مسعود: مازلنا أعِزَّةً منذ أسلم عمر. أخرجه البخاري.

ونحن نقول: أين لنا بعمر، لكي نستشعر بهذه العزة التي عاشها ابن مسعود؟!

نسأل الله عز وجل أن يلحقنا به غير مبدلين ولا مغيرين، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على عبدك ورسولك الأمين.

**عبدالمالك مجاهد محمد يونس**
دار السلام للنشر والتوزيع
شعبان ١٤١٩هـ الموافق ديسمبر ١٩٩٨م

# مقدمة

بقلم
**د. سمير عبدالحميد إبراهيم**
الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ـ ١ ـ

ولد محمد شبلي الملقب بالنعماني في قرية بندول التابعة لأعظم كره في الهند في ذي القعدة عام ١٢٧٤هـ/ مايو ١٨٥٧م، وسماه والداه محمد شبلي نسبة للشيخ أبي بكر شبلي المتوفى سنة ٣٢٤هـ من بلدة شبيلية بمنطقة تركستان، وغلبت النسبة حتى صارت جزءاً من الاسم، وأضاف شبلي فيما بعد لقب النعماني الذي لقبه به أستاذه الشيخ فاروق جرياكوتي.

درس شبلي اللغة العربية والفارسية بالإضافة إلى الأردية، وسافر إلى الحج وهو في التاسعة عشرة من عمره، وكتب عن سفره هذا، وعبر عن حبه الشديد للعرب والعربية.

وإذا كان شبلي قد ولد عام ثورة الهند ضد الإنجليز، فقد توفي عام اندلاع الحرب العالمية الأولى، ومن المعروف أنه بعد فشل الثورة تحمّل المسلمون وحدهم نتائج هذا الفشل، فقام الإنجليز بالانتقام الشرس من المسلمين دون غيرهم، وعمدوا إلى إذلالهم، وحاولوا القضاء على الثقافة الإسلامية، والمدارس الإسلامية في شبه القارة الهندية، وقد اعترف نهرو بذلك صراحة حين قال: «بعد سنة ١٨٥٧م كانت اليد القوية للبريطانيين أشد وطأة على المسلمين منها على الهندوس» . . . ووسط هذه الظروف القاسية، بدأ بعض قادة المسلمين العمل قدر استطاعتهم؛ لما فيه خير أبناء وطنهم وإخوانهم في الدين. . وهكذا ظهرت المدارس العربية لتكون ـ كما يقول الشيخ أبو الحسن الندوي ـ معامل للحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية والعلوم الشرعية،

وهكذا ظهرت مدرسة ديو بند ومن بعدها حركة ندوة العلماء، وغيرها بالإضافة إلى حركة عليكره.

ارتبط شبلي النعماني رسمياً بحركة عليكره التي أسسها سيد أحمد خان، وكان ارتباطه هذا سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م حين اختاره سيد أحمد خان أُستاذاً للغة العربية والفارسية، وهنا وجد شبلي فرصة طيبة لقراءة كل ما يطبع في مصر وغيرها من البلدان العربية من صحف ومجلات وكتب حديثة، وكوّن مكتبة رائعة ضمّت في معظمها كتب التاريخ بالإضافة إلى إفادته من مكتبة سيد أحمد خان الخاصة، وإفادته من اتصاله بالمستشرق توماس أرنولد الذي تعلم منه أصول البحث، وقد أتاحت له شخصيته أن ينظر إلى هذه الأصول، فيأخذ منها ما يناسبه بل ويطوعها لما يريد.

من المعروف أن سيد أحمد خان حاول توحيد صفوف المسلمين في شبه القارة الهندية، وتعديل موقفهم تجاه الإنجليز، بحثّهم على ضرورة تعلم اللغة الإنجليزية والاستفادة من العلوم العصرية الحديثة، والواقع أن دعوته أسفرت عن تخفيف حدّة الاضطهاد البريطاني للمسلمين، غير أن أخطاءه فيما بعد فيما يتعلق بالعقيدة أضرت بدعوته. لم يحاول سيد أحمد خان إخضاع النظام التعليمي الغربي لطبيعة المجتمع الإسلامي الهندي، ولم يفكر في سبكه سبكاً جديداً إسلامياً هندياً، ولم يفصله عن الحضارة الغربية وروحها المادية، ووصل به الأمر إلى أنه اشترط أن يكون العميد إنجليزياً وأستاذان على الأقل من الإنجليز، ومن هنا لم يستطع شبلي النعماني أن يحبس نفسه داخل دائرة نظريات سيد أحمد خان، فقد كان شبلي إنساناً عاطفياً، حماسياً، وكان أيضاً شاعراً، وكان عالماً معتداً بنفسه، وكان قلبه يموج بعواطف متنوعة، بينما ظل عقله مسكناً للفلسفة والمنطق، وهكذا أوجد اجتماع الضدين داخل شخصيته صراعاً نفسيًّا رافقه طوال حياته.

رأى شبلي النعماني أن المدارس والكتاتيب المنتشرة في الهند تحتاج إلى

إصلاح، في وقت كان العلماء لا يهتمون إلا بالكتب الدراسية وشروحاتها وحواشيها، ولم تكن لديهم رغبة أو شوق للاطلاع على الكتب الجديدة والاستفادة من كتب العلوم والفنون والبحث عن المخطوطات والكتب النادرة، ومن هنا رأى شبلي في حركة سيد أحمد خان مطمحه، ورأى فيها تحقيقاً لأهدافه، ووصل إلى عليكره. . إلا أنها لم تحقق له حلمه، ولكنه رأى فيها مشعل التعريف بالأفكار الأدبية والأبحاث العلمية، وأكثر من هذا الإفادة التي حققها من خلال صلته ورفقته للبروفيسير أرنولد المستشرق الإنجليزي، الذي أفاد شبلي كثيرًا في شرح أصول البحث والتحقيق، واستفاد هو بدوره من شبلي في تعلم اللغة العربية، وشعر شبلي بضرورة تعلم اللغة الإنجليزية وضرورة إعداد الناس وتهيئتهم لتعلمها.

كانت هذه أمور تُحسب لحركة سيد أحمد خان، حركة عليكره، إلا أن هناك مواطن ضعف في هذه الحركة، رصدها العلّامة شبلي النعماني عن قرب وبالتدريج، ومع مرور الوقت ظهرت هذه المواطن أمام شبلي فكتب لأحد رفاقه: «بعد أن جئت هنا نضجت جميع أفكاري، عرفت أن الجماعة المثقفة ثقافة إنجليزية جماعة مهملة تماماً، لا تهتم أبداً بالدين، وأن ما يقال عن سعة الفكر والحرية الحقيقية وعلو الهمة وحماسها للتطور، كل هذا مجرد شعارات لا أكثر، وكل ما تراه هناك مجرد عرض للقمصان و «البنطلونات»، وقد أثبت لي الشباب من بلدتي من الحاصلين على درجة الليسانس أنهم ضعاف تماماً في الأمور الدينية لا حول ولا قوة إلا بالله. . فهؤلاء المساكين لا يمكن أن يفهموا حتى حركة دوران الأرض، وسيد أحمد خان يقول: «إن اللغة الإنجليزية لا تغير شيئاً مما في أدمغتهم» ويتضح من هذه الشكوى أن الخطة التي كانت في ذهن شبلي من أجل وضع برنامج للتعليم الجديد لمسلمي شبه القارة الهندية بدت غير مكتملة في عليكره نظراً لبعض الصعوبات غير الواضحة، ولهذا نراه يعود من عليكره دون أن تتحقق آماله التي عقدها على

هذه الكلية، وبدأ يعارض حركة عليكره بصورة عملية، ويرى البعض أن الشكاوى التي كان شبلي يرددها، كانت في حقيقتها غير صادقة لأنه هو نفسه لم يفعل شيئاً حين كان في عليكره، ولم يكن هدفه الأساسي من الشكوى هو إصلاح عليكره بقدر ما كان إظهار تفوق «ندوة العلماء» على «عليكره»، ومما لا شك فيه أن شبلي ترك أثره على العديد من الناس خارج عليكره وداخل عليكره، ويبدو أنه لم يكن في استطاعته أن يجعل من «كلية عليكره» وسيلة لتحقيق هدفه الأساسي، ولهذا تركها بحثاً عن مكان يحقق فيه هدفه، ومن ثم وضع أساس ندوة العلماء، وكانت الفكرة قائمة على أن تكون الندوة مكاناً يلتقي فيه القديم مع الجديد، مكاناً يصب فيه نهر العلوم الجديدة مع نهر العلوم القديمة، حيث لا يسد فيه النقص الموجود لدى «مدرسة ديوبند»، بل يتم استكمال النقص الموجود في مناهج التعليم الديني في كلية عليكره، وواجه شبلي مخالفة شديدة فيما يتعلق بتدريس اللغة الإنجليزية، لكنه نجح في النهاية في إقناع رفاقه، وبدأت الإنجليزية تُدرس في الندوة، ومن ثم ظهرت مسألة (القَدَر) الذي يتعلمه الدارسون للإنجليزية، وكان شبلي يميل إلى الإصلاح التدريجي البطيء، ويرى أن لكل فريق من العلماء مجاله، لمن تعلم الإنجليزية، ودرس على المنهج الحديث مجاله الرحب، ولمن تعلم على الطراز القديم أيضًا له مجاله الرحب، ولهذا قال بتقسيم العمل بين العلماء على أن يتم القضاء على النزاع والفرقة بينهم من خلال توحيد مناهج التعليم في جميع أنحاء الهند، وأن يتم ربط المدارس الإسلامية مع بعضها، ولم يمهله الأجل ليرى ثمرة جهوده فقد رحل شبلي في ٢٨ ذي الحجة سنة ١٣٣٢هـ نوفمبر ١٩١٤م.

-٢-

وهكذا لاحظنا أن شبلي النعماني لم يعجب بموجة التجديد في زمانه، تلك التي أُطلق عليها «التعليم الجديد»، وربما كان لسفره إلى الحج في شبابه أثره في

ذلك، لأنه تأثر بالسلفية، ولما كان حنفي المشرب فقد وضح تماماً الصراع الداخلي لديه، بين أن يكون سلفياً متأثراً بالفكر السلفي، وبين أن يظل حنفياً، وهو المذهب الشائع في الهند، وظل شبلي أثناء رحلته إلى الحج يبحث في مكتبات المدينة المنورة عن الكتب التي توضح الدعوة السلفية في الجزيرة العربية، ليحملها معه إلى الهند، ومن الجدير بالذكر أن هذا الصراع استمر بداخله طويلًا، إلا أن خطابه الذي كتبه إلى سليمان الندوي، وذلك قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى بأربعة أشهر أواخر عام ١٣٣٢هـ / يوليو١٩١٤م يوضح ما وصل إليه بعد طول صراع، وقد كتب شبلي خطابه بعد أن بدأت كتب شيخ الإسلام ابن تيمية تطبع، وتمكن شبلي من الحصول عليها بعد أسفاره إلى بلدان الشرق الأوسط، ووضح تأثير كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية عليه.

كتب شبلي في خطابه إلى سيد سليمان الندوي ما يلي: «إن ابن تيمية يحتل مكانة عالية ولابد من الكتابة عنه، إنني أرى هذا العالم الجليل وقد غطى على بقية العلماء، فمؤلفاته تعطيني كل يوم جديداً في جديد»، ثم يكتب:

«إنني الآن مستعد لأن أمضي في كل طريق وإلى كل اتجاه ما دمت ممسكاً بيد ابن تيمية».

اهتم شبلي بتاريخ الأمة الإسلامية فأخذ ـ من خلال مؤلفاته ـ يوضح عظمة هذه الأمة، وكان عالماً وباحثاً وأديباً يقرض الشعر بالعربية والأردية والفارسية، اعترض على منهج التعليم الحديث في عليكره، ورأى التركيز على بناء الشخصية الإسلامية من خلال التعليم المتوازن، فسافر إلى البلاد الإسلامية ليقف على نظام التعليم في مدارسها إلا أنه عاد يائساً حزيناً لما رآه في الشام ومصر، وترك عليكره، بعد أن قضى بها فترة مثمرة يمكن أن نطلق عليها الفترة الذهبية لكتابات شبلي التاريخية، فقد كتب المأمون ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م، وسيرة النعمان ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م، وبعدها كتب أعظم كتبه «الفاروق» في ١٣١٦هـ.

وترك عليكره وأقام في حيدر آباد الدكن حيث كتب الغزالي (١٣٢٠هـ)،

وعلم الكلام (١٣٢١هـ)، والكلام (١٣٢٢هـ)، وارتبط بندوة العلماء، وشارك مع بعض العلماء في تطويرها، كما تبادل الرسائل مع علماء العالم الإسلامي، وبخاصة الشيخ رشيد رضا ثم بدأ استكمال بحثه عن السيرة النبوية ولكن قضاء الله حل به قبل أن يستكمل أجزاء السيرة النبوية فأكملها من بعده تلميذه الشيخ سيد سليمان الندوي.

* * *

كان للعلّامة الأديب شبلي النعماني أسلوبه المتميز في الكتابة النثرية والشعرية باللغات الثلاث: الأردية والفارسية والعربية، وقد ظهرت موهبته الشعرية في فترة مبكرة من حياته، وظهرت براعته في الكتابة بالعربية، بل وضح الاتجاه الإسلامي في شعره العربي قبل أن يكتب قصيدته «صبح الأمل» بالأردية عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م. وهذه أبيات ألقاها في عليكره ونشرت فيما بعد في جريدة عليكره في ١٥ أكتوبر ١٨٨١م.

المجد يصحب علماً حيثما يصل ... والعلم عن قومنا لا زال يرتحل
نالوا من الذل مالا ناله أحدٌ ... إذ لا يُرى فيهم علم ولا عمل
ولا تزال ترى ينشت شملهم ... في كل يوم وقد ضاقت بهم حيل
لاينتمون وقد ذاقوا وبالهم ... عن سوء صُنع فقد باءوا بما عملوا
وهل يجازيهم إلا بما اكتسبوا ... من كان من عنده الأحكام تنفصل

ويمكن الوقوف على أسلوبه النثري في العربية بمطالعة كتاباته التي نشرت في مجلة المنار وغيرها سنة ١٨٨٩م وما بعدها.

برع شبلي في النظم بالفارسية والأردية، أما أسلوبه النثري فيكفي لوصفه أن ننقل هنا عبارة جراهام بيلي في كتابه تاريخ الأدب الأردي:

«يعده بعضهم أعظم كتاب النثر في الأردية، وأسلوبه مناسب لما طرق من موضوعات خاصة بالدين والتاريخ»

ويرى البعض أن شبلي ـ وهذا حق ـ يعد رائد كتابة التاريخ الحديث في الأدب الأردي، وأن كتابه «الفاروق» يعد دُرّة في تاج النثر الأردي.

لم يتحدث شبلي عن أشعاره، ولم يُعرف بمكانته كشاعر، نظراً لأن أعماله الأخرى غطَّت على مكانته كشاعر، كما أن معظم ما كتب من أشعار كان من النوع الذي يطلق عليه الشعر السياسي؛ فقد تعامل مع الأحداث السياسية في العالم الإسلامي، فكان يذكر الحدث أو الواقعة ثم يُضمِّنها حكمة أو موعظة، ويسترجع التاريخ ويستقرأ المستقبل ويدعو إلى التضامن الإسلامي، وإلى إحياء الروح الإسلامية والأمل في المستقبل عن طريق التخطيط الصحيح لتطوير حياة المسلمين في جميع أنحاء العالم، يقول في إحدى قصائده:

في أي بلد . . في أي مكان . .
المسلمون بنصِّ القرآن إخوان
متحابين متراصين كالبنيان
وليس في هذه الأخوة محاباة
للأعمام والأخوال . . .
آه ممَّا نحن فيه الآن
الأخ صار عدواً لأخيه
ولا بيت يخلو من هذا السلوك
المغضب للرحمن
لم يعد هناك وجود للصدق أو التدين
أو حفظ العهود في أي مكان.

وعن أصحاب التعليم الجديد المقلدين للغرب يقول شبلي بالفارسية ما ترجمته:

«صرتم كالضيوف على موائد أوربا
ليس عدلاً أن تصبحوا من جملة أهل أوربا

ليس عدلاً أن تنكروا فلسفة القرآن والسنة
ليس عدلاً أن تخضعوا لفلسفة أوربا
رُحتم تعددون القياصرة واحداً بعد الآخر
ليس عدلاً إذْ تغافلتم ونسيتم عمر وحيدر وعثمان».

وعبر شبلي الشاعر المرهف الحسّ عن هموم الأمة الإسلامية فوقف يخطب في يوم العيد قصيدة بالفارسية قدمها «عيدية» للحاضرين الذين طلبوا منه أن يلقي فيهم بعض أشعاره فقال:

لا تطلب مني أن أطرب وأُغنِّي بجميل الشعر في هذا العيد
فالحزن شديد
آلامي تقهر جبل الصبر
هل قُضى الأمر ؟
ياكم خدعونا بالقول البراق، بكل غثاء
حتى صرنا هدفاً لسهام الأعداء
خدعونا بالصور الشوهاء
فجرينا خلف الأوهام الخادعة السوداء
حتى ضجت منّا الأهواء
آه من فِتَنٍ ينسجها الغشاشون الكذابون بلا رحمة
هل نحن الأبناء البررة في هذي العتمة ؟
هل نحن الأمة ؟!
من يكشف عنا هذه الغمة ؟
من يملك فينا العزمة والوثبة والهمة ؟
لا تطلب مني شرحاً، فالليل قصير والحزن وفير
وأنا مكلوم القلب حسير
لا تطلب مني أن أشدو في هذا العصر
بِدُرِّ القول

فقلبي مفطور وكسير»

- ٣ -

وهكذا وضح لنا أن شبلي كان أديباً، وشاعراً، ومفكراً، ومؤرخاً، وكاتب سيرة، وناقداً، كتب في موضوعات مختلفة منها الموضوعات التاريخية، وموضوعات النقد الأدبي، وتاريخ الأدب، وعلم الكلام، والمقال، والرسالة بالإضافة إلى أدب الرحلة.

وفيما يتعلق بالتاريخ يُعد شبلي بحق أباً للتاريخ الحديث في اللغة الأردية، وقد بعثه على هذا رغبته في تنزيه الإسلام عما لحق به من أباطيل، كما أنه شاء أن يجعل كتابة التاريخ في الأردية مواكبة لكتابة تاريخ القرن التاسع عشر في أوربا، وهو بصفته مؤرخ يفضل قلم الرسام على صندوق الألوان وهذا ما يجعله أقرب إلى رجل العلم منه إلى رجل الأدب.

وفي مجال الكتابات التاريخية وأيضاً في ميدان المناظرات الدينية ركز شبلي على القضية التي أقلقت المفكرين المسلمين وعلماء الإسلام آنذاك وهي: هل الإسلام يحول دون الرقي والمدنية؟ وأجاب على هذا بأن الإسلام يحمل بداخله جميع أسباب الرقي الحضاري مثل: المساواة والتسامح والشورى وتقسيم العمل ومراتب الإنسان المختلفة، فغاية الرقي العلمي تتمثل في الربط بين الدين والدنيا وترك الرهبانية، والحث على الحياة العملية والعلاقات الدولية.

لقد رأى شبلي أن يقدم صورة واضحة وصحيحة لطريقة الحكومة الإسلامية، فاختار سيرة عمر الفاروق وتحدىّ كتَّاب التاريخ أن يعرضوا من خلال صفحات التاريخ شخصية جامعة كشخصية الفاروق، وبعبارة أخرى أراد شبلي أن يعلن بملء فيه عن تفوق نظام الحكم الإسلامي على جميع الأنظمة العالمية.

وكان شبلي يفخر بهذا الكتاب قائلًا: «الفاروق هو أحب كتبي إلى قلبي» ويذكر عبداللطيف الأعظمي في كتابه عن مكانة شبلي في الأدب الأردي أن شهرة الفاروق قد فاقت أي كتاب آخر، والدليل على ذلك القبول والترحيب الذي لقيته ترجمة الفاروق إلى اللغة الفارسية واللغة العربية واللغة الإنجليزية.

والسؤال أين الترجمة العربية للفاروق؟

لقد عثرت على نسخة من الترجمة الإنجليزية مكتوب عليها أن الطبعة الأولى صدرت عام ١٩٣٩م وترجم الجزء الأول مولانا ظفر علي خان شاعر الأردية وأديبها المشهور، وترجم الجزء الثاني محمد سليم الحاصل على شهادة الماجستير، وفي العربية تذكرت ما قاله أستاذنا الدكتور يحيى الخشاب ـ رحمة الله عليه ـ من أن الفاروق والسيرة النبوية تُرجما ولكن الترجمة في المراجعة منذ فترة طويلة في دار المعارف بمصر، فهل كان عبداللطيف الأعظمي يشير إلى ذلك، أم أنه كان يشير إلى كتاب الأستاذ محمد حسين هيكل الفاروق عمر الذي صدر عن دار المعارف في جزأين دون ذكر تاريخ الطبع كما أن مقدمة المؤلف لم يثبت فيها أي تاريخ.

والسؤال الذي يحتاج إلى إجابة هو: هل ياترى اتصل محمد حسين هيكل بظفر علي خان مترجم الجزء الأول من الفاروق وممن كانوا يداومون على حضور ندوات شبلي النعماني؟ وهل التقى الأستاذ محمد حسين هيكل بظفر علي خان في المملكة العربية السعودية أثناء استضافة الملك عبدالعزيز ـ يرحمه الله ـ لعلماء وضيوف العالم الإسلامي، وخاصة أن هناك تشابهاً كبيراً بين ما كتبه ظفر علي خان شعراً وما كتبه محمد حسين هيكل نثراً في رحلته «في مهبط الوحي»، كما أن الدكتور حسين فوزي النجار يشير إلى وجود علاقة فكرية بين ما كان يكتبه محمد حسين هيكل في مصر وبين ما أُثير فيما بعد في المؤتمر الديني بجامعة عليكره سنة ١٩٣٨م.

والأهم من هذا كله رد الدكتور حسين فوزي النجار على من يقول بأن

«سكرتير» الدكتور هيكل وهو د. سيد نوفل هو الذي أعدّ معظم بحوث هيكل وصحح المادة التي كان هيكل يرجع فيها إلى النصوص الإسلامية، وذلك بقوله «إن سيد نوفل لم يعمل «سكرتيراً» لهيكل إلا بعد توليه وزارة المعارف عام ١٩٣٨م وهذا هو الشاهد الذي قد يعتمد عليه الباحث؛ لأن هيكل كتب «الصدِّيق» عام ١٩٤٢م (بعد سبع سنوات من كتابه «محمد»)، ثم كتب الفاروق عام ١٩٤٤م الجزء الأول، وكتب الجزء الثاني عام ١٩٤٥م.

وبمطابقة الفاروق لشبلي والفاروق عمر لمحمد حسين هيكل يجد القارىء تشابهاً كبيراً، إن لم يكن تماثلًا بين موضوعات الكتابين حتى الخريطة التي طبعت على غلاف الفاروق بالأردية، وفي نهاية الفاروق عمر بالعربية، ولكن هـذا التشـابـه لا ينطبـق على المضمـون الكلي والمحتـوى وأسلـوب معـالجـة الموضوعات في الكتابين، وهذا أمر طبيعي؛ لأن شبلي يخاطب أهل الهند في المقام الأول وهيكل يخاطب القارىء العربي في المقام الأول.

ولا شك أن الدكتور محمد حسين هيكل قد رجع في كتابه إلى مصادر هندية فهو يذكر كتاب مولانا محمد علي، ولم يذكر كتاب شبلي، كما رجع إلى حجة الله البالغة للدهلوي (أحمد بن عبدالرحيم)، وعلى كل حال فهذه هي الترجمة العربية لكتاب شبلي النعماني يمكن للقارىء والباحث أن يطلع عليها ويقارن بين كتاب شبلي وكتاب هيكل، وكل ما يمكن قوله هنا أن العلماء والأدباء في مصر والهند كان بينهم اتصال وتواصل، وكان علماء الهند يعرفون الكثير عن علماء مصر، وينشرون أبحاثهم في الصحف والمجلات المصرية، وكان علماء مصر يطلعون على كتابات علماء الهند، بل ويزورون المؤسسات التعليمية الهندية والجامعات الهندية ويلقون محاضراتهم هناك، وهذا ثابت في كتب الأدب والتاريخ.

لقد استفاد شبلي من المفكرين المسلمين، في عموم البلاد الإسلامية العربية وغير العربية، ولم يتحرج من ذكر هذه الحقيقة، ولم يتحرج تلاميذه

والباحثون في الهند من ذكرها أيضًا، فمن المعروف لدى الجميع أن شبلي أخذ أفكاره في كتابه بالأردية «الكلام» عن محمد فريد وجدي وخاصة ما كتبه في كتابه الإسلام والعلم الحديث، كما استفاد شبلي من شيوخ الأزهر العاملين في مدرسة دار العلوم واستفاد من الشيخ رشيد رضا، وأيضاً من بعض العلماء في المدينة المنورة، وفي الشام وتركيا ومن هنا فكتاباته بالعربية والأردية كانت عطاء بعد أخذ وهو يعد رائد الكتابات التاريخية في الأدب الأردي.

* * *

- ٤ -

يعد كتاب الفاروق أحب كتب شبلي إلى نفسه، وهناك اختلاف بين النقاد على السنة التي ألف فيها الكتاب، فبينما يرى الدكتور سيد عبدالله في كتابه عن رفاق سيد أحمد خان أن الفاروق كتب سنة ١٨٩٩م يرى البعض أن شبلي نفسه يذكر شيئاً عن الفاروق في مقدمته للمأمون (ألفه ١٨٨٧م)، وفي مقدمته لسيرة النعمان (يناير ١٨٩٢م) كتب أنه كان قد بدأ كتابة الفاروق بعد الفراغ من كتابته للمأمون، وانتهى من جزء كبير، ولكن ظروفاً قاهرة اضطرته إلى التوقف عن الكتابة، مما جعل بعض قصار النظر يثيرون الشكوك والظنون، بينما حقيقة الأمر هي حاجته إلى بعض الكتب النادرة المطبوعة في أوربا، وفي أغسطس ١٨٩٤م قرر شبلي قراراً حتمياً أن يستمر في الكتابة حتى ينتهي من الفاروق، وفي يونيو سنة ١٨٩٧م سُلمت بعض أجزاء الفاروق إلى المطبعة، فقد كتب شبلي إلى أحد أصدقائه في يوليو ١٨٩٧م: «سلمت الفاروق إلى مطبعة كانبور ولكن لا يزال ثلث الكتاب الأصلي لم يكتب حتى الآن»، وفي ٤ فبراير من نفس العام كتب إليه أيضاً ما يلي: «رغم كل الظروف أعددت الجزء الثاني من الفاروق وطبع نصفه تقريباً».

وفي بداية يونيو عام ١٨٩٨م حصل شبلي على إجازة من كلية عليكره،

وسافر إلى كشمير حيث أنهى كتابه، وذكر في نهايته «٥ يوليو ١٨٩٨م كشمير»، ثم مرض مرضاً شديداً ولهذا كتب المقدمة فيما بعد في ديسمبر ١٨٩٨م، وطبع الكتاب كاملًا في ٩ يناير سنة ١٨٩٩م.

كان كتاب الفاروق كما ذكرنا من أحب مؤلفات شبلي إلى نفسه، كان دائماً يتغنى به، فهو لم يبذل في تأليفه لأي كتاب (عدا سيرة النبي ﷺ الذي لم يكمله) ما بذله في تأليف الفاروق من بحث عن المادة العلمية وترتيبها وتحريرها، فقد ظل يجمع المادة العلمية لكتابه ويحرره ويراجعه من سنة ١٨٨٧م حتى سنة ١٨٩٨م أي ما يقرب من عشر سنوات أو إحدى عشرة سنة.

إن اهتمام شبلي بالكتابة عن الفاروق لم يكن مجرد اهتمام فني أدبي، أو مجرد اهتمام شخصي، فشبلي يرى أن عهد الخلفاء الراشدين هو العهد الذهبي للتاريخ الإسلامي، وخلافة الفاروق عمر هي عهد الشباب لعصر الخلفاء الراشدين، فبيان ملامح العهد الفاروقي يردّ على جميع الاعتراضات التي يوجهها النقاد الغربيون على الحكومات الإسلامية، فلم يشهد هذا العهد الفتوحات العظيمة فقط، والعظمة السياسية فقط، بل كان مظهراً للتفكير المستنير، وللعدل بأسمى صوره، وللوسطية بأجل معانيها، فاهتمام الخليفة الثاني بالذميين، والمعاهدات التي عقدها معهم، لا يمكن أن يوجد لها مثيل لدى الحكومات الإسلامية التالية، ناهيك عن الحكومات غير الإسلامية، وهكذا صار عدل الفاروق مَضْرب المثل.

كان موضوع عمر الفاروق من الموضوعات العزيزة جداً على قلب شبلي، ورغم مخاوف سيد أحمد خان مؤسس حركة عليكره من أن الكتابة عن الفاروق وبقلم أديب فذ مثل شبلي النعماني، من شأنها أن تحدث قلاقل ومشاكل، إلا أن شبلي مضى على «الصراط» وقطع الطريق بحكمة وحنكة، رغم اختلاف بعض وجهات النظر، وشهرة الكتاب بين الناطقين بالأردية أكبر دليل على نجاح شبلي في تأليفه للكتاب، بل يرى بعض أدباء الأردية وعلماء شبه القارة أنه لا يوجد في اللغة العربية كتاب يمكن مقارنته بكتاب شبلي، وأشار بعضهم (سيد علي

شاه) إلى كتاب الأستاذ محمد حسين هيكل قائلًا: «وقد صدر كتاب عن سيرة الفاروق لأحد مشاهير المؤلفين المصريين، كُتب بعد «الفاروق» لشبلي، لا يصل إلى مكانة الفاروق لشبلي من قريب أو بعيد».

وهذا رأي يحتاج إلى تمحيص وتدقيق، وقد لا يتفق كاتب هذه السطور مع رأي سيد علي شاه، لكن الفاروق لشبلي له مكانته في الأدب الأردي، فهو أول كتاب في موضوعه هذا، كتب بمنهج جديد، وشبلي كمؤرخ اتبع دائماً منهج الحياد، وكان يركز على ضرورة أن يتبع ذلك النهج، وهناك أمثلة كثيرة في كتابه تؤكد ذلك.

لقد عارض بعض علماء الهند ما جاء في الفاروق لشبلي، وعارضوا منهج شبلي في كتابته للفاروق، قائلين بأن شبلي رسم صورة للحضارة الإسلامية في زمان عمر مستخدماً مصطلحات حديثة، وكلمات وأسماء لمؤسسات وهيئات وإدارات تجعله يتحدث عن عصر حديث وزمان حاضر، وليس عن زمان الخلافة البعيد، والواقع أن شبلي كان يشرح مفهوم المصطلح أولاً ثم يذكر أنه يعني في الوقت الحاضر كذا أو كذا، فحين ذكر المساواة وعدم التحيز قال: وهو ما يطلق عليه بمصطلحنا العصري «الاشتراكية». وهكذا اعترض البعض على مصطلح «مجلس الشورى» الذي كان يعقد على الدوام، وقالوا بأن ما ذكره شبلي من أن عمر كان يدعو الناس إلى المسجد للتشاور، ورد في الطبري بألفاظه.

وهناك انتقادات كثيرة يرجع معظمها إلى خلاف في الرأي بين المدارس الفكرية في الهند، وقد بذل شبلي جهده في كتابة بحث تاريخي على أسس منهجية ثابتة وصحيحة، والفاروق ليس كتاباً تاريخياً فقط يتضمن أحداثاً مفصلة لعهد الفاروق بل هو صورة واضحة للتنظيم والإدارة، ولقصة الفتوحات العظيمة، بالإضافة إلى كونه كتاباً في السيرة، سيرة شخصية فريدة جمعت بين الصفات السامية.

وكان هدف شبلي إطلاع الغرب على ما كان عليه العهد الذهبي للإسلام من رفعة عسكرية ودقة في التنظيم والإدارة، هذا بالإضافة إلى أن شبلي عرض المسائل الخلافية، بين السنة والشيعة بطريقة دقيقة مهذبة، وبحكمة شديدة واحتياط بالغ، وذكاء خارق يستحق الثناء والتقدير، فقد كان شبلي على معرفة وعلم بمدى الحساسية الشديدة لدى بعض العلماء والجماعات، وقد راعى هذا كله وهو يكتب كتابه الفاروق ـ وقد ذكر في رسالة لأحد أصدقائه ما يلي:

«أكتب هذه الأيام سيرة الفاروق. . دعواتك لي أن أمضي سالماً على هذا الصراط، فالكتابة عن حياة عمر كمن يضع القدم على حد السيف».

ورغم احتياط شبلي الشديد إلا أنه لم يسلم من النقد ولم يسلم من ألسنة وأقلام علماء الشيعة الذين لم تكن قلوبهم صافية تجاهه، فكان إذا ذكر اسمه في مجلس من المجالس قالوا: «هذا الشيخ الذي كتب الفاروق!!».

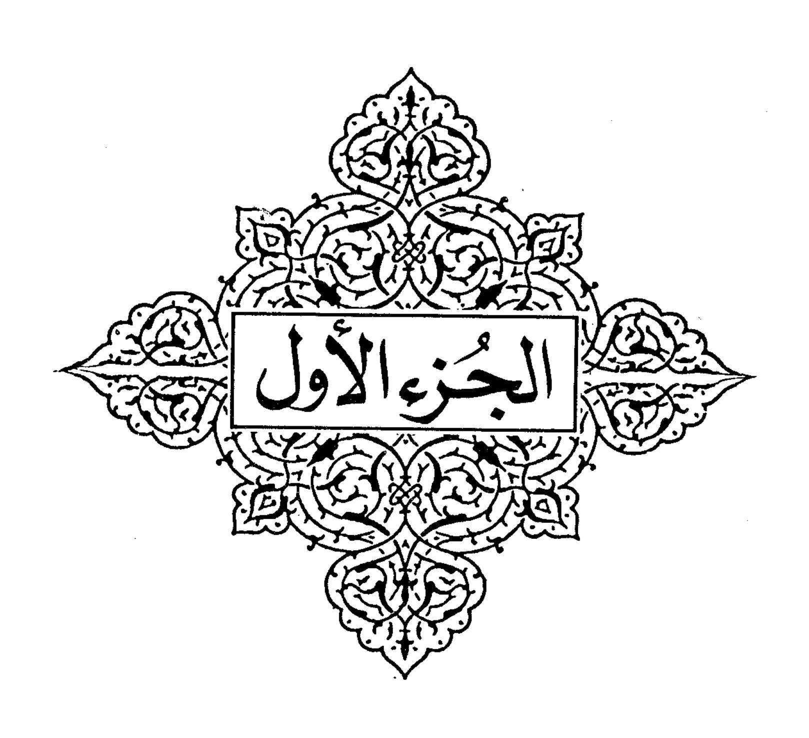
وعلى كل حال كان شبلي يدرك تماماً دقة الموقف وحساسيته والعلاقة بين جماعات السنة والشيعة في الهند، والقضايا التي تمثل أوجه الخلاف بينهما، وكان يريد إبداء وجهة نظر متوازنة، ورغم كل هذا لم يكن الأمر سهلًا أو بسيطاً، ويدرك هذا من يعلم أحوال شبه القارة الهندية وفرقها وطوائفها المتناحرة. وفي نهاية هذا التقديم أشكر الأخوة بدار السلام على جهدهم المتواصل في التعريف بعلماء وأدباء شبه القارة الهندية الباكستانية، وعلى ترجمتهم لكتاب الفاروق الذي يعطي للقارىء العربي صورة واضحة عن منهج علماء شبه القارة في كتابة التاريخ الإسلامي، وأشكر الأخ الشيخ عبدالمالك مجاهد الذي خصني بمراجعة الترجمة وكتابة هذا التقديم والله الموفق.

**د.سمير عبدالحميد إبراهيم**

**الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**

الرياض رجب ١٤١٩هـ




الجُزء الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله وأصحابه أجمعين.

## تمهيد

**عنصر التاريخ :**

إن معظم العلوم والآداب التي تظهر في عهد التمدن والحضارة، تكون نواتها الأولى موجودة من قبل، ثم تنمو لتتخذ قالباً مناسباً، بعدها تعرف باسم خالص أو لقب معين، وعلى سبيل المثال كانت طرق الاستدلال وإثبات البيّنة موجودة على الدوام، يستفيد منها عامة الناس وخاصتهم، ولكن حين رتب أرسطو هذه الجزئيات بشكل معين، أطلق عليها اسم المنطق، وصارت علماً قائماً بذاته، والتاريخ والتذاكر أيضاً علمٌ من هذا القبيل، وقد لازم التاريخ والتذاكر جماعات البشر حيثما وجدوا؛ لأن الناس عادة ما يذكرون إنجازات أسلافهم في مناسبات الفخر والتعظيم، وهكذا صار من الضروري ذكر الحروب والمعارك السابقة في المجالس كنوع من التسلية من جهة وبث روح الحماسة من جهة أخرى، ومن أجل تقليد الآباء والأجداد راحوا يقيمون بعض التذكارات الخاصة بالعادات والتقاليد القديمة التي تمثل مادة التاريخ والتذاكر، وبناء عليه فإن العرب والعجم، والترك والتتار، والهنود والأفغان والمصريين واليونانيين؛ أي: جميع أمم العالم تستطيع أن تدعي السبق في براعتها في علم التاريخ.

**الخصائص المميزة للعرب :**

إلا أن هناك خاصية كانت تميز العرب في العموم، فلديهم بعض الأمور الخاصة تربطهم بسلسلة التاريخ، وهي أمور لا توجد في غيرهم من الأمم

الأخرى، وعلى سبيل المثال رواج علم الأنساب حتى أن الطفل من بينهم كان يحفظ عن ظهر قلب سلسلة نسب آبائه وأجداده وأقاربه لعشرة أجيال أو أكثر، بل تجاوز الأمر الإنسان إلى حفظ أنساب الخيل والإبل، أو أيام العرب، التي كان يُعْقَدُ لها مهرجان سنوي في عكاظ، فكانت حكايات المآثر القومية تنتقل إلى الآلاف بل إلى مئات الآلاف من الناس جيلًا بعد جيل، وكذلك الشعر، فالبدو رعاة الإبل الذين لم تكن لهم علاقة بالقراءة أو الكتابة، كانوا لا يقيمون وزناً للعالم كله مقابل فصاحتهم اللغوية، والحقيقة أنهم كانوا يستطيعون تصوير الأحداث والعواطف ببساطة وأصالة لم تتيسر لأمة من أمم العالم.

**بداية علم التاريخ في الجزيرة العربية :**

وهكذا حين بدأ التمدن في الجزيرة العربية كانت المؤلفات التاريخة أول ما ظهر للوجود، فقد سطّر ملوك الحيرة ـ قبل الإسلام بزمن بعيد ـ الأحداث التاريخية التي ظلت محفوظة لفترة طويلة وقد صرّح صاحب كتاب التيجان بقوله: «لقد استفدت من هذه المؤلفات».

وفي العهد الإسلامي ظهرت منذ البداية ذخيرة من الروايات الشفاهية، ونظراً لأن سلسلة التأليف والكتابة ظهرت في العموم بعد مدة، لم يكتب كتاب خاص في علم التاريخ، ولكن عندما بدأت سلسلة التأليف كان أول كتاب يُكتب في علم التاريخ.

في زمان معاوية رضي الله عنه (المتوفى ٦٠هـ) كان هناك شخص يدعى عبيدة بن شربة شهد الجاهلية، وكان يتذكر معظم معارك العرب والعجم فطلبه معاوية رضي الله عنه من صنعاء، وعيّن له الكتاب والمحررين ليدونوا ما يمليه عليهم، وقد ذكر العلامة ابن النديم ـ في كتاب الفهرست ـ مؤلفاته العديدة، ومن بينها كتاب بعنوان «**كتاب الملوك والأخبار الماضيين**» وهو في الغالب ذلك الكتاب الذي أُعدّت مسودته بأمر معاوية رضي الله عنه، وبعد

عبيدة، يجدر ذكر عوانة بن الحكم (المتوفى ١٤٧هـ) وكان ماهراً في علم الأخبار والأنساب، ألف كتاباً عن بني أمية ومعاوية رضي الله عنه بالإضافة إلى ذكر التاريخ العام، وفي سنة ١١٧هـ وبأمر من هشام بن عبدالملك تمت ترجمة كتاب مُفصل في تاريخ العجم من البهلوية إلى العربية، فكان أول كتاب يترجم إلى العربية من لغة أجنبية.

**أول كتاب في السيرة النبوية :**

في سنة ٤٣هـ حين بدأ تدوين التفسير والحديث والفقه وغيرها من العلوم، وألفت أيضاً كتب مستقلة عن التاريخ والرجال إضافة إلى بقية العلوم، وهكذا كتب محمد بن إسحاق (المتوفى ١٥١هـ) كتاباً عن السيرة النبوية، وقدمه للمنصور العباسي، والكتاب موجود حتى اليوم[١] .

ويزعم مؤرخونا أن هذا أول كتاب في علم التاريخ، لكن الصحيح هو أن موسى بن عقبة (المتوفى ١٤١هـ) كان قد سجل غزوات الرسول ﷺ قبله، وكان موسى ثقة ودقيقًا كما أنه عاش في زمان الصحابة رضوان الله عليهم؛ ولهذا ينظر إلى كتابه من قبل المحدثين بعين الاعتبار[٢] .

تطور علم التاريخ فيما بعد تطوراً كبيراً، وظهر مؤرخون كبار مشهورون، كان أشهرهم أبا مخنث الكلبي، والواقدي، فكتب هؤلاء الناس كتباً معتبرة في موضوعات جديدة، فكتب الكلبي مثلا رسائل مستقلة عن الموضوعات التالية: جيوش الإسلام، الحرف عند قبيلة قريش، ومناظرات قبائل العرب، وتوارد الأحكام في الجاهلية والإسلام، واتسعت هذه الدائرة تدريجيًا حتى إذا

---

(١) النسخة الخطية لمغازي محمد إسحاق موجودة في مكتبة كوبريلي باسطانبول ـ تركيا.

(٢) طبع مغازي موسى بن عقبة ١٩٠٤م في أوربا، وعن موسى بن عقبة انظر تهذيب التهذيب ومقدمة فتح الباري شرح صحيح البخاري.

ما وصلنا إلى القرن الرابع وجدنا من التأليف ما يملأ سجلاً كبيراً، وأطيب ما في الأمر أن كل كاتب كان له موضوع وعنوان مختلف عن الآخر.

في ذلك العصر ظهر مؤرخون لا حصر لهم نورد هنا قائمة مختصرة تضم على وجه الخصوص أولئك الذين كتبوا وألفوا كتباً عن سيرة النبي ﷺ وأحوال الصحابة.

| اسم المؤلف | الكتاب | |
|---|---|---|
| نجيح المدني[1] | غزوات النبي | |
| نصر بن مزاحم الكوفي | كتاب الجمل | ذكر وقائع حرب علي رضي الله عنه وعائشة رضي الله عنها |
| سيف بن عمر الأسدي[2] | كتاب الفتوح الكبير | وهو مؤرخ مشهور |
| معمر بن راشد الكوفي[3] | كتاب المغازي | أستاذ أساتذة البخاري |
| أبو البختري وهب بن وهب | كتاب صفة النبي ﷺ | |
| | وكتاب فضائل الأنصار | توفي سنة ٢٠٠هـ |
| عبدالله بن سعد الزهري | فتوحات خالد بن الوليد | المتوفى ٣٨٠هـ |
| أبوالحسن علي بن محمد بن عبدالله المدائني المتوفى ٢٢٤هـ | كتب كتباً كثيرة في سيرة | النبي ﷺ وأحوال الخلفاء وكان يضع عناوين جديدة لموضوعاته |
| أحمد بن حارث حزاز | كتاب المغازي، أسماء الخلفاء وكتابهم | كان تلميذاً للمدائني |
| عبدالرحمن بن عبدة | مناقب قريش | مؤرخ ثقة يعتمد عليه |
| عمر بن شبة المتوفى ٢٦٢هـ | كتاب أمراء الكوفة، وكتاب أمراء البصرة | مؤرخ مشهور |

---

(١) نجيح بن عبدالرحمن المتوفى حوالي سنة ١٧٠هـ.

(٢) توفي سيف بن عمر الأسدي في عهد الخليفة هارون الرشيد ـ تهذيب التهذيب جـ ٤ ص ٢٩٦.

(٣) معمر بن راشد الكوفي متوفى ١٣٤هـ ـ تهذيب التهذيب جـ ٥ ص ٢٣٤.

## مؤلفات القدماء الموجودة اليوم :

مع أن المؤلفات المشار إليها قبلاً مفقودة اليوم إلا أن كتباً أخرى ألفت في ذلك الزمان أو في فترة قريبة منه تضم مواد كثيرة مأخوذة من تلك المؤلفات، ولهذا نذكر أسماء هذه الكتب ومؤلفيها.

* عبدالله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ) مؤلف مشهور جدًا وثقة، له مكانته واعتباره لدى المحدثين، ومع أن كتابه المشهور في علم التاريخ «المعارف» الذي طبع في مصر وفي غيرها مختصر جدًا، إلا أنه يتضمن معلومات مفيدة قلّ أن توجد في كتب كبيرة ضخمة.

* أحمد بن داؤد أبو حنيفة الدينوري (متوفى ٢٨١هـ) وهو أيضاً مؤلف مشهور، كتابه في التاريخ اسمه الأخبار الطوال، يتضمن الأحداث حتى الخليفة المعتصم، وقد فصل فيه الكلام عن فتوحات الخلفاء الراشدين وبخاصة فتح بلاد العجم، وقد طبع هذا الكتاب في أوربا، مدينة ليدن سنة ١٨٨٨م.

* محمد بن سعد (كاتب الواقدي) (المتوفى ٢٣٠هـ) مؤرخ ثقة ومعتمد، ورغم أن أستاذه الواقدي ضعيف الرواية إلا أن محمد بن سعد نفسه ثقة ولا غبار عليه، كتب كتاباً من حوالي عشرة مجلدات[1] فصّل فيه الحديث عن سيرة النبي ﷺ وأحوال الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين ومن تبعهم، وذكر جميع الوقائع والأحداث بسندها الصحيح على طريقة المحدثين، واشتهر هذا الكتاب باسم «طبقات ابن سعد» وقد رأيت نسخته الخطية، ويطبع الآن في ألمانيا باهتمام كبير .

---

(١) طبع طبقات ابن سعد من قبل كاملًا في ثمانية مجلدات في ليدن عام ١٩٠٧م ثم طبع بعد ذلك في بيروت عام ١٩٥٨م .

*** أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب العباسي من مؤرخي القرن الثالث، لم أجد في كُتُب الرجال شيئاً عن أحواله، لكن كتابه نفسه يشهد على أنه مؤلف قدير، ولما كان مرتبطًا ببلاط الدولة العباسية لهذا قدم لنا ثروة طيبة من علم التاريخ وكتابه المشهور باسم «تاريخ يعقوب» طبع في أوربا في مدينة ليدن عام ١٨٨٣م.**

* أحمد بن يحيى البلاذري (متوفى عام ٢٧٩هـ) تلميذ ابن سعد، وكان مرتبطاً ببلاط المتوكل بالله العباسي، ورحابة فكره، وصحة روايته مسلَّم بهما لدى جماعة المحدثين، اشتهر له كتابان في التاريخ وأسماء الرجال هما: فتوح البلدان، وأنساب الأشراف.

اتبع في الكتاب الأول طريقة تمثلت في وضع عنوان منفصل لكل إقليم أو ناحية في العالم الإسلامي، ثم يكتب عن أحواله من بداية الفتح حتى زمانه. أما الكتاب الثاني فهو على طريقة كتب التذاكر وفيه أخبار عمر رضي الله عنه أيضاً، وقد طبع فتوح البلدان باهتمام شديد في أوربا، أما أنساب الأشراف فقد شاهدت نسخته الخطية في القسطنطنية[(١)] .

* أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠هـ) يُعد إماماً في الحديث والفقه، وقد اعتبره الناس من زمرة المجتهدين مع الأئمة الأربعة، كتب كتاباً مفصلًا وطويلًا في التاريخ، في ثلاثة عشر مجلدًا ضخماً، طبع في أوربا بمدينة ليدن باهتمام وتدقيق مع مراعاة صحة الطباعة.

* أبو الحسن علي بن حسين مسعودي (المتوفى ٣٨٦هـ) إمام في علم التاريخ، قلما ظهر مؤرخ مثله في العالم الإسلامي من حيث سعة الأفق وسداد الرأي، كان خبيراً عظيماً وماهراً في تاريخ العالم وتاريخ الأمم، ولو

---

(١) يقع هذا الكتاب في عشرة أجزاء تقريباً وقد طبع في القدس سنة ١٨٨٣م.

توفرت لدينا جميع كتبه لما احتجنا في علم التاريخ لأي كتاب آخر، لكن للأسف فقدت معظم مؤلفاته لعدم تقبل الأمة لها، وقام أهل أوربا بترتيب كتابين له بعد بحث وعناء أولهما: مروج الذهب، وثانيهما كتاب الأشراف والتنبيه[١]، وقد طبع مروج الذهب في مصر.

**عصر المتأخرين:**

كتبت المؤلفات المشار إليها في زمان يطلق عليه عصر القدماء، أما عصر المتأخرين فهو من بداية القرن الخامس، وهو الذي شهد الخطوة الأولى من خطوات التدهور في علم التاريخ. ورغم ظهور عدد لا يحصى من المؤرخين في هذا العصر، منهم ابن كثير، والسمعاني، والذهبي، وأبو الفداء، والنويري، والسيوطي، وغيرهم ممن نالوا شهرة واسعة، إلا أنه - للأسف - لم يسهم هؤلاء بشيء في هذا العلم «من حيث الفن».

**خصائص ومميزات القدماء:**

وهكذا ضاعت الخصائص والمميزات الخاصة بالمؤرخين القدامى، ولم يحاول المتأخرون أنفسهم إضافة شيء جديد، فمن خصائص القدماء مثلًا أن كل كتاب من كتبهم كان يشتمل على معلومات جديدة، أما المنهج الذي اتبعه المتأخرون فكان وضع الكتاب القديم أمامهم، وبدلاً من إضافة جديد عليه يقومون بتغيير هيكله وقالبه عن طريق الاختصار والتبديل.

ذكر العلامة ابن خلكان أن تاريخ ابن الأثير من خيار التواريخ، والحقيقة أن شهرته العامة قد غطت على المؤلفات القديمة، لكن هناك أمر يتعلق بالاشتراك الزمني، إذ لا يوجد فيه ما يمكن إضافته على ما جاء في الطبري، وهكذا فمن جاءوا بعد ابن الأثير، جعلوا محور اهتمامهم على ابن الأثير فقط وهلمّ جرا، وأكثر من هذا أن المتأخرين الذين لخصوا كتب القدماء لخصوها

---

(١) طبع هذا الكتاب في المكتبة العصرية ببغداد سنة ١٩٣٨م

بطريقة جعلتهم يتركون الأمور التي تمثل روح الحدث كلية، سترد أمثلة كثيرة على هذا الأمر في الجزء الثاني من كتابنا.

كان من الخصائص المميزة للمؤرخين القدامى أن ينقلوا جميع الوقائع التاريخية بسند متصل كما هو في رواية الحديث، أما المتأخرون منهم فقد تركوا الالتزام بهذا الأمر كلية، وكان من الخصائص المميزة للمؤرخين القدامى أيضاً أنهم لو لم يفردوا عنواناً منفصلاً يتناولون فيه الحياة الاجتماعية والحياة الحضارية لعهد ما، إلا أن هذه الجزئيات كانت تكتب ضمناً، وكان يتضح منها ما يتعلق بالنواحي الحضارية والاجتماعية بشكل أو بآخر. أما المتأخرون فقد خلت كتاباتهم أيضاً من هذه الخصوصية، ويُستثنى ابن خلدون من هذا الحكم العام ذلك لأنه ابتكر علم «فلسفة التاريخ»، ولا يفخر بهذا المتأخرون فحسب بل يمكن أن تفخر به الأمة الإسلامية كلها، كما يستحق تلميذه العلامة المقريزي أيضاً المدح والثناء بدلاً من النقد.

وعلى كل حال فإن المادة العلمية التي كان يمكن أن تفيد في تأليف «الفاروق» مأخوذة من مؤلفات القدماء، لكن الحقيقة أن علم التاريخ والتذاكر الذي تطور اليوم يجعل هذه الخزانة التي لا تقدر لا تفيد كثيراً، ولفهم تفصيل هذا الكلام المجمل يجب أن نعرف أولاً ما هية علم التاريخ وحقيقته.

**تعريف التاريخ :**

عرّف أحد الكتاب الكبار التاريخ بقوله بأنه أحداث الفطرة التي غيرت حالات الإنسان وظروفه، وكذا ما تركه الإنسان من أثر على عالم الفطرة، وهذا ما يسمى التاريخ، وقدم فيلسوف آخر هذا التعريف للتاريخ فقال: «إنه معرفة الظروف والأحداث التي يُدرك عن طريقها كيفية ظهور العصر الحاضر من العصر الماضي كنتيجة حتمية لتلك الظروف والأحداث»، أي: أنه من المسلّم به أن مافي العالم اليوم من تمدن، وحياة اجتماعية وأفكار ومذاهب

هو نتاج للوقائع السابقة، ولهذا فإن معرفة الوقائع السابقة وترتيبها بشكل يظهر منه كيفية ظهور الحدث الحالي كنتيجة للأحداث السابقة هو ما يطلق عليه علم التاريخ.

**ماهي الأمور اللازمة لعلم التاريخ :**

بناء على هذه التعريفات يوجد أمران لازمان لعلم التاريخ، الأمر الأول هو تسجيل جميع وقائع الفترة الزمنية التي يُكتب عنها، أي: جمع المادة العلمية التي توفر معلومات عن التمدن والحياة الاجتماعية والأخلاق والعادات والمذهب وكل شيء.

والأمر الثاني هو البحث عن سلسلة السبب والمسبب في جميع الوقائع.

**عيوب الكتابات التاريخية القديمة وأسبابها :**

وكلا الأمرين مفتقد في الكتابات التاريخية القديمة فلا يرد أي ذكر لأخلاق الرعايا وعاداتهم وتمدنهم وحياتهم الاجتماعية، وكل ما هنالك عرض لأحوال حكام ذلك الزمان ولكن يذكر فيها سوى الفتوحات والحروب الداخلية، ولا يقتصر هذا العيب على التواريخ الإسلامية بل كانت هذه طريقة كل الكتابات التاريخية الآسيوية، وكان هذا ما يقتضيه الإنصاف، ففي آسيا انتشرت دائماً الإمارات والسلطات الشخصية، وتلاشى كل شيء أمام عظمة حاكم العصر وسلطته، وكانت النتيجة الحتمية ألا يذكر في صفحات كتب التاريخ سوى عظمة وجلال الملوك والسلاطين، ولأن القانون والقاعدة في ذلك العصر كانت هي ما ينطق به السلطان فلم تكن هناك فائدة تذكر من بيان أصول السلطنة أو الإمارة وقواعدها.

كان السبب الرئيسي في عدم الاهتمام بسلسلة الأسباب في الوقائع التاريخية هو أن علم التاريخ ظل دائماً في أيدي أولئك الناس الذين لا علم لهم بالفلسفة والعلوم العقلية، لهذا لم يكن من الممكن أن تقع أنظارهم على أصول الفلسفة التاريخية ونتائجها، وهذا هو السبب في أن كفة الرواية في

الأحاديث والسير ظلت دائماً أرجح من كفة الدراية، بل ومن الإنصاف القول بأن القدر اليسير الذي استخدمت فيه الدراية كان كما لم يكن.

وفي النهاية وضع ابن خلدون أسس فلسفة التاريخ، وضبط أصول وقواعد علم التاريخ، لكنه لم يجد الفرصة لتطبيق هذه الأصول والقواعد على كتاباته التاريخية، وبعدها استمرت مراحل التدهور العلمي، فلم يلتفت أي من العلماء إلى هذا الأمر.

وهناك سبب آخر من أسباب عدم اكتمال علم التاريخ ليس فقط لدى المسلمين بل لدى جميع الأمم، وهو أن الوقائع التي تذكر في التاريخ كانت لها علاقة إن لم تكن مرتبطة بمختلف العلوم الأخرى، وعلى سبيل المثال كانت وقائع المعارك مرتبطة بفن الحرب، وترتبط الشئون الإدارية بالقانون، والمبادىء الأخلاقية بعلم الأخلاق وهكذا، فإذا كان المؤرخ خبيراً بجميع هذه الأمور أمكنه أن ينظر إلى الأحداث نظرة علمية، وإلا كانت نظرته لها نظرة سطحية كما هو الحال لدى عامة الناس، ومثال ذلك أنه لو قام شخص يصف مبنى رائعاً وكان جاهلًا بعلم الهندسة، فقد يصفه بأسلوب جميل يشخص أمام العيون عظمة المبنى وسعته وجماله، لكن لو دققنا في تعبيره باحثين عن الأصول العلمية للهندسة ودقائقها، لما وجدنا شيئاً من هذا القبيل، وهذا هو السبب في أننا لو قرأنا آلاف الصفحات عن الوقائع الحربية، في كتب التاريخ، فلن نتمكن من تكوين فكرة جيدة عن أصول فن الحرب.

ولهذا السبب أيضاً لا يمكن معرفة الحيثيات القانونية عند مطالعة الأمور الإدارية، ولو حالفنا الحظ وظل علم التاريخ في يد أولئك الناس الذين يعرفون أصول الحرب، وأصول علم القانون، وأصول علم السياسة، وعلم الأخلاق، إلى جانب علم التاريخ لبلغ هذا العلم مبلغاً عظيماً.

كان هذا البحث في أن جميع الوقائع التاريخية الأساسية غير مذكورة في التواريخ القديمة، وإذا ذكرت فيكون بشكل لا يجعل سلسلة الأسباب والعلل

واضحة فيها.

## معيار صحة الوقائع التاريخية :

وهناك بحث آخر ضروري علاوة على البحث السابق، وهو إلى أي مدى يمكن الاعتماد على صحة الوقائع التاريخية المذكورة في التواريخ القديمة؟

هناك طريقتان فقط للحكم على الوقائع التاريخية وتشخيصها، وهما:

### الرواية والدراية :

ويقصد بالرواية أن تُروى الواقعة عن طريق شخص كان موجوداً حالة وقوعها، ثم تروى الواقعة بسند متصل حتى آخر راوٍ لها، هذا بالإضافة إلى التحقق من جميع الرواة أنفسهم، هل كانوا صحيحي الرواية وضابطين لها ؟ أم لا ؟

ويقصد بالدراية نقد الواقعة طبقًا للأصول العقلية.

والرواية أمر يمكن للمسلمين بحق أن يفخروا به فقد اهتموا بعلم الرواية بدرجة لم توجد في أمة غيرهم، فقد بحثوا عن السند المتصل للرواية بكل أنواعها، كما بحثوا ودققوا في أحوال الرواة حتى جعلوا من عملهم هذا علماً مستقلًا بذاته يعرف باسم «علم الرجال»، ومع أن هذا التوجه والاهتمام بدأ أصلًا من أجل الأحاديث النبوية، فإن علم التاريخ لم يحرم أيضاً من هذا الفيض، فجميع الوقائع ذكرت بسندها المتصل في الطبري وفتوح البلدان وطبقات ابن سعد وغيرها، ورغم أن الأوربيين الآن أوصلوا علم التاريخ إلى درجة الكمال، إلا أنهم متخلفون كثيراً عن المؤرخين المسلمين في هذا الأمر على وجه الخصوص، فهم لا يهتمون بكاتب الواقعة، هل هو ثقة أو غير ثقة، بل ليست لديهم فكرة حتى عن اسم علم الجرح والتعديل.

### الدرايـة :

مع أن أصول الدراية كانت موجودة واستفاد من هذه الأصول ابن حزم،

وابن القيم وابن عبدالبر القرطبي في نقدهم للعديد من الروايات، لكن من الإنصاف القول بأن هذا العلم لم يكن قد تطور كما ينبغي ولم يُستفاد منه في علم التاريخ على الإطلاق، وبالتأكيد قام العلامة ابن خلدون الذي عاش في القرن الثامن الهجري بترتيب أصول الدراية بنظرة ثاقبة ودقة متناهية، حين وضع أساس فلسفة التاريخ، مثلما يذكر في مقدمة كتابه.

إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تُحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب فيها، لم يؤمن فيها من العثور.

وقد صرح العلامة ابن خلدون بأنه لا يجب البحث فقط في مسألة جرح الرواة وتعديلهم من أجل بحث واقعة ما بل يجب النظر أيضاً إلى إمكانية حدوث الواقعة ذاتها من عدمه؛ لأنه إذا كانت الواقعة غير ممكنة الحدوث فلا جدوى من كون الراوي عادلاً، وقد أوضح العلامة ابن خلدون أيضاً أن المقصود من الإمكان في حدوث الواقعة ليس الإمكان العقلي بل المقصود به الإمكان طبقاً لأصول العادة وقواعد التمدن.

وعلينا الآن أن نرى إلى أي مدى يمكن تلافي العيوب التي أوضحناها في الكتابات التاريخية القديمة؛ أي: إلى أي حد يمكننا أن نسد مثل هذا النقص في كتابنا «الفاروق».

ورغم أن هذا الأمر صحيح تماماً وهو أن الكتب التي أُلفت عن عمر رضي الله عنه واختصت به وحده دون غيره لا تتضمن الوقائع الضرورية المتنوعة، لكن يمكن سدّ هذا النقص إلى حد ما عن طريق أنواع أخرى من الكتب مثل: الأحكام السلطانية «لابن الماوردي»، ومقدمة ابن خلدون، وكتاب الخراج التي تعرف منها أموراً كثيرة تتعلق بأسلوب حكم عمر رضي الله عنه، وقوانين إدارته للبلاد، كما يمكن التعرف على طريقته في تنظيم القضاء من كتاب

أخبار القضاة لمحمد بن خلف بن وكيع، أما أولياته فتفصيلها في كتاب الأوائل لأبي هلال العسكري، ومحاسن الوسائل إلى الأخبار الأوائل، ويتضمن كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه وكتاب البيان والتبيين للجاحظ خطبه رضي الله عنه، كما يعرف ذوقه الشعري من كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، أما حكمه وأقواله فهي منقولة في كتاب الأمثال للميداني، كما كتب ابن الجوزي في كتابه (سيرة العمرين) بالتفصيل عن أخلاقه وعاداته، وبحث شاه ولي الله بأسلوب اجتهادي لا يُعلى عليه في فقهه واجتهاده[١] .

وضعت كل هذه المؤلفات أمامي واستفدت منها كما توجد سيرة عمر رضي الله عنه بالتفصيل في كتاب «الرياض النضرة» للمحب الطبري، وقد اعتبر شاه ولي الله هذا الكتاب مصدراً له لكنه مملوء بالروايات الضعيفة والموضوعة ولهذا تجنبته عامداً متعمداً.

يمكن الاستعانة كثيراً جداً بأصول الدراية من أجل نقد الوقائع وتحقيقها، بعد أن أصبح علم الدراية علماً مستقلًا وتم ضبط أصوله وقواعده بطريقة جيدة، ونسوق هنا القواعد والأصول التي سنستفيد منها في بحثنا:

١ـ هل الواقعة المذكورة ممكنة الحدوث أم لا في ضوء أصول العادة ؟

٢ـ هل كان الاتجاه العام للناس في ذلك الزمان مخالفًا أو موافقًا للواقعة ؟

٣ـ إذا كانت الواقعة غير عادية إلى حد ما فالشهادة المقدمة في حقها شهادة قوية أم ضعيفة ؟

٤ـ أمر البحث فيما يظهره الراوي عن الواقعة ومدى ما يبديه من رأيه الخاص أو قياسه فيها.

---

(١) يوجد في مكتبتي نسخة خطية من كتاب الأوائل وكتاب العمدة، أما النسخة الخطية لسيرة العمرين، وأخبار القضاة ومحاسن الوسائل فتوجد في مكتبة القسطنطينية، وقد نقلت منها العبارات الضرورية للبحث أما بقية الكتب فطبعت وموجودة لدي.

٥ـ هل قدم الراوي صورة الواقعة بشكل كامل أم أن هناك احتمالاً بأن الراوي لم يستوعب جميع جوانبها، ولم يطلع على جميع خصائصها؟
٦ـ تقدير مدى تأثير البعد الزمني وطرق معالجة مختلف الرواة للرواية ذاتها وما طرأ عليها من تغيرات.

لا يمكن لأي إنسان أن ينكر صحة هذه الأصول فعن طريقها يمكن معرفة الكثير من الأسرار الخفية، مثلًا معظم الكتابات التاريخية المتداولة اليوم منقول فيها أحكام في غاية الشدة صدرت عن عمر رضي الله عنه في حق غير المسلمين، ولكن حين تُلاحظ مؤلفات ذلك الزمان الذي ظهر فيه روح التعصب بين جماعة المسلمين، ثم ينظر إلى مؤلفات العصر القديم التي تخلو كلية أو إلى حد ما من مثل هذه الوقائع، يتضح لنا جليًا أنه كلما ظهر التعصب ـ بين الناس ـ كلما صيغت الروايات في قالب التعصب.

**الأمور التي يمكن معرفتها من أصول الدراية :**

تذكر جميع الكتابات التاريخية أن عمر رضي الله عنه كان قد أمر النصارى ألا يقرعوا الناقوس في أي وقت من الأوقات، لكن ما يمكن معرفته عن طريق أصول الدراية في الكتب القديمة (ككتاب الخراج والطبري وغيرهما) أن هذه الرواية نقلت بشرط «ألا يدق النصارى الناقوس في الوقت الذي يصلي فيه المسلمون»، وقد ذكر ابن كثير وغيره أن عمر رضي الله عنه أمر ألا يقوم نصارى قبيلة تغلب بتعميد أطفالهم، لكن هذه الرواية ذكرت في تاريخ الطبري بهذه الألفاظ «لا يعمد بالإكراه أطفال من اعتنقوا الإسلام» .

**ومثال آخر :**

ورد في الكثير من كتب التاريخ صراحة أن عمر رضي الله عنه كان يجبر النصارى على ارتداء زي خاص لتحقيرهم وإذلالهم، لكن يتضح بالبحث والتحقيق أن ماحدث هو أن عمر رضي الله عنه كان قد نصحهم بارتداء زي خاص، ثم كانت فكرة التحقير من قياس الراوي وسيأتي بحث هذا بالتفصيل

فيما بعد.

أو على سبيل المثال لا الحصر تلك الروايات التي لها حيثية دينية مع كونها روايات تاريخية أيضاً، ففيها خاصية تتضح تماماً فكلما تم نقدها كلما قلّ ما فيها من شكوك وشبهات، فقد نقل ابن عساكر وابن سعد والبيهقي ومسلم والبخاري، واقعة الفدك، والقرطاس وثقيفة بني ساعدة، لكن بقدر ما وجد من تفاوت في الأصول وشدة الاحتياط لدى هؤلاء العلماء الكبار بقدر ما قلّت الألفاظ المثيرة للاشتباه والخلاف، حتى إن أثر التفاوت موجود عند مسلم والبخاري نفسيهما وسوف يأتي تفصيل هذا في موضعه.

وطبقاً لهذه الأصول العقلية سيظهر اختلاف في درجات صحة الوقائع بكافة أنواعها، فمن المسلّم به مثلًا أن وقائع خلافة عمر رضي الله عنه قد دونت بعد مائة سنة، وبناءً عليه يجب الاعتراف بأنه لا يمكن أن تصلنا التفاصيل الدقيقة للمعارك والحروب مثل: كيفية ترتيب الصفوف، الحوار بين الفريقين، نزال كل مجاهد على حدة، وأساليب الأبطال في القتال، وغيرها من التفاصيل الجزئية التي لا يمكن أن تصل إلى درجة اليقين، أما الأمور الإدارية، وأصول الحكم فقد ظلت لفترة طويلة موجودة بشكل محسوس، ومن هنا فإن ما يذكر بصددها من وقائع هي بلا شك جديرة بالتصديق، فالقوانين والأصول التي قررها (الإمبراطور) أكبر في الهند يعرفها كل طفل، ولا يمكن أن يشك فيها أحد، ولم يكن السبب في ذلك أنها وصلتنا بروايات قطعية كالأحاديث، بل لأن هذه القوانين والأصول ظلت قائمة لفترة ولقيت شهرتها نتيجة لاسم الإمبراطور أكبر نفسه.

وهكذا يجب أن يكون هذا القياس فيما يتعلق بما ينقل من خطب عمر رضي الله عنه ومقولاته المملوءة بالحكم، فالفقرات المؤثرة والفصيحة والبليغة هي بالضرورة صحيحة، لأن عبارات الخطيب الفصيح تحفظ حتماً، ويظل صيتها بين الناس لفترة طويلة، لما فيه من أثر وتفرُّد، وهكذا فإن عبارات الخطب التي تحمل أحكاماً شرعية تكون موثوقة تماماً لأن الناس

يحفظون هذه الأقوال نظراً لحيثيتها الفقهية، أما الوقائع التي لم تكن جديرة بالذكر من حيث ذوق العصر ورغم هذا ورد ذكرها، بالنسبة لهذه الوقائع يجب أن نفهم أن الواقعة الأصلية ربما كانت أكثر من تلك التي ورد ذكرها، فمؤرخونا مثلًا لم يتعودوا أبداً وصف الأمور الإدارية بنفس القدر الذي كانوا يصفون به المعارك الحربية وما فيها، ورغم هذا فإن ما ذكر ضمنياً فيما يتعلق بأحوال عمر رضي الله عنه عن القضاء، والشرطة والإدارة وتعداد السكان وغيرها، إنما هو أقل القليل، ويجب أن نعتقد بأن قدراً كبيراً من هذه الأمور لم يدون، فهناك مئات الروايات ذُكرت عن زهد عمر وتقشفه، وخشونته وشدته ولا شك أن مثل هذه الصفات وأكثر منها كان موجوداً لدى الصحابة، لكن لا يجب الاعتقاد بصحة جميع الروايات المتعلقة به المذكورة في حلية الأولياء، وابن عساكر وكنز العمال والرياض النضرة وغيرها، بل يجب أن نفهم أن مثل هذا النوع من الروايات كان وسيلة لبث الحماس في المحافل، كما كان العامة يستمعون إليها بشغف ولذة، لهذا راح طابع المبالغة يطغى عليها بصورة تلقائية وبشكل متزايد، ويثبت ذلك قلة مثل هذه الروايات في الكتب الأكثر اعتباراً، ولهذا أخذت جانب الحيطة الشديدة فيما يتعلق بمثل هذه الروايات التي نقلتها في كتابي، وصرفت النظر تماماً عن روايات الرياض النضرة، وابن عساكر، وحلية الأولياء وغيرها.

وأخيراً من الضروري أن أكتب شيئاً عن أسلوب الكتابة، إن الكتابات التاريخية اليوم، التي نالت شهرة عامة هي مزيج من الفلسفة ومن الإنشاء ولا يمكن أن يسمو فوق هذا الأسلوب أي أسلوب آخر لينال قبول الناس، لكن الحقيقة هي أن حدود التاريخ وفن الإنشاء منفصلة تماماً، فالفرق بين التاريخ والإنشاء كالفرق بين الخريطة والصورة فراسم الخريطة من عمله وهو يرسم خريطة أي جزء من الأرض أن يقف على كل ما فيها: هيئتها، شكلها، سمتها وجهتها، أطرافها أضلاعها وكل ما يتعلق بهذه الأشياء كلٌّ على حدة. وعلى العكس من هذا فإن المصور يأخذ في الاعتبار هذه الخصوصيات، أو أنه

يظهرها بصورة أوضح يكون فيها شيء من الغرابة بحيث تترك أثراً على مشاعر الإنسان وانفعالاته.

فحين يكتب أحد المؤرخين عن حكاية رستم وسهراب مثلًا، فسوف يصف جميع جزئيات الأحداث بطريقة سهلة، لكن الأديب سوف يعرض هذه الجزئيات وكأنها صورة حية لحزن سهراب ومسكنته وندم رستم وحسرته، ولن تتراءى بقية جزئيات الأحداث رغم وجودها.

إن واجب المؤرخ الأصلي هو ألا يتجاوز حد كتابة الواقعة كاملة، قال أحد الأساتذة هذه الألفاظ في تقريظ «رينكي» أعظم مؤرخ أوربي حتى اليوم ومبدع أسلوب الكتابة التاريخية الجديدة:

«لم يستخدم الشعر في التاريخ، لم يتعاطف مع دولة، ولا انحاز إلى دين أو شعب، وعند بيانه لواقعة ما لا يُعرف ماهي الأمور التي يميل إليها، وماهو رأيه الخاص».

من الضروري أيضاً أن أشير إلى أنني حاولت إظهار سلسلة الأسباب والعلل في الوقائع، لكني تجنبت تطرف أوربا في هذا الباب، وقد استخدمت القياس في أكثر المواضع لإظهار سلسلة الأسباب والعلل، فليس أمام المؤرخ من وسيلة سوى الاجتهاد والقياس. ولكن من واجبه الأساسي أن يمزج بين الاجتهاد والقياس في الواقعة بحيث لا يستطيع أي شخص أن يفصل بينهما إذا ما أراد ذلك.

إن أسلوب أهل أوربا يتمثل في تدوين الواقعة بترتيب وأسلوب يتوافق مع اجتهادهم، بحيث تصاغ الواقعة بأكملها في قالب اجتهادهم فلا يستطيع أي إنسان أن يفصل بين القياس والاجتهاد عن الواقعة.

فيما يتعلق بترتيب هذا الكتاب وقواعد تحريره هناك أمور تجب ملاحظتها:

١ـ بعض الوقائع لها حيثيات مختلفة، ويمكن أن توضع تحت عناوين مختلفة ولهذا تكرر ذكر هذا النوع من الوقائع في الكتاب وكان هذا ضرورياً،

ولكن التزمنا بكتابة العنوان الخاص الذي ورد ذكر الواقعة تحته بشكل بارز وواضح.

٢ـ ذكرت المراجع غالباً عند ذكر الأحداث التي كانت بحاجة إلى تحقيق وبحث وتحمل خاصية معينة.

٣ـ أُشير إلى الكتب الأقل درجة من حيث الرواية مثل إزالة الخفاء والرياض النضرة وغيرها على أساس أن ما ورد فيها من روايات قد وثقت من الكتب المعتبرة.

**وخلاصة القول** إنني أضع الآن نتيجة جهد وسعي وعناء عدة سنوات أمام الأمة، وأذكر قول الشاعر:

كلما عبرت من هذا الطريق كنت محملًا بالجواهر

فملأت صحارى المعاني باللآلىء والياقوت

***

# عمـر رضي الله عنه

## اسمه ونسبه وبلوغه سن الرشد وتربيته

سلسلة نسبه هي: عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن رباح بن عبدالله بن قرط بن زراع بن عدي بن كعب بن لؤي بن فهر بن مالك.

أهل الجزيرة العربية عموماً من أولاد عدنان أو قحطان وتصل سلسلة عدنان إلى إسماعيل عليه السلام، وكان فهر بن مالك الذي ينحدر من الجيل الحادي عشر لعدنان صاحب سُلطة كبيرة، وهو من اشتهر من أولاده بلقب قريش، وقد نال عشرة أشخاص من سلالة قريش مكانة عالية لما لهم من كفاءة عظيمة، وانتسب إليهم عشر قبائل ذائعة الصيت أي: هاشم، وأمية، ونوفل، وعبدالدار، وأسد وتميم، ومخزوم، وعدي وحمج، وسمح، فكان عمر رضي الله عنه من أولاد عدي، وكان مُرة الأخ الثاني لعدي من أجداد رسول الله ﷺ، ومن هذه الناحية فإن سلسلة نسب عمر رضي الله عنه تتصل بسلسلة نسب النبي ﷺ عند الجد الثامن، ولما كانت قريش من القبائل المجاورة للكعبة، لذا كانت تتمتع بالجاه والجلال الدنيوي بالإضافة إلى وجودها تحت مظلة العظمة الدينية، وقد تنوعت معاملاتهم نظراً لعلاقاتهم الواسعة مع الناس واتخذت أشكالاً مختلفة ومستقلة عن بعضها فقاموا بحراسة الكعبة، ورعاية الحجاج، والسفارة، واختيار شيوخ القبائل، والفصل في المنازعات ومجلس الشورى وغيرها كثير، وقد كان عدي الجد الأكبر لعمر رضي الله عنه يتولى الإشراف على أعمال السفارة من بين ما ذكرنا من أعمال، أي: إنه كان يرسل كسفير إلى القبيلة التي تقيم معها قريش علاقة ما لأمر ما[١]، كما كان يعين وسيطاً إذا ما حدث نزاع أو شقاق، وكان من

---

(١) جميع هذه التفاصيل في العقد الفريد، باب فضائل العرب.

عادة العرب أنه إذا ادعى أحد زعماء القبائل المتساوين في المقام أفضليته على الآخر أختير للفصل بينهما وسيط عارف بالأمور محترم، فيتولى كل منهما عرض أدلته وحججه التي تدعم موقفه، وأحياناً ما كانت هذه المنازعات تطول فتستمر المعركة لشهور وكان مَن يعينون للفصل بين المتنازعين على درجة كبيرة من الفصاحة وقوة البيان بالإضافة إلى قدرتهم على فهم الأمور، وهكذا استمر منصب السفارة، ومنصب الحكم في المنازعات المشار إليها من نصيب قبيلة عدي جيلًا من بعد جيل.

**جد عمر رضي الله عنه :**

قام نفيل بن عبدالعزى جد عمر رضي الله عنه ـ مثله مثل أسلافه ـ بأداء هذه الخدمات بكفاءة عالية ولهذا كانت قضايا كبار الناس تُحال إليه للبت فيها، فحين اختلف عبدالمطلب جد رسول الله ﷺ وحرب بن أمية على الإمارة، رضي الاثنان بأن يكون نفيل حكماً بينهما، فحكم نفيل لعبد المطلب وساعتها خاطب حرباً قائلًا :

«أتنافر رجلًا هو أطول منك قامة وأوسم وسامة، وأعظم منك هامة، وأكثر منك ولداً، وأجزل منك صلة وإني لأقول هذا وإنك لبعيد الغضب، رفيع الصيت في العرب، جلد النذيرة تحبك العشيرة».

**أولاد عم عمر رضي الله عنه :**

كان لنفيل ولدان: عمرو، والخطاب، كان عمرو رجلًا عادياً، أما ولده زيد، حفيد نفيل وابن عم عمر فكان إنساناً له شأن، كان من بين الناس العظماء الذين تركوا باجتهادهم عبادة الأصنام قبل بعثة رسول الله ﷺ، وصار من الموحدين، وممن كانوا على هذا الدرب مع زيد(١) قس بن ساعدة وورقة بن نوفل.

وكان زيد يرفض علانية عبادة الأصنام وتقاليد الجاهلية، وكان يرغب الناس إلى الدين الإبراهيمي ومن هنا عاداه جميع الناس، وعلى رأسهم

---

(١) أسد الغابة كتاب الأوائل ومعارف ابن قتيبة.

الخطاب والد عمر الذي كان أشدهم عداوة له، فضايقه الخطاب حتى اضطره إلى الخروج من مكة، ولا تزال أشعار زيد موجودة حتى اليوم وهي تدل على اجتهاده ونقاء ضميره يقول:

أربًّا واحداً أم ألفَ ربٍّ أدينُ إذا تقسّمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل البصير

**الخطاب والد عمر :**

كان الخطاب والد عمر من وجوه قريش[1]، استمرت العداوة بين قبيلتي عدي وبني عبد شمس زمناً ولما كانت قبيلة بني عبد شمس أكبر، لهذا كانت الغلبة لها على الدوام مما دفع قبيلة عدي بأكملها وفيها الخطاب أيضاً إلى العيش في ظل قبيلة بني سهم، وهددهم الأعداء بالقتال فقال الخطاب:

أبو عدنى أبو عمرو ودوني رجالٌ لا يَنْهَنُها الوعيد
رجال من بني سهم بن عمرو إلى أبياتهم يأوي الطريد

وهذان البيتان من قصيدة تضم ثمانية أبيات نقلها العلامة الأزرقي بتمامها في «تاريخ مكة» وكانت أسرة عدي كلها تقطن عند الصفا في مكة، ولكن حين ارتبطوا بقبيلة بني سهم، باعوهم بيوتهم أيضاً، إلا أن بعض بيوت الخطاب ظلت ملكه، ومنها بيت ورثه عمر رضي الله عنه ويقع بين الصفا والمروة، هدمه عمر رضي الله عنه أيام خلافته، وجعل منه ساحة ينزل بها الحجاج لكن بعض «الدكاكين» المتصلة بهذا البيت ظلت لفترة في يد أسرة عمر رضي الله عنه[2].

تزوج الخطاب عدة مرات من أسر عالية النسب فكانت أم عمر رضي الله عنه حَنْتَمَة ابنة هشام بن المغيرة، وكانت مكانته عالية لدرجة أنه كان

---

(١) كتاب المعارف لابن قتيبة.
(٢) تاريخ مكة للأزرقي ذكر رباع بني عدي بن كعب.

المسئول عن تنظيم الجيش إذا ما خرجت قريش للقتال، ولهذا لقب بصاحب الأعنة، وخالد رضي الله عنه كان حفيده، وكان هشام ولد المغيرة وجد عمر لأمه من كبار الناس.

**ولادة عمـر :**

ولد عمر رضي الله عنه ـ طبقًا للروايات المشهورة ـ قبل الهجرة بأربعين سنة، وظروف ولادته وحالات طفولته غير معروفة تماماً، وقد نقل الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق» رواية على لسان عمرو بن العاص: «بينما أنا جالس في اجتماع مع بعض الأحباب فإذا بالضجيج قد ارتفع، فعلمت أن طفلًا ولد في بيت الخطاب».

ويمكن من هذا القياس أن يفهم أن احتفالاً غير عادي أقيم بمناسبة مولد عمر رضي الله عنه، والمعلومات المتعلقة بفترة بلوغه قليلة جداً، وكيف تتوفر مثل هذه المعلومات، فمن كان يدري آنذاك أن هذا الشاب سيصبح فيما بعد «الفاروق الأعظم» ومع هذا فقد وصلتنا نتف من أحواله بالبحث والتنقيب، أرى من المناسب ذكرها للقارىء.

**سـن الرشـد :**

عندما بلغ عمر رضي الله عنه سن الرشد، اختار له أبوه «رعي الإبل»، ورغم أن هذه المهنة لم تكن تعتبر مهنة معيبة في جزيرة العرب بل كانت مهنة قومية أو رمزاً قومياً، لكن الخطاب كان يقسو عليه دون هوادة فيأمره برعي الإبل طول اليوم، وعندما يصيبه التعب ويرغب في الراحة كان يعاقبه. كان المرعى الذي كان يعمل فيه عمر هذا العمل الشاق يدعى ضجنان بالقرب من مكة، وعلى بعد عشرة أميال من القديد. مر عليه عمر رضي الله عنه مرةً زمان خلافته، فأخذته العبرة واغرورقت عيناه بالدموع، وقال: «الله أكبر ياللزمان الذي مضى، لقد كنت أرعى الإبل في مدرعة من لبدة الصوف، وعندما كنت أجلس من التعب كان أبي يضربني، وقد أمسيت اليوم وليس فوقي حاكم سوى

الله»[١] .

اشتغل عمر رضي الله عنه مع بداية شبابه في الأعمال الشريفة التي كان شرفاء العرب يمارسونها عادة، فكانت الأمور التي يتعلمها أهل الجزيرة العربية آنذاك وتعد من لوازم الشرافة والعزة، هي علم الأنساب، والمصارعة، والخطابة، أما علم الأنساب فظل ميراثًا في قبيلة عمر رضي الله، عنه وقد صرح الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» أن عمر رضي الله عنه وأباه وجَدّه نفيل جميعهم كانوا من كبار النسابين، وكان السبب في الغالب هو أن أسرة عمر رضي الله عنه ـ كما ذكرت حالاً ـ كانت ترث منصبي السفارة والمنافرة، فكانت معرفة الأنساب من أهم الأمور لأداء هذه المهمة، وقد تعلم عمر رضي الله عنه علم الأنساب عن أبيه، وصرح الجاحظ أن عمر رضي الله عنه كان إذا ما ذكر شيئاً يتعلق بالأنساب، أرجع مصدره دائماً إلى أبيه.

أبدع عمر رضي الله عنه في فن المصارعة والقتال، حتى أنه كان يشترك في المصارعة في ساحة عكاظ، وعكاظ مكان بجوار جبل عرفات، يقام فيه مهرجان لهذا الغرض كل سنة، فيتجمع أهل الفن من الجزيرة العربية ليعرض كل منهم فنونه، ولهذا كان يشترك فيه أولئك الناس الذين يبدعون في فنهم، فكان النابغة الذبياني وحسان بن ثابت وقس بن ساعدة والخنساء ممن تعترف العرب بمكانتهم في الشعر والخطابة، قد تخرجوا من مدرسة عكاظ، وفيما يتعلق بعمر رضي الله عنه نقل البلاذري في كتاب الأشراف[٢] بسند أنه كان يتصارع في حلبة سوق عكاظ، ويمكن أن نقيس على هذا أن عمر رضي الله عنه قد أبدع في هذا الفن.

وبالنسبة للفروسية فكماله كان مُسلَّماً به لدى الجميع، كما كتب الجاحظ أنه كان يقفز على الفرس ويمتطي صهوته وكان يجلس على الفرس ويلصق به

---

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) طبع كتاب أنساب الأشراف في القدس.

حتى يصير جزءاً منه.

وبالنسبة لقوة الخطابة فرغم عدم وجود شهادة صريحة إلا أن جميع المؤرخين كتبوا مجمعين على أن قريشاً كانت قد سلمته منصب السفارة قبل الإسلام، وهذا المنصب لايمكن أن يناله إلا من كان يظهر الكمال في قوة الخطابة وفهم الأمور والمعاملات. وقد كان عمر رضي الله عنه ذواقة للشعر إلى أبعد مدى، وكان يحفظ مجموعة من شعر جميع الشعراء المشهورين وقياساً عليه يمكن القول بأنه ربما اكتسب هذا الذوق في مدرسة عكاظ أيام الجاهلية؛ لأنه بعد إسلامه انشغل تماماً بالأمور الدينية حتى أنه لم يعد يميل كثيراً إلى مثل تلك الأشياء.

في تلك الفترة تعلم القراءة والكتابة وهذه ميزة قل أن توجد في الناس في ذلك الزمان، وكتب العلامة البلاذري بسند أنه حين بعث النبي ﷺ، لم يكن في قريش كلها غير سبعة عشر رجلًا ممن يعرفون الكتابة، وكان عمر بن الخطاب واحداً منهم[١].

بعد أن فرغ عمر من تعلم هذه الفنون انشغل بالتفكير في البحث عن الرزق، وكانت التجارة هي أكثر وسائل كسب الرزق في جزيرة العرب. ولهذا اختار هذا العمل، وكان هذا العمل سبباً في رفعته؛ فكان يسافر إلى البلاد البعيدة بغرض التجارة، وكان يلتقي بكبار الناس وعظمائهم، وهكذا ظهرت عليه قبل الإسلام ملامح الاعتزاز بالنفس، وعلو الهمة والخبرة ومعرفة الأمور والدراية بها، كل هذا بسبب أسفاره، ومع أن أخبار هذه الأسفار جذابة وتحمل نتائج لها أهميتها لكن للأسف لم يهتم بها أي مؤرخ، وقد كتب العلامة المسعودي في كتابه الشهير مروج الذهب هذه الفقرة فقط:

«ولعمر بن الخطاب أخبار كثيرة في أسفاره في الجاهلية إلى الشام والعراق

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٧١ .

مع كثير من ملوك العرب والعجم، وقد أتينا على مبسوطها في كتابنا أخبار الزمان والكتاب الأوسط».

ورغم أن الكتب التي أشار إليها المسعودي تمثل روح علم التاريخ إلا أنها فقدت منذ مدة لفساد ذوق الأمة، ولهذا الهدف فقط رحت أبحث في جميع مكتبات القسطنطينية للوقوف على أحوال عمر رضي الله عنه ولكني لم أوفق.

وقد كتب المحدث ابن عساكر في تاريخ دمشق ـ الذي اطلعت على بعض أجزائه ـ بعض الوقائع المتعلقة بأسفار عمر رضي الله عنه، لكن لم يكن فيها ما يلفت النظر.

**والخلاصة** هي أن منافسات عكاظ، وخبرات التجارة جعلت من عمر رضي الله عنه شخصية معروفة في جزيرة العرب، وراح جوهر كفاءته يتراءى للناس يوماً بعد يوم حتى أن قريشاً سلمته منصب السفارة فكانوا يرسلونه سفيراً كلما ظهر بين القبائل ما يدعو للخطر.

# إسلام عمر رضي الله عنه وهجرته

عندما طلعت شمس الرسالة على جزيرة العرب كان عمر رضي الله عنه في السابعة والعشرين من عمره، أي: أنه حين بُعث الرسول ﷺ وارتفع صوت الإسلام، لم تكن أسرة عمر غريبة تماماً عن صوت التوحيد بسبب زيد، وهكذا أسلم سعيد بن زيد، وكان سعيد زوجاً لفاطمة أخت عمر، لهذا أسلمت فاطمة أيضاً، وأسلم أيضاً نعيم بن عبدالله وهو من كبار هذه الأسرة، إلا أن عمر ظل حتى ذلك الوقت بعيدًا عن الإسلام. وكان إذا سمع نداء الإسلام يضطرب ويغضب حتى أنه عادىٰ كل من أسلم من القبيلة، وكانت لبينة جارية في عائلته، أسلمت هي الأخرى، فكان يضربها ضرباً مبرحاً ويظل يضربها حتى يتعب فيقول: سأستريح قليلًا ثم أضربك، ولم يكن يتورع عن ضرب أي إنسان آخر غير لبينة، إلا أن نشوة الإسلام كانت قد بلغت مبلغاً عظيماً، فكان من الصعب أن يعودوا عنه، وهكذا لم يستطع رغم شدته هذه أن يجعل أيًا منهم يرتد عن الإسلام، فقرر في النهاية أن يقضي على مؤسس الإسلام (والعياذ بالله)، فحمل سيفه واتجه من فوره إلى رسول الله ﷺ وقال القدر: (جاء الحبيب الذي نريده).

وفي الطريق لقيه نعيم بن عبدالله صدفة، فسأله بعد أن رأى ملامح الشر على وجهه: خيراً ؟ فقال: ذاهب لأقضي على محمد، فقال: عليك أن تعرف ما في بيتك أولاً، فأختك، وزوج أختك قد أسلما، فانطلق عمر رضي الله عنه من فوره إلى أخته، التي كانت تقرأ القرآن، فصمتت بعد أن سمعت صوت عمر، وأخفت أجزاء القرآن، لكن صوتها كان لا يزال يرن في أذنيه، فسأل أخته: أي صوت هذا ؟ فقالت الأخت: لا شيء، فرد: لا. لقد سمعت أنكما قد صبأتما ـ قال هذا وأخذ بتلابيب زوج أخته، وحين أسرعت أخته لإنقاذ زوجها ضربها أيضاً حتى لطخ جسدها بالدماء، فقالت وهي على هذه الحال:

«ياعمر افعل ما تشاء أما الإسلام فلا يمكن أن يخرج الآن من القلب»، تركت هذه الألفاظ أثرها على قلب عمر، فنظر إلى أخته بعين العطف، وكان الدم يسيل من جسدها فرقّ قلبه أكثر، فقال: أسمعوني ما كنتم تقرؤون، أحضرت فاطمة أجزاء من القرآن، ووضعتها أمامه فرفعها ونظر فيها فكانت هذه السورة. ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]، فكانت كل كلمة تُصيب قلبه بالخوف حتى أنه حين وصل إلى هذه الآية: آمنوا بالله ورسوله، صاح من فوره ودون وعي منه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

كان الرسول محتمياً ذلك الوقت في دار الأرقم أسفل جبل الصفا، فوصل عمر رضي الله عنه إلى باب الدار ودق الباب بيده، ولما كان السيف لا يزال معه، ولم يدر أحد عن هذه الواقعة الجديدة، تردد الصحابة، لكن حمزة رضي الله عنه قال: دعوه يدخل، فإن جاء يريد خيراً فليكن خيراً وإلا قتلناه بسيفه، وحين دخل عمر رضي الله عنه تقدم إليه رسول الله ﷺ فأخذ بمجمع ردائه وقال له: ماذا جاء بك ياعمر؟ فأصابه صوت النبوة برجفة، فقال باستسلام: «جئتك لأومن»، فكبر رسول الله ﷺ وكبر معه الصحابة تكبيرة اهتزت لها جميع جبال مكة[١].

أوجد إيمان عمر رضي الله عنه عهدًا جديدًا في تاريخ الإسلام، وكان قد أسلم في ذلك الوقت ما بين أربعين وخمسين رجلًا، وكان بطل العرب الشهيد حمزة سيد الشهداء قد أسلم أيضاً، ومع هذا لم يكن باستطاعة المسلمين أداء فرائضهم الدينية علانية، كما كان من المستحيل بالنسبة لهم الصلاة في الكعبة، ومع إسلام عمر رضي الله عنه تغيرت الأوضاع فجأة فقد أشهر إسلامه أمام الجميع، فآذاه الكفار كثيراً في البداية لكنه ظل يواجههم

(١) أنساب الأشراف للبلاذري وطبقات ابن سعد، وأسد الغابة والكامل لابن الأثير.

بثبات حتى أنه صلى مع جماعة المسلمين في الكعبة، وقد روى ابن هشام هذه الواقعة على لسان عبدالله بن مسعود. «فلما أسلم عمر قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه».

كانت واقعة إسلام عمر رضي الله عنه في السنة السادسة للنبوة.

* * *

# الهجــرة

ظل أهل قريش مدةً ينظرون بعين اللامبالاة إلى دعوى النبوة التي جاء بها النبي ﷺ ، إلا أن الإسلام راح ينتشر لدرجة جعلت لا مبالاتهم تتحول إلى غضب وغيظ، حتى دخلت جماعة كثيرة الإسلام، حينئذٍ أرادت قريش القضاء على الإسلام بكل ما لديها من قوة، لم يستطع الكفار أن يفعلوا شيئاً علانية في حياة أبي طالب، لكنهم هبوا من كل جانب بعد وفاته وراح كل منهم يؤذي من يقع تحت يده من المسلمين، ولو لم يكن هناك حماس للإسلام وإقبال عليه لما استطاع أي شخص أن يثبت على الإسلام، واستمرت هذه الحالة لخمس أو ست سنوات وانقضت هذه الفترة بصعوبة، تلك الفترة التي يعتبر تفصيل الحديث عنها حكاية مؤلمة للغاية، في تلك الأثناء أسلمت جماعة لها مكانتها بالمدينة المنورة، لهذا أمر الرسول بأن يهاجر إلى المدينة من المسلمين من لا يستطيع النجاة من ظلم الكفار، فكان أول المهاجرين أبا سلمة عبدالله بن الأشهل، ثم بلالاً المؤذن وعمار بن ياسر، ثم هاجر عمر رضي الله عنه بعدهم قاصداً المدينة في معية عشرين رجلًا، ولم يذكر صحيح البخاري أسماء من هاجروا وإن كان قد ذكر أن عددهم عشرون، أما ابن هشام فقد ذكر أسماء بعضهم.

### أسماء من هاجروا مع عمر رضي الله عنه :

هم: زيد بن الخطاب، وسعيد بن زيد بن الخطاب، وخنيس بن حذافة السهمي، وعمر بن سراقة، وعبدالله بن سراقة، وواقد بن عبدالله التميمي، وخولى بن أبي خولى، ومالك بن أبي خولى، وأياس بن بكير، وعاقل بن بكير، وعامر بن بكير، وخالد بن بكير، وكان بينهم زيد أخو عمر رضي الله عنه، وابن أخيه سعيد، وصهره خنيس، وكان الباقون من أصدقائه وأحبابه.

## مكان إقامة عمر رضي الله عنه :

كان المهاجرون يقيمون معظمهم في منطقة قبال التي تبعد عن المدينة بثلاثة أميال أو أقل نظراً لصغر مساحة المدينة، فأقام عمر رضي الله عنه هناك أيضاً ونزل في بيت رفاعة بن عبدالمنذر، وكانوا يسمون قباء أيضاً «عوالي» وهكذا في كتاب صحيح مسلم أن إقامة عمر رضي الله عنه كانت في «عوالي» وهاجر معظم الصحابة بعد هجرة عمر رضي الله عنه حتى كان عام ١٣هـ / ٦٣٢ م فغادر النبي ﷺ مكة، فأشرقت شمس الرسالة في أفق المدينة.

## التآخي بين المهاجرين والأنصار :

وصل النبي ﷺ إلى المدينة فقام قبل كل شيء بتنظيم إقامة المهاجرين، دعا الأنصار، وأقام بينهم وبين المهاجرين مؤاخاة كان من نتيجتها أن يتقاسم الأنصاري مع أخيه المهاجر ممتلكاته ومتاعه وماله وكل شيء مناصفة، وهكذا صار المهاجرون والأنصار أخوة، وكان الرسول ﷺ يراعي تفاوت الدرجات في مكانة ومنزلة الطرفين وهو يؤاخي بين المهاجرين والأنصار.

## الأخوة الإسلامية لعمر رضي الله عنه :

وهكذا تآخى عمر رضي الله عنه مع عتبان بن مالك، وكان سيد قبيلة بني سالم[1]، وظل أكثر الصحابة يقيمون في قباء بعد مجيء الرسول ﷺ إلى المدينة، وكان عمر رضي الله عنه يقيم بها أيضاً، لكنه قرر أن يأتي إلى النبي ﷺ يوماً بعد يوم، بينما كان أخوه في الإسلام عتبان بن مالك يأتي للرسول

---

(١) انظر سيرة ابن هشام، ذكر الحافظ ابن حجر في مقدمة فتح الباري (ص ٣٢١) اسم أوس بن خولى بدلاً من عتبان، لكن العجيب أن العلامة نفسه ذكر في الإصابة نقلًا عن ابن سعد اسم عتبان، وحينما كتب عن أحوال أوس بن خولى لم يذكر تآخيه مع عمر.

ﷺ في اليوم التالي، وحين يرجع يروي لعمر رضي الله عنه ما سمعه من النبي ﷺ ، وقد ذكر البخاري هذه الواقعة ضمناً في أبواب متعددة مثل باب العلم وباب النكاح وغيره.

بعد الوصول إلى المدينة حان الوقت الذي تحددت فيه فرائض الإسلام وأركانه، ففي مكة المكرمة كان الحفاظ على النفس هو أكبر الفرائض، وكان هذا هو السبب ألا تفرض الزكاة والصوم وصلاة الجمعة وصلاة العيدين وصدقة الفطر حتى ذلك الوقت، وكانت الصلاة جميعها تؤدى قصراً ماعدا المغرب، كما لم تكن هناك طريقة معينة للإعلان عن الصلاة فأراد الرسول ﷺ قبل كل شيء أن يرتب هذا الأمر، وكان الناقوس والبوق يستخدمان للإعلان عن الصلاة لدى النصارى واليهود، ولهذا وافق الصحابة على هذا الرأي، روى ابن هشام أن هذا كان اقتراح النبي ﷺ وعلى كل حال فالمسألة كانت قيد البحث ولم يتخذ فيها أي قرار حتى مر عمر رضي الله عنه فقال: لماذا لا يعين أحد الناس للإعلان عن الصلاة، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً بالأذان في الوقت نفسه[١] .

**موافقة رأي عمر رضي الله عنه في طريقة الأذان :**

ومن الجدير بالملاحظة أن الأذان ديباجة الصلاة، هو أكبر شعار في الإسلام، ويكفي عمر رضي الله عنه فخرًا، وأي فخرٍ أعظم من هذا، أن يكون هذا الشعار قد أقيم طبقاً لرأيه.

---

(١) البخاري كتاب الأذان.

# الغزوات والوقائع الأخرى

## السنة الأولى للهجرة حتى وفاة الرسول ﷺ

تعد وقائع وحالات عمر رضي الله عنه من السنة الأولى للهجرة وحتى وفاة النبي ﷺ جزءاً لا يتجزأ من السيرة النبوية، فالغزوات التي شهدها النبي ﷺ والمعاهدات التي عقدت مع غير المسلمين والتنظيمات التي طبقت من آن لآخر، والتدابير التي طبقت لنشر الإسلام، لم يتم أيٌّ منها دون مشاركة عمر رضي الله عنه، إلا أن الصعوبة تكمن في أنه لو كتبت جميع الوقائع بتفاصيلها لتحول هذا الجزء من الكتاب إلى كتاب في السيرة النبوية، لأن مآثر عمر رضي الله عنه مهما كانت عظيمة الشأن إلا أنها مرتبطة بسلسلة أحوال رسول الله ﷺ ، ولهذا فإذا ما كتبت فإن جميع الوقائع ستكتب تحت اسم رسول الله ﷺ ، وسيرد ذكر أعمال عمر رضي الله عنه العظيمة ضمناً، ولهذا اضطررنا إلى اتباع هذه الطريقة وهي كتابة الوقائع باختصار شديد، أما تلك المتعلقة بعمر رضي الله عنه فيتم تفصيل الحديث عنها، وفي هذه الحالة لن تكون مآثر وأعمال عمر رضي الله عنه واضحة؛ لأنه مالم تُعرض الواقعة بصورتها الكاملة فلن يبقى لها شأنها الأصلي، ومع هذا لم يكن أمامنا سوى هذه الطريقة. ونكتب فيما يلي عن هذه الوقائع باختصار شديد.

عندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، رأت قريش أنه مالم يتم القضاء على المسلمين بسرعة فسوف تشتد قوتهم، ومن هذا المنطلق بدأت قريش تعد العدة للهجوم على المدينة ومع هذا لم تحدث أي معركة جديرة بالذكر حتى السنة الثانية للهجرة، وكل ماحدث أن تقدمت بعض المجموعات الصغيرة من قريش مرة أو ثلاث مرات ناحية المدينة لكن النبي ﷺ عندما علم بذلك أرسل فصائل صغيرة لصدها، فتوقفت هذه المجموعات حيث كانت.

## غزوة بدر سنة ٢هـ/٦٢٤م :

وقعت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة النبوية (٦٢٤م) وهي غزوة مشهورة في التاريخ الإسلامي، وقد بدأت هذه الغزوة حين علم (خطأ) أبو سفيان سيد قريش وهو في طريق عودته بتجارته من الشام أن المسلمين يريدون الهجوم عليه، فأرسل رسولاً إلى قريش وذاع الأمر في مكة كلها، وبعد أن سمع الرسول ﷺ هذا الخبر خرج من المدينة في ثلاثمائة رجل ويذكر جميع المؤرخين أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة لمنع نهب القافلة ليس إلا، لكن هذا غير صحيح فالقرآن الكريم الذي لا يمكن أن توجد شهادة قطعية أكثر منه، يذكر هذه الواقعة كما يلي:

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ○ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ○ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٥-٧].

١ـ عندما أراد الرسول ﷺ الخروج من المدينة ترددت جماعة من المسلمين كانت تظن أنها ذاهبة إلى الموت.

٢ـ في وقت الخروج من المدينة كان الكفار جماعتين: جماعة (غير ذات الشوكة) أي: قافلة أبي سفيان التجارية، وجماعة قريش مكة التي كانت قد خرجت من مكة بعتادها الحربي لقتال المسلمين.

هذا بالإضافة إلى أن قافلة أبي سفيان كانت تضم أربعين رجلًا، بينما خرج رسول الله ﷺ من المدينة في ثلاثمائة رجل بطل، ولا يمكن أن يظن أن خروج ثلاثمائة رجل في مواجهة أربعين رجلًا هو ذهاب للموت، ولهذا فلو كان الرسول ﷺ خرج لنهب القافلة لما ذكر في القرآن أبدًا أن المسلمين كانوا يظنون أن المواجهة مع الكفار هي الموت المحقق ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾.

وعلى أي حال خرج النبي ﷺ من المدينة المنورة في الثامن من رمضان سنة ٢هـ في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، منهم ٨٣ من المهاجرين والباقي من

الأنصار، وكانت قريش قد جمعت تسعمائة وخمسين رجلًا[1] من بينهم العديد من الرجال الشجعان المشهورين، وعند «بدر» التي تبعد عن المدينة بستة منازل كانت المعركة التي انهزم فيها الكفار هزيمة ساحقة، واستشهد أربعة عشر رجلًا من المسلمين من بين ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وقتل من قريش سبعون رجلًا وأسر مثلهم، وكان من بين القتلى أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة وكبار سادة مكة، وبقتلهم ضعفت قوة قريش.
ومع أن عمر رضي الله عنه كان اليد اليمنى للرسول ﷺ في المعركة يقدم الرأي ويساعد في التخطيط، ويضحي ويساعد بإقدامه وثباته، إلا أن مشاركته هذه لها خصائص محسوسة نجملها فيما يلي:

١ـ اشتركت جميع قبائل قريش في هذه المعركة، لكن أحدًا من بني عدي قبيلة عمر لم يشترك فيها، والقياس هنا على أنهم خافوا عمر رضي الله عنه.
٢ـ اشترك مع عمر رضي الله عنه اثنا عشر رجلًا من قبيلته وحلفائه وهم: زيد رضي الله عنه، وسعيد بن زيد رضي الله عنه، وعبدالله بن سراقة رضي الله عنه، وعمرو بن سراقة رضي الله عنه، وواقد بن عبدالله رضي الله عنه، وخولى بن أبي خولى رضي الله عنه، ومالك بن أبي خولى رضي الله عنه، وعامر بن ربيعة رضي الله عنه، وعامر بن بكير رضي الله عنه، وخالد بن بكير رضي الله عنه، وأياس بن بكير رضي الله عنه وعاقل بن بكير رضي الله عنه.
٣ـ كان أول شهيد في هذه المعركة مُهجع غلام[2] عمر رضي الله عنه.
٤ـ قتل العاصي بن هشام بن المغيرة خال عمر وأحد سادات قريش الكبار بيد عمر رضي الله عنه[3]، ويلقى ما حدث الضوء على إحدى خصائص شخصية

---

(١) جاء في الطبري الكبير، ولم يكن بقي من قريش بطن إلا نفر منهم ناسٌ إلا بني عديّ بن كعب لم يخرج رجل واحد ص ١٣٧ .
(٢) ابن هشام ص ٤٩٥ .
(٣) ابن جرير ص ٥٠٩ والاستيعاب .

عمر رضي الله عنه إذ لم يكن لتأثير القرابة والمحبة أي أثر عليه فيما يتعلق بأمور الإسلام، وتعد هذه الواقعة أول مثال على ذلك.

بلغ عدد من أُسر في هذه المعركة نحو سبعين كان معظمهم من سادات قريش الكبار مثل العباس رضي الله عنه، وعقيل (أخو علي رضي الله عنه) وأبي العاص بن الربيع، ووليد بن الوليد، وقد قبض على هؤلاء السادة بذلة فكان منظرهم مثيراً للعبرة، مما ترك أثره على قلوب المسلمين حتى أن سودة رضي الله عنها زوجة رسول الله ﷺ قالت حين وقع نظرها عليهم: «أعطيتم بأيديكم، هلّا متم كراماً».

## رأي عمر في أمر الأسرى :

ومن هنا ظهر البحث في السلوك الذي يجب أن يتبع مع هؤلاء الأسرى، فاستشار رسول الله ﷺ جميع الصحابة، وعرض كلٌّ منهم رأيه قال أبو بكر رضي الله عنه: هؤلاء أخوتنا فلنأخذ منهم الفدية ونطلقهم، واختلف معه عمر رضي الله عنه وقال: لا دخل للقرابة في أمور الإسلام، يجب أن يقتل هؤلاء جميعاً وليقتل كلٌ قريبه، فليقتل علي رضي الله عنه عقيلاً، وليقتل حمزة العباس، وأقضي أنا على فلان قريبي[1] أُعجب النبي ﷺ برأي أبي بكر رضي الله عنه لِما في ذلك من رحمة فأطلق سراحهم بعد أن أخذ الفدية، فنزلت هذه الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ. . .﴾ [الأنفال: ٦٧].

مع أن نصر بدر أضعف من قوة قريش لكنه كان بداية لسلسلة من المشكلات الجديدة، فقد كان اليهود يسيطرون منذ مدة على المدينة وأطرافها، وكان أول عمل قام به النبي ﷺ حين قدم إلى المدينة، ضمن سلسلة تنظيم أمور الدولة الإسلامية، هو عقد معاهدة مع اليهود تنص على «ألا يساعدوا عدو المسلمين، وأن يقدموا يد العون للمسلمين إذا ما هاجم

---

(١) الطبري صفحة ١٣٥٥ .

المدينة عدو»، لكن حين عاد النبي ﷺ من بدر منتصراً خشي هؤلاء اليهود أن تقوى شوكة المسلمين، فلا يستطيعون مواجهتهم، وهكذا بدأ اليهود التحرش بالمسلمين فقالوا: «إن قريشاً كانت تجهل فنون الحرب، ولو حدث معنا ما حدث معهم لأريناكم ما هي الحرب»، ووصل الأمر إلى حد نقضهم المعاهدة التي عقدت مع رسول الله ﷺ فهجم عليهم الرسول ﷺ في شوال من العام الثاني للهجرة وقام بأسرهم وطردهم من المدينة، وكانت هذه الحادثة بداية لسلسلة الحروب المتصلة مع اليهود على مرّ التاريخ الإسلامي.

## غزوة السويق :

بعد هزيمة قريش في بدر ظلت على أحر من الجمر تريد الانتقام، وأخذ أبو سفيان على نفسه عهدًا ألا يغتسل مالم ينتقم لهزيمة قريش في بدر، وهكذا وصل في ذي الحجة سنة ٢هـ قرب المدينة في مائتين من راكبي الجمال وتمكن عن طريق الخداع من القبض على رجلين مسلمين وقتلهما، فوصل الخبر إلى رسول الله ﷺ فتعقبه بمن معه لكن أبا سفيان هرب، وحدثت وقائع أخرى من هذا القبيل حتى كانت غزوة أُحد الشهيرة في شوال من السنة الثالثة للهجرة (٦٢٥م).

## غزوة أحد سنة ٣هـ :

تفصيل وقائع غزوة أُحد هو أن عكرمة بن أبي جهل ذهب مع عدد آخر كبير من رؤساء قريش إلى أبي سفيان وقال له، إنه يمكن الانتقام لما وقع في بدر إن هو تحمل مسئولية نفقات الاستعداد للقتال، فوافق أبو سفيان وعندئذ بدأت الاستعدادات للهجوم، وانضم جميع قبائل كنانة وتهامة أيضاً، وانطلقت الحملة بعدتها وعتادها وعلى رأسها أبو سفيان قائدًا لها، وفي يوم الأربعاء من شهر شوال وصلت الحملة إلى مكان قريب من المدينة.

كان من رأي النبي ﷺ البقاء في المدينة وصد هجوم قريش إلا أن الصحابة لم يوافقوا مما اضطره ﷺ إلى الخروج من المدينة يوم الجمعة.

كان عدد قريش ثلاثة آلاف منهم مائتا فارس وسبعمائة رجل بدروعهم، وكان قائد الميمنة خالد بن الوليد وقائد الميسرة عكرمة بن أبي جهل (ولم يسلما حتى ذلك الوقت)، بينما كان عدد المسلمين سبعمائة منهم مائة بدروعهم ومائتا فارس فقط، واصطف الجيشان على سفح جبل أُحد على بعد ثلاثة أميال من المدينة المنورة، وعين الرسول ﷺ عبدالله بن جبير مع خمسين من الرماة على مؤخرة الجيش حتى لا يستطيع الكفار الهجوم من هذه الناحية، وفي يوم السبت السابع من شوال بدأت الحرب، وكان الزبير ومن معه من مقاتلين أول المهاجمين فهزم ميمنة قريش، ثم بدأت الحرب الشاملة، فاخترق حمزة رضي الله عنه، وعلي رضي الله عنه، وأبو دجانة جيش العدو فأثاروا الفوضى في صفوفه لكن الناس هجموا على المغانم بعد النصر فظن الرماة أن المعركة انتهت فرأوا هم أيضاً أن ينطلقوا لجمع المغانم، وحين خلت المؤخرة من الرماة هجم خالد فجأة وبشدة على المؤخرة، حتى أن المسلمين لم يستطيعوا رد هذا الهجوم المباغت؛ نظراً لانشغالهم بجمع الغنائم وإلقائهم بالسلاح، وراح الكفار يمطرون رسول الله ﷺ بالحجارة والسهام حتى «كسرت سنه المباركة وشجت جبهته ودخلت حلقات المغفر في وجنتيه فسقط في حفرة وتوارى عن أعين الناس»، ووسط هذه الفوضى علا الضجيج وقيل إن رسول الله قتل، فهز هذا الخبر ثبات المسلمين، وتسمر كل واحد في مكانه.

وهناك خلاف يتناول عدد الصحابة الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ حتى النهاية، جاء في صحيح مسلم عن أنس أنه بقي مع رسول الله ﷺ في أُحد سبعة أنصار فقط واثنان من قريش: سعد وطلحة، وروى النسائي والبيهقي بسند صحيح أنه لم يبق مع الرسول ﷺ أحد سوى طلحة وأحد عشر رجلًا من الأنصار ، وذكر محمد بن سعد أسماء الأربعة عشر رجلًا، وهكذا توجد روايات أخرى مختلفة[1]، وقد حاول ابن حجر التوفيق بين هذه الروايات في

(١) التفاصيل كاملة في فتح الباري طبعة مصر مجلد ٧ ص ٢٧٢ .

«فتح الباري» فقال: حين تفرق الناس هنا وهناك، هجم الكفار فجأة على مؤخرتهم، فتسمر المسلمون وبقوا في أماكنهم دون حراك، وحين واتتهم الفرصة وصلوا عند رسول الله ﷺ[١] .

يفهم بعد الاطلاع على جميع الروايات أنه حين انتشر خبر استشهاد الرسول ﷺ فزع بعض الناس ودهشوا ولم يفيقوا من ذلك حتى وصلوا إلى المدينة. بينما ظل البعض يقاتل لا يعبأ بقيمة الحياة التي لا معنى لها بعد استشهاد الرسول ﷺ ، أما الجماعة الثالثة فقد ألقت السلاح بعد أن أصابها اليأس وشعرت بأنه لا فائدة الآن من القتال، وكان عمر رضي الله عنه من بين هذه الجماعة الأخيرة.

روى العلامة الطبري بسند متصل رواته هم ابن حميد وسلمة ومحمد بن إسحاق وقاسم بن عبدالرحمن بن رافع: «أنه عندما رأى أنس بن النضر سيدنا عمر وطلحة وعددًا من المهاجرين والأنصار جالسين في حالة يأس، سألهم ما يجلسكم ؟ قالوا: لقد استشهد رسول الله ، فقال أنس: ماذا تصنعون بعد رسول الله ﷺ قوموا فموتوا على ما مات عليه، قال هذا ثم قاتل الكفار حتى استشهد[٢]» .

وروى القاضي أبو يوسف على لسان عمر رضي الله عنه نفسه أنه «مر عليَّ أنس بن النضر وسألني ماذا حدث لرسول الله، قلت: أعتقد أنه استشهد، قال أنس: استشهد رسول الله لكن الله حي، وبعد أن قال هذا استل سيفه وأخذ يقاتل حتى نال الشهادة»[٣] وفي ابن هشام أن أنس جرح في هذه المعركة سبعين جرحًا.

---

(١) الطبري ص ١٤١٤ .
(٢) كتاب الخراج ص ٢٥ .
(٣) سيرة ابن هشام ص ٥٧٦ والطبري ص ١٤١١ .

ومن الجدير بالملاحظة في رواية الطبري أن اسم طلحة وارد ضمن رفاق عمر ومن المسلّم به أن أحدًا لم يصمد صموده في هذه المعركة، وعلى كل حال فمن الثابت في جميع الروايات أن عمر رضي الله عنه لم ينسحب من ميدان المعركة رغم الفوضى الشديدة، وحين عرف أن الرسول حي وصل إليه على الفور، وفي الطبري وسيرة ابن هشام أنه: «لما عرف المسلمون رسول الله، نهضوا به ونهض نحو الشعب معه علي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة، وعمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام والحارث ابن صُمة»، وكان العلامة البلاذري هو المؤرخ الوحيد الذي كتب عن أحوال عمر رضي الله عنه في أنساب الأشراف مايلي:

«وكان ممن انكسف يوم أُحد فغُفر له»، ونقل العلامة البلاذري رواية أخرى خلاصتها أن عمر في خلافته كان يقرر الرواتب للناس، فحدثه الناس عن أحد الأشخاص ممن ينالون راتباً قائلين: إن ابنك عبدالله يستحق أكثر منه، فقال عمر رضي الله عنه: لا لأن أباه ظل ثابتًا في معركة أحد وأن أبا عبدالله (أي: عمر رضي الله عنه) لم يثبت.

وبصرف النظر عن هذه الرواية وصحتها فهي من ناحية الرواية غير صحيحة؛ لأن الهروب من معركة الجهاد كان من العار بحيث لا يمكن لإنسان أن يعترف به علانية، ومن حيث أصول الرواية وقواعدها لا يمكن الاعتماد عليها فمن بين الرواة التي نقل عنهم الإمام البلاذري عباس بن عبدالله الباكسائي، وغيض ابن إسحاق وكلاهما مجهول الحال هذا بالإضافة إلى أن الروايات جميعها تختلف عن هذه الرواية.

وبعد هذا البحث نرجع إلى الواقعة الأصلية، تقدم خالد ناحية رسول الله ﷺ ومعه جماعة من الجيش، في ذلك الوقت كان الرسول ﷺ فوق الجبل مع ثلاثين من الصحابة، فقال بعد أن رأى خالداً متجهاً ناحيتهم ياالله، لا تجعل هؤلاء الناس يصلون إلينا، فتقدم عمر رضي الله عنه مع بعض المهاجرين

والأنصار ومنع هؤلاء الناس من التقدم(١).

بعد أن وصل أبو سفيان قائد قريش بالقرب من درّة صاح: هل محمد في هذه الجماعة ؟! فأشار الرسول ﷺ إليهم بألا يجيبه أحد، ثم ذكر أبو سفيان اسم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وقال: أهما في هذه الجماعة ؟ وحين لم يجبه أحد قال: لابد أنهم قتلوا. فلم يتحمل عمر رضي الله عنه هذا وصار قائلًا:

«ياعدو الله! نحن جميعًا أحياء»، فقال أبو سفيان: أعلى هبل، فقال رسول الله ﷺ لعمر قل: الله أعلى وأجل(٢).

## زواج حفصة من رسول الله ﷺ :

في هذه السنة نال عمر رضي الله عنه هذا الشرف حين تزوج الرسول ﷺ من ابنته حفصة رضي الله عنها، وكانت في الجاهلية زوجة لخنيس بن حذافة، بعد وفاة خنيس طلب عمر رضي الله عنه من أبي بكر أن يتزوج حفصة فلم يجبه، ثم طلب من عثمان رضي الله عنه ذلك فلم يجبه أيضاً، لأنهما كانا قد عرفا أن الرسول ﷺ يريد أن يتزوج حفصة، وقد تزوجها النبي ﷺ في شعبان سنة ٣ هجرية.

## واقعة بني نضير سنة ٤هـ/٦٢٦م :

وقعت واقعة بني نضير في العام الرابع للهجرة/ ٦٢٦م وقد ذكرنا قبلًا أن قبائل اليهود التي كانت تسكن المدينة عقد معها النبي ﷺ معاهدة صلح، وكان من بينهم قبيلة بني قينقاع التي نقضت العهد بعد بدر فأخرجت من المدينة نتيجة لهذا، والقبيلة الثانية كانت تضم بني نضير، وكانوا من أشد الناس عداوة للإسلام، في السنة الرابعة للهجرة ذهب إليهم النبي ﷺ للاستعانة بهم في أمر ما، وأخذ معه عمر وأبا بكر رضي الله عنهما، فحرض

(١) سيرة ابن هشام ص ٥٧٦ والطبري ص ١٤١١ .

(٢) سيرة ابن هشام ص ٥٨٢ والطبري ص ١٤١٥ .

هؤلاء الناس شخصاً يدعى عمرو بن جحاش بن كعب على الصعود إلى السطح وإلقاء لوح من حجر على رأس رسول الله ﷺ وصعد الرجل على السطح وعلم الرسول ﷺ ، نهض الرسول ورجع من فوره وأرسل إليهم طالباً منهم أن يغادروا المدينة، فرفضوا وراحوا يعدون العدة للمواجهة، فسيطر عليهم النبي ﷺ وأجلاهم عن المدينة فرحل بعضهم إلى الشام، ومنهم من رحل إلى خيبر فعاشوا هناك وأقاموا حكومة لهم(١)، وكان من أهل خيبر سلام ابن أبي الحقيق وكناية بن الربيع وحُيّي بن الأخطب من القادة الكبار، وصل هؤلاء إلى خيبر واطمأنوا هناك، ثم رغبوا في الانتقام من رسول الله ﷺ، فذهبوا إلى مكة المكرمة وألّبوا قريشاً، وزاروا القبائل العربية وأشعلوا نيران الفتنة في البلاد كلها.

## غزوة الخندق أو الأحزاب سنة ٥هـ/٦٢٧م :

تجمع خلال أيام عشرة آلاف رجل تحت راية قريش، وفي شوال سنة ٥ للهجرة وتحت قيادة أبي سفيان اتجه هذا الطوفان من الناس إلى المدينة، فخرج الرسول ﷺ من المدينة فحفر خندقًا أمام سلع(٢) ولم يكن الخندق معروفًا في جزيرة العرب، لذا لم يستطع الكفار عمل شيء تجاهه، فاضطروا إلى محاصرة المسلمين ونشروا جيوشهم في كل ناحية حتى يمنعوا وصول المؤن واستمر الحصار لمدة شهر، كان الكفار خلاله يعبرون الخندق ويهجمون على المسلمين، وكان الرسول ﷺ قد عين كبار الصحابة على مسافات معينة من الخندق حتى لا يسمحوا للعدو بالنفاذ إلى مواقع المسلمين، وكان عمر رضي الله عنه مُعيناً على قسم منه أقيم عنده مسجد لا يزال موجودًا حتى اليوم، وفي يوم من الأيام نوى الكفار الهجوم فتقدم لهم

---

(١) الطبري ص ٤٥٢ .
(٢) سلع جبل متصل بالمدينة .

عمر رضي الله عنه ومعه الزبير رضي الله عنه وصدهم وفرق جماعتهم[١] ، وفي يوم آخر ظل مشغولاً بمواجهة الكفار حتى العصر فقدم إلى رسول الله ﷺ وقال له: لم يترك لي الكفار اليوم فرصة لأداء الصلاة، فقال رسول الله ﷺ أنا أيضاً لم أصل العصر حتى الآن.

في هذه المعركة مات على يد علي رضي الله عنه عمرو بن عبدود بطل العرب الشهير الذي كان يعادل خمسمائة فارس كما كان معروفًا عنه، وبموته دب الرعب في قلوب قريش، ومن ناحية اعتنق نعيم بن مسعود الإسلام، ولم يكن الكفار قد علموا بإسلامه، ووقع الخلاف بين قريش واليهود، والخلاصة أن سحب الكفر السوداء التي ظللت أفق المدينة راحت تنقشع يوماً بعد يوم حتى صفت السماء تماماً بعد عدة أيام.

**واقعة الحديبية سنة ٦هـ/٦٢٨م :**

في سنة ٦هـ/ ٦٢٨م أراد رسول الله ﷺ زيارة الكعبة مع أصحابه، فأمر ألا يصدر من المسلمين ما يثير شك قريش في أن المسلمين قدموا مكة للقتال، فلا يمضي أحد حاملًا سلاحه، وبعد أن وصلوا إلى ذي الحليفة (مكان على بعد ستة أميال من المدينة) فكر عمر رضي الله عنه في أن المضي هكذا ليس من صالح المسلمين، وهكذا عرض رأيه على النبي ﷺ الذي وافق عليه، وطلب إحضار السلاح من المدينة، وعندما صار على بعد منزلين من مكة المكرمة، جاء بشر بن سفيان حاملًا خبراً مفاده أن جميع قريش تعاهدت على ألا يسمحوا للمسلمين بدخول مكة، فرغب الرسول ﷺ في أن يختار من بين الصحابة من يرسله للسفارة ليخبر قريشاً أن هدف المسلمين ليس الحرب، وهكذا أراد تكليف عمر بهذه المهمة فقال عمر إن قريشاً تعاديني عداوة

---

(١) كتب شاه ولي الله الدهلوي عن هذه الواقعة في كتابه (إزالة الخفاء) لكن لم أجد لها سندًا في أي كتاب .

شديدة، كما أنه لا يوجد هناك من قبيلتي أحد يحميني ولعثمان هناك أقارب وأحبّة، ولهذا من المناسب إرساله في هذه المهمة.

استحسن الرسول هذا الرأي وأرسل عثمان رضي الله عنه إلى مكة، فحجزت قريش عثمان رضي الله عنه، ولما مرت عدة أيام أشيع أنه استشهد، وبعد أن سمع الرسول الخبر أخذ البيعة من الصحابة على الجهاد وكان عددهم ألفًا وأربعمائة، ولما كانت البيعة تحت شجرة لذا اشتهرت هذه الواقعة ببيعة الشجرة، وتشير الآية القرآنية ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨] إلى هذه الواقعة؛ ونظراً لهذه الآية أطلق عليها أيضاً بيعة الرضوان، كان عمر رضي الله عنه قد بدأ الاستعداد للحرب قبل البيعة، وفي صحيح البخاري (غزوة الحديبية) أن عمر وهو في الحديبية أرسل ابنه عبدالله ليطلب فرساً من أحد الأنصار، فخرج عبدالله بن عمر فرأى الناس يبايعون النبي ﷺ على الجهاد فذهب وبايعه وعاد إلى عمر رضي الله عنه فوجده يعد سلاحه، فحكى له واقعة البيعة، فنهض عمر من فوره وذهب وبايع النبي ﷺ.

كانت قريش مُصرة على ألا تمكن رسول الله ﷺ من دخول مكة أبدًا، وبعد جدال ونقاش طويل عقدت معاهدة تتم بمقتضاها عودة المسلمين هذه المرة، على أن يأتوا في السنة التالية، وألا يقيموا أكثر من ثلاثة أيام، وكان من شروط المعاهدة أيضاً أن يتوقف القتال لعشر سنوات، وفي أثناء هذه الفترة إذا ذهب شخص من قريش إلى رسول الله ﷺ يرده رسول الله إلى قريش، ولكن إذا ذهب أي شخص من المسلمين إلى قريش فلهم الحق أن يمنعوه عنهم، ولما كان الشرط الأخير ـ ظاهريا ـ في صالح الكفار غضب عمر رضي الله عنه كثيراً. ولم تكن المعاهدة قد كتبت بعد فأتى إلى أبي بكر فقال لماذا نخضع هكذا ونقبل مثل هذا الصلح؟ فأفهمه أن ما يفعله رسول الله ﷺ فيه، إن شاء الله مصلحة المسلمين، لكن عمر لم يهدأ فذهب إلى رسول الله ﷺ وخاطبه هكذا:

يارسول الله! ألست برسول الله ؟

فقال رسول الله ﷺ : بلى .

فقال عمر : أليس الكفار أعداءنا ؟

قال رسول الله ﷺ : بلى

قال عمر : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

قال رسول الله ﷺ : أنا رسول الله ولن أخالف أمر الله .

ولما كان حديث عمر رضي الله عنه وخاصة طريقة الحديث يخرج عن اللياقة والأدب، ندم عليه ندماً شديداً فيما بعد وراح يصوم ويصلي النفل ويعطي الصدقات ويعتق العبيد(١) كفارة لما حدث منه، لكن النقطة الأساسية في هذا الحوار هي ماهو العمل الذي يعمله الرسول ﷺ ويتعلق به كإنسان ؟ وماهو العمل الذي يعمله ويتعلق بالرسالة السماوية ؟

وهذا ما سيرد بحثه بالتفصيل في الجزء الثاني من الكتاب .

**والخلاصة** أن معاهدة الصلح كتبت، وشارك فيها كبار الصحابة ومن بينهم عمر رضي الله عنه، ووقعوا عليها وبعدها عاد الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، وفي الطريق نزلت سورة الفتح(٢)، فطلب الرسول ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له: اليوم نزلت عليّ سورة أحب إليّ من الدنيا وما فيها ثم قرأ هذه الآيات ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . . ﴾ [الفتح : ١] .

كتب المحدثون أن المسلمين والكفار ظلوا حتى ذلك الوقت منعزلين عن بعضهم تماماً، فبدأوا بعد الصلح يتصلون ويختلطون ببعضهم، وانتشرت أفكار الإسلام وقضاياه يوماً بعد يوم وذاعت ليلًا ونهاراً، وكان من أثر هذا الأمر أن من اعتنقوا الإسلام في سنتين كانوا أكثر ممن أسلموا في مدة الثمانية

---

(١) الطبري ص ١٥٤٦ .

(٢) صحيح البخاري واقعة الحديبية .

عشر عاماً الطويلة الماضية[١]، وهو الأمر الذي من أجله عقد الرسول الصلح، والذي لم يدركه عمر رضي الله عنه في البداية، كانت تلك هي المصلحة، وعلى هذا الأساس عبّر رب العزة عن هذا الصلح بكلمة «الفتح» في سورة الفتح.

## طلاق عمر رضي الله عنه لزوجاته :

كان الزواج من الكافرات حتى ذلك الوقت جائزاً، لكن حين نزلت الآية ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] حُرّم هذا الأمر، وعليه طلق عمر امرأتيه وكانتا كافرتين، إحداهما تدعى قريبة والأخرى أم كلثوم بنت جرول، وبعد تطليقهما تزوج عمر رضي الله عنه من جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح، وكان عاصم بن عمر من بطنها[٢] وفي هذه السنة أرسل رسول الله ﷺ الرسائل للملوك وحكام البلاد يدعوهم فيها إلى الإسلام.

## معركة خيبر سنة ٧هـ/٦٢٩م :

وقعت معركة خيبر الشهيرة سنة ٧هـ، وقد قرأتم في الصفحات السابقة، أن يهود قبيلة بني النضير الذين أُخرجوا من المدينة المنورة، ذهبوا إلى خيبر وعاشوا فيها، وكان من بينهم سلام وكنانة وغيرهما ممن ذهبوا إلى قريش سنة ٥هـ وأثاروهم وحرضوهم على الهجوم على المدينة، ورغم أنهم فشلوا في تدبيرهم هذا إلا أنهم لم يتراجعوا عن فكرة الانتقام وظلوا يخططون له، وهكذا أظهرت قبيلة سعد في سنة ٦هـ استعدادها لإعانتهم، فعلم الرسول ﷺ بالأمر فأرسل عليًّا رضي الله عنه، إلا أن بني سعد هربوا، وغنموا خمسمائة ناقة[٣]، ثم حرضوا قبيلة غطفان، لذلك عندما تقدم رسول الله ﷺ تجاه خيبر

---

(١) فتح الباري ط مصر مجلد ٧ ص ٣٤٠ ذكر الحديبية .
(٢) الطبري أحداث سنة ٦ هـ .
(٣) المواهب اللدنية للزرقاني، ذكر سرية علي إلى بني سعد .

كانت هذه أول قبيلة رغبت في قطع الطريق عليه ﷺ، ونظراً لكل هذه الظروف والملابسات كان من الضروري تحطيم قوة اليهود وإلا ما كان للمسلمين أن يأمنوا خطرهم.

**وخلاصة القول** إن الرسول ﷺ اتجه إلى خيبر في سنة ٧هـ ومعه ألف وأربعمائة من المشاة ومئتان من الفرسان، وكان اليهود قد بنوا قلاعًا محصنة تماماً مثل: حصن ناع، وحصن قموص، وحصن صعب، وحصن وطيح، وحصن سلالم، وقد استسلمت هذه القلاع جميعها عدا حصن وطيح وسلالم، وكانا في قبضة البطل العربي المشهور «مرحب».

أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر على رأس جماعة من المقاتلين لكنه لم ينجح، ثم أرسل عمر رضي الله عنه الذي ظل يقاتل ليومين متصلين ثم رجع، رأى النبي ﷺ هذا فقال لأسلمن الراية غداً لرجل يقود الحملة، وفي اليوم التالي، حضر جميع الصحابة مدججين بالسلاح آملين في الحصول على «الراية النبوية» وكان عمر رضي الله عنه من بينهم أيضاً، وكما يقول: «إنني لم آمل أبداً في الإمارة وحمل الراية إلا في هذه المرة» لكن الإرادة الإلهية كانت قد خصت علياً بهذا الفخر، لهذا لم يلتفت النبي ﷺ إلى أحد، ونادى علياً رضي الله عنه وسلمه الراية، وقُتل مرحب على يد علي رضي الله عنه وانتهت المعركة أيضاً بقتله.

وقسم الرسول ﷺ أرض خيبر على المجاهدين وكان من نصيب عمر رضي الله عنه قطعة أرض تسمى «ثمغ» فجعلها «وقفًا» لله، وهذه القصة مذكورة بالتفصيل في صحيح مسلم باب الوقف، وكان هذا أول وقف ينفذ في تاريخ الإسلام.

في هذه السنة أُرسل عمر رضي الله عنه في ثلاثين رجلًا لمواجهة قبيلة هوازن، فسمع أهلها بقدوم عمر رضي الله عنه ففروا، ولم تحدث معركة على الإطلاق.

وفي سنة ٨هـ كان فتح مكة، وبدايته هكذا:

كان من شروط صلح الحديبية شرط يقضي بأن من أراد من قبائل العرب أن ينضم إلى قريش فله الخيار في ذلك، ومن أراد أن يستظل بظل الإسلام فله ذلك، وهكذا دخلت قبيلة خزاعة تحت ظل رسول الله ﷺ، وانضمت قبيلة بني بكر إلى قريش، وكان هناك نزاع بين هاتين القبيلتين منذ مدة، وحدثت بينهما معارك كثيرة، واستمرت سلسلة القتال بينهما حتى صلح الحديبية، فتوقف القتال بينهما طبقًا لشروط المعاهدة، لكن بني بكر نقضوا العهد بعد عدة أيام، وأعانتهم قريش حتى أن خزاعة ذهبوا إلى الحرم واحتموا به، ولكنهم رغم هذا لم يجدوا الأمان، فاستنجدت خزاعة بالرسول ﷺ، وعندما علم أبو سفيان بالخبر وصل إلى المدينة ليتدارك الأمر، وحضر عند رسول الله ﷺ طالباً تجديد الصلح من جانب قريش، فلم يُجبه رسول الله ﷺ، فنهض وذهب إلى أبي بكر ثم ذهب إلى عمر حتى يجد حلًّا لهذه القضية فرد عليه عمر رضي الله عنه بشدة جعل اليأس يصيبه.

بدأ الرسول ﷺ يعد العدة للتوجه إلى مكة، وفي رمضان سنة ٨هـ خرج من المدينة في عشرة آلاف مقاتل، وحين نزلوا في منطقة «مرّ الظهران» ركب العباس رضي الله عنه بغلة الرسول ﷺ واتجه إلى مكة، وكان أبو سفيان قادماً من هناك، فقال له العباس رضي الله عنه: تعال وسأستأمن لك رسول الله ﷺ، وإلا فاليوم ليس يومك، فوجدها أبو سفيان فرصة، وذهب مع العباس رضي الله عنه، وفي الطريق قابلهما عمر، فظن بعد أن رأى أبا سفيان أن العباس ذاهب به ليشفع له عند رسول الله ﷺ، فتقدمهما بسرعة ودخل على الرسول ﷺ وقال: قد مكننا الله من عدو الإسلام هذا بعد حين، إن أذنت لي ضربت عنقه، فقال العباس رضي الله عنه: ياعمر ألا إنه من عبد مناف ولو كان من قبيلتك لما طلبت روحه هكذا، قال عمر رضي الله عنه، والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطّاب؛ أي: لو كان أسلم» قبل الرسول شفاعة العباس وأعطى أبا سفيان الأمان.

دخل رسول الله ﷺ مكة في جاهٍ وجلال ووقف على باب الكعبة وألقى خطبة في منتهى الفصاحة والبلاغة نقلت بتمامها في كتب التاريخ، ثم اصطحب عمر رضي الله عنه إلى الصفا ليأخذ البيعة من الناس، وجاء الناس جماعات جماعات وراحوا يبايعونه ﷺ ، كان عمر يجلس قريباً من الرسول ﷺ لكن في مكان أسفل من المكان الذي يجلس فيه الرسول ﷺ ، وحين جاء دور النساء طلب النبي ﷺ من عمر أن يبايعهن؛ لأن الرسول لم يكن ليلمس يد امرأة أجنبية عنه، فبايعت النساء جميعهن الرسول ﷺ على يد عمر.

## غزوة حنين :

في تلك السنة وقعت معركة هوازن التي عرفت بغزوة حنين[١] ، وكانت هوازن من قبائل العرب المشهورة ذي المكانة العالية، وكان أهلها ينظرون إلى رقي الإسلام منذ البداية بحسد، حين خرج الرسول ﷺ من المدينة المنورة قاصداً فتح مكة ظن هؤلاء الناس أنه يقصد الهجوم عليهم، وهكذا بدأوا على الفور الاستعداد للقتال، فلما عرفوا أن الرسول ﷺ وصل مكة، ساروا بعتادهم الكامل للهجوم على مكة، ونصبوا رحالهم في حنين[٢]، وحين سمع الرسول ﷺ بالخبر انطلق من مكة في اثنى عشر ألف مجاهد واصطف الفريقان في حنين، وأجبر المسلمون هوازن على الفرار في بداية المعركة، ثم انشغلوا بجمع الغنائم فهجمت عليهم هوازن وأمطرتهم بوابل من السهام شديد حتى اختلط الأمر على المسلمين وهاجوا وماجوا ولم يبق من الاثنى عشر ألف مجاهد سوى عدد قليل بينما هرب الباقون، فكان للصحابة الذين ثبتوا في هذه المعركة، ومنهم عمر رضي الله عنه، منزلة خاصة، وقد صرح الطبري بوضوح أن محمد بن إسحاق وهو من شيوخ

---

(١) حنين اسم وادي خلف عرفات على بعد تسعة أو عشرة أميال من مكة.
(٢) تاريخ الطبري .

البخاري في الحديث، ويعد إماماً في المغازي والسير، كتب في كتابه «المغازي»: «وثبت مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل البيت مثل أبي بكر وعمر والعباس... إلخ»[١].

ثم تغيّر سير المعركة وانتصر المسلمون وأسر من هوازن ستة آلاف رجل.

وفي سنة ٩هـ انتشر خبر مفاده أن قيصر الروم يُجري استعدادات للهجوم على الجزيرة العربية، فأمر الرسول ﷺ الصحابة بعد سماعه الخبر، بالاستعداد، ولما كان الوقت وقت شدة وعسرة حث النبي ﷺ المسلمين ورغبهم في المساعدة ببذل المال، وهكذا قدم معظم الصحابة أموالاً كثيرة، فقدم عمر نصف ماله ومتاعه لرسول الله ﷺ[٢]، وهكذا توفرت الأسلحة والمؤن وتوفر العتاد، وسار الرسول ﷺ من المدينة وحين وصل إلى تبوك عرف أن الخبر لم يكن صحيحًا، ولهذا رجع بعد أن أقام هناك عدة أيام.

في هذه السنة غضب رسول الله ﷺ من أزواجه المطهرات فاعتزلهن، وظن الناس بعد أن شاهدوا حالته هذه أنه ﷺ طلقهن جميعًا، ولهذا حزن الصحابة كلهم، ولم يجرؤ أحد على المثول أمام الرسول ﷺ للتحدث معه في الأمر، وأراد عمر رضي الله عنه أن يحضر عند النبي فطلب الإذن أكثر من مرة، فلم يحصل عليه، وفي النهاية صاح عمر وقال للخادم: «ربما ظن رسول الله ﷺ إنني جئت لأشفع لحفصة (ابنة عمر وزوجة رسول الله ﷺ المطهرة)، والله لئن أمرني رسول الله ﷺ لأضربن عنق حفصة[٣] فاستدعاه الرسول فوراً، فقال

---

(١) لم أطلع على كتاب ابن إسحاق الأصلي، لكني وقفت على ترجمة فارسية للكتاب والعبارة المنقولة مأخوذة منه، وهي ترجمة أمر بها سعد بن زنكي سنة ٦١٢هـ ولها نسخة قديمة جدًا في المكتبة العامة بإله آباد.

(٢) ذكر الترمذي وأبو داود هذه الواقعة تحت باب فضائل أبي بكر لكنهما لم يحددا الغزوة.

(٣) صحيح مسلم باب الطلاق.

عمر رضي الله عنه. هل طلقت أزواجك؟ فرد رسول الله ﷺ «لا». فقال عمر رضي الله عنه: جميع المسلمين يجلسون في المسجد وقد أصابهم الحزن، فلو سمحت لي بشرتهم بهذا الخبر، من هذه الواقعة يمكن أن نقدر مدى قرب عمر رضي الله عنه من رسول الله ﷺ مثلما قالت أم سلمة رضي الله عنها في مناسبة تتعلق بهذه الوقائع: «ياعمر لقد تدخلت في كل شيء حتى أنك تريد أن تتدخل بين الرسول وأزواجه».

وفي سنة ١٠هـ/ ٦٣٢م قدمت وفود كثيرة من جميع أنحاء الجزيرة العربية ودخل حظيرة الإسلام مئات الألوف من الناس.

وفي هذه السنة قصد الرسول ﷺ مكة للحج، فكانت هذه آخر حجة له.

في شهر صفر سنة ١١هـ/ ٦٣٣م عين رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على رأس جيش لقتال الروم وأمر أكابر الصحابة أن يذهبوا معه، وكان الناس قد استعدوا لكن ﷺ مرض في أواخر صفر فأجل هذا الاقتراح.

وقد ظل رسول الله ﷺ طبقاً للرواية المشهورة ـ مريضاً لثلاثة عشر يوماً ـ وقد ورد عن البيهقي بسند صحيح أنه مرض لعشرة أيام، وذكر سليمان التيمي أيضاً نفس العدد في مغازيه[1]، ولم تكن حالة مرضه ﷺ تمضي على وتيرة واحدة فكانت الحمى تشتد أحياناً وتقل حدتها أحياناً فكان يفيق ويتمكن من الذهاب للصلاة بالمسجد حتى إنه في يوم وفاته تحسنت حالته فجاء حتى الباب ورفع الستارة وسر كثيراً وهو يشاهد الناس يصلون وظهرت البسمة على وجهه الشريف.

## واقعة القرطاس :

واقعة القرطاس واقعة مشهورة في فترة المرض وتفصيلها أن رسول الله ﷺ

---

(١) فتح الباري مجلد ٥ ص ٩٨ .

طلب قلماً ودواة وذلك قبل وفاته بثلاثة أيام وقال: «سأكتب لكم شيئاً لن تضلوا بعده أبدا»، فخاطب عمر رضي الله عنه الناس قائلًا: لقد اشتد المرض برسول الله والقرآن يكفينا، فقال بعض الحضور: إن رسول الله يهذي (والعياذ بالله) وقد ورد اللفظ «هجر» في الرواية وهي تعني الهذيان.

وهذه الواقعة في ظاهرها واقعة عجيبة، فيمكن لمعترض أن يقول أي إهانة هذه أن يكون رسول الله ﷺ على فراش الموت ويقول والأمة في غم وحزن، تعالوا أكتب لكم وصية تحفظكم من الضلال، ومن الواضح أن الهداية من الضلال التي أشار إليها تتعلق بمنصب النبوة، ولهذا فلا يمكن أن تحتمل السهو والخطأ، ورغم هذا لا يبالي عمر بالأمر ويقول: لا داعي فالقرآن يكفينا، والأدهى من ذلك أن في بعض الروايات إشارات إلى أن عمر رضي الله عنه عبر عن كلام الرسول ﷺ بالهذيان (والعياذ بالله) وقد استمر هذا الاعتراض لفترة من الزمن، وبسببه تحادت جماعتان مختلفتان من المسلمين، لكن لما كانوا قد أثاروا أموراً لا تتعلق بهذا البحث، ولم يستخدموا أو يستفيدوا من أصول الدراية، لذلك ظلت المسألة محل نزاع كما هي، وظهرت بحوث عجيبة لا فائدة منها حتى أن مسألة أخرى ظهرت للبحث وهي هل يمكن أن يصدر الهذيان عن رسول الله ﷺ؛ لأن الهذيان من العوارض البشرية والنبي ﷺ لم يكن بريئاً من تلك العوارض؟

وهذا الأمر في الأصل يدعو إلى التفكير العميق فهل يمكن الاستناد بالطريقة التي تتناول بها الروايات هذه الواقعة على أي أمر من الأمور أم لا ؟ وقبل بحث هذا الأمر يجب أن نضع أمام أعيننا الملابسات التالية:

١ـ ظل الرسول ﷺ مريضاً حوالي ثلاثة عشر يوماً.

٢ـ كانت واقعة طلب القلم والدواة يوم الجمعة، كما هو مذكور صراحة في صحيح البخاري ومسلم، ولما كان النبي ﷺ قد توفي يوم الاثنين فهذا يعني أنه ظل على قيد الحياة أربعة أيام بعد هذه الواقعة.

٣ـ لم يُذكر في أي موضع من أية رواية ما يشير إلى اختلال حواس الرسول ﷺ طوال مدة مرضه.

٤ـ كان الكثير من الصحابة موجودون في ذلك الوقت ومع هذا فقد رويت هذه الرواية بطرق عديدة (ذُكرت في صحيح البخاري فقط بسبع طرق) ورغم هذا كله لم يرو أي حرف عن هذه الواقعة عن أي صحابي سوى عبدالله بن عباس رضي الله عنه.

٥ـ كان عمر عبدالله بن عباس آنذاك مابين ثلاث عشرة وأربع عشرة سنة.

٦ـ وأهم من هذا كله أن عبدالله بن عباس لم يكن موجودًا وقت هذه الحادثة وليس معروفاً من أي إنسان سمع عن هذه الواقعة[١] .

٧ـ مذكور في الروايات كلها أن الرسول ﷺ حين طلب الورقة والقلم قال الناس إن الرسول ﷺ يهذي[٢] .

علينا الآن وقبل كل شيء أن نلاحظ أنه لم يذكر في أية رواية شيئاً عن اضطراب حواس النبي ﷺ ، فكيف يمكن للناس أن يظنوا أن الرسول ﷺ يهذي لمجرد قوله: «إليّ بالقلم والدواة»، ولنفرض أن الهذيان يمكن أن يصيب الأنبياء، إلا أن هذا لا يعني أن مجرد قول عادي يمكن أن يفهم على أنه هذيان، فأي هذيان في أن يقول النبي قُريب وفاته: إليّ بالقلم والدواة لأكتب لكم شيئاً حتى لا تضلوا بعدي أبدًا[٣]، وإذا اعتبرت هذه الرواية

---

(١) الحديث المذكور في البخاري، باب كتابة العلم يتضح منه أن عبدالله بن عباس كان موجوداً أثناء الواقعة لذا بحث المحدثون هذا وأثبتوا بالدلائل القطعية أنه لم يكن موجوداً، انظر فتح الباري باب كتاب العلم .

(٢) أوّل العلّامة القرطبي هذا فقال: إن الناس كانوا قد قالوا هذا اللفظ (هجر) استنكاراً واستعجاباً وهذا يعني وجوب تنفيذ أمر رسول الله ﷺ ، فلم يروا في قول رسول الله ﷺ هذياناً لا سمح الله وهذا تأويل جيد وهذه الألفاظ التي جاءت في بعض روايات البخاري ومسلم لا تحتمل التأويل مثل، هجر هجر (مرتان) أو (إن رسول الله ﷺ يهجر) صحيح مسلم.

(٣) إن وجهة نظرنا في هذا الموضوع هو أن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف الكتابة ولهذا فقوله لأكتب=

صحيحة على أي حال من الأحوال، فيجب أيضاً أن نسلم أيضاً على كل حال أن الراوي ترك في روايته تلك الوقائع التي جعلت الناس يتخيلون أن الرسول ﷺ لم يكن في وعيه وأنه طلب القلم والدواة وهو في حالة انعدام الوعي.

ومن هنا نتساءل لماذا يمكن الاستدلال قبل هذه الرواية على واقعة معينة، وقد نسي الراوي في روايته خصوصيات هامة جداً وضرورية ومع هذا عندما نلاحظ أنه لم يكن هناك من الصحابة والرواة إلا عبدالله بن عباس وكان عمره وقت هذا الحدث العظيم مابين ثلاث عشرة وأربع عشرة سنة، بالإضافة إلى القول أيضاً بأنه لم يكن موجودًا بنفسه وقت الحدث، عندئذ يمكن لكل إنسان أن يفهم ماذا يبقى من قيمة هذه الرواية ؟ من الممكن أن يظن صاحب نظر قصير ويثقل عليه الظن بأن هناك شبهة في حديث البخاري ومسلم، لكن يجب أن يفهم أن الشك في أحد رواة البخاري ومسلم والقول بأنه لم يتمكن من تقديم الواقعة بكل تفاصيلها وهيئتها أهون كثيراً من إلصاق تهمة الهذيان للرسول ﷺ وإلصاق تهمة سوء الأدب لعمر رضي الله عنه .

**وخلاصة القول** أن النبي ﷺ ظل على قيد الحياة مدة أربعة أيام بعد هذه الواقعة، وفي تلك الأثناء قدم من آن لآخر كثيراً من الإرشادات والنصائح والوصايا، وفي نفس يوم الوفاة تحسنت حاله لدرجة أن الناس ظنوا أنه استرد صحته تماماً فعاد أبو بكر رضي الله عنه إلى بيته الذي كان يقع على بعد ميلين من المدينة المنورة[1] لكن عمر رضي الله عنه ظل موجودًا حتى وقت الوفاة.

توفي النبي ﷺ ظهر يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول في السنة الحادية عشرة من الهجرة في منزل عائشة رضي الله عنها. ودفن بعد ظهر يوم الثلاثاء.

---

= لكم، كان قرينة للهذيان لكن هؤلاء الناس لا يعلمون أن «الكتابة» تأتي أيضاً في معنى الاستكتاب، وهذا المجاز شائع وعام .

(١) الطبري ص ١٤١٣ .

من يستطيع أن يقّدر مدى الصدمة التي أصابت جماعة المسلمين لوفاته ﷺ؟

يُروى بشكل عام أن عمر رضي الله عنه أُصيب بالذهول الشديد لدرجة أنه ذهب إلى المسجد النبوي وأعلن أنه سيقتل أي شخص يقول إن النبي ﷺ قد مات، لكن لا يوجد من القرائن ما يصدق هذه الرواية، وفي رأينا أنه لما كانت جماعة المنافقين موجودة بكثرة في المدينة تنتظر وفاة النبي ﷺ حتى تثير الفتن، لهذا ربما أراد عمر رضي الله عنه أن يمنع انتشار هذا الخبر للصالح العام. وقد أخذت هذه الواقعة أشكالاً وصوراً مختلفة باختلاف الروايات، لكن المشكلة الأساسية تكمن في أن مثل هذا النوع من التصريحات موجود في صحيح البخاري وغيره وهو يمكن أن يتطابق مع قياسنا هذا.

# سقيفة بني ساعدة وخلافة أبي بكر واستخلاف عمر

هذه الواقعة ـ التي تُصورها كتب التاريخ والسيرة عن قضية المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ لا تخلو من غرابة في الظاهر، فما كاد رسول الله ﷺ ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى دب النزاع فوراً بين المسلمين في أمر الخلافة، ولم ينتظروا حتى يفرغوا من تجهيز وتكفين رسول الله ﷺ، من كان يظن أن ينتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى فيتركه أولئك الذين كانوا يدعون حبهم له وإخلاصهم له دون أن يكفنوه، وينشغلون عنه في التخطيط حتى لا يضيع منهم كرسي الحكم.

وتتضاعف الدهشة والغرابة حين نرى أن هذا العمل يصدر ممن كانوا يعتبرون النجوم الساطعة[1] في سماء الإسلام مثل أبي بكر وعمر، وتزداد الصورة غرابة وشناعة حين نرى الذين تربطهم بالرسول صلة الرحم، أي: علي رضي الله عنه وبنو هاشم، هم في غمار الحزن والآسى، وتشغلهم قضية دفن الرسول ﷺ عن كل شيء حتى إنهم لم يجدوا فرصة ليفكروا في أمر الخلافة.

ونحن نعترف بأن هذا النوع من الأفكار قد نشأ في الظاهر مما ورد في كتب الحديث والسيرة، ولكن حقيقة القضية غير ما يتصورها الناس، فلا شك أن أبا بكر وعمر تركا أمر دفن الرسول ﷺ وذهبا إلى سقيفة بني ساعدة، ولا شك أيضاً أنهما وصلا إلى سقيفة بني ساعدة واشتركا في المناقشة الحادة التي دارت بين الأنصار والمهاجرين لأجل الخلافة، بل جعلا يزاحمان الأنصار ويحاولان إزاحتهم وإبعادهم عن الخلافة، وكأنهما في نشوة الحكم والخلافة نسيا أمر دفن الرسول وكأن حادثة وفاة الرسول ﷺ لم تؤثر فيهما، وصحيح أنهما أخذا أمر الخلافة بالحزم وأقنعا الأنصار أن ينسحبوا من الميدان، كما فرضا سيطرتهما على علي وبني هاشم وأقنعاهم أيضاً ألا يفكروا في أمر

---

(١) جاء في الأصل الشمس والقمر .

الخلافة، وبنو هاشم لم يخضعوا ويستسلموا إلا بعد محاولة شديدة، بل لم يخضعوا إلا بعدما رأوا العنف والشدة، وإلا لم يكن من السهل الميسور أن يسكت بنو هاشم عن الخلافة ـ والبحث هنا يتطلب مناقشة الأمور التالية والتفكير فيها بعمق:

١ـ هل أثار عمر رضي الله عنه وغيره قضية الخلافة ؟
٢ـ هل ذهب هؤلاء الناس (أي: عمر وأنصاره) إلى سقيفة بني ساعدة بأنفسهم وبرغبتهم.
٣ـ هل كان علي (وبنو هاشم) خالي الذهن من التفكير في أمر الخلافة.
٤ـ هل كانت الأمور التي صدرت عن عمر رضي الله عنه وغيره في محلها أم لا ؟

فيما يتعلق بالنقطة الأولى والثانية أنقل هنا نصًا من كتاب موثوق هو كتاب مسند أبي يعلى[١] ، وهو يوضح لنا جيداً صورة القضية ويكشف عن حقائها ويجيب عن السؤالين الأولين ـ يقول عمر رضي الله عنه:

بينما نحن في منزل رسول الله ﷺ ، إذا رجل ينادي من وراء الجدار: أن اخرج يا ابن الخطاب، فقلت إليك عني فإنا عنك مشاغيل، يعني: بأمر رسول الله ﷺ، فقال له: قد حدث أمر، فإن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، فأدركوهم قبل أن يحدثوا أمراً يكون فيه حرب، فقلت لأبي بكر انطلق.

ويبدو من هذا النص أن عمر رضي الله عنه وأنصاره لم يثيروا قضية الخلافة ولم يذهبوا إلى سقيفة بني ساعدة إلا بعدما طُلبوا للذهاب وأُنذروا من حدوث الفتنة والحرب.

أما المبحث الثالث، فبعد دراسة أحوال المسلمين في تلك الفترة يمكن تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات:

١ـ بنو هاشم وعليٌّ رضي الله عنه من بينهم.

(١) فتح الباري مجلد ٧ ص ٧٣ .

٢ـ المهاجرون وعلى رأسهم أبو بكر وعمر رضي الله عنه.
٣ـ الأنصار وكان شيخهم ورئيسهم سعد بن عبادة.

وكانت هذه المجموعات الثلاث كلها تفكر في أمر الخلافة وتبحث عنها، أما الأنصار فإنهم أعلنوا رغبتهم في الخلافة وصرحوا بما كانوا يريدون، وأما بنو هاشم فيمكن أن تظهر أفكارهم من الرواية التالية:

«خرج علي بن أبي طالب من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال أصبح بحمد الله بارئاً فأخذ بيده عباس بن عبدالمطلب، فقال له أنت بعد ثلاثٍ عبدُ العصا (أي: ستستعبدون بعد ثلاثة أيام)، وإني لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبدالمطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علّمنا، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى منا، فقال علي: والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطينا الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ[١].

توضح هذه الرواية بجلاء فكرة العباس عن الخلافة أما علي فإنه إلى ذلك الوقت لم يكن على يقين من أن الرسول سيتوفى في هذا المرض، لهذا لم يثر موضوع الخلافة هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن على ثقة تامة أن رسول الله ﷺ سيرشحه للخلافة.

بعد وفاة رسول الله ﷺ اجتمع بنو هاشم مع أتباعهم في بيت فاطمة رضي الله عنها، وكان على رأسهم علي رضي الله عنه كما يظهر من رواية البخاري على لسان عمر رضي الله عنه[٢].

«كان من خبرنا حين توفىّ الله نبيه أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم

(١) صحيح البخاري، باب مرض النبي ﷺ أيضًا فتح الباري جـ ٨ ص ١٠٩.
(٢) صحيح البخاري كتاب الحدود باب رجم الحبلى.

في سقيفة بني ساعدة وخالفنا عليّ والزبير ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر» .

قال عمر رضي الله عنه هذا في خطبة ألقاها أمام جمع كبير من الصحابة، ولهذا فلا يمكن الشك في أنه قال خلافًا للواقع وإلا عارضه الناس في حينها، وتزداد هذه الرواية وضوحًا برواية عن الإمام مالك رحمه الله يقول[1] :

«إن علياً والزبير ومن كان معهما تخلفوا في بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

أما الطبري فروايته هكذا[2] :

«وتخلف عليّ والزبير واخترط الزبير سيفه وقال لا أغمده حتى يبايع علي» .

بعد دراسة هذه الروايات المختلفة نصل إلى عدة نتائج واضحة وهي :

(١) أن الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ انقسموا في قضية الخلافة إلى ثلاثة أقسام: الأنصار والمهاجرون وبنو هاشم .

(٢) كان المهاجرون يريدون أبو بكر بينما كان بنو هاشم مع علي رضي الله عنه .

(٣) جاء عمر رضي الله عنه وأنصاره إلى سقيفة بني ساعدة وتركوا الرسول في بيته .

كما نرى أن علياً رضي الله عنه أيضاً خرج من عند رسول الله ﷺ وجاء إلى بيت فاطمة حيث كان بنو هاشم مجتمعين، أما عدم ذهاب علي رضي الله عنه إلى سقيفة بني ساعدة فلا يدل على مدى تأثره بالفاجعة وتأسفه على ذلك، بل كان السبب أنه لم ير الجو ملائماً له ولا لترشيحه هناك، فلم يكن يؤيده المهاجرون والأنصار الذين اجتمعوا في السقيفة؛ لأن المهاجرين كانوا اتفقوا على خلافة أبي بكر وكان الأنصار قد اختاروا سعد بن عبادة خليفة، وبقي المبحث الأخير أو السؤال الأخير وهو هل الأعمال التي صدرت عن عمر

---

(١) فتح الباري شرح الحديث المذكور .

(٢) تاريخ الطبري ص ١٨٢٠ .

رضي الله عنه كانت في محلها أم لا ؟

إن من له أدنى إلمام بأسس الحضارة يمكن أن يدرك بسهولة أنه في الوقت الذي توفي فيه رسول الله ﷺ كان بالمدينة عدد كبير من المنافقين الذين كانوا ينتظرون منذ مدة وفاة رسول الله ﷺ ليهدموا كيان المسلمين، وفي مثل هذه الظروف القاسرة والأوضاع الشديدة والساعة الحرجة هل كان من المناسب أن يظل المسلمون قلقين مائجين تسودهم الفوضى ويعمهم الاضطراب، أم كانت الحاجة تتطلب منهم أن يجتمعوا ليقرروا أمر الخلافة ويلموا شعثهم وينظموا أمور دولتهم ليعم الأمن ويستتب النظام.

ومن ناحية أخرى زاد الأنصار الأمور اضطراباً بإثارة قضية الخلافة قبل أوانها وإثارة الجدل والمناقشة حولها. ذلك لأن قريشاً لم تكن تقيم وزناً للأنصار، فحينما نشبت معركة بدر وخرج الأنصار لمقاتلة قريش، لم يملك عتبة نفسه فقال مخاطباً الرسول ﷺ : «يامحمد نحن لا نحارب من ليسوا منا» ولن نحني رؤوسنا أمام الأنصار بأي حال من الأحوال.

وإذا ما تركنا موقف قريش، فإن بقية العرب أيضاً ما كانت ترضى ـ مثلهم مثل قريش ـ أن يكون الخليفة في الأنصار حتى إن أبا بكر لما خطب في سقيفة بني ساعدة صرح بهذه الحقيقة قائلًا :

«إن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش».

وعلاوة على هذا فإن الأنصار أنفسهم كانوا منقسمين بين أوس وخزرج وما كانوا على وفاق ولا اتفاق ففي هذه الحالة الخطيرة كانت الحاجة ماسة لأن يقضي على دعوة الأنصار للخلافة ويتم البحث عن شخص جدير بتحمل أعباء الخلافة، فكان أبو بكر أكثر الناس جدارة لحمل هذه الأعباء الثقيلة، فقد كان أكبرهم سناً وأكثرهم نفوذًا، وكاد انتخابه أن يتم بسرعة لولا أن الناس وقعوا في مشكلة نزاع الأنصار وكثر الخلاف وارتفعت الأصوات حتى استلوا سيوفهم، وأدرك عمر رضي الله عنه خطورة الموقف الناجم عن هذا

الخلاف فأسرع إلى أبي بكر وقال: ابسط يدك ياأبا بكر، فبسط يده فبايعه صراحةً وعلناً، وبايعه معه عثمان وأبو عبيدة بن الجراح وعبدالرحمن بن عوف[١]، ثم تهافت الناس على مبايعة أبي بكر فبايعوه مجتمعين، وبهذا الطريق استطاع عمر رضي الله عنه أن يسد باب الفتنة.

انصرف الناس إلى أمورهم اللهم إلا فئة من بني هاشم كانت تجتمع في بيت فاطمة رضي الله عنها حيناً بعد حين تتشاور في أمر الخلافة، وأراد عمر أن يفرض على بني هاشم المبايعة بالقوة لكنهم ما كانوا يرغبون في أن يكونوا تحت إمرة أحد غير علي رضي الله عنه وقد ذكر الطبري في تاريخه وابن أبي شيبة في المصنف رواية جاء فيها:

أن عمر رضي الله عنه ذهب إلى بيت فاطمة وقال مخاطباً إياها: «يابنت رسول الله أنت أحب الناس لدي، ومع ذلك لو استمر الناس في الاجتماع عندك والتحدث في أمر الخلافة، لأحرقن هذا البيت بسبب هؤلاء.

وبالرغم من أنه لا يمكن أن نثق في هذه الرواية من ناحية سندها لأنه لا يمكن أن نعلم شيئاً عن أحوال رواتها، إلا أنه من ناحية الدراية لا يوجد سبب يجعلنا نرفضها ولا حرج في قبولها، لأن عمر رضي الله عنه كان معروفًا بين الناس بالشدة ولا يستبعد أن تصدر منه هذه الكلمة أو أمثالها، والحقيقة أن الأعمال التي قام بها عمر رضي الله عنه في ذلك الوقت الحرج قد يكون فيها بعض التجاوزات، ولكن لا يجب أن يغيب عنا أنه لولا حكمة عمر وشدته أو حتى تجاوزاته التي كانت موجهة أصلًا لإخماد الفتن والقضاء على الاضطرابات، ولو أن مؤامرات بني هاشم استمرت لتشتت شمل المسلمين وحدثت حروب أهلية بينهم كتلك التي حدثت بين علي رضي الله عنه ومعاوية.

---

(١) ذكر ابن الماوردي في الأحكام السلطانية أن خمسة أشخاص فقط بايعوه في البداية.

كانت خلافة أبي بكر رضي الله عنه لعامين فقط، لأنه توفي في جمادى الثانية سنة ١٣هـ ومع هذا ففي هذه الفترة القصيرة قام رضي الله عنه بأعمال جليلة شاركه فيها عمر رضي الله عنه، لهذا لن أكتب عن هذه الأعمال في كتابنا هذا؛ لأنها من وقائع العهد الصديقي وسينال شرف الكتابة عنها من سيكتب عن سيرة أبي بكر رضي الله عنه.

مع أن أبا بكر رضي الله عنه قد تيقن بالتجارب الطويلة أن أحدًا لا يستطيع أن يتحمل عبء الخلافة غير عمر رضي الله عنه، ومع هذا فقد تشاور مع كبار الصحابة للتعرف على الرأي العام، فدعا في البداية عبدالرحمن بن عوف وسأله، فقال، ليس هناك ما يقال في أهليته، لكن فيه شدة، قال أبو بكر، إن شدته بسبب رقتي، ولو تولى الأمر فسيرق طبعه من تلقاء نفسه، ثم دعا عثمان رضي الله عنه وسأله، فقال: كل ما يمكنني قوله أن باطن عمر أفضل من ظاهره، وليس فينا من يدانيه، وحين شاع خبر أن أبا بكر رضي الله عنه يريد أن يستخلف عمر رضي الله عنه، ظهر التردد على البعض وهكذا دخل طلحة على أبي بكر رضي الله عنه وقال له: ألا ترى سلوكه معنا وأنت بيننا ؟ فإذا ما أصبح خليفة، عندها يعلم الله وحده ماذا سيفعل بنا، وأنت الآن ذاهب إلى ربك، ففكر فبماذا تجيبه إذا سألك ؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: «سأقول لله، لقد استخلفت على عبادك خيرهم»، قال هذا ثم استدعى عثمان رضي الله عنه، وبدأ يستكتبه «عهدًا» ولم يكد يستكتبه الألفاظ الأولى حتى أُغمي عليه، فما كان من عثمان رضي الله عنه حين رأى هذا أن كتب هذه الكلمات: إني قد استخلفت عليكم عمر رضي الله عنه، فأفاق أبو بكر رضي الله عنه بعد قليل فسأل عثمان ماذا كتبت ؟ اقرأ عليّ ما كتبت، فقرأ عثمان رضي الله عنه ما كتب، فكبّر أبو بكر بطريقة عفوية وقال: جزاك الله خيراً.

كتبت الوصية وأعطاها أبو بكر رضي الله عنه لغلامه وقال له اقرأها على الملأ ثم صعد أبو بكر رضي الله عنه إلى أعلى بيته وخاطب الناس الذين

تجمعوا من حول البيت فقال: لم أستخلف عليكم أحد أقاربي وإنما استخلفت عليكم عمر رضي الله عنه، أترضون عنه ؟ فقال الجميع، سمعنا وأطعنا، ثم قدم لعمر رضي الله عنه نصائح مؤثرة ومفيدة فكانت بالنسبة لعمر دستور العمل العظيم الذي سار على نهجه.

## الخلافة والفتوحات

في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وبعد القضاء على المرتدين العرب ومدعي النبوة، بدأت فتوحات البلدان، في العام الثاني للخلافة أي سنة ١٢هـ، سبقت الجيوش إلى العراق وفتحت جميع مناطق الحيرة، وتم الهجوم على الشام سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م وانتشرت الجيوش الإسلامية في جميع مناطق الشام. ولم تكد هذه الحملات تبدأ حتى توفي أبو بكر، فتسلم عمر رضي الله عنه زمام الخلافة وكان أهم عمل هو إكمال هذه الحملات، لكن قبل الكتابة بالتفصيل عن هذه الوقائع يجب أولاً بيان طبيعة العلاقات بين جزيرة العرب وفارس من ناحية وبينها وبين الشام من ناحية أخرى.

رغم أن أحوال القبائل القديمة جدًا بالجزيرة العربية والتي تعرف بالعرب البائدة غير معروفة، إلا أنه من المعروف أن قبائل عاد والعمالقة قد استولوا على العراق، أما العرب العاربة وكانوا حكاماً على اليمن، فقد قويت حكومتهم واستحكمت في عصر من العصور حتى إنها احتلت العراق أكثر من مرة، وكانوا يعتبرون أنفسهم منافسين للإمبراطورية الفارسية.

وبالتدريج بدأ أهل الجزيرة العربية في الإقامة والعيش في المناطق الخاصة بحكومة فارس، وحين قام بخت نصر ملك بابل ـ الذي شاعت شهرته بسبب تدميره لبيت المقدس ـ بالهجوم على جزيرة العرب، خضعت له قبائل كثيرة وبسبب هذا الأمر انتقلت هذه القبائل إلى العراق واستقرت بها، وتدريجياً قطن هذه الأماكن أجيال كثيرة من أبناء معد بن عدنان حتى أنهم أسسوا لهم

إمارة، ولأن إيران كانت تشهد في تلك الفترة حكم ملوك الطوائف لهذا أقام العرب لأنفسهم حكومة مستقلة كان أول حاكم لها هو مالك بن فهم العدناني، ومن هذه الأسرة أيضاً كان جذيمة الأبرشي الذي اتسعت سلطته كثيراً، وخلفه في الحكم ابن أخته عمرو بن عدي الذي جعل من الحيرة عاصمة للملكة وسُمِّي بملك العراق، ازدهرت الحضارة وتطورت في هذا العصر وذكر هشام الكلبي[١] أنه اطلع على معظم أحوال العرب، وعلاقات الفرس بالعرب من تلك الكتب التي ألفت آنذاك في الحيرة، في الفترة التي قضى فيها أردشير بن بابك على ملوك الطوائف وأسس إمبراطورية واسعة وأخضع له عمرو بن عدي، ورغم أن أسرة عمرو بن عدي استمرت تحكم العراق ردحًا من الزمن إلا أنها كانت في الحقيقة ولاية من ولايات الإمبراطورية الفارسية.

وفي عهد شاه بور بن أردشير الملك الثاني من ملوك الأسرة الساسانية خضع الحجاز واليمن إلى شاه بور وعين امرؤ القيس الكندي عاملًا على تلك الأقاليم، هذا رغم أن خضوع العرب بهذه الطريقة كان يتعارض وفطرتهم، ولهذا كانوا يعلنون العصيان كلما سنحت لهم الفرصة حتى أن قبيلة عبدالقيس نفسها هجمت على بلاد فارس حين ثار أهل الجزيرة العربية كلهم في أعقاب تولي شابور ذي الأكتاف المُلك وهو صبي صغير، وتمكن أياد من الاستيلاء على العراق، وبعد أن كبر شابور ذو الأكتاف وصار ملكاً يافعًا مستقلًا، أراد أن ينتقم من تمرد العرب على فارس، فوصل إلى هجر وراح يسفك الدماء حتى أباد قبيلة عبدالقيس ووصل حتى المدينة المنورة، وكان يقوم بخلع أكتاف رؤساء القبائل العربيةإذا ما قبض عليهم ولهذا عرف في جزيرة العرب بلقب «ذو الأكتاف».

وكان من سلاطين الحيرة النعمان بن المنذر الذي عاش في عصر كسرى

---

(١) ذكر هشام الكلبي هذا في كتاب التيجان.

برويز واعتنق النصرانية وقد سجنه برويز إما لتغييره عقيدته أو لسبب آخر، ومات في سجنه، وكان النعمان قد أودع أسلحته ومتاعه أمانة لدى هاني رئيس قبيلة بكر، فطلب برويز منه هذه الأشياء، وحين رفض أرسل إليه الهرمزان في ألفين من جنوده ليأخذها بالقوة، فتجمعت قبيلة بكر عن بكرة أبيها عند موضع ذي قار، في كامل أسلحتها وعتادها، ونشبت معركة حامية الوطيس انهزم فيها الفرس، وقد حضر الرسول ﷺ هذه المعركة، وقال ﷺ: «هذا أول يوم انتصفت العرب من العجم»، وقد نظم جميع شعراء الجزيرة العربية قصائد وأشعاراً في الفخر والحماسة، بهذه المناسبة، وفي سنة ٦ هـ حين أرسل رسول الله ﷺ رسائل إلى جميع الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، ورغم أنه لم تكن هناك إشارة من قريب أو بعيد في هذه الرسائل إلى الحرب، إلا أن برويز قرأ الرسالة ثم قال: «عبدي يكتب إليّ هكذا» ولم يقنع بهذا بل كتب إلى بازان وكان عاملًا على اليمن أن يرسل من يأتيه بمحمد أسيراً إلى بلاطه، وحدث أن قُتل في تلك الفترة برويز على يد ابنه فبقي الحال على ماهو.

أما العلاقة بين الإمبراطورية الرومانية والجزيرة العربية فكانت عن طريق قدوم بعض القبائل العربية كسليح وغسان وجذام وغيرها واستوطانها المناطق الحدودية للشام، وقد بدأ هؤلاء يستولون تدريجياً على مناطق داخل الشام ثم لقبوا فيما بعد بملوك الشام بعد أن قويت شوكتهم وعظمت قوتهم، وكان هذا اللقب لقباً داخلياً يطلقونه على أنفسهم وإلا فقد صرح ابن الأثير المؤرخ بأنهم كانوا في الحقيقة من ولاة الإمبراطورية الرومانية.

كان هؤلاء الناس قد اعتنقوا النصرانية قبل الإسلام بكثير ولهذا السبب حدث بينهم وبين الروم تجانس من نوع معين، وعندما ظهر الإسلام ناصبوه العداء مثلهم مثل بقية المشركين العرب، وفي سنة ٦ هـ حين أرسل رسول الله ﷺ رسالة إلى قيصر الروم يدعوه فيها إلى الإسلام، مرَّ دحين الكلبي (الذي حمل الرسالة) وهو عائد بأرض جذام، فهاجمه هؤلاء العرب الشوام وسلبوه

جميع أمواله وأمتعته. وكذلك عندما أرسل رسول الله ﷺ حارث بن عمير برسالة إلى حاكم البصرة، دبّر عمر بن شرحبيل قتله، ولهذا أعد رسول الله ﷺ عام ٨هـ جيشاً ثأراً لمقتله وهكذا وقعت غزوة مؤته التي استشهد فيها كبار الصحابة مثل زيد بن حارثة وجعفر الطيار وعبدالله بن رواحة رضي الله عنهم أجمعين، ومع هذا رجع جيش المسلمين سالماً بتخطيط خالد رضي الله عنه، رغم هزيمة الجيش في المعركة.

وفي سنة ٩هـ استعد الروم للهجوم على المدينة بصفة خاصة إلا أن رسول الله ﷺ تقدم حتى وصل إلى تبوك فلم يجرؤ الروم على التقدم، ومع أن الحرب لم تنشب في ذلك الوقت ولو بصورة مؤقتة إلا أن المسلمين لم يغفلوا أبدًا عن ملاحظة الروم والغساسنة وظل المسلمون في حذر حتى لا يهجم هؤلاء على المدينة، وفي صحيح البخاري أنه عندما ذاع أن رسول الله ﷺ طلق أزواجه المطهرات، ذهب رجل إلى عمر وقال له: أسمعت شيئاً ؟ فقال عمر رضي الله عنه ماذا ؟ هل هجم الغساسنة ؟.

وانطلاقًا مما سبق ذكره وفي سنة ١١هـ عين رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على رأس جيشٍ وأرسله إلى الشام، ولأن المعركة كانت مع إمبراطورية كبيرة لذا أُمر أبو بكر وعمر وكبار الصحابة المشهورون بالذهاب مع الجيش.

ولم يكد أسامة يتحرك حتى مرض رسول الله ﷺ ومات وهكذا حين تولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة كان حال الجزيرة العربية كما أوضحنا، وكان العرب هدفاً لكل من الإمبراطوريتين المجاورتين، وعندما جيّش أبو بكر رضي الله عنه الجيش إلى الشام خطب في المجاهدين فقال: من مات منكم مات شهيدًا، ومن عاش عاش مدافعًا عن الدين، ويتضح من هذه الوقائع ماهية الأسباب التي جعلت أبا بكر رضي الله عنه يبدأ العمل الذي أكمله عمر رضي الله عنه.

بعد هذا البيان التمهيدي نبدأ في الكتابة عن الموضوع الأساسي.

# فتوحات [1] العراق [2]

نال العهد الرابع في فارس والذي يطلق عليه اسم العهد الساساني شهرة عظيمة بسبب أنو شيروان العادل، وفي عهد رسول الله ﷺ كان حفيده برويز على رأس السلطة، وظلت الدولة الساسانية في عهد هذا الإمبراطور المغرور في غاية القوة ولكن وبعد وفاته تبدل الأمر فجأة، ووهنت الدولة واضطرب نظام الحكم فيها لفترة، وحين حكم ابنه شيرويه لثمانية أشهر أمر بقتل جميع أخوته وكانوا خمسة عشر تقريباً وجلس على العرش من بعده ابنه أردشير وكان في السابعة من عمره، فقتله أحد قادة البلاد بعد سنة ونصف، ونصب نفسه ملكًا، كان هذا في السنة الثانية عشرة للهجرة، بعد عدة أيام قام رجال البلاط بقتله ونصبوا على العرش (جوان شير) الذي مات بعد سنة واحدة، وهكذا لم يعد يوجد في الأسرة غير يزدجرد وكان صغيراً جداً، ولم يعد هناك أحد من الذكور غيره، لذا أجلسوا بوران دخت على العرش شريطة أن يصبح

---

(١) قسم الجغرافيون العراق إلى قسمين: العراق العربي وهو المتصل بجزيرة العرب، وعراق العجم وهو المتصل ببلاد العجم، وحدود العراق العربي هي الجزيرة العربية شمالا، وخليج فارس جنوباً، وخوزستان شرقاً، وديار بكر وأشهر مدنها الموصل جنوباً، وعاصمتها بغداد ومن أكبر مدنها البصرة والكوفة وواسط وغيرها.

(٢) كانت الطريقة الشائعة لمؤرخينا هي جعل السنين عنوانًا لما يكتبون، لكن في تلك الطريقة عيب ألا وهو انقطاع سلسلة الحوادث، فإذا كتب مثلًا عن فتوحات في إيران في سنة معينة وانتهت السنة، كان عليهم أن يكتبوا بقية أحداثها سواء انتهى الكلام عن فتوحات إيران أم لم ينتهي وقد ينقطع الكلام عند نقطة هامة إذ كان عليهم طبقاً لهذا المنهج أن يكتبوا عن الأحداث في الشام ومصر مما وقع في تلك السنة، لهذا ذكرت جميع فتوحات إيران في موضع واحد وفتوحات الشام في موضع واحد وكذا فتوحات مصر.

يزدجرد هو الحاكم الفعلي صاحب التاج والسلطة حين يصل إلى سن الرشد[١].

بعد عهد برويز ظهرت ثورات وانقلابات انتشرت بسببها الفوضى وانعدم الأمن في ربوع البلاد، وفي عهد بوران صار من المعروف أنه لم يعد في فارس من يرث العرش والسلطة، فعينوا أحد الناس ـ بشكل صوري ـ على العرش، وانتشر هذا الخبر وذاع في العراق فقام مثنى الشيباني وسويد العجلي وهما من رؤساء قبيلة وائل، في جماعات قليلة بالهجوم على حدود العراق وبدأوا غارات على الحيرة والآبلة[٢].

كان ذلك في عهد أبي بكر رضي الله عنه وكان خالد رضي الله عنه سيف الله قد انتهى من مهماته مع اليمامة وبعض قبائل العرب الأخرى، فحضر المثنى إلى أبي بكر رضي الله عنه وحصل منه على إذن للهجوم على العراق ومع أن المثنى نفسه قد أسلم إلا أن جميع قبيلته كانت تدين بالنصرانية أو عبادة الأصنام، فدعا قبيلته إلى الإسلام بعد أن رجع من عند أبي بكر فأسلمت القبيلة بأكملها[٣]، فأخذ جماعة كبيرة من المسلمين الجدد واتجهوا إلى العراق، عندئذ أرسل أبو بكر رضي الله عنه خالد رضي الله عنه للمساعدة ففتح خالد جميع مناطق العراق الحدودية، ورفع راية النصر على الحيرة التي تقع على بعد ثلاثة أميال من الكوفة ويعد هذا المكان من الأماكن الأثرية لأن النعمان بن المنذر كان قد بنى فيه قصر «الخوانق» الشهير.

تدخل فتوحات العراق هذه ضمن الأعمال العظيمة لخالد إلا أن المجال هنا

---

(١) اختلف المؤرخون في تحديد أسماء وترتيب سلسلة الحكم بعد شيروية ولم يتفق عليها اثنان، واختلف بيان الفردوس عنهم جميعهم. وأرجح بيان أبي حنيفة الدنيوري نظراً لقدمه ولكونه فارسياً. وينطق حرف الجيم في يزجرد كالجيم القاهرية.

(٢) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدنيوري.

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٢١ .

لا يسمح بذكرها، وقد كان خالد على وشك الانتهاء من فتوحاته للعراق لولا ضرورة الاهتمام بناحية الشام حيث كان النصارى قد بدأوا استعداداتهم الحربية بكل ما لديهم من قوة ونشاط، ولم يكن لدى المسلمين على تلك الجبهة العتاد الحربي الكافي، ولهذا أمر أبو بكر سنة ١٣هـ/ ٦٢٤م خالدًا بالتوجه فوراً إلى الشام على أن يخلفه المثنى، وهكذا توقفت فتوحات الشام فجأة بعد تحرك خالد إلى الشام.

حين تولى عمر رضي الله عنه الخلافة، اهتم قبل كل شيء بمسألة العراق، وكان أناس لا حصر لهم قد جاءوا لبيعته على الخلافة من جميع الديار والنواحي، وظلوا يتدفقون لمدة ثلاثة أيام، فاغتنم عمر رضي الله عنه هذه المناسبة، وراح يحث الحشود المتجمعة على الجهاد، ولكن لما كان الناس يظنون أن العراق هي مقر حكومة فارس، ولا يمكن أن تفتح بدون قيادة خالد، لذا ظلوا صامتين وظل عمر يخطب فيهم لعدة أيام دون أثر يذكر، وفي اليوم الرابع ألقى فيهم خطبة حماسية أشعلت قلوبهم بالحماس، فنهض المثنى الشيباني وقال:

«أيها المسلمون لقد جربنا المجوس، إنهم ليسوا برجال حرب، لقد فتحنا كُبريات مناطق العراق واعترف العجم ببأسنا وشدتنا».

كان أبو عبيدة الثقفي من بين الحضور وهو رئيس قبيلة ثقيف المعروف، فنهض مُتحمساً وقال: «أنا لهذا»؛ أي: أنا جاهز لهذا العمل فألهبت همة أبي عبيدة جميع الحاضرين وتعالت الأصوات والصياح من كل صوب: «ونحن أيضاً مستعدون وجاهزون»، فاختار عمر ألف رجل من المدينة المنورة ونواحيها[١] وعين عليهم أبا عبيدة قائدًا.

لم يكن أبو عبيدة قد نال شرف صحبة النبي ﷺ، أي: أنه لم يكن

---

(١) برواية البلاذري، وكتب أبو حنيفة الدينوري أن عددهم خمسة آلاف.

صحابياً، ولهذا فلم يكن أحد يتوقع إمارته على الجيش حتى إن واحدًا من الناس قال بطريقة عفوية: ياعمر! اعط هذا المنصب لواحد من الصحابة، ففي الجيش مئات منهم ولا يمكن أن يكون أمير الصحابة إلا صحابياً، فنظر عمر ناحية الصحابة وقال: لقد نلتم الشرف بسبب الجرأة والثبات، ولكنكم أضعتم هذا الشرف بأنفسكم، لا يمكن أن أجعل القيادة فيمن اثاقلوا عن القتال.

ولما كانت ملاطفة الصحابة ضرورية في هذا الموقف فقد نصح عمر رضي الله عنه أبا عبيدة أن يرعى لهم حق الاحترام وأن يشاورهم في كل شأن.

كانت الحملة على العراق في عهد أبي بكر قد أفزعت وأخافت أهل إيران حتى أن بوران دخت طلبت رستم وكان ابن فرخ زاد حاكم خراسان واتصف بالشجاعة والإقدام ـ فعينته وزيراً للحرب وقالت له: أنت الآن الآمر والناهي ثم وضعت التاج على رأسه، وأمرت رجال البلاط، وكان من بينهم جميع أمراء الأمبراطورية وأعيانها أن يدينوا لرستم بالطاعة والولاء، ولأن أهل فارس رأوا نتيجة تفرقهم لذا سلموا بهذه الأحكام وأطاعوها من قلوبهم، ونتيجة لهذا وفي بضعة أيام تحسنت الأمور الإدارية تماماً واستردت الإمبراطورية الفارسية ما كان لها من قوة في عهد هرمز وبرويز.

كان أول ما فعله رستم هو الإسراع بإرسال المندوبين والنقباء إلى جميع مناطق العراق، فراح هؤلاء يثيرون في الناس الحمية الدينية حتى نشروا الثورة والعصيان ضد المسلمين في تلك المناطق لدرجة أن الثورة عمت جميع مناطق الفرات قبل وصول أبي عبيدة إليها، مما أفقد المسلمين المناطق التي كانت في حوزتهم. وأعدت بوران دخت جيشاً آخر لمساعدة رستم وعينت عليه نرسي وجابان، وكان جابان من رؤساء العراق المشهورين، وكان يحمل في قلبه عداء وضغينة للعرب، أما نرسي فكان ابن خالة كسرى، وكان يمتلك بعض مناطق العراق منذ فترة طويلة، تقدم هذان القائدان إلى العراق من طريقين مختلفين، بينما وصل أبو عبيدة والمثنى إلى الحيرة، وعرفا كل شيء

عن استعدادات العدو فرأيا من المصلحة التراجع إلى «حفان» ووصل جابان إلى النمارق وضرب خيامه بها.

جهز أبو عبيدة في تلك الأثناء الجيش بالعدة والعتاد، وتقدم وهجم بنفسه، وتواجه الجيشان معا عند النمارق، كان على ميمنة جابان وميسرته القائدان الشهيران جوسن شاه ومروان شاه واللذان خاضا المعركة بثبات لكنهما انهزما في نهاية المعركة وتم أسرهما أثناء القتال، وكان مروان شاه لسوء الحظ قد قتل، كما نجا جابان بحيلة، إذ لم يتعرف عليه الشخص الذي أسره، بعد أن قال له جابان: ما فائدتي عندك وأنا رجل كبير طاعن في السن، فأطلق سراحي، وخذ هذين الغلامين عوضاً عني، فقبل الشخص هذا العرض، وحين تعرف الناس فيما بعد على جابان تصايحوا قائلين: لا نريد أن نترك مثل هذا العدو، لكن أبا عبيدة قال نقض العهود لا يجوز في الإسلام.

اتجه أبو عبيدة بعد هذه المعركة إلى «كسكر» حيث جيش «شرسي» فالتقى الجيشان عند «السقاطية». كان جيش نرسي كبيراً وكان على ميمنته وميسرته ابنا كسرى نفسه بندويه وتيرويه، وراح نرسي يؤجل الدخول في القتال حتى تصله الإمدادات التي خرجت من العاصمة، لكن حين وصلت هذه الأخبار إلى أبي عبيدة تقدم من فوره وبدأ القتال، وانهزم نرسي هزيمة منكرة بعد معركة شرسة، ونزل أبو عبيدة في السقاطية، وأرسل كتائب من الجيش إلى هنا وهناك لتقوم بإخراج الإيرانيين من الأماكن التي اختبأوا فيها.

خضع فرخ وفراوند وكانا يحكمان على باروسما وزوابي، وللتعبير عن إخلاصهما أرسلا ذات يوم مأدبة عظيمة إلى أبي عبيدة، فسأل أبو عبيدة، هذا الطعام الشهي للجيش أم هو لي فقط؟ فقال فرخ: لم نتمكن من خدمة الجيش بمثله في هذا الوقت القصير، فرفض أبو عبيدة قبول الدعوة قائلاً: ليس بين المسلمين من يفضل نفسه على الآخر.

حين سمع رستم بخبر الهزيمة أرسل مروان شاه على رأس جيش قوامه

أربعة آلاف مقاتل، وكان مروان شاه يُكنُّ للعرب عداوة شديدة، وكان أنوشيروان قد لقبه بـ (بهمن) احتراماً، وتقدم الجيش في ظل راية كادياني التي بقيت منذ آلاف السنين أثراً ورمزاً للأسرة الكيانية وكانت تعد فاتحة النصر والظفر. اصطف الجيشان المتحاربان في مكان يسمى المروحة على الضفة الشرقية لنهر الفرات، ولما كان النهر يقف حائلًا بينهم، أرسل بهمن من يقول لجيش المسلمين إما أن تعبروا أو نعبر نحن، فقال جميع قادة أبي عبيدة في نفس واحد، يجب علينا البقاء في هذه الناحية، لكن أبا عبيدة الذي انْتَشىٰ بحلاوة الشجاعة، رأى في قولهم دليلًا على الجُبن فقال لهم: من المستحيل أن يفوقنا المجوس في ميدان التضحية والفداء ـ وكان مروان شاه الذي حمل لهم هذه الرسالة قد قال لهم إن رجال جيشنا يعتقدون أن العرب ليسوا بأهل حرب، فزادت هذه العبارة من حماس أبي عبيدة وثورته فأمر من فوره الجيش بالاستعداد، وكان المثنى وسليط وغيرهما من كبار القادة من المعارضين تماماً لهذا الرأي، وكانوا أعلى مكانة ورتبة من أبي عبيدة ـ وحين أصر أبو عبيدة على رأيه قال هؤلاء الناس: مع أننا نرى أن العمل برأيك فيه هلاك الجيش كله، لكنك قائدنا، ومخالفة أمر القائد ليس من طبعنا، والخلاصة أنهم أقاموا الجسور، وعبر الجيش بأكمله وحدثت المعركة. كان مكان العبور ضيقًا غير مستوياً، فلم يتمكن المسلمون من تنظيم الجيش لضيق الوقت.

كان منظر جيش العدو مهيباً ومخيفاً، وكان هناك كثير من الفيلة المعدة للقتال وضعت من فوقها أجراس كانت تدق فتصدر صوتًا رهيباً، وكانت الخيول مسرَّجة بالدروع الحديدية بينما كان الفرسان يرتدون قلنسوات السمور الفارعة وكأنهم حيوانات متوحشة جاءت من قلب الصحراء، لم تكن خيول العرب قد رأت مثل هذا المنظر المهيب من قبل. ففزعت وتقهقرت، وعندما رأى أبو عبيدة أنه لا توجد قوة تقف أمام الفيلة نزل عن جواده، ونادى في رفاقه: أيها الفدائيون خذوا الفيلة من بطونها واقلبوا عنها من يركبونها

ومع هذا النداء، نزل الجميع عن الخيل وراحوا يقطعون حبال الهوادج، فسقط من كانوا فيها على الأرض، فكان الفيل إذا مال سحق الصفوف من تحته، وعندما رأى أبو عبيدة هذا الحال انطلق إلى فيل أبيض كان يقود الأفيال كلها فهجم عليه وضرب خرطومه بسيفه حتى فصله فتقدم الفيل وأوقعه على الأرض ووضع قدميه على صدره حتى تكسرت عظامه.

بعد استشهاد أبي عبيدة تسلم أخوه الحكم الراية، وهجم على الفيل إلا أنه وضعه تحت قدمه وداسه، وهكذا تسلم الراية سبعة من الرجال من أقارب أبي عبيدة وممن يمتون بصلة نسب مع قبيلة ثقيف، واستشهدوا جميعهم، وفي النهاية حمل المثنى الراية لكن صورة المعركة كانت قد تغيرت، فاختل النظام وراح الجميع يهرب، ومما زاد الأمر سوءاً أن شخصاً انطلق إلى الجسر فحطمه حتى لا يفر أحد من الميدان، لكن الناس الذين كانوا يهربون ويجرون دون وعي تجاه الجسر، كانوا يلقون بأنفسهم في الماء فأصلح المثنى الجسر وأرسل جماعة من الفرسان حتى يُسهلوا عبور الهاربين وصمد هو أمام العدو وحاربه بثبات حتى أوقف جيش العدو من التقدم تجاه المسلمين، وحين أعاد حسابات الجيش عرف أنه لم يبق من التسعة آلاف مقاتل سوى ثلاثة آلاف فقط.

إن الفرار من ميدان المعركة أمر نادر في تاريخ الإسلام، وإذا ما حدث هذا كان له أثر محزن وعجيب، ولهذا ظل من أصابتهم الذلة في هذه المعركة هائمين في البادية لفترة، ولم يكونوا يذهبون إلى بيوتهم حياءً وخجلاً، وظلوا في معظم الأحيان يبكون ويخفون وجوههم عن الناس، وحين وصل هذا الخبر إلى المدينة المنورة، عم الحزن وراح الناس يأسفون على سوء حظ المسلمين، ويبكون، أما من وصل إلى بيته فكان يتوارى ولا يخرج من بيته خجلاً، فكان عمر رضي الله عنه يذهب إليهم ويواسيهم، كان يقول: لقد دخلتم في «أو متحيزاً إلى فئة» لكنهم ظلوا على ما هم عليه من أسى وحزن.

وكانت هذه الواقعة حسب بيان البلاذري يوم السبت في شهر رمضان

١٣هـ، وكان من بين كبار الصحابة الذين استشهدوا في هذه المعركة: سليط وأبو زيد الأنصاري وعقبة وعبدالله ابنا قبطي بن قيس، ويزيد بن قيس الأنصاري وأبو أمية الفزاري وغيرهم.

## واقعة بويب رمضان ١٤هـ/٦٣٥م

أثارت هذه الهزيمة عمر رضي الله عنه فراح يعد العدة للحرب بكل الوسائل، فأرسل الخطباء والنقباء إلى جميع أنحاء الجزيرة العربية فراحوا يلهبون مشاعر الحماس عند العرب بخطبهم البليغة، فقدمت قبائل العرب من كل صوب، قدم المحنف بن سليم رئيس قبيلة أزد في سبعمائة فارس، وقدم ألف رجل من بني تميم يصحبهم حصين بن معد، كما وصل عدي بن حاتم الطائي في حشد كبير، وكذلك جاءت جماعات كبيرة من قبائل رباب وبني كنانة وقثعم وبني حنظلة وبني الطيبة كل مع رؤسائهم، وعم الحماس لدرجة أن زعيمي نمر وتغلب النصرانيين قدما إلى عمر رضي الله عنه وقالا: المعركة اليوم بين العرب والعجم ونحن أيضاً مع القوم في هذه المعركة القومية، وقد جاء مع هذين الرئيسين آلاف الرجال من قبيلتهما وكانوا في شوق جارف لمواجهة العجم.

في تلك الأيام حضر جرير البجلي إلى مقر الخلافة صدفةً وكان من القادة المشهورين، وحدث أن جاء رسول الله ﷺ وطلب منه أن يعينه شيخاً لقبيلته فوافق على طلبه، لكن هذا الأمر لم ينفذ فحضر إلى عمر رضي الله عنه وكان عمر قد أرسل أوامره إلى جميع العمال في جزيرة العرب، يحدد موعد تجمع المقاتلين من مختلف القبائل، فجاء جرير البجلي بحشد كبير إلى المدينة.

ومن ناحية أخرى أرسل المثنى النقباء إلى جميع مناطق العراق الحدودية، وجمع جيشاً كبيراً، فنقل جواسيس العدو هذه الأخبار إلى البلاط الإمبراطوري، فأمرت بوران دخت بأن ينتخب اثنا عشر فارساً من خاصة

الفرسان، ويؤمر عليهم مهران بن مهرويه الهمداني، وقد أُختير مهران لأنه تربي في جزيرة العرب ولهذا كان يستطيع أن يقدّر قوة العرب.

وصل الجيش الإسلامي إلى موقع قريب من الكوفة يقال له البويب، فأقام معسكره هناك، غادر مهران العاصمة ووصل مباشرة إلى البويب فضربوا الخيام وجعلوا نهر الفرات بينهم، وفي الصباح عبر الفرات، وبدأ في تنظيم جيشه بكل ما لديه من عتاد ضخم وعدة، ونظم المثنى صفوف جيشه بإحكام شديد وقسم الجش إلى فرق مختلفة عين على كل فرقة منها صحابي كبير، فكان على الميمنة مذعور، وعلى الميسرة النسير، وعلى المشاة مسعود، وعلى المجردة عاصم، وعلى طلائع الجيش عصمة.

واستعد الجيش تماماً وراح المثنى يمر على الجيش من أوله إلى آخره، ويقف عند كل راية ويقول: أيها الأبطال أدعو الله ألا يوصم العرب جميعاً بالعار بسببكم.

كانت خطة قتال الجيش المسلم في المعركة أن يكبر القائد ثلاث مرات، فإذا ما كبّر المرة الأولى تسلح المجاهدون بحرابهم وأسلحتهم، وإذا ما كبر المرة الثانية أمسك المجاهدون في أيديهم أسلحتهم مستعدين، وإذا ما كبّر المرة الثالثة هجموا على أعدائهم.

ولم يكن المثنى قد أطلق التكبيرة الثانية حتى هجم الأعداء، فلم يستطع المسلمون ضبط أنفسهم وزاد حماس البعض حتى خرج من الصف متقدماً غيره، فغضب المثنى وراح يعض لحيته ويصيح، بالله عليكم لا تفضحوا الإسلام فتراجع أولئك الناس إلى الوراء عند سماعهم صوته، وثبت كل في مكانه، وأطلق المثنى التكبيرة الثالثة وبدأ الهجوم.

تقدم العجم يرعدون حتى ضجّ ميدان المعركة بأصوات كالرعد، فنادى المثنى في الجيش معلناً أن ما يسمعونه من ضجيج ماهو إلا ضجيج الفشل وطلب القائدين النصرانيين الذين انضموا إليه وقال لهما: إنكم من العرب

رغم كونكم نصارى واليوم يوم العرب، سأهجم على مهران وعليكم أن تكونوا معي، فقالوا له سمعاً وطاعة، فجعل المثنى من هذين القائدين ساعديه أثناء الهجوم، وفي الهجمة الأولى تمكن من كسر ميمنة مهران، ودخل في قلب الجيش، وتمالك العجم أنفسهم ثانية، وهجموا على المسلمين حتى اضطروهم للتراجع، فنادى المثنى: أيها المسلمون، إلى أين تذهبون، ها أنا ذا واقف هنا» فرجعوا ناحية النداء[1] فجمعهم المثنى وأعاد الكرّة على العدو، وفي نفس اللحظة سقط مسعود أخو المثنى، البطل الشهير، متأثراً بجراحه، فنادى المثنى، أيها المسلمون إذا كان أخي قد قتل، فلا خير في هذا، فالشرفاء يضحون بأنفسهم، انتبهوا حتى لا تنتكس رايتكم، وقال مسعود نفسه وهو يسقط لا تجزعوا لموتي.

استمرت المعركة الشديدة فترة طويلة وكان أنس بن هلال القائد النصراني قد سقط جريحاً بعد أن ظل يقاتل بفدائية لا نظير لها، فنزل المثنى نفسه عن جواده، واحتضنه ووضعه بجوار أخيه، واستشهد الكثيرون من كبار قادة المسلمين، ومع ذلك كانت كفة المعركة في صالحهم بسبب ثبات المثنى الذي قاتل قلب جيش العجم وأهلك منهم الكثير، وقتل شهربراز وكان قائدًا مشهوراً على يد قرط، وظل القائد مهران ثابتا يقاتل بسيفه في شجاعة كبيرة حتى قتله فتى من قبيلة بنى تغلب بسيفه، فسقط مهران من فوق فرسه فامتطاه الفتى وصاح مفتخراً: أنا فتى تغلب أنا قاتل رئيس العجم[2].

وبقتل مهران انتهت المعركة، وفرّ العجم وقد سادهم الاضطراب وعمتهم الفوضى، إلا أن المثنى وصل إلى الجسر وقطع الطريق حتى لا يجدوا وسيلة للفرار، وطبقًا لما أورده المؤرخون لم تخلف أي حرب هذا القدر من الجثث الذي لا يحصى ولا يعد، والذي بقي ذكرى لهذه الحرب، وهكذا ظل

---

(١) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري.

(٢) الطبري برواية سيف.

المسافرون من تلك الناحية يشاهدون أكوام العظام المتناثرة في كل مكان لزمن طويل، وكان لهذا الفتح أثر خاص، فقد انقشعت سحابة الخوف من العجم التي ظلت لفترة تخيم على العرب، وتأكد لهم أن نهاية كسرى قد قربت، وحسب قول المثنى نفسه: لقد خضت معارك عديدة مع العجم قبل الإسلام، فكان مائة من العجم آنذاك أشد من ألف من العرب، لكن العربي اليوم أشد من عشرة من العجم.

وانتشر المسلمون بعد هذه المعركة في جميع مناطق العراق.

في ذلك الزمان كان يقام سوق كبير حيث توجد مدينة بغداد اليوم، فأغار عليها المثنى يوم سوقها، ففر أصحاب السوق ناجين بأرواحهم مخلفين وراءهم أموالاً لا حصر لها وأمتعة لا طائل لها، وحين وصلت هذه الأخبار إلى العاصمة قال الجميع بلسان رجل واحد، لقد كانت الهزيمة نتيجة لحكم المرأة علينا، والخلافات التي نشبت بيننا، عندئذ خلعوا بوران دخت من العرش، وأجلسوا بدلاً منها يزدجرد ابن السادسة عشرة[1]، فكان آخر من تقلد الحكم من آل كسرى وآخر ذكراهم، أما رستم وفيروز اللذان كانا اليد اليمنى للإمبراطورية فكانت بينهما عداوة شديدة، فقال لهم مستشارو البلاط، إذا لم تعملا معًا في انسجام وتعاون، فيمكننا القضاء عليكما، والخلاصة أن عهداً جديداً في الإمبراطورية بدأ مع جلوس يزدجرد على العرش، واستعد رجال الدولة وقادة الجيش للقيام بواجبهم كلٌّ في موقعه فحُصِّنت جميع القلاع والمعسكرات، وأُعلن العصيان بدعم من العجم في جميع مدن العراق التي فتحها المسلمون، وانفلت زمام أمورها من يد المسلمين.

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى عمر رضي الله عنه أرسل أوامره للمثنى بأن يجمع الجيش من كل صوب، ويتراجع إلى حدود الجزيرة العربية، وأن

(١) هذه رواية الدينوري، وذكر الطبري أن عمره ٢١ سنة.

يُرسل الأوامر في طلب رجال قبائل ربيعة ومضر المنتشرين على حدود العراق ليتجمعوا معًا في وقت معين.

هذا إلى جانب قيام عمر رضي الله عنه نفسه بإعداد جيش قوي مزود بالعدة والعتاد، كما أرسل النقباء إلى كل مكان لاستدعاء القادة والرؤساء وأصحاب الرأي والمشورة، والشعراء والخطباء من كل مكان في الجزيرة العربية حتى يأتوا إلى دار الخلافة، ولما كان الزمان زمان الحج، ذهب عمر بنفسه إلى مكة المكرمة، ولم يكد يفرغ من أداء شعائر الحج حتى تدفقت قبائل العرب من كل ناحية كالطوفان، وأرسل سعد بن أبي وقاص ثلاثة آلاف رجل، كان كل واحد من هؤلاء صاحب سيف وعلم، وجاء كبار رؤساء حضرموت وصدف ومذجج وقيس وعيلان في صحبة آلاف الرجال، ومن القبائل الشهيرة في اليمن حضر الآلاف أيضاً، فقد جاء من بني تميم وبني رباب أربعة آلاف ومن بني أسد ثلاثة آلاف رجل.

وحين رجع عمر رضي الله عنه بعد أداء شعائر الحج، كان كلما نظر هنا أو هناك تراءت له غابة واسعة من الرجال، فأمر أن يتأهب الجيش ويستعد لأنه سيكون على رأس هذا الجيش يقوده في معركة الجهاد، وهكذا عين طلحة في المقدمة، والزبير في الميمنة وعبدالرحمن بن عوف في الميسرة، وبعدها استدعى علياً رضي الله عنه وأوكل إليه أمور الخلافة، وخرج من المدينة متجهاً إلى العراق، وأثارت استعدادات عمر رضي الله عنه هذه حماساً بين الناس فاستعد الجميع للتضحية والشهادة ـ ووصل الجيش إلى صرار على بعد ثلاثة أميال من المدينة، حيث توجد آبار للمياه، فكان هذا أول منزل من منازل السفر، ولما كان ذهاب أمير المؤمنين بنفسه إلى ساحة المعركة لا يتناسب مع الصالح العام من بعض الزوايا، لهذا جمع الجيش، وطلب المشورة، فكان إجماع الآراء على أن هذه المهمة لن تتم إلا بوجود أمير المؤمنين. لكن بعض الصحابة ممن كانوا يفقهون مجريات الأمور، رأوا

خلاف ذلك، فقال عبدالرحمن بن عوف: إن للمعركة جانبين فلو حدثت الهزيمة ـ لا قدر الله ـ وأصابك مكروه، فسيكون في هذا نهاية الإسلام، فوقف عمر رضي الله عنه وألقى خطبة مؤثرة وخاطب جموع الناس من عامة الجند قائلًا: كنت أود أن أعمل برأيكم، لكن أكابر الصحابة لا يتفقون مع هذا الرأي ـ والخلاصة أنه تم الاتفاق على ألا يقود عمر رضي الله عنه الجيش بنفسه، إلا أن المشكلة تمثلت في عدم وجود من هو جدير بتولي هذه المهمة الصعبة فقد كان أبو عبيدة وخالد مشغولين بحروب الشام، وطُلب من علي رضي الله عنه أن يتولى هذا الأمر إلا أنه رفض وظل الناس في «حيص بيص» حتى نهض عبدالرحمن بن عوف فجأة وقال: «لقد وجدته» فقال عمر رضي الله عنه من؟ قال: «سعد بن أبي وقاص».

كان سعد بن أبي وقاص من كبار الصحابة وكان خال رسول الله ﷺ، كان الجميع يعترفون بشجاعته وبسالته، إلا أن كفاءته فيما يتعلق بقيادة الجيش والتخطيط للحرب كانت غير مطمئنة مما جعل عمر رضي الله عنه يتردد في اختياره، ولكن حين أيد جميع الحضور رأى عبدالرحمن بن عوف وافق عمر رغماً عنه، ورغم ذلك تولى عمر بنفسه زمام الأمور كلها على سبيل الحذر والحيطة، ولهذا ظل طوال المعارك، ومن بدايتها حتى نهايتها يتولى أمور تحريك الجيش، والهجوم وتنظيم المجاهدين وتوزيع الكتائب وغيرها، ولم يكن من الممكن أن يتخذ أي إجراء مهما كان دون أمر منه حتى إنه حدد بنفسه جميع منازل الجيش من المدينة حتى العراق وقد أوردها الطبري بأسمائها كاملة.

**وخلاصة القول** أن سعد بن أبي وقاص استطلع الجيش وانطلق من المدينة إلى أن وصل ثعلبة بعد أن طوى سبعة عشر أو ثمانية عشر منزلاً[١]، وعسكر بها، وتقع ثعلبة على بعد ثلاثة منازل من الكوفة، وكان يقام بها كل شهر

---

(١) ذكر البلاذري ثعلبة بينما ذكر الطبري «ورد» وهذان المكانان قريبان من بعضهما بل متصلان معاً.

سوق نظراً لوفرة المياه وجمال المكان، فأقام الجيش هناك ثلاثة أشهر، وكان المثنى موجوداً عند ذي قار، في ثمانية آلاف من الرجال من بينهم ستة آلاف من شباب بكر بن وائل، في انتظار قدوم سعد ليتقدم معه تجاه الكوفة، ولكن الجروح التي أصابته في معركة الجسر ساءت فتوفيِّ بسببها، ومضى سعد من ثعلبة ووصل إلى شراف فعسكر فيها، وهناك جاءه المعنى أخو المثنى وأبلغه مشورة المثنى الهامة، ولما كانت أوامر عمر رضي الله عنه تقتضي أن يكتبوا إليه بكل شيء يتعلق بأماكن تواجد الجيش وجميع أحواله لذا كتب إليه سعد موضحًا خريطة المكان ونشر الجيش، وأماكن نزوله، وطريق الإمدادات، وغيرها، وجاءته من هناك الأوامر بالتفصيل، ومن بينها نصائح كثيرة مع قواعد وأصول ترتيب الجيش، فقام سعد، طبقًا لتلك الأوامر بتفقد الجيش أولاً، وكان قرابة ثلاثين ألف رجل، بعدها قسم الجيش إلى ميمنة وميسرة وعين على كل كتيبة قائداً، ويتضح تقسيم الجيش إلى كتائب مختلفة على رأس كل منها ضابط لها، من الجدول التالي طبقاً لما ورد في الطبري.

| توزيع الجيش | القائد | نبذة مختصرة |
|---|---|---|
| مقدمة الجيش | زهرة بن عبدالله بن قتادة | كان ملكًا على البحرين في الجاهلية قدم إلى رسول الله ﷺ ممثلًا لقبيلته وأسلم. |
| الميمنة | عبدالله بن المعتصم | كان صحابياً |
| الميسرة | شرحبيل بن السمط | كان شاباً نال شهرة كبيرة في حرب المرتدين |
| الساقة | عاصم بن عمرو التميمي | |
| الطلائع | سواد بن مالك | |
| المجردة | سلمان بن ربيعة الباهلي | |
| المشاة | جمال بن مالك الأسدي | |

| الركبان (راكبو البعير) | عبدالله بن ذي السهمي | |
|---|---|---|
| القضاء والأمور المالية | عبدالله بن ربيعة الباهلي | |
| الرائد القائم على شئون التموين | سلمان الفارسي | الصحابي المشهور وهو من أهل فارس |
| المترجم | هلال الهجري | |
| الكاتب | زياد بن سيف | |
| الطبيب[1] | | |

كان من بين أمراء الأعشار سبعون صحابياً ممن شاركوا في غزوة بدر، وثلاثمائة ممن حضروا بيعة الرضوان، ونفس العدد من الصحابة الذين شهدوا فتح مكة، وسبعمائة من أولاد الصحابة، كان سعد في «شراف» حين وصله أمر من دار الخلافة مفاده أن يتحرك من شراف ويعسكر في القادسية[2] ويقيم خط دفاع قوي بحيث تكون أرض العجم من أمامه وجبال جزيرة العرب من خلفه، فإذا ماتم النصر، يمكنك التقدم حيثما تشاء، وإذا حدث غير ذلك ـ لاقدر الله ـ يمكنك التراجع واتخاذ الجبال ملاذاً آمناً.

كانت القادسية خصبة جداً، وكانت مكانا آمنا بسبب الأنهار والجسور، وكان عمر رضي الله عنه يمر كثيراً من هذه الأماكن زمان الجاهلية، فكان على علم بحالة هذا المكان ومواصفاته الدقيقة، ولهذا كان الأمر الذي تسلمه سعد مُشار فيه إلى موقعها ومكانها، رغم مرور فترة زمنية بعيدة (على مرور عمر رضي الله عنه من ذلك المكان) كتب إلى سعد مايلي:

«أكتب لي بالتفصيل عن منطقة القادسية بعد أن تصل إليها، فأنا لم أذكر

(١) لم يذكر الطبري للأسف أسماء الأطباء، وأشار فقط إلى أن عمر رضي الله عنه أرسل الأطباء مع الجيش.

(٢) مدينة صغيرة على بعد ٣٥ ميلًا من الكوفة.

بعض الأمور الهامة لأنني لم أكن أعرف حالة المكان والمنطقة بطريقة جيدة.

فكتب إليه سعد مفصلًا الحديث عن حدود موقع المعركة وكيفيتها، فجاء الإذن من بلاط الخلافة بالتحرك، وهكذا غادر سعد «شراف» ووصل العذيب حيث مخازن أسلحة العجم، فغنموها دون قتال. وبعد أن وصل سعد إلى القادسية راح يرسل رجاله إلى هنا وهناك ليأتوه بخبر العدو، ورجعوا ليخبروه بأن رستم (ابن فرخ زاد) رئيس أرمينية تولى رئاسة الجيش، وقدم من المدائن وعسكر في «ساباط» فأطلع سعد عمر رضي الله عنه بالأمر، فجاءه أمر من الخليفة بأن يبعث إلى الفرس رجالاً يدعونهم إلى الإسلام، وذلك قبل الدخول في القتال، فاختار سعد رضي الله عنه أربعة عشر رجلًا من رجال القبائل المعروفين اختارهم نظراً لما كانت لهم من صفات اشتهروا بها في جزيرة العرب كلها: عطارد بن حاجب، أشعث بن قيس، حارث بن حسان، عاصم بن عمر، عمر بن معدي يكرب، والمغيرة بن شعبة، والمعني بن حارثة، وهؤلاء اشتهروا بين العرب بطول قاماتهم ومهابتهم، كما كان النعمان بن مقرن، وبسر بن أبي وهم وحملة بن جوية وحنظلة بن الربيع التميمي، وفرات بن حيان العجلي، وعدي بن سهيل، والمغيرة بن زراه ممن فاقوا أهل الجزيرة في العقل والتدبير والحزم والسياسة.

كانت اصطخر عاصمة الساسانيين في الأزمنة القديمة، إلا أن أنوشيروان اتخذ من المدائن عاصمة له، ومنذ ذلك الوقت صارت المدائن هي العاصمة، كانت اصطخر تبعد عن القادسية حيث عسكر سعد بمسافة ثلاثين أو أربعين ميلًا، فركب السفراء الخيول ووصلوا المدائن مباشرة وفي الطريق ومن حيث كانوا يمرون كانت حشود الناس تتجمع لمشاهدتهم، حتى وصلوا بالقرب من باب العاصمة، وكان مظهرهم الخارجي يلفت انتباه الحشود، فلا سروج على الخيل، ولا أسلحة في اليد، لكن الجرأة والشجاعة مرسومتان على الوجه، مما ترك أكبر الأثر على المشاهدين، كانت الخيول التي يركبونها ضامرة، تضرب الأرض بحوافرها باستمرار بصوت مسموع، وصل حتى إلى

مسامع يزدجرد الذي استفسر عن هذه الأصوات، وعرف أن سفراء الإسلام قد حضروا، عندئذ أعد بلاطه بكامل الزينة والأبهة، وطلب السفراء، فدخلوا وهم يلبسون الجبة العربية وعلى أكتافهم الرداء اليمني وفي أيديهم السياط وفي أرجلهم النعال، وكانت المعارك قد أرهبت الفرس من العرب، وعندما رأى يزدجرد السفراء بهيئتهم تلك طرأ عليه الخوف.

اعتاد الإيرانيون عامة على التفاؤل والتشاؤم من أي شيء، وحين سأل يزدجرد، ماذا يطلقون على الرداء باللغة العربية، قالوا له «برد» فقال هذا معناه بالفارسية، جهان بُرد أي: القضاء على العالم، ثم سألهم عن السوط ماذا يقال لهم بالعربية، فقالوا: سوط فظنها سوخت، فقال، بارس راسوختند أي: أحرقوا فارس، فاضطرب جميع من كانوا في البلاط من هذا الفأل السيىء، ولم يستطع أحدهم أن ينطق بكلمة مراعاة للآداب الملكية ثم سأل: لماذا جئتم إلى هذه البلاد؟ فتقدم النعمان بن المقرن ليجيب عليه، وكان على رأس الوفد، فعرض أولاً رسالة الإسلام باختصار ثم قال: إننا نقدم للدنيا كلها شيئين اثنين: الجزية أو السيف، فقال: يزدجرد ألا تتذكرون أنه لم يكن في الدنيا كلها أمة اشقى منكم وأذل، وأنكم كنتم إذا عصيتم لنا أمراً، قام ولاة المناطق الحدودية بكسر شوكتكم بناء على أوامرنا.

عندئذ سكت الجميع، إلا المغيرة بن زراة لم يستطع أن يتحكم في مشاعره فنهض وقال: هؤلاء الناس (وأشار إلى رفاقه) هم سادة العرب ولا يريدون تجاوز حدود الكلام لما فيهم من حلم ووقار، وقد قالوا ما يليق بالمقام هنا ولكن بقي حديث يجب أن يُقال، وأعرضه أمامك: صحيح كنا بائسين ضالين، نتقاتل فيما بيننا، نئد بناتنا، لكن الله بعث فينا رسولاً هو خيرة أهلنا حسباً ونسباً، خالفناه في البداية، صدق وكذّبْنا، تقدم وتراجعنا وبالتدريج ترك كلامه في قلوبنا أعظم الأثر فقد كان كل ما يقول بحكم من الله، وكان كل ما يفعل بأمر من الله، وقد أمرنا أن نقدم هذا الدين للعالم أجمع فمن قبله كان

له جميع حقوق المسلمين، ومن رفضه ورضي بالجزية كان في حماية الإسلام، ومن رفض الأمرين معًا وجب قتاله.

غضب يزدجرد وقال: لو جاز قتل الرسل، لما أبقيت على أحد منكم، قال هذا وأمر بوقر من تراب، ثم قال: من أشرفكم ؟ فتقدم عاصم بن عمر وقال: أنا ـ فوضع الخدم وقر التراب على رأسه فركبوا خيلهم ووصلوا إلى سعد وقالوا: «نصر مبارك! لقد سلمنا العدو أرضه بيده».

بعد هذه الواقعة ظل الهدوء مخيماً على الفريقين لفترة طويلة، وكان رستم المُعيّن من قبل الإمبراطورية الإيرانية على رأس هذه المهمة، في ساباط مع جيشه، يماطل في دخول الحرب رغم تأكيد يزدجرد، بينما كان المسلمون مستمرين في الإغارة على القرى القريبة منهم، يسلبون المواشي وغيرها، يعززون بها المؤن، في تلك الأثناء قدم بعض رؤساء الفرس ومن بينهم (جوشن ماه) المكلف بكتابة أخبار الحدود، وطال الأمر على ماهو عليه عندئذ وصلت السرايا أفواجاً بعد أفواج إلى يزدجرد، وراحوا يستغيثون يطلبون منه الحماية وإلا انضموا إلى العرب، واضطر رستم رغماً عنه أن يتقدم للدخول في المعركة، فخرج من ساباط في ستين ألف رجل، ووصل القادسية وعسكر بها، وكان الجيش يرتكب تجاوزات شنيعة في المناطق التي مرّ بها بينما كان جميع القادة يشربون الخمر ويرتكبون الحماقات ولا يبالون بتقاليد الناس وحرماتهم، مما جعل الناس يعتقدون أن الإمبراطورية الفارسية على وشك الانهيار.

في اليوم الذي تقدمت فيه جيوش رستم من ساباط، أرسل سعد الجواسيس في كل ناحية، فظلت الأخبار تصله لحظة بلحظة، وعين قائدًا عسكرياً تكون مهمته التعرف على أحوال وظروف جيش الفرس، وتنظيمه وترتيبه، خططه ووجهته، وفي سبيل جمع هذه المعلومات كان الأمر يصل أحياناً إلى المواجهة مع العدو، وحدث مرة أن دخل طلحة ليلًا إلى معسكر

جيش رستم متنكراً، فرأى جواداً نجيباً مربوطاً في مربط الخيل، فقطع بسيفه لجامه وربطه مع لجام فرسه، واستيقظ الناس في ذلك الوقت وانطلقوا خلفه، وكان الجواد لقائد مشهور، يعادل ألف فارس، اقترب هذا القائد ورماه برمحه فتفاداه فسقط على الأرض، انحنى طلحة ورماه بالرمح فأصابه في صدره، وكان معه فارسان قتل أحدهما على يديه وطلب الآخر الأمان شريطة أن يذهب معه أسيراً، عندئذ ساد الهرج والمرج الجيش كله، وتجمع الناس من كل ناحية وصوب لكن طلحة خرج سالماً وهو يحارب هنا وهناك وسط جيش مكون من ستين ألف مقاتل، أصابهم الذهول وعمتهم الدهشة، وأسلم الأسير أمام سعد رضي الله عنه وقال: إن الفارسَينْ اللذين قُتلا على يد طلحة كانا ابني عمه، ويعد الواحد منهما بألف فارس، وتسمى الأسير بمسلم، وبسبب مسلم هذا تعرفوا على أمور كثيرة عن جيش العدو ما كان من الممكن أن يعرفوها ولو حاولوا شتى الطرق، وظل مسلم يشارك في جميع المعارك التالية وأظهر ثباتًا وتضحية في كل وقت.

ولما كان رستم يتحاشى الدخول في المعركة، فقد سعى إلى الصلح مرة أخرى، وأرسل رسالة إلى سعد ليرسل له رجلًا ثقة من عنده ليناقش معه أمر الصلح، فأرسل سعد رضي الله عنه رُبعي بن عامر ليتولى هذا الأمر، فسار ربعي في هيئة عجيبة وغريبة، «تدرع بمعرقة وشد رأسه بمعرجة وربط على خصره بسلب ولف حول غمد سيفه ثوباً خرقاً» وتوجه إليهم على فرسه وهو بهذا المنظر الغريب، بينما نصب الفرس الزينات في بلاطهم وفرشوا البلاط ببسط من حرير ووسائد من ذهب وعلقوا الستائر وكان العرش المرصع في صدر البلاط، وصل ربعي قريباً من الفُرش فترجل وربط جواده في وسادة.

ورغم أن رجال البلاط لم يعلقوا بشيء على لا مبالاته تلك إلا أنهم أرادوا منه أن يضع السلاح طبقًا للقواعد المتبعة فقال:

«أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتي هكذا أرجع» فعرض رجال البلاط الأمر

على رستم، فسمح له بالدخول، فتقدم ببطء وبلا مبالاة شديدة تجاه العرش، لكنه كان يضرب بنصل رمحه الذي كان يتوكأ عليه كالعصا في البُسط والسجاجيد حتى تمزقت ولم تعد تصلح لشيء ولما وصل قريباً من العرش ضرب الرمح في الأرض ضربة جعلته يخترق السجاد وينفذ إلى الأرض، سأله رستم:

ماذا جاء بكم إلى هذا البلد؟

قال: لنخرج الناس من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق. قال رستم: سأتشاور مع أركان المملكة ثم أجيبك، وقدم رجال البلاط إلى ربعي مرة بعد مرة وراحوا ينظرون إلى سلاحه ويقولون: هل ينوون فتح إيران بهذا السلاح؟ لكن عندما أخرج ربعي السيف من غمده برق السيف في العيون وعندما قدموا تروسهم لاختبار السيف، قطعها ربعي إرباً إرباً تطايرت من حولهم، عندئذ رجع ربعي إلا أن المراسلات استمرت بين الفريقين.

ذهب المغيرة في السفارة الأخيرة، وعندها زين الفرس بلاطهم بكل زينة، حتى أن القدماء والقادة اصطفوا على الكراسي وعلى رؤوسهم التيجان وفرشت الخيام بالديباج والسنجاب، ووقف الخدم والمسئولين في صفين، نزل المغيرة من على فرسه وتقدم مباشرة وجلس مع رستم جنباً إلى جنب فغضب كل من في البلاط لهذه الوقاحة حتى أن الحراس أمسكوه من ذراعه وأنزلوه من على العرش، فخاطب المغيرة رجال البلاط قائلًا:

«لم آتي بنفسي ولكنكم دعوتموني لهذا فسلوككم هذا لا يليق مع الضيف، ونحن لسنا مثلكم، يجلس بيننا شخص كالإله ويحني الناس الآخرون أمامه رؤوسهم كالعبيد».

وكان المترجم الذي يدعى عبود من أهل الحيرة قد ترجم هذه الخطبة فتأثر بها من كان في البلاط وقال بعضهم لبعض لقد أخطأنا حين اعتبرنا هؤلاء القوم أذلة.

وخجل رستم أيضاً وقال محاولاً إخفاء علامات الندم:

كان هذا من خطأ الخدم، ولم يكن بأمر أو إشارة مني، وبلا تكلف أخرج السهام من جعبة المغيرة وراح يتأملها قائلًا : ماذا عساها تفيد هذه المغازل ؟ فرد المغيرة: الجمرة نارٌ حتى ولو كانت صغيرة ـ وبعد أن تفحص غمد سيفه قال: ياله من رث مُتهالك ؟ فقال المغيرة: «نعم هو رث الكسوة حديد المضربة»، وبعد هذا الحديث اللاذع بدأ الحديث الجاد في الأمور الأساسية، فذكر رستم عظمة الإمبراطورية وقوتها ثم قال وكأنه يمن ويحسن: لو رجعوا الآن من حيث جاءوا فلن يضايقنا هذا بل سنمنحكم العطايا والهبات، فوضع المغيرة يده على قبضة يده وقال: إن لم تقبلوا الإسلام والجزية فسيكون هذا (السيف) هو الحكم، فاستشاط رستم غضباً وقال: أقسم بالشمس لسوف أقضي على العرب غداً، ونهض المغيرة وانصرف وانتهت جميع الآمال في الصلح والمهادنة.

# معركة القادسية [١] والنصر

## محرم سنة ١٤هـ/٦٣٥م

كان رستم حتى ذلك الوقت يتحرز من الدخول في القتال إلا أن حديث المغيرة أثار فيه الحمية لدرجة أنه أمر بالاستعداد للقتال فوراً، ولما كان النهر حائلًا بينهما أمر بردمه وبناء طريق عليه وتم هذا حتى الصباح وعبر الجيش النهر قبيل الظهر، وأعد أسلحته للقتال، ولبس رستم درعين ذهبيين، ووضع الخوذة على رأسه وجهز سلاحه وطلب جواده الخاص به وقال بحماس: «غداً سأدق العرب دقاً»، فقال أحد جنوده: «إن شاء الله»، فقال رستم: «وحتى إن لم يشأ».

جهز رستم الجيش ونظمه تنظيماً دقيقا، في ثلاثة عشر صفاً الواحد تلو الآخر، وجعل الفيلة خلف قلب الجيش وكأنها قلعة محصنة، ووضع الجنود المدججين بالسلاح في هوادج الفيلة ورتب الأفيال على هيئة قلعة خلف الميمنة والميسرة وعين رجالاً على مسافات قصيرة من بعضهم لتوضيح أخبار المعركة من ميدان القتال إلى العاصمة، فكان إذا جدّ جديد صاح أحدهم منادياً، فيقوم التالي بترديد ما قاله زميله حتى يصل الخبر إلى المدائن.

كان في القادسية قصر قديم، يقع تماماً على ناحية من ميدان المعركة، ولأن سعداً كان يشكو من مرض «عرق النساء» فلم يكن باستطاعته المشي والحركة لهذا لم يستطع الاشتراك مع الجيش، فكان يشرف على سير القتال من غرفة عالية مستنداً على وسادة، وعين خالد بن عرفطة للقيادة مكانه، ومع

---

(١) كانت القادسية مدينة مشهورة في العراق العربي، وكانت وسط المدائن السبعة وهي الآن منطقة خربة، وهي في الخريطة المثبتة في الكتاب يفهم أنها متصلة بمدينة المدائن .

ذلك كان هو الذي يحرك الجيش في المعركة، فكان يلقي بأوامره مكتوبة إلى خالد كلما دعت الحاجة، فيغير خالد خطة القتال من حين لآخر طبقاً لما يتلقاه من أوامر، إن تطور فنون الحرب في العصور الأولى للحضارة بهذا القدر مثير للدهشة، وهو دليل على ذكاء العرب وكفاءتهم في القتال.

استعدت الجيوش بأسلحتها، وخرج شعراء وخطباء العرب المشهورون إلى الصفوف فألهبوا بحماستهم الجيش بأكمله، كان من بين هؤلاء الشعراء: السماح، والحطيئة وأوس بن المغراء، وعبدة بن الطيب وعمرو بن معديكرب، وكان من بين الخطباء: قيس بن هبيرة، وغالب بن الهذيل الأسدي، ويسر بن أبي وهم الجهني، وعاصم بن عمرو، وربعي بن عامر الذين راحوا يخطبون في الميدان بينما صار الجيش وكأنه مسحور بما يسمع، وهناك عبارات وردت جديرة بأن تذكر، منها ما جاء على لسان ابن هذيل الأسدي:

«يامعاشر سعد! اجعلوا حصونكم السيف، وكونوا عليهم كأسود الأجم وادرعوا العجاج وغضوا الأبصار، وإذا كلّت السيوف فأرسلوا الجنادل فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد».

وإلى جانب هؤلاء خرج القراء إلى الميدان، وبدأوا يقرأون آيات من سورة الجهاد بصوت عذب وبحماس فاهتزت القلوب واحمرت العيون، وطبقًا للخطة المتفق عليها أطلق سعد ثلاث تكبيرات، وبدأت المعركة عند التكبيرة الرابعة، وفي البداية نزل أحد الفرس إلى الميدان، كان يضع على جسده يلمق ديباج مع مئزر ذهبي، وأساور ذهبية، فخرج له عمرو بن معد يكرب، فأطلق عليه الفارسي سهمه، فأخطأه بقدر شعرة، فتقدم عمرو بجواره واقترب منه، ووضع يده في مئزره ورفعه ثم ألقاه على الأرض، وجزّ رقبته بسيفه ثم خاطب الجيش: «هكذا نحارب، فقال الجند: كيف يمكن أن يكون كل شخص معديكرب!» بعده خرج أبطالٌ آخرون من الطرفين فأظهروا شجاعة فائقه، ثم بدأت الحرب الشاملة فساق الفرس الفيلة إلى كتيبة بجيلة وكانت أفضل

كتائب الجيش، ولم تكن خيل العرب قد رأت هذه الجبال السود من الفيلة فتهربت وتفرقت، وحارب المشاة بثبات، لكن سيل الفيلة الجارف غطّاهم فداستهم الفيلة، وحين رأى سعد ماحدث أمر قبيلة أسد بمساعدة جبيلة، فخاطب طلحة ـ وكان سيد القبيلة وبطلًا عظيماً ـ رفاقه قائلًا : أخوتي إن سعدا يطلب مساعدتكم، فتحمّست القبيلة بأكملها، وأطلق رجالها العنان لأنفسهم وحملوا الرماح وهجموا على الفيلة، وهدأت هذه العاصفة السوداء قليلًا نظراً لما أبدوه من شجاعة، إلا أن الفرس عادوا وهجموا على «بجيلة» فأرسل سعد إلى قبيلة تميم التي اشتهرت برمي السهام والطعن بالرماح، فأرسل إليهم من يقول لهم: ألا تستطيعون أن تدبروا حيلة لهذه الفيلة، سمعوا هذا فاندفعوا مرة واحدة، وأمطروا الفيلة بوابل من السهام حتى قتلوا من عليها، فتساقطوا واحداً واحداً، ثم اقتربوا منها، وقلبوا هوادجها ومحفاتها، واستمر هذا القتال الشديد حتى المساء، وعندما خيم الظلام رجع الفريقان من الميدان، وكان هذا أول نزال في معركة القادسية ويقال له بالعربية: «يوم الأرماث».

في الوقت الذي كان يجلس فيه سعد مع زوجته سلمى في شرفة القصر، ويشرف على سير المعركة، كان يجزع ويغضب كلما ساق الفرس الفيلة إلى الأمام فيتقهقر المسلمون، وحين رأته سلمى يتقلب يميناً وشمالاً صاحت رغماً عنها: وا أسفاه! آه لو كان المثنى اليوم بيننا ـ فصفعها سعد قائلًا : لو كان بيننا اليوم ماذا كان يفعل، قالت سلمى: سبحان الله «أغيرة وجبناً» ، وكانت تشير إلى عدم اشتراك سعد في القتال.

في اليوم التالي أمر سعد بدايةً بحمل جثث الشهداء من ميدان القتال ودفنها، وسلم الجرحى للنساء ليضمدن الجروح ثم أمر الجيش بالاستعداد، ولم يكن القتال قد بدأ حتى شوهدت عاصفة ترابية من ناحية الشام، وعندما انقشعت عُلم أن القوات المساعدة التي أرسلها أبو عبيدة من الشام قد

وصلت، ففي الوقت الذي كان عمر رضي الله عنه يستعد فيه للهجوم للعراق كتب إلى أبي عبيدة الذي كان مكلفاً بمهمة فتح الشام آنذاك يأمره أن يلحق بجيش سعد، وهكذا وصل هذا الجيش في الوقت المناسب وأعتبر هذا تأييداً غيبيًا. كان الجيش مكوناً من ستة آلاف جندي، منهم خمسة آلاف من ربيعة ومضر، وألفاً من أهل الحجاز، وكان على رأسهم (أخو سعد) هاشم بن عتبة، وعلى مقدمتهم القعقاع، وعندما وصل القعقاع برز من بين الصفوف ونادى. هل من بين الفُرس شجاع يأتي للمبارزة فخرج إليه بهمن، فذكره القعقاع بواقعة الجسر وصاح: «لن يفر قاتل أبي عبيد» وتبارز الخصمان بالسيف وبعد كرّ وفرّ قتل بهمن، وظل شجعان وأبطال الجانبين ينزلون إلى أرض المعركة يظهرون دروباً من الشجاعة كلٌ على حدة، وهكذا قُتل براز أمير سيستان على يد الأعور بن قطبة، وقُتل برزجمهر الهمداني ـ وكان بطلًا مشهوراً ـ على يد القعقاع، والخلاصة أن جيش الفرس فقد أكثر أبطاله المشهورين قبل بدء المعركة الشاملة، ورغم ذلك تقاتل الجيشان بشراسة وضراوة.

قسم القعقاع الجيش المعاون القادم من الشام إلى كتائب صغيرة متتالية فإذا ما وصلت كتيبة إلى أرض المعركة ظهرت الأخرى من بعيد، وهكذا استمرت حركة الكتائب القادمة طوال اليوم مما أصاب الفرس بالرعب والخوف إذ كانت كل كتيبة تهجم على الجيش ومعها القعقاع، ويصيح الله أكبر الله أكبر.

فيما يتعلق بالفيلة فكر القعقاع في خطة، فوضع البراقع على الإبل فصارت مهيبة المنظر كالفيلة، فكانت كلما اتجهت إلى ناحية أصابت خيل الفرس بالرعب والفزع، فتنفر وتخرج عن سيطرة الفرسان.

وفي الوقت المناسب وصل رسل عمر ومعهم جياد عربية أصيلة وسيوف قاطعة، فنادوا في الجيش أن أمير المؤمنين أرسل هذه المكافأة لمن يستطيع أن يؤدي حقها لذا سلم القعقاع السيوف إلى حمال بن مالك، وربيل بن عمرو

وطليحة بن خويلد وعاصم بن عمرو والتميمي وسلم الخيول إلى أربعة من أبطال وشجعان قبيلة يربوع، وأنشد ربيل هذا البيت على البديهة مفتخراً:

لقد عَلِمِ الأقوام أنا أحقهم إذا حصلوا بالمرهفات البواتر

وحين كانت الحرب على أشدها، كان أبو محجن الثقفي الشاعر المعروف والفارس المشهور الذي سجنه سعد لشربه الخمر، يراقب سير المعركة من فتحة في باب السجن فتنتابه الحماسة ويتوق للخروج للقتال، ولم يتمكن من ضبط مشاعره فقال لسلمى (زوجة سعد) بالله عليك أطلقيني فإن سلمت في المعركة رجعت ولبست القيود بنفسي، فرفضت سلمى، فأصابته حسرة وراح يردد هذه الأشعار بلهجة ملؤها الحزن والألم:

كفى حزناً أن تردى الخيل بالقنا وأترك مشدودًا على وثاقيا

إذا قمت عناني الحديد وأغلقت مصاريع من دوني تصم المناديا

تركت الأبيات أثرها على قلب سلمى، ففكت قيوده، فانطلق إلى الإصطبل وشد السرج على فرس لسعد تسمى البلقاء، ووصل إلى ميدان المعركة، وتناول الرماح وراح يتحرك من الميمنة إلى الميسرة، ثم هجم بقوة وشدة حتى إنه كان يقلب الصفوف في كل ناحية اتجه إليها، ودهش الناس جميعاً: من هذا البطل المغوار ؟!

تعجب سعد أيضاً وراح يخاطب نفسه، هذه طريقة هجوم أبي محجن، لكنه سجين في سجنه، وفي المساء قدم أبو محجن، ووضع نفسه في القيود، وأخبرت سلمى زوجها بما حدث فأطلق سراحه في الحال وقال: «والله لا يمكن أن أعاقب شخصًا يضحي من أجل المسلمين هكذا» .

فقال أبو محجن: والله لن تمس يدي الخمر أبدًا بعد اليوم[١] .

---

(١) كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف صفحة ١٨ .

وقد شاركت في هذه المعركة الخنساء شاعرة العرب المشهورة[١] وكان معها أبناؤها الأربعة، وحين بدأت الحرب خاطبت أبناءها قائلة:

«لم تنب بكم البلاد ولم تقحمكم السنة، ثم جئتم بأمكم عجوزًا كبيرة فوضعتموها بين أيدي أهل فارس، والله إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خبنت أباكم ولا فضحت خالكم، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره» .

أخذ الأبناء بزمام خيولهم وانقضوا على العدو وحين غابوا عن نظرها رفعت الخنساء يدها إلى السماء وقالت: اللهم احفظ أبنائي.

في هذا اليوم قتل وجرح من المسلمين ألفان، ومن الفرس عشرة آلاف، ورغم هذا لم يرجح هذا كفة النصر أو الهزيمة، وعرفت هذه المعركة باسم «الأغواث» بينما عرف اليوم الثالث للمعركة باسم يوم العماس، وفيه دبّر القعقاع خطة، فأمر بعض الجنود من الفرسان والراجلين أن يبتعدوا عن المعسكر ليلًا إلى ناحية الشام، ويعودوا مع طلوع الشمس إلى ميدان المعركة بحيث تضم كل جماعة مائة من الفرسان، يسرعون بخيلهم، على أن يستمر قدومهم على هذا النحو، وهكذا وصلت أول جماعة مع طلوع الصبح، فكبر الجيش وعم الضجيج والصياح: لقد وصلت إمدادات جديدة، وبدأ الهجوم، ومن الصدف الطيبة أن هاشماً الذي أرسله أبو عبيدة بالنجدة من الشام، وصل أيضاً إلى أرض المعركة ومعه سبعمائة فارس، وكانت الأخبار تصل يزدجرد لحظة بلحظة فكان يتابع إرسال جنوده.

---

(١) وقائع حياة الخنساء مثيرة للغاية وعجيبة وغريبة طبع ديوانها في بيروت، كما كتب أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني عن حياتها بالتفصيل، لا نظير لها في شعر الرثاء وهكذا كان على بيتها في سوق عكاظ راية مكتوب عليها: أرثى العرب وقد أسلمت وحضرت عند الخليفة عمر رضي الله عنه.

خطب هشام في الجيش قائلًا: إن إخوانكم قد فتحوا الشام، أما فتح فارس الذي وعد به الله فسيكون على أيديكم.

وطبقاً للعادة بدأت الحرب فخرج أحد الأبطال من جيش الفرس ودخل ميدان القتال يزأر كالأسد، وبعد أن رأى الناس ضخامة جسمه تراجعوا عن نزاله ومن العجيب أن يقتل هذا الرجل الضخم على يد جندي مسلم نحيف.

أحاط الفرس ـ بعد أن عركتهم التجربة ـ الفيلة من على اليمين واليسار بالمشاة وقال عمرو بن معديكرب لأصحابه: «سأهجم على الفيل الذي أمامي فابقوا معي، وإلا فلو مات عمرو بن معديكرب، فلن يولد عمرو آخر، واستل سيفه وهجم على الفيل، لكن الجند المشاة الملتفين على يمين ويسار الفيل انقضوا عليه فجأة وعلا الغبار فغاب عمرو بن معديكرب عن الأنظار، عندئذ هجم رفاقه على العدو حتى تقهقر بعد قتال شديد، أما عن وصف عمرو بن معديكرب فقد كان جسمه كله مغطى تماماً بالتراب، وكانت جروح طعنات العدو ظاهرة في أماكن متفرقة على جسده، ومع هذا كان السيف في يده التي راحت تدور هنا وهناك، في ذلك الوقت مر به فارس أعجمي فأمسك بذيل فرسه، فراح الأعجمي يهمز فرسه لكن الفرس لم يستطع أن يتحرك من مكانه، فنزل الفارس في النهاية وفرّ هارباً تاركاً فرسه، فامتطاه عمرو بن معديكرب.

لما رأى سعد أن الفيلة تفرق الكتائب حيثما اتجهت طلب «ضخماً» و«سلماً» وغيرهما من الفرس الذين أسلموا وسألهم عن طريقة لمواجهة هذا البلاء الأسود، فقالوا له عليك أن تقضي على مشافر الفيلة وعيونها، وأخبروه أن من بين الفيلة اثنين هما أكثر الفيلة ضراوة ومهابة: الأبيض، والأجرب، ويمكن القول بأنهما قائدا الفيلة كلها، فاستدعى سعد القعقاع، وعاصم، وحمّال، وربيل وأوكل لهم هذه المهمة، فأرسل القعقاع بدايةً بعض الفرسان

والرجالة ليطوقوا الفيلة، ثم قام بنفسه فأخذ الرمح وصوبه إلى «الأبيض» وكان معه عاصم، فأطلقا معاً رمحيهما، فأصابا عيني الفيل، فانتفض الفيل وتراجع، فعاجله القعقاع بسيفه ففصل مشفره عن جبهته، وكان ربيل وحمّال في ناحية أخرى قد هجما على الأجرب، فجرحاه وفر الأجرب هارباً ومن خلفه جميع الفيلة، وفي لحظات معدودة انقشعت هذه السحابة السوداء تماماً.

والآن وجد الأبطال فرصتهم لإظهار هممهم، وحمي وطيس المعركة حتى اهتزت الأرض من الصيحات الرعدية المدوية حتى إنه أطلق على هذه المعركة «ليلة الهرير» .

أعاد الفرس ترتيب جيشهم من جديد، فأقاموا ثلاثة عشر صفًّا يمين القلب ويساره، بينما جمع المسلمون الجيش كله في مكان واحد، وجعلوه في ثلاثة صفوف متتالية من الأمام والخلف، فكان الفرسان في المقدمة والرجالة في الوسط والرماة في المؤخرة، وأمر سعد بأن يبدأ الهجوم مع التكبيرة الثالثة، لكن عندما بدأ الفرس يطلقون السهام لم يتمالك القعقاع نفسه فانقض مع من معه على العدو، ورغم أن ما حدث يعد من وجهة النظر العسكرية عصياناً للأوامر، ولكن عندما رأى سعد سير المعركة وحماس القعقاع خرجت منه هذه العبارة بصورة عفوية: اللهم اغفر له وانصره.

وعندما رأى بنو أسد القعقاع هجموا على العدو وعندما رأى بنو نخع وبجيلة وكندة بنو أسد هكذا هجموا بدورهم على العدو، وكان سعد يقول حين تهجم كل قبيلة: «اللهم اغفر لهم وانصرهم» .

انقضت كتيبة الفرسان على مقدمة جيش العدو، لكن جيش الفرس ظل صامدًا كالحائط، وقاتلوا بثبات حتى أن الخيل لم تستطع أن تتقدم للأمام، وعندئذ ترجّل المسلمون وراحوا يهاجمون الفرس.

كانت هناك كتيبة فارسية مدرعة بالحديد، هجمت عليها قبيلة حميضة، لكن السيوف لم تؤثر في الدروع فصاح زعيم القبيلة السيوف لا تعمل في

الدروع وبغضب شديد دق ظهر أحد الفرس برمحه، فلما رأى رجاله هذا تشجعوا وقاتلوا ببسالة حتى قُضي على الكتيبة بأكملها.

ظلت المعارك مستمرة طوال الليل، وظل الجنود يحاربون حتى أصابهم التعب وغشيهم النعاس فلم تعد أيديهم وأرجلهم قادرة على الحركة، وحين لم تُحسم المعركة اختار القعقاع بعض الأبطال المعروفين من رؤساء القبائل واتجه بهم ناحية (رستم) قائد الفرس، كان معه قيس بن الأشعث وعمرو بن معديكرب وابن ذي البردين وكانوا رؤساء قبائلهم، فصاحوا في أصحابهم:

«لا يكونن هؤلاء أجدّ في أمر الله منكم» ووقف زعماء القبائل الأخرى الذين اشتهروا بالفصاحة والبلاغة بجانب بسالتهم في الحرب، أمام قبائلهم يثيرون حماسهم بخطبهم المؤثرة حتى أضرموا نار الحمية في الجيش كله، فنزل الفرسان من فوق جيادهم، ورموا بالسهام والأقواس واستلوا السيوف، وتقدم الجيش كله بهذا الحماس كالسيل، ودفعوا «الغيروزان» و «الهرمزان» حتى اقتربوا من رستم الذي جلس على العرش يدير دفة القتال.

رأى رستم ما صار عليه الأمر، فقفز من على العرش وظل يقاتل ببسالة ورجولة لفترة وحين أثخنته الجراح فر هارباً، وتعقبه أحد الجنود ويدعى هلال وصادف رستم النهر فقفز فيه يريد أن يعبره سابحًا فهجم هلال عليه وأمسك برجليه وسحبه خارج الماء وقضى عليه بسيفه.

ألقى هلال بالجثة تحت أقدام البغال وصعد على عرش رستم وصاح: لقد قضيت على رستم[1] وعندما رأى الفرس العرش وقد خلا من القائد فر الجند كلهم فتعقبهم المسلمون لمسافة بعيدة وفرشت ساحة المعركة بآلاف الجثث.

---

(١) كتب البلاذري أن قاتل رستم غير معروف، لكن عمرو بن معديكرب، وطليحة ابن خويلد وقرط بن جماح، ثلاثتهم هجموا عليه. والرواية التي ذكرتها هنا هي رواية «الأخبار الطوال».

وللأسف فإن (الفردوسي) ملك شعرائنا قد أخطأ نتيجة لحماسه القومي حين قال:

انطلق صياح كالرعد من ناحية رستم ومن ناحية سعد..
وعندما أظلمت الدنيا أمام رستم كان النصر حليف الشاب العربي، ولم يعرف شاعرنا أن سعدًا لم يشترك في هذه الحرب.

وبعد الهزيمة ظل بعض القادة المشهورين ممن كانوا يمتلكون الإقطاعيات، ثابتين في ميدان المعركة، ومن بين هؤلاء: شهريار، وابن الهربد وفرخان الأهوازي وخسرو شنوم الهمداني، أما الهرمزان وأهوز وقارُن فقد وجدوا فرصة للهروب، كان القتلى من الفرس لا حصر لهم، بينما وصل عدد قتلى المسلمين حوالي ستة آلاف.

لم يشترك سعد بنفسه في هذا النصر، وظن به الجيش ظن السوء حتى أن أحد الشعراء نظم الأبيات التالية:

وقاتلت حتى أنزل الله نصره ... وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ... ونسوةُ سعدٍ ليس فيهن أيّم

وظلت هذه الأشعار تتردد على لسان كل طفل حتى جمع سعد الجيش كله وأراهم قروح جراحه مبيِّناً عذره.

كتب سعد إلى عمر رضي الله عنه «رسالة النصر» موضحًا تفاصيل القتلى من الجانبين، وكان عمر رضي الله عنه منذ بدأت معركة القادسية يخرج صباح كل يوم من المدينة ينتظر قدوم الرسول، فخرج ذات يوم حسب عادته فرأى رجلًا على ناقة، فتقدم منه وسأله: من أين جئت؟ وكان الرجل رسول سعد جاء يُبشر بالنصر، وحين علم عمر رضي الله عنه أنه رسول سعد، بدأ يسأله عن الأحوال، فقال: نصر الله المسلمين، وظل عمر يمضي بجوار الرجل يسأله عن أحوال المسلمين، حتى دخل راكب الناقة إلى المدينة، فرأى الناس

يأتون أمامه ويسلمون عليه وينادونه بلقب أمير المؤمنين فارتعد خوفًا وقال: «ياسيدي لماذا لم تخبرني باسمك حتى لا أرتكب هذه الغلطة» فرد عمر رضي الله عنه: لا بأس لا بأس، استمر في كلامك، وهكذا استمر عمر رضي الله عنه في ركاب الرجل حتى وصل إلى البيت.

وفي المدينة بشر عمر رضي الله عنه الناس بالنصر الذي تحقق وألقى فيهم خطبة مؤثرة ختمها بقوله: «أيها الناس .. أنا لست ملكًا حتى أستعبدكم، فأنا نفسي عبدالله وقد كلفني بالخلافة، فسعادتي أن أتولى أمركم حتى تناموا بسكينة في بيوتكم، ولو كانت رغبتي أن تأتوا إلى بابي، ففي هذا شقائي، وإنني أريد أن أعلمكم هذا الأمر بالعمل لا بالقول».

كان من بين من حاربوا في القادسية من العرب أو العجم بعض الناس الذين لم يرغبوا أصلًا في القتال، لكنهم أُجبروا على الدخول في الجيش وقد هرب الكثير من هؤلاء من بيوتهم، لكنهم جاءوا سعدًا بعد الفتح طالبين الأمان، فكتب سعد إلى الخليفة فاستدعى عمر رضي الله عنه الصحابة وطلب منهم المشورة فوافقوا جميعًا على إعطائهم الأمان، وهكذا أُعطي الأمان للجميع في عموم البلاد، ورجع من فر هارباً إلى بيته ثانية، وازداد ارتباطهم بالرعية حين تزوج معظم علية القوم منهم.

أقام الفرس لهم معسكراً في بابل بعد أن فروا من القادسية، ولما كان المكان حصيناً راحوا يجهزون جميع متاع الحرب وعتادها في طمأنينة وأمن، وعُيِّن الفيروزان قائدًا للجيش، فأراد سعد التوجه إلى بابل سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م للقضاء عليه، فأرسل بعض القادة لتمهيد الطريق، فتصدى لهم بصيرى عند بُرس، إلا أنه جرح في المعركة وفر ناحية بابل، وطلب بسطام وكان رئيس بُرس الصلح، وأكثر من هذا راح يمد الجسور من موقع إلى موقع حتى بابل فعبرت الجيوش الإسلامية بسهولة، وبالرغم من تجمع قادة العجم الكبار من أمثال نخيرجان، وهرمزان ومهران ومهرجان وغيرهم، لكنهم هربوا من أول

هجوم، فأقام سعد نفسه في بابل، وأرسل بعض المقاتلين إلى المواقع المتقدمة بقيادة زهرة، وكانت جيوش العجم الفارة من بابل قد استقرت في كوثي وكان قائدهم شهريار بن الأمير. وعندما مر زهرة بكوثي، خرج له شهريار يريد منازلته ونزل ميدان المعركة ونادى: هل من فارس شجاع بينكم لينازلني ـ فقال زهرة: كنت أود نزالك لكن بعدما سمعت قولك هذا سيخرج لنزالك أحد العبيد، ثم أشار إلى نابل وكان عبدًا لقبيلة تميم، فتقدم نابل بفرسه، وكان شهريار ضخم الجثة كأنه مارد، وعندما رأى نابل ضعيفًا هزيلًا، ألقى برمحه وأمسك برقبته وسحبها بقوة فألقاه على الأرض وجلس على صدره، وتصادف أن جاء أصبع شهريار في فم نابل، فعضه نابل بشده حتى ارتعد شهريار من الألم فانتهز نابل الفرصة، وقعد على صدره وشق بطنه بالسيف، وكان شهريار في أبهى حلة وأعظم عتاد، فجرده نابل من درعه ومن سلاحه وكل شيء، وتقدم بها إلى سعد فوضعها أمامه، فأمر سعد أن يتزين نابل بهذه الملابس وبتلك الأسلحة حتى يكون في ذلك عبرة للأعداء، وهكذا حين خرج نابل وهو يرتدي ملابس شهريار الفاخرة ويتسلح بأسلحته بدت لأعين الناس صورة تقلّب الزمان.

كانت كوثي منطقة تاريخية، فيها سجن النمرود إبراهيم عليه السلام، وكان السجن لا يزال موجودًا حتى تلك الأيام، فذهب سعد لمشاهدة السجن، وهناك شكر الله تعالى وقرأ الآية الكريمة: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وكانت هناك مدينة بهره شير تقع بعد كوثي بالقرب من العاصمة، وقد ظلت فيها كتيبة من الكتائب الإمبراطورية التي كانت تحلف الأيمان كل يوم بألا تزول الإمبراطورية الفارسية طالما ظل أفراد هذه الكتيبة على قيد الحياة، وكان لكسرى أسد يربيه هناك ولهذا أطلق على هذه البلدة اسم (بهره شير)، حين اقترب جيش سعد اضطرب الأسد وخرج من عرينه، لكن هاشم قائد مقدمة الجيش قضى عليه بسيفه فسقط على

الأرض مُكوّماً دون حراك، وقبّل سعد جبين هاشم على شجاعته تلك.

تقدم سعد وحاصر (بهره شير) وانتشر الجيش هنا وهناك، وأسر الآلاف من الناس وقال شهرزاد رئيس «ساباط» لسعد: ما فائدة أسر هؤلاء المزارعين البسطاء، فسجل سعد أسماءهم في سجل وأطلق سراحهم، وقبِل جميع رؤساء القرى المجاورة الجزية، لكن المدينة لم تسقط فاستمر حصارها لشهرين، وكان الفرس يخرجون من القلعة أحياناً لقتال المسلمين وفي يوم من الأيام استعدوا جميعًا للموت بحماس شديد، وأخذوا يمطرون المسلمين بالسهام فرد عليهم المسلمون بنفس الحماس، وكان زهرة القائد المشهور في مقدمة كل معركة، قد تحطمت بعض حلقات درعه في أماكن متفرقة، فطلب منه الناس أن يستبدله بآخر فقال: لست محظوظًا حتى تخطىء سهام العدو الآخرين وتصيبني أنا، ومن المصادفة العجيبة أن يصيبه أول سهم أطلقه العدو، وأراد المسلمون أن يخرجوه فرفض قائلًا: مادام هذا السهم بداخل جسدي فأنا على قيد الحياة، وهكذا تقدم يهجم على العدو وهو بهذه الحال، فقتل أحد قادة الفرس المشهورين ويدعى (شهربراز) وفر العجم بعد قتالٍ لفترة وجيزة ورفع أهل المدينة راية الصلح.

كان نهر دجلة يفصل بين بهره شير والمدائن، ولهذا حين تقدم سعد إلى بهره شير كان نهر دجلة أمامه، وكان الفرس قد حطموا الجسور التي أقاموها قبلًا ولم تعد صالحة للاستخدام، وحين وصل سعد إلى دجلة لم يكن أمامه جسر، ولم يكن لديه سفينة فخاطب الجيش قائلًا:

ياأخوة الإسلام! إن العدو قد اتخذ من النهر ملجأً يحتمي فيه، فلو تمكنتم من عبور هذا النهر فلن تكون أمامكم عوائق أخرى، قال هذه العبارة، ونزل بجواده في النهر، فرآه رفاقه فواتتهم الهمة فنزل الجميع دفعة واحدة إلى النهر، وعلى الرغم من تموج النهر وهيجانه إلا أن الهمة والحماس أوجدتا فيهم ثباتاً لا نظير له، فكانت الأمواج تضربهم وجيادهم وهم ثابتون يمضون

معاً يتحدثون معاً بهدوء وسكينة لدرجة أن صفوف الميمنة والميسرة ظلت كما هي بترتيبها وتنظيمها، وعلى الجانب الآخر من النهر راح الفرس يشاهدون هذا المنظر العجيب، حتى اقترب الجيش من الشاطىء فظنوا أن من أمامهم ليسوا من الإنس بل هم من الجن فراحوا يرددون: «ديوان آمدند، ديوان آمدند»[(١)].

إلا أن القائد خرزاد صمد مع قليل من الجُند، فعين كتائب الرماة، وجعل جماعة تنزل النهر تسد الطريق، لكن المسلمين ظلوا يتقدمون كالسيل فقضوا على الرماة وجعلوهم كالغثاء، وعبروا ضفة النهر، وكان يزدجرد قد أرسل النساء وأفراد الأسرة الإمبراطورية إلى حلوان من قبل، وحين سمع بخبر ماحدث ترك هو نفسه المدينة، وحين دخل سعد المدينة لم يجد فيها غير الصمت والسكون، عبرة لمن يعتبر، فقرأ بعفوية قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].

ونصب المنبر مكان العرش الملكي في إيوان كسرى، وصلوا صلاة الجمعة في نفس المكان، فكانت هذه أول جمعة تُصلى في العراق، ويتعجب فقهاؤنا، فسعد رغم أنه من كبار الصحابة، وظل سنوات في صحبة الرسول ﷺ، إلا أنه لم يفعل كما فعل محمود الغزنوي وعالمكير المغولي، وأبقى على جميع التماثيل التي كانت بإيوان كسرى[(٢)].

أقام سعد ليومين أو ثلاثة أيام ثم أمر بجمع خزائن الدواوين الإمبراطورية ونوادرها على أن توضع في مكان واحد، وكان من بينها أشياء أثرية تعد بالآلاف، وترجع إلى عهد الأسرة الكيانية، وحتى زمان أنو شيروان، كان من

---

(١) وردت هذه الكلمات بلفظها في تاريخ الطبري.

(٢) ذكر العلامة الطبري ـ وهو من كبار المحدثين ـ هذه الواقعة بصراحة.

بينها سيوف ودروع خاقان الصين، وراجا داهر، وقيصر الروم، والنعمان بن المنذر، وسياوش وبهرام وتشوبين، كما كان من بينها أيضاً خنجر كسرى وهرمز وكيقباد، وتاج أنو شيروان المرصع بالذهب، والملبوسات الملكية، وكان من بينها فرس من ذهب عليه سرج من فضة، وكان صدره مرصعاً بالياقوت والزمرد، كما كان هناك ناقة من فضة عليها «بالان» ـ سرج ـ من ذهب، وزمامها من الياقوت الثمين، وكان راكب الناقة مكلل بالجواهر من رأسه إلى قدميه.

ومن أعجب ماوجدوه تلك السجادة التي تسمى (الربيع) وقد صنعت هذه السجادة حتى يجلسوا عليها لاحتساء الشراب حين يحل الربيع، وقد أوجدوا فيها جميع عناصر الربيع بدقة متناهية، ففي وسطها الخميلة الخضراء، والجداول من حولها في الجهات الأربع بالإضافة إلى جميع أنواع الأشجار، وفي الأشجار الثمار والأزهار، وياللعجب لقد صنع كل شيء من الذهب والجواهر، أي أن الأرض كانت من الذهب، والخضرة من الزمرد بينما كانت الجداول من الدر، أما أوراق الأشجار الذهبية والفضية فكانت من الحرير وكانت ثمارها من الجواهر وقد حصل الجيش على كل هذا في الهجوم العام، إلا أن الجند كانوا من الصدق والأمانة بحيث سلموا كل ماوجدوه إلى قائدهم، وهكذا أحضروا جميع الأمتعة ورتبوها، وتلألأ الميدان وما حوله لمسافة بعيدة فتحير سعد، وتعجب وقال: إن أولئك الجند الذين لم يستولوا على هذه التُحف النادرة لأنفسهم أتقياء وأمناء للغاية دون أدنى شك.

وبعد تقسيم مال الغنيمة حسب القواعد المتبعة، أُرسل الخمس إلى دار الخلافة، وأرسلت معه السجادة والآثار القديمة كما هي، حتى يشاهد العرب جاه وجلال الفرس، ونصر الإسلام وعلو شأنه، وعندما أُحصيت هذه الأمتعة أمام عمر رضي الله عنه تحير هو أيضاً وتعجب من تقوى الجنود وتعففهم.

كان في المدينة رجل يدعى محلم، طويل القامة وسيماً، فأمر عمر رضي

الله عنه أن يُعطى ملابس كسرى، وكانت هذه الملابس متنوعة بحيث تتناسب مع مختلف المناسبات، فهناك ماهو خاص بالفروسية، وماهو خاص بالبلاط، وماهو خاص بالاحتفالات وماهو خاص بالتهنئة، وهكذا راح محلم يرتديها واحدة بعد الأخرى، وعندما ارتدى الثياب الخاصة مع التاج المرصع، دهش جميع الناس وظلوا يحملقون فيه لفترة لا يصدقون أعينهم، وبالنسبة للسجاد فقد رأى الناس ألا يوزع، وكان هذا نفسه رأي عمر رضي الله عنه إلا أن إصرار علي رضي الله عنه جعل الخريف يحل على الربيع (تلك السجادة سابقة الذكر) فقط قُطعّت السجادة الفاخرة لتقسيمها وهكذا تقطعت اللوحة الأنوشيراونية الثمينة إلى قطع صغيرة.

ويُعد ما حدث من وجهة النظر الأوربية الحالية عملًا وحشياً، لكن لكل عصر وجهة نظره، ولكل عصر ذوقه الخاص، ففي العصر المقدس الذي لم تكن فيه للزخارف الدنيوية أية قيمة، لم يكن هناك مجال لاهتمام بمثل هذه الآثار الدنيوية.

## جلولاء سنة ١٦هـ/٦٣٧م

كانت هذه المعركة نهاية فتوحات العراق، فبعد فتح المدائن بدأ الفرس الاستعدادات للحرب واتخذوا من جلولاء مركزاً لذلك، وجمعوا جيشاً كبيراً، وكان حرزاد شقيق رستم على رأس الجيش يدير الأمور بالحكمة ويخطط لكل شيء، فأمر بتجهيز خندق حول المدينة، وإلقاء الشوك وما شابه ذلك في الطريق والممرات، وعلم سعد بهذا فأرسل إلى عمر رضي الله عنه، وجاءه الرد بأن يمضي هاشم بن عتبه لهذه المهمة على رأس اثني عشر ألف مجاهد على أن يكون القعقاع على مقدمة الجيش، وشعر بن مالك على الميمنة، وعمرو بن مالك على الميسرة، وعمرو بن مرة على الساقة، فانطلق هاشم من المدائن ووصل الجلولاء في اليوم الرابع فحاصرها، واستمر

الحصار شهوراً وكان الفرس يخرجون من القلعة من وقت لآخر بغية قتال المسلمين، وهكذا حدثت ثمانون معركة من هذا النوع، وكانت الهزيمة دائماً من نصيب الفرس، ولكن مع ذلك لم يصيبهم اليأس لأن المدينة كانت مملوءة بالذخيرة من كل نوع، كما كانت تضم عشرات الآلاف من الناس.

وذات يوم خرجوا بكل حماس وضجيج، فقاتلهم المسلمون أيضاً بثبات، وصادف أن هبت فجأة عاصفة قوية، فأظلم مابين السماء والأرض، فاضطر الفرس إلى التراجع، ولكن نظراً لانعدام الرؤية بسبب الغبار سقط آلاف الناس في الخندق وماتوا، ورأى الفرس هذا الأمر فراحوا يردمون الخندق ليجعلوه طريقاً يعبرونه، وعلم المسلمون بالخبر فاغتنموا هذه الفرصة، واستعدوا للهجوم، وكانت الأخبار تصل الإيرانيين أيضاً لحظة بلحظة ففرشوا الطرق التي سيأتي منها المسلمون بالأشواك وزودوا الجيش بالأسلحة والعتاد وتمركزوا عند باب القلعة.

واقتتل الفريقان بكل ما أوتيا من قوة قتالاً لم يشهدا مثله إلا في ليلة الهرير فقد نزلت السهام كالمطر في البداية، حتى نفذت ثم راح الأبطال يقاتلون بالرماح حتى تكسرت عندئذ بدأت معركة السيوف والخناجر، وقاتل القعقاع بشجاعة منقطعة النظير، وظل يتقدم ويتقدم حتى وصل إلى بوابة القلعة، إلا أن هاشم قائد الجيش كان لا يزال في الخلف وكان معه عدد كبير من الجيش، فأمر القعقاع الرّسل أن ينادوا بأن قائد الجيش قد وصل إلى باب القلعة، وظن الجيش القعقاع هاشماً فهجموا هجمة واحدة، تفرق على أثرها الفرس وهربوا هنا وهناك، ولكنهم كانوا يجدون الأشواك في كل ناحية يفرون إليها، فبدأ المسلمون في تقتيلهم بلا هوادة وطبقاً لرواية الطبري قُتل مائة ألف، ووصلت الغنائم إلى ثلاثين مليون.

أرسل سعد الخمس مع بشرى النصر إلى المدينة وقام زياد الذي حمل بشرى النصر بوصف المعارك التي دارت وصفاً بليغاً للغاية، فقال عمر رضي

الله عنه: هل تستطيع أن تصف للناس ما وصفته لي ؟ فقال زياد: إن كان هناك من أهابه من بين الناس فهو أنت، وهكذا اجتمع الناس، ووصف لهم وقائع الحرب كلها ببلاغة وحسن بيان، فقال عمر رضي الله عنه هذا هو الخطيب بحق، فرد زياد من فوره:

إن جُنـــدنــا أطلقــونــا بـــالفعـــال لســـاننـــا

بعدها قدم زياد مجموعة الغنائم، لكن الليل أرخى بسدوله فتأجل تقسيمها، وظلت مكومة في صحن المسجد، وظل عبدالرحمن بن عوف وعبدالله ابن الأرقم يحرسانها طول الليل، وفي الصباح رفع الغطاء عن الغنائم في حضور الناس، أكوام من المجوهرات بالإضافة إلى الدراهم والدنانير، فانفجر عمر رضي الله عنه باكياً فتعجب الناس وسألوه عما يبكيه فقال: مادخل المال في مكان إلا ودخل معه الحسد والبغض.

وصل خبر هزيمة الجلولاء إلى يزدجر فترك حلوان وذهب نحو الري تاركاً خسروشنوم وهو قائد ممتاز مع عدة كتائب للدفاع عن حلوان، وكان القعقاع قد وصل بالقرب من قصر شيرين (الذي يبعد عن حلوان بثلاثة أميال)، فأقبل خسروشنوم بنفسه لقتاله، لكنه انهزم وفرّ هارباً. وصل القعقاع إلى حلوان، وعسكر بها وجعل المنادي يعلن للناس الأمان الأمان في كل مكان، فقدم رؤساء المناطق المحيطة وأعلنوا عن قبولهم الجزية والدخول في حمى الإسلام، وكان هذا النصر خاتمة فتوحات العراق لأن حدود العراق تنتهي هنا حيث وصل القعقاع.

# فتوحات الشام

سنكتب في الصفحات التالية باختصار شديد عن بدايات إرسال الجيوش إلى الشام، وسيكون ذلك طبقاً لتسلسل الأحداث.

أرسل أبو بكر الصديق رضي الله عنه في بداية عام ١٣هـ/ ٦٣٤م الجيوش إلى عدة نواحي في الشام، فأرسل أبا عبيدة إلى حمص، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق، وشرحبيل إلى الأردن، وعمرو بن العاص إلى فلسطين وكان العدد الكلي للجيوش أربعة وعشرين ألف مجاهد.

بعد أن خرج هؤلاء القادة من حدود الجزيرة العربية، واجهوا جماعات كبيرة كانت على أتم الاستعداد للقتال، بالإضافة إلى ما جمعه قيصر من جيوش من جميع البلدان، فأرسلهم لقتال هؤلاء القادة كلٌّ على حدة، ولاحظ قادة الإسلام هذا، فاتفقوا على أن تجتمع الجيوش الإسلامية كلها في مكان واحد، كما كتبوا إلى أبي بكر رضي الله عنه حتى يرسل لنجدتهم قوات أخرى، وهكذا توجه خالد بن الوليد الذي كان مكلفًا بالقتال في العراق، إلى الشام وفي الطريق خاض معارك صغيرة انتصر فيها ووصل إلى دمشق، فجعل منها مقراً له وعسكر بجيشه فيها، بينما أرسل قيصر جيشاً جراراً لقتاله، فوصل إلى أجنادين وبدأ استعداداته العسكرية، فتقدم خالد وأبو عبيدة نحو أجنادين وكتبا رسالة أرسلاها إلى بقية القادة حتى يلتقوا بهما، وهكذا وصل يزيد وعمرو بن العاص في الوقت المحدد إلى أجنادين، وتقدم خالد وبادر بالهجوم، وانتصر على الأعداء بجدارة بعد معركة كبيرة للغاية استشهد فيها ثلاثة آلاف مسلم، وكانت هذه الواقعة حسب رواية ابن إسحاق في ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م، وبعد الانتهاء من هذه المهمة اتجه خالد إلى دمشق فحاصرها من جميع النواحي. ومع أن الحصار بدأ في عهد أبي بكر رضي الله عنه إلا أن النصر تم في عهد عمر رضي الله عنه، ولهذا سنكتب عن أحوال هذه المعركة بالتفصيل.

# فتح دمشق

كانت هذه المدينة العاصمة الكبرى للشام، ولما كان أهل الجزيرة العربية يترددون عليها في الجاهلية بكثرة بغرض التجارة لهذا ذاعت شهرة عظمتها في جميع أرجاء الجزيرة العربية، ولهذه الأسباب أعد خالد عدته لمحاصرة المدينة بكافة الاستعدادات، فعين على البوابات الكبرى المقامة على سور المدينة القادة الذين كلفوا بفتح أقاليم الشام، فكان باب توماء من نصيب عمرو بن العاص، وباب الفراديس من نصيب شرحبيل وباب الجابية من نصيب أبي عبيدة، بينما عسكر خالد في خمسة آلاف جندي بالقرب من باب الشرق، وخارت همة النصارى بعد أن رأوا شدة المحاصرة وخاصة أن جواسيسهم الذين كانوا يأتون للاطلاع على أحوال جيش المسلمين كانوا يرون الحماس على وجوه الجند وكأنهم انتشوا بهذا الحماس، وكانوا يجدون في كل فرد ثباتاً واستبسالاً وعزماً ويقيناً وصدقاً وتضحية، ورغم هذا فقد كان اعتمادهم على وجود هرقل بينهم، وعلى جيوش النجدة التي تحركت من حمص، في ذلك الوقت انتقل أبو بكر رضي الله عنه إلى الرفيق الأعلى، وأختير عمر رضي الله عنه خليفة للمسلمين.

ظن النصارى أن أهل الجزيرة العربية لا يمكنهم أن يتحملوا برد هذه البلاد، وأن هذه السحب سوف تنقشع بنفسها مع فصل الشتاء، لكن خابت آمالهم من الناحيتين، لأن همة المسلمين لم تفتر مع شدة البرد، وعين خالد «ذا الكلاع» على رأس جيش في موقع يبعد عن دمشق مسافة منزل واحد، حتى يمنع وصول النجدة من تلك الناحية، وهكذا توقفت الجيوش التي أرسلها هرقل من حمص عند ذلك الموقع. وعندئذ أصيب أهل دمشق باليأس التام، في ذلك الوقت وقعت بالصدفة حادثة كانت تأييداً من الله وعوناً للمسلمين، فقد ولد لبطريق دمشق ولد، فراحت المدينة كلها تحتفل بمولده، وراح الجميع يشرب الخمر بكثرة حتى غلبهم النوم المبكر في المساء، وكان خالد قليلًا ما ينام في الليل، وكان

يتقصى أخبار المحاصرين بدقة، ولم تكن هناك فرصة أطيب من تلك التي واتته، فنهض من فوره واصطحب معه بعض القادة الشجعان فعبروا الخندق المقام تحت سور المدينة على قرب منفوخة، وتسلقوا الحائط بمساعدة سلالم من الحبال ألقوها بعد أن ربطوها بالسور إلى أسفل وبهذه الطريقة صعد كثير من الفدائيين[1] في فترة وجيزة ونزل خالد فقضى على الحرّاس وكسر الأقفال وفتح الباب، وكان الجيش مستعدًا في الجانب الآخر، فاندفع كالسيل عندما فتح الباب وأغمدوا سيوفهم في الحراس، وعندما رأى النصارى ما يدور قاموا بفتح جميع أبواب سور المدينة، ولجأوا إلى أبي عبيدة لينقذهم من خالد، وفي سوق النحاسين بمقلاط التقى أبو عبيدة بخالد، وكان أبو عبيدة قد أجاز الصلح، بينما كان خالد قد فتح قسماً من المدينة بالقتال، ومع هذا دخلت المدينة كلها بجميع أقسامها تحت شروط الصلح؛ أي: لا يسمح لأحد باستلاب غنيمة أو استبعاد أحد، وهكذا وفي رجب سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م كان هذا الفتح المبارك مقدمة لفتح جميع بلاد الشام.

## فصل - ذو القعدة سنة ١٤هـ/٦٣٥م

أصابت هزيمة دمشق الروم بالقلق والاضطراب فتجمعوا من كل ناحية واستعدوا لقتال المسلمين بكل قوة، ولما كان المسلمون قد اتجهوا ناحية الأردن بعد فتحهم لدمشق، لذا بدأ الروم في تجميع جيوشهم في مدينة بيسان إحدى مدن الإقليم المشهورة، وكانت الجيوش التي أرسلها الإمبراطور هرقل لنجدة دمشق لم تتمكن من الوصول إليها، فعادت وانضمت إلى هذه الجيوش المجتمعة التي شكلت ثلاثين أو أربعين ألفاً بقيادة سكلار القائد الرومي.

وحتى نتعرف على ميدان المعركة يجب أن نذكر أن بلاد الشام تنقسم إلى

---

(١) هذه رواية الطبري ويذكر البلاذري أن نصرانياً أخبر خالداً باحتفال النصارى وأن النصراني أحضر السلّم أيضاً.

ستة مراكز من أشهرها دمشق وحمص والأردن وفلسطين وكانت طبرية عاصمة الأردن تقع على بعد أربعة منازل من دمشق، ومن الجانب الشرقي لطبرية توجد بحيرة طولها اثنا عشر ميلًا تقع بالقرب منها على بعد عدة أميال مدينة صغيرة كانت تسمى «سلا» ويطلق عليها اليوم الاسم العربي «فحل» وقد اشتهرت المعركة باسم هذه المدينة، ومكانها اليوم قفر، ومع ذلك فهناك بقايا من بقاياها تشاهد في بعض الآثار على ارتفاع ستمائة قدم من سطح البحر وتقع بيسان على بعد ثمانية عشر ميلًا جنوب بحيرة طبرية.

والخلاصة أن جيوش الروم تجمعت في بيسان بينما عسكر المسلمون أمامهم في «فحل» وخشي الروم أن يهاجمهم المسلمون فجأة فقاموا بتحطيم جميع سدود الأنهار القريبة، فعامت الأرض بالماء من فحل حتى بيسان، وتعطلت جميع الطرق بسبب الوحل والماء، لكن فيضان الإسلام لا يمكن أن يتوقف، فطلب النصارى الصلح بعد أن رأوا ثبات المسلمين، وأرسلوا إلى أبي عبيدة رسالة حتى يبعث لهم سفيراً فأرسل أبو عبيدة لهم معاذ بن جبل، وعندما وصل معاذ إلى معسكر الروم وجدهم يعيشون في خيام من ديباج فتوقف ولم يدخل الخيام، فقدم إليه أحد النصارى وقال: سأمسك بزمام الجواد فادخل واجلس في البلاط، وكان معاذ قد اشتهر بالعظمة والأنفة ووصلت شهرته إلى النصارى أيضاً، فأرادوا أن يعظموه ويكرموه، وتحرجوا من وقوفه في الخارج فقال معاذ، لا أريد أن أجلس على هذه السجادة المنسوجة بما سُلب من الفقراء، ثم جلس على الأرض، فاعتذر النصارى وقالوا: ماكنا نريد إلا تعظيمك وتكريمك، لكنك لا تهتم بتكريم نفسك فماذا عسانا أن نفعل؟ فغضب معاذ وشبّ واقفاً وقال: لا يهمني ما تظنونه تعظيماً وتكريماً، إذا كان الجلوس على الأرض من شيمة العبيد، فمن ذا أحق مني بعبودية الله؟ فدهش الروم من عدم مبالاته ومن تحرره حتى أن أحدهم سأله: أليس في المسلمين من هم أعظم منك؟ فقال: معاذ الله يكفيني أن أكون أقلهم شأناً، فسكت الروم فانتظر معاذ فترة ثم قال للمترجم: قل لهم، إذا لم يكن لديهم ما

يقولونه لي فسأنصرف، فقال الروم: نسألك لماذا جئتم هذه الناحية، فبلاد الحبشة قريبة منكم وإمبراطور الفرس قد مات، والإمبراطورية الآن في يد امرأة، فلماذا تركتموهم وجئتم نحونا؟ بينما إمبراطورنا هو أعظم الأباطرة وعددنا بعدد نجوم السماء وذرات الأرض، قال معاذ: إن أول مطالبنا هي أن تصبحوا مسلمين، وأن تُصلّوا إلى قبلتنا، وأن تتركوا شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، فإن فعلتم هذا صرتم إخوة لنا، وإذا لم تقبلوا الإسلام، عليكم أن تدفعوا الجزية، وإذا رفضتم فليس أمامكم سوى السيف، وإذا كنتم كعدد نجوم السماوات فنحن لا نكترث بالكثرة، فربنا تبارك وتعالى قال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. كيف تفخرون بأنكم من رعايا مثل هذه الإمبراطور الذي يتصرف في أرواحكم وأموالكم، أما من جعلناه ملكًا علينا لا يمكن أن يفضل نفسه على أحد منا بأي حال من الأحوال، فهو إذا زنا يُجلد، وإذا سرق تُقطع يده، كما أنه لا يجلس من وراء حجاب ولا يعتبر نفسه أكبر منا، ولا يفوقنا مالاً أو ثروة.

فقال الروم: حسناً نعطيكم البلقاء وجزءاً من أرض الأردن المجاور لأرضكم على أن تتركوا هذه البلاد وتذهبوا إلى فارس.

فرفض معاذ ونهض ومضى، ورغب الروم في التفاوض مباشرة مع أبي عبيدة، ولهذا أرسلوا رسولاً خاصاً لهذا الغرض، فوصل في وقت كان فيه أبو عبيدة يجلس على الأرض يقلب السهام في يده وكان الرسول يظن أن القائد من أصحاب الجاه والحشم، وأنه سيعرفه بهذه الطريقة، ولكنه كان كلما تطلع إلى ناحية وجد الجميع سواسية وفي النهاية سأل مضطرباً:

من قائدكم؟

فأشار الناس إلى أبي عبيدة، فتحير وخاطبه متعجباً فقال: هل أنت القائد حقاً؟!

فقال أبو عبيدة: نعم.

فقال الرسول: سنعطي كل فرد من جيشكم دينارين على أن تذهبوا من

هنا . فرفض أبو عبيدة، فغضب الرسول ونهض وعندما رأى أبو عبيدة سلوكه الغاضب أمر الجيش بالاستعداد، وكتب إلى عمر يخبره بكل ما دار من أمور[1]، فكتب عمر رضي الله عنه ردًا مناسباً وشجعه قائلًا، اثبتوا والله معكم يمدكم.

فأمر أبو عبيدة الجيش بالاستعداد في نفس اليوم، لكن الروم لم يتقدموا للقتال، وفي اليوم التالي ذهب خالد وحده إلى الميدان مع كتيبة من الفرسان لاغير، فاستعد الروم أيضاً، وقسموا جيوشهم إلى ثلاث مجموعات، أرسلوها إلى ميدان المعركة بالتناوب، فانطلقت المجموعة الأولى تجاه خالد وخرج قيس بن هبيرة من الصف بإشارة من خالد ومنع تقدمهم، وحدث قتالٌ دامٍ، ولم تكن المعركة قد انتهت بعد وإذا بالمجموعة الثانية تخرج، فأشار خالد إلى سيرة بن مسروق حتى يخرج فيمن معه لصد هذا الهجوم، ثم جاءت المجموعة الثالثة بعدتها وعتادها وكان على رأسها قائد مشهور راح يقود الجنود بتخطيط دقيق، وحين اقترب من جيش المسلمين توقف وأرسل قائدًا على رأس قوة صغيرة لمحاربة خالد، فواجه خالد هذا الهجوم أيضاً بثبات، وفي النهاية حمل القائد بنفسه والتقى بالجماعتين السابقتين، واستمرت المعركة لفترة طويلة، ورأى الروم ثبات المسلمين فتأكدوا من عدم جدوى القتال لفترة أطول، وأرادوا التراجع، فنادى خالد في رفاقه: لقد خارت قوة الروم والآن جاء دورنا ومع هذا النداء اندفع المسلمون مرة واحدة مما جعل الروم يتراجعون تحت ضغط الهجوم.

وراح الروم يتجنبون القتال انتظاراً للنجدة، ففهم خالد حيلتهم، فقال لأبي عبيدة: لقد أُصيب الروم بالرعب من جرّاء قتالنا لهم، وهذا هو أنسب وقت للهجوم وهكذا أعلن النقيب في الجيش أن الهجوم سيكون غدًا فليستعد

---

(١) في فتوح الشام للأزدي أن أحد أهل الشام حمل هذه الرسالة وقد أسلم بعد أن رغبه عمر رضي الله عنه في الإسلام.

الجيش بكامل معداته وعتاده.

في الساعات الأخيرة من الليل نهض أبو عبيدة من فراشه وبدأ في ترتيب الجيش، فعين معاذ بن جبل على الميمنة، وسلم قيادة الميسرة لهاشم بن عتبة، وعين سعيد بن زيد على المشاة، بينما كان الفرسان تحت إمرة خالد - واستعد الجيش، وتفقد أبو عبيدة الجيش من أوله إلى آخره، وكان يذهب عند كل راية ويتوقف ويقول:

«عباد الله! استوجبوا من الله النصر بالصبر فإن الله مع الصابرين».

أقام الروم وكان عددهم خمسين ألف تقريباً خمسة صفوف متتالية رُتِّبت بحيث يكون كل فارس في الصف الأول عن يمينه ويساره اثنان من الرماة، بينما كانت كتائب الفرسان على الميمنة والميسرة، وفي الخلف تأتي قوات المشاة.

وتقدموا نحو المسلمين بهذا الترتيب وهم يدقون الطبول بأنواعها، ولأن خالد كان في طليعة الجيش فقد كان أول من قابلهم، وأمطر الروم المسلمين بوابل من السهام مما اضطرهم إلى التراجع، فانحرف خالد عن تلك الناحية ومال إلى الميمنة لأنها كانت كلها من الفرسان ولم يكن بها أحد من الرماة، فزادت همة الروم حتى أن كتيبة الميمنة تركت الجيش وهجمت على خالد، فتراجع خالد ببطء إلى الوراء حتى ابتعدت الكتيبة عن الجيش، وانتهز خالد الفرصة وهجم بقوة حتى قلب صفوف جيش العدو على بعضها وقتل على يديه أحد عشر من كبار القادة، ومن الجانب الآخر هجم قيس بن هبيرة على الميسرة فأضعف الساعد الثاني للروم ومع ذلك كان قلب الجيش في أمان بسبب حماية الرماة، ورفع هاشم بن عتبة - وكان قائداً للميسرة - الراية وقال: «والله لن أعود مالم أصل إلى قلب جيش العدو وأثبتها»، ثم قفز على فرسه وفي يده الترس يحارب ويقاتل حتى اقترب منهم، ولم يكن هناك أي مجال لاستخدام السهام، فاستخدم السيف وظلت الحرب تدور لساعة كاملة وتخضب ميدان المعركة كله بالدماء، وفي النهاية تعثر الروم وفروا على غير هدى، وكتب أبو عبيدة رسالة النصر وأرسلها إلى عمر رضي الله عنه، سائلاً

إياه عن كيفية التعامل مع المغلوبين[١]، فكتب إليه عمر بأن يترك الأرض كما كانت في أيدي أصحابها فهم من أهل الذمة.

وبعد هذه المعركة تم فتح جميع مدن وقرى إقليم الأردن بسهولة بالغة، وكتب في شروط الصلح في كل موقع بأن تحفظ أرواح المغلوبين وأموالهم وأرضهم وكنائسهم وأماكن عباداتهم، ويكونوا في مأمن وأمان ـ فقط يمكن أن تخصص قطعة من الأرض لبناء المساجد.

## حمص سنة ١٤هـ/٦٣٥م

حمص مدينة قديمة من أكبر أقاليم الشام ويقال لها بالإنجليزية «أميسا» كانت شهرتها قديماً بسبب وجود هيكل كبير يسمى هيكل الشمس يحج إليه الناس من أماكن بعيدة، وكانت كهانة هذا الهيكل من دواعي الفخر الكبير .

بعد فتح الأردن ودمشق بقيت ثلاث مدن كبيرة يتم بفتحها فتح الشام كلها، وهي بيت المقدس، وحمص وأنطاكية حيث كان يقيم هرقل نفسه، وكانت حمص أقربها وأقلها جنوداً وعتاداً. ولهذا قصدها جيش الإسلام في البداية. وكانت بعلبك تقع في الطريق إلى حمص، وقد فتحت بعد قتال بسيط، ورغب الروم أنفسهم التقدم قريباً من حمص لقتال المسلمين فخرج من حمص جيش كبير، والتقى بالمسلمين عند جوسيه، لكنهم فروا هاربين مع أول هجمة لخالد، وتركوا مواقعهم فسلم خالد إلى سبرة بن مسروق قوة صغيرة سار بها إلى حمص، وفي الطريق قاتل بقايا جيش الروم المشتتة وانتصر المسلمون.

في هذه المعركة قتل شرحبيل الحميري سبعة فرسان وانفصل عن الجيش وسار إلى حمص ورأته كتيبة من كتائب جيش الروم وحيداً، فهجمت عليه

(١) استفدنا من فتوح الشام للأزدي في تفصيل الحديث عن واقعة فحل التي وردت أحداثها في الطبري وغيره مختصرة، بالإضافة إلى وجود خلاف في كيفية الواقعة ذاتها.

فقاتلهم بثبات، حتى أن الروم حين رأوه وقد قتل منهم عشرة أو أحد عشرة رجلًا فروا هاربين، ولجأوا إلى إحدى الكنائس المعروفة باسم (دير مسحل) فتبعهم، وكان بالكنيسة خلق كثير، فالتفوا حوله وراحوا يرمونه بالحجارة والطوب، فخرج واستشهد، بعد سبرة بن مسروق توجه خالد وأبو عبيدة أيضاً إلى حمص وألقوا بمعدات الحصار حولها، ولأن الجو كان شديد البرودة للغاية، أيقن الروم أن المسلمين لن يستطيعوا القتال لفترة طويلة في ميدان معركة مفتوح، بالإضافة إلى أن رسول هرقل كان قد جاء وأخبرهم بأن النجدة سترسل إليهم على وجه السرعة، وطبقاً لهذا كانت جماعات كثيرة قد تحركت من الجزيرة، إلا أن سعد بن أبي وقاص الذي كان مكلفاً بمهمة العراق، سمع الخبر فأرسل بعض المجاهدين لتسد طريق الأعداء وتمنع تقدمهم[(١)]، وطلب أهل حمص الصلح بعد أن يئسوا من جميع الأطراف، فترك أبو عبيدة عبادة بن الصامت هناك، ومضى هو إلى حماة[(٢)] فطلب أهلها الصلح عندما وصلهم، واعترفوا بالجزية، وسار من هناك إلى شيرز ومنها إلى معرة النعمان، فأقر له أهل هذه المناطق بالطاعة، وبعد أن فرغ منهم ذهب إلى اللاذقية، وهي مدينة قديمة جداً كان يطلق عليها في عصر الفينيقيين «أمانثا»، فعسكر أبو عبيدة على مسافة منها، وعندما رأى ماهي عليه من استحكامات وتحصين فكر في خطة جديدة، فأمر بحفر حفر عميقة في الميدان بطريقة لا تسمح للأعداء بمشاهدتها أو التعرف عليها، وذات يوم أمر الجيش أن يرحل ويرفع الحصار عن المدينة، ويتجه إلى حمص، أما سكان المدينة الذين ضاقوا بوجودهم داخل القلعة لفترة طويلة، وتوقفت تجارتهم كلها، فقد اعتبروا رحيل الجيش منحة من الله، ففتحوا أبواب سور المدينة، وانصرفوا إلى أعمالهم، فعاد المسلمون في نفس الليلة وظلوا مختفين في هذه الحفر، وفي الصباح خرجوا

---

(١) الكامل لابن الأثير.

(٢) مدينة قديمة تقع بين حمص وقنسرين.

من كمائنهم وهجموا فجأة على الأعداء وفتحت المدينة بسرعة كبيرة.

بعد فتح حمص أراد أبو عبيدة التوجه إلى عاصمة هرقل كما أرسل بعض القوات إليها، لكن أمراً وصله من دار الخلافة بألا يتقدم أكثر من ذلك هذا العام، وبناءً عليه أستدعي الجيش، وأُرسل القادة والنواب إلى المدن الكبرى حتى لا تحدث هناك اضطرابات أو قلاقل ـ فذهب خالد إلى دمشق في ألف مجاهد، بينما عسكر عمرو بن العاص في الأردن، وأقام أبو عبيدة نفسه في حمص.

## اليرموك ٥ رجب ١٥هـ/٦٣٦م

خرج الروم المنهزمون من دمشق وحمص وغيرها، ووصلوا إلى أنطاكية واستغاثوا بهرقل قائلين بأن العرب سيطروا على بلاد الشام كلها، فطلب هرقل من بينهم بعض الأشراف والعقلاء، وقال لهم: إن العرب أقل منكم قوة وعدداً، وعدة وعتاداً، ومع هذا لم تتمكنوا من الصمود أمامهم، فأخفض الجميع رؤوسهم ندماً ولم يجبه أحد، إلا أن عجوزًا محنكًا قال: «إن أخلاق العرب أفضل من أخلاقنا، فهم يتعبدون ليلًا، ويصومون نهاراً، لا يظلمون أحداً، كلهم فيما بينهم سواسية، ولكننا نشرب الخمر ونرتكب السيئات، لا نحفظ العهود، ونظلم الآخرين، ومن هنا كانت في أعمالهم قوة وعزيمة وثبات، أما أعمالنا فقد خلت من الهمة والقوة والثبات» .

كان قيصر قد قرر حقيقة الخروج من الشام لكن أرتال النصارى التي توالت عليه من كل مدينة وإقليم تستغيثه، أشعلت الحمية والغيرة في صدره، فاستعد بكل حماس حتى تُحشد قوى الإمبراطورية كلها لقتال العرب، ومن هنا أرسل الأوامر إلى القسطنطينية والجزيرة وأرمينية وكل مكان حتى تحشد الجيوش كلها في العاصمة أنطاكية في تاريخ معين، وكتب إلى قادة جميع الأقاليم أن يرسلوا له بقدر الإمكان جميع القادرين على القتال، ولم تكد تصلهم الأوامر حتى تدفقت الجيوش كالطوفان، وحيثما توجه النظر حول أنطاكية تتراءى لك

الجيوش المنتشرة كالجراد.

أُعجب أمراء ورؤساء المناطق التي فتحها أبو عبيدة بعدله وإنصافه لدرجة أنهم كانوا يعينون من جانبهم الجواسيس للوقوف على أخبار العدو، وذلك رغم اختلاف هؤلاء الرؤساء والأمراء في الدين، وهكذا كان أبو عبيدة رضي الله عنه يطلع عن طريقهم على جميع الأخبار.

جمع أبو عبيدة جميع القادة، ووقف فيهم وألقى فيهم خطبة مؤثرة ملخصها مايلي:

«أيها المسلمون! لقد امتحنكم الله مراراً وتكراراً وقد نجحتم في هذا الامتحان، وهكذا نصركم الله دائماً جزاءً وفاقًا، والآن تحرك عدوكم لقتالكم بكل عدته وعتاده حتى اهتزت الأرض والآن ما رأيكم ؟» .

فوقف يزيد بن أبي سفيان (شقيق معاوية) وقال: رأيي هو أن تبقى النساء والأطفال في المدينة، ونتولى نحن إعداد الجيش خارج المدينة، على أن نكتب رسالة إلى خالد وعمرو بن العاص، حتى يأتوا لنا بالنجدة من دمشق وفلسطين.

فقال شرحبيل بن حسنة: يجب أن يعبر كل شخص عن رأيه بحرية في هذا الموضوع، ولاشك أن يزيد أراد مما عرضه علينا النصح والرشاد، لكني أخالفه الرأي، فجميع أهل المدينة من النصارى، ومن الممكن أن يغلب عليهم التعصب فيقبضوا على أهلنا وعيالنا ويسلموهم إلى قيصر أو يقتلوهم، فقال أبو عبيدة: يمكن تدبر الأمر بإخراج النصارى من المدينة. فنهض شرحبيل وقال: أيها الأمير! ليس هذا من حقك أبداً، لقد أعطيناهم الأمان ليبقوا مطمئنين في المدينة، فكيف يمكن أن ننقض العهد ـ فاعترف أبو عبيدة بخطئه لكن البحث لم ينته، ولم يتم التوصل إلى نتيجة، فرأى عامة الحضور البقاء في حمص وانتظار المساعدات العسكرية، فقال أبو عبيدة لم يعد هناك متسع من الوقت، وفي النهاية استقر الرأى على مغادرة حمص والانتقال إلى دمشق حيث يوجد خالد وحيث يكون الجيش قريباً

من حدود الجزيرة العربية، وبعد الوصول إلى هذه النتيجة النهائية استدعى أبو عبيدة حبيب بن مسلمة المسئول عن الخزانة وقال: إن ما يؤخذ من النصارى من جزية أو خراج هو عوض عن حمايتهم، لكننا الآن في حالة حرجة لا تسمح لنا بذلك، ولهذا يجب أن ترد إليهم ما أخذت منهم وقل لهم إن العلاقات بيننا لا تزال كما هي، ولكننا لا يمكن أن نتحمل مسئولية حمايتكم الآن لهذا نرد إليكم الجزية ثمن حمايتكم.

وهكذا أُعيدت مئات الآلاف من المبالغ التي جمعت من قبل، وتأثر النصارى بهذه الواقعة حتى إنهم كانوا يبكون ويقولون بحماس: «ليعيدكم الله إلينا» وتأثر اليهود أيضاً تأثراً بالغاً، وقالوا: «قسماً بالتوراة لا يمكن لقيصر أن يستولى على حمص ما دمنا أحياء» ثم أغلقوا أبواب سور المدينة، وأقاموا الحراس في كل مكان.

لم يكن تصرف أبي عبيدة هذا مع أهل حمص فقط بل كتب إلى كل الأقاليم المفتوحة لرد أموال الجزية[١].

**والخلاصة** أن أبا عبيدة اتجه إلى دمشق[٢]، وأخبر عمر رضي الله عنه بجميع الظروف، وتألم عمر للغاية حين سمع أن المسلمين تركوا حمص خوفًا من الروم، ولكن حين عرف أن هذا كان بقرار من الجيش وقادته اطمأن قلبه وقال: لعل الله جعل المسلمين جميعًا يتفقون على ما فيه الخير والمصلحة. وكتب الرد إلى أبي عبيدة.

«إنني أمدكم بسعيد بن عامر لكن النصر والهزيمة لا يرتبطان بقلة الجيش

---

(١) فصل الحديث عن هذه الوقائع كل من البلاذري في فتوح البلدان ص ١٣٧ والقاضي أبو يوسف في كتاب الخراج ص ١٨ والأزدي في فتوح الشام ص ١٣٨.

(٢) استفدت في ذكر هذه الأحداث وتفصيلها من فتوح الشام للأزدي، أمّا مغادرة أبي عبيدة لحمص وذهابه إلى دمشق فقد ورد ذكرها عند ابن واضح العباسي وغيره من المؤرخين.

أو كثرته».

حين وصل أبو عبيدة إلى دمشق، جمع كل قادته واستشارهم في الأمر، فعرض يزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، ومعاذ بن جبل آراءهم، وكانت آراء مختلفة، في تلك الآونة وصل رسول عمرو بن العاص حاملًا رسالة تضمنت مايلي:

انتشر العصيان العام في جميع أقاليم الأردن، فقد أثار خبر مجيء الروم الفتن الشديدة، ومغادرة حمص كانت سبباً في زوال الرعب، فرد أبو عبيدة على الرسالة برسالة كتب فيها: إننا لم نترك حمص خوفًا بل كان هدفنا هو إخراج العدو من الأماكن المحصنة، وأن تتجمع الجيوش الإسلامية البعيدة في مكان واحد، وكتب في رسالته أيضاً: لا تترك مكانك فأنا قادم إليك.

وفي اليوم التالي غادر أبو عبيدة دمشق ووصل إلى اليرموك على حدود الأردن، وعسكر هناك، وقدم عمرو بن العاص أيضاً والتقى به، وكان هذا المكان مناسباً لما تتطلبه المعركة، فهو أقرب مكان لحدود الجزيرة العربية، كما أنه كان أقرب من أي ثغر آخر كما كان الميدان ممتداً واسعاً خلفهم حتى حدود الجزيرة العربية، وهكذا كانت لديهم فرصة الانسحاب للوراء إذا ما لزم الأمر ذلك.

لم يكن الجيش الذي أرسله عمر بقيادة سعيد بن عامر قد وصل بعد، ومن ناحية أخرى كان المسلمون مضطربين بعد سماعهم بقدوم الروم وبعد اطلاعهم على مالدى الروم من عتاد وعدة ـ فأرسل أبو عبيدة من فوره رسولاً آخر إلى عمر برسالة جاء فيها: «إن الروم ظهروا في البحر والبر، ووصل الحماس لدرجة أن الرهبان والعبّاد الذين لا يخرجون أبداً من أديرتهم خرجوا وراحوا ينضمون للجيش على طول الطريق».

وحين وصلت هذه الرسالة جمع عمر رضي الله عنه المهاجرين والأنصار وقرأ عليهم الرسالة، فبكى جميع الصحابة بصورة عفوية وصاحوا في حماس شديد:

«ياأمير المؤمنين بالله عليك اسمح لنا أن نذهب ونفتدي إخواننا، فلو أصابهم مكروه ـ لا قدر الله ـ فلا نفع في الحياة» .

وأخذ حماس المهاجرين والأنصار يتزايد حتى أن عبدالرحمن بن عوف قال: لتكن أنت القائد وخذنا معك، إلا أن بقية الصحابة اختلفوا مع هذا الرأي واستقر الرأي على إرسال الإمدادات العسكرية، وسأل عمر الرسول إلى أين وصل العدو، فقال: على مسافة ثلاثة أو أربعة منازل من اليرموك، فحزن عمر للغاية وقال: «ياللأسف ماذا يمكن أن نفعل الآن ؟ وكيف يمكن أن يصل المدد في هذه المدة القصيرة. فكتب إلى أبي عبيدة رسالة تضمنت كلمات مؤثرة للغاية وقال للرسول: عليك أن تقرأ هذه الرسالة على الجيش بأكمله صفًا صفًا وقل للجميع :

«ألا إن عمر يقرئكم السلام ويقول لكم ياأهل الإسلام اصدقوا اللقاء وشدوا عليهم شد الليوث، وليكونوا أهون عليكم من الذر، فإنا قد كنا علمنا أنكم عليهم منصورون» .

وكان من محاسن الصدف العجيبة أن يصل عامر في ألف رجل في نفس اليوم الذي جاء فيه الرسول إلى أبي عبيدة فشد هذا من عضد المسلمين للغاية، وبدأوا استعدادات القتال بثبات وعزيمة، ونزل جيش الروم في دير الجبل أمام اليرموك، وبدأ خالد الاستعداد للقتال فعين معاذ بن جبل ـ وكان من الصحابة الكبار ـ على الميمنة، وعين قبات بن الشيم على الميسرة كما أمّر هاشم بن عتبة على الجنود المشاة، وقسم القوات التي سيكون معها إلى أربع مجموعات فأبقى مجموعة في ركابه وعين على المجموعات الثلاث الأخرى قيس بن هبيرة، وميسرة بن مسروق، وعمرو بن الطفيل وكانوا نخبة من شجعان العرب أجمعين، ولهذا كان يقال لهم: فرسان العرب، وخرج الروم أيضاً بعتاد كبير، وكان مجموع جيش الروم أكثر من مائتي ألف شكلوا أربعة وعشرين صفًا، وجعلوا قادتهم الدينيين الذين حملوا في أيديهم الصلبان

ليزيدوا من حماس الجنود، جعلوهم أمام الجيش، والتقى الجيشان فخرج أحد البطارقة مخترقاً الصفوف، وقال: أُريد القتال منفرداً، فتقدم ميسرة بن مسروق بفرسه لكن خالداً منعه لأن الخصم كان شاباً ضخماً قوياً، ثم أشار إلى قيس بن هبيرة فتقدم قيس وهو ينشد هذا الشعر:

سائل نساء الحي في أحجالها ألست يوم الحرب من أبطالها

فوصل قيس وانقض عليه وهو لم يمسك بسلاحه بعد، فضرب بسيفه رأسه فانفصلت وتدلت على الرقبة، واهتز البطريق وسقط من على الجواد بينما المسلمون يكبرون، فقال خالد: هذا فأل حسن والآن إلى النصر إن شاء الله، وعين النصارى قوات متفرقة لمواجهة القادة الذين كانوا مع خالد، لكنهم انهزموا جميعاً، وتأجلت المعركة في ذلك اليوم عند هذا الحد.

في الليل جمع باهان القادة وقال لهم: إن العرب ذاقوا لذة ثروة الشام، ومن الأفضل أن نُرغبهم في المال والذهب حتى يرحلوا من هنا، واتفق الجميع على هذا الرأي، فأرسل باهان في اليوم التالي رسولاً إلى أبي عبيدة يطلب منه إرسال أحد القادة الكبار رغبةً في التحدث بشأن الصلح، فاختار أبو عبيدة خالداً، كان الرسول الذي حمل الرسالة ويدعى «جورج» قد وصل في المساء، وبعد وصوله بفترة بسيطة بدأت صلاة المغرب فوقف المسلمون يكبرون بشوق وذوق ثم أدوا الصلاة بخشوع وسكون وأدب وخضوع جعلت الرسول ينظر في حيرة واستعجاب حتى انتهت الصلاة فسأل أبا عبيدة عدة أسئلة كان من بينها: ماذا تقولون في عيسى ؟ فقرأ عليه أبو عبيدة الآيات القرآنية التالية: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] و ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء: ١٧٢] .

وترجم المترجم معاني هذه الكلمات فصاح جورج من فوره: «لاشك أن

هذه أوصاف عيسى ولا شك أن نبيكم صادق» وبعدها نطق بكلمة التوحيد وأعلن إسلامه، ولم يكن حتى يرغب في العودة إلى قومه، لكن أبا عبيدة أجبره على الرجوع حتى لا يظن الروم أنه خالف العهد وطلب منه أن يذهب مع السفير الذي سيذهب في اليوم التالي على أن يعود معه فيما بعد.

وفي اليوم التالي ذهب خالد إلى معسكر الروم وكان الروم قد أعدوا بعض الترتيبات المسبقة لإظهار عظمتهم وقوتهم، فأقاموا صفوف الفرسان على جانبي الطريق، وكان الفرسان يلبسون دروعًا حديدية تغطيهم من أعلاهم إلى أسفلهم لكن خالدا كان يمضي وينظر إليهم نظرة احتقار بلا أدنى مبالاة، كأسد يمضي بين صفوف غنم، ووصل إلى خيمة باهان فاستقبله باحترام شديد، وأجلسه بجواره، وبدأ الحديث من خلال المترجم، وبعد انتهاء الحديث العادي بدا هامان وكأنه يلقي محاضرة فأثنى على عيسى ثم ذكر قيصر وقال بفخر: إن إمبراطورنا هو إمبراطور الأباطرة جميعاً، ولم يكد المترجم يكمل ترجمة هذه العبارة حتى استوقف خالد باهان وقال له: ربما يكون إمبراطوركم هكذا، لكن من جعلناه رئيساً لنا لو فكر لحظة في حكاية «الملك» عزلناه على الفور، إلا أن باهان استمر في إلقاء خطبته، وبعد أن بيَّن اعتزازه وفخره بما له من جاه وثروة قال: أيها العرب إن أفراد أمتكم قدموا إلى بلادنا وعاشوا فيها، وتعاملنا معهم دائماً بود وصداقة، وكان اعتقادنا أن يكون العرب كلهم شاكرين لنا ذلك الأمر، لكنكم أغرتم على بلادنا على عكس ما كنا نتوقع، وتريدون أن تخرجونا منها، ألا تعلمون أن كثيراً من الأمم أرادوا أكثر من مرة أن يفعلوا ما تريدون لكنهم فشلوا والآن لا يوجد في الدنيا من هم أجهل منكم وأكثر وحشية وفقراً، ومع هذا تجرأتم علينا، وسوف نسامحكم على ذلك، بل لو رحلتم عن هذا المكان سنمنحكم مكافأة قدرها عشرة آلاف دينار لقائد الجيش وألف دينار لكل قائد ومائة دينار لعامة الجيش.

بعد أن أنهى باهان خطابه نهض خالد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: لا

شك أنكم أصحاب ثروة وأغنياء، وأهل حكم، ونحن أيضاً على دراية بالطريقة التي تعاملتم بها مع العرب من جيرانكم، لكن هذا لم يكن إحساناً من جانبكم بل كان خطة لنشر الدين، ظهر أثرها فأصبحوا نصارى وهم اليوم يحاربوننا بأنفسهم، ويحاربون معكم، صحيح إننا كنا فقراء محتاجين بدوًا رُحَّلا، وقد وصلنا إلى درجة من الظلم والجهل جعلت القوي منا يسحق الضعيف وتتحارب القبائل فيما بينها حتى تفنى، وكنا نصنع الكثير من الآلهة ونعبدها، كنا ننحت الأصنام بأيدينا ونعبدها، لكن الله أنزل رحمته علينا وأرسل من بيننا رسولاً، كان أكثرنا شرفاً وكرماً وطهراً، فعلمنا التوحيد، وأخبرنا أن الله واحد لا شريك له ليس له زوجة ولا ولد، وهو أحد صمد، وقد أمرنا أيضاً أن نبلغ هذه العقائد إلى الدنيا أجمع فمن آمن بها فهو مسلم، وهو أخ لنا، ومن لم يؤمن بها وقبل بدفع الجزية قمنا بحمايته والدفاع عنه ومن رفضهما معاً فالسيف له.

سمع باهان كلمة جزية، فتنهد في يأس وأشار إلى جيشه وقال: لن ندفع الجزية حتى لو مات هذا الجيش كله، فنحن نأخذ الجزية ولا ندفعها.

وباختصار لم يتم الاتفاق، ونهض خالد وانصرف وبدأ الاستعداد للحرب الفاصلة التي لم يتمكن الروم من استرداد قوتهم بعدها.

بعد رحيل خالد جمع باهان القادة وقال: لقد سمعتم . . . يزعم أهل الجزيرة العربية أنكم يمكن أن تسلموا من هجومهم ما لم تخضعوا لهم، أتقبلون عبوديتهم؟ فقال جميع القادة في حماس شديد: نموت على أن نتحمل هذه المذلة.

حين طلع الصباح خرج الروم بكل عتادهم متحمسين، حتى دهش المسلمون أيضاً، وعندما رأى خالد هذا رتب الجيش بطريقة جديدة على خلاف ما اعتادته العرب، فقسم الجيش الذي ضم ما بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألفاً إلى ستة وثلاثين مجموعة، ونظم الصفوف بطريقة متتالية بدقة

متناهية، وعين أبا عبيدة على قلب الجيش، وعين عمرو بن العاص وشرحبيل على الميمنة بينما كان يزيد بن أبي سفيان على الميسرة، ثم اختار قائدًا لكل صف من الرجال الذين اشتهروا بالشجاعة والإقدام وبمهارتهم في فنون الحرب والقتال، وأمر الخطباء أن يثيروا حماس الجيش، وكان من بين الخطباء أبو سفيان الذي كان يمر أمام صفوف الجيش ويقول: «ألا إنكم زارة العرب، أنصار الإسلام، وإنهم زارة الروم وأنصار الشرك، اللهم! إن هذا يوم من أيامك اللهم! أنزل نصرك على عبادك» .

وكان عمرو بن العاص يتجول بين الصفوف ويقول: «أيها الناس! غضوا أبصاركم واشرعوا الرماح والزموا مراكزكم فإذا حمل عدوكم فأمهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا في وجوههم وثوب الأسد».

ومع أن عدد جيش المسلمين كان قليلًا إذ تراوح ما بين ثلاثين إلى خمسة وثلاثين ألف رجل، لا أكثر، لكنهم كانوا من خيرة العرب جميعاً، وكان من بينهم بصفة خاصة الصحابة الكرام الذين شرفوا برؤية جمال النبي ﷺ وكانوا نحو ألف، وكان من بينهم أيضاً مائة صحابي ممن شهدوا بدراً مع رسول الله ﷺ وكان من بينهم أشهر قبائل العرب قبيلة الأزد التي كان لها وحدها أكثر من عشرة آلاف رجل، وكان من بينهم جماعة كبير من حمير، والأبطال المشهورون من همدان وخولان ولخم وجذام وغيرها.

ومن خصائص هذه المعركة أيضاً اشتراك النساء اللاتي حاربن وقاتلن بشجاعة وبسالة، وكانت هند أم معاوية تهجم وتتقدم وتصيح: عضدوا الغلفان بسيوفكم وقاتلت جويرة أخت معاوية أيضاً بشجاعة عظيمة.

أما المقداد الذي كان له صوت عذب فكان يتقدم الجيش ويمضي يتلو سورة الأنفال (التي تحث آياتها المسلمين على الجهاد).

ومن الجانب الآخر وصل حماس الروم إلى درجة جعلت ثلاثين ألف رجل يضعون القيود في أرجلهم حتى لا يفكروا للحظة في الانسحاب من ميدان

المعركة، وكانت بداية المعركة من جانب الروم وتقدم مئتا ألف رجل كأنهم سرب من الجراد ومعهم آلاف القساوسة والأساقفة حملوا الصلبان في أيديهم، وكانوا يرددون اسم عيسى، وصاح أحد المسلمين رغماً عنه حين رأى هذا العتاد والسلاح: الله أكبر ياله من جيش ضخم، فغضب خالد وقال: أصمت والله لو كانت حوافر جوادي صحيحة لقلت ما أقل جيش النصارى. . . ضاعفوه ضاعفوه وهكذا هجم النصارى بقوة شديدة وحماس، وتقدموا وهم يطلقون السهام، وظل المسلمون ثابتين لفترة لكن الهجوم كان من الشدة بحيث تحطمت ميمنة جيش المسلمين فانفصلت عن الجيش، وانسحبت انسحاباً غير منظم، وظل المنهزمون يتراجعون حتى وصلوا إلى خيام النساء، وعندما رأت النسوة هذه الحالة غضبن بشدة، واقتلعن أعمدة الخيام وصحن: تعالوا أيها الجبناء لنُحطِّمن رؤوسكم بهذه، وكانت خولة تنشد هذا الشعر لتزيد من حمية وغيرة الرجال:

ياهارباً عن نسوة تقيات رميت بالسهم والمنيات

بعد أن رأى معاذ بن جبل هذه الحالة وكان قائداً لإحدى مجموعات ميمنة الجيش، قفز من على الجواد وقال: سأحارب مترجلًا لكن إذا كان هناك من يستطيع أداء حق هذا الجواد فليتفضل، فقال ابنه: نعم أنا أستطيع أن أؤدي حقه لأنني يمكن أن أجيد القتال راكباً، وهكذا دخل الأب وابنه في صفوف الجيش وقاتلا بشجاعة حتى تمالك المسلمون أنفسهم ووقفوا ثانية على أرجلهم بثبات، وبالإضافة إلى هذا تقدم الحجاج زعيم قبيلة زبيد ومعه خمسمائة رجل، واعترض طريق النصارى الذين كانوا يتعقبون المسلمين وأوقفهم وظلت قبيلة الأزد ثابتة في الميمنة منذ بداية المعركة وألقى عليهم النصارى بكل ما لديهم في المعركة ولكنهم ظلوا ثابتين كجبل راسخ، وكانت المعركة قد اشتدت لدرجة أن الأيادي والسواعد والرؤوس تقطعت وتناثرت في كل ناحية من ميدان المعركة ومع هذا لم يفت هذا من عضد المسلمين

ومن ثباتهم، وكان عمرو بن الطفيل رئيس القبيلة يقاتل بالسيف ومضى ينادي: أيها الأزديون انتبهوا حتى لا يصاب المسلمون بذلة بسببكم، وقتل على يديه تسعة من أشجع أبطال النصارى قبل أن يستشهد في النهاية وكان خالد بن الوليد في الخلف مع الجيش فاخترق الصفوف فجأة، وهجم على الروم بشدة حتى أثار الاضطراب بين صفوفهم، وتقدم عكرمة بن أبي جهل ـ الذي حارب كثيراً مع الكفار قبل إسلامه ـ بفرسه وقال: أيها النصارى! كنت في وقت ما (وقت الكفر) أقاتل رسول الله ﷺ بنفسي فهل يمكن أن تتزحزح قدماي قيد أنملة أمامكم، ونظر إلى الجيش وقال: من يُبايع على الموت؟ فبايعه أربعمائة رجل كان من بينهم ضرار بن الأزور وقاتلوا بثبات حتى قتلوا جميعاً في المعركة، وعثر على جثة عكرمة بين أكوام القتلى، وكان لا يزال يتنفس، فوضع خالد رأسه على فخذه وراح يضع الماء في حلقه وقال: والله لقد كان ظن عمر خطأً بأننا لا نستشهد[١].

**والخلاصة** أنه رغم مقتل عكرمة ومن معه، إلا أنهم أفنوا آلاف الناس من الروم، كما حطمت هجمات خالد قوتهم حتى اضطروا في النهاية إلى التقهقر وظل خالد يضغط عليهم، حتى وصل إلى قائد الجيش «درنجار» وكان درنجار وقادة الروم قد وضعوا على أعينهم مناديل حتى إذا لم تتمكن عيونهم من رؤية الفتح فلا ترى الهزيمة أيضاً.

وفي نفس الوقت حين اشتد القتال في الميمنة هجم ابن قناطِر[٢] على الميسرة، ومن سوء الحظ أن من كانوا في هذا القسم من الجيش كانوا من قبيلة لخم وغسان وكانوا يعيشون أصلاً في أطراف الشام، وظلوا في حمى الروم لفترة طويلة، فرّ هؤلاء مع الهجمة الأولى من أثر الرعب والخوف الكامن في قلوبهم من الروم، ولو لم يتمالك القادة أنفسهم ويشحذوا هممهم

---

(١) تاريخ الطبري موقعة اليرموك.

(٢) كان قائد ميمنة جيش الروم.

لكان فيما حدث نهاية المعركة، وتعقب الروم الفارّين حتى وصلوا الخيام، فرأت النساء هذه الحالة فخرجن من فورهن، ومنعن بشجاعتهن النصارى من التقدم، ورغم تدهور حالة الجيش تماماً إلا أن القادة من أمثال قباث بن أشم، وسعيد بن زيد ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة كانوا يؤدون حق الشجاعة والبطولة فقد كانت السيوف والرماح تتكسر في يد قباث وتتهاوى على الأرض، ولم يكن ينفعل أو يغضب، فكلما تحطم رمح أو سهم قال: هل هناك من يعطي السلاح لرجل عاهد الله ألا ينسحب من الميدان حتى يستشهد. فكان الناس يسارعون إلى إعطائه سيفًا أو رمحاً، فينقض كالأسد يهجم على الأعداء، وقفز أبو الأعور من على الجواد وراح يخاطب من معه: العزة في الدنيا بالصبر والثبات، والعزة في الآخرة بالرحمة، فانتبهوها حتى لا تخسروا هذه الثروة، وكان سعيد بن زيد يقف على ركبتيه غاضباً، فتقدم الروم ناحيته فهجم عليهم كالليث، وقتل قائد المقدمة وأسقطه على الأرض. وكان يزيد بن أبي سفيان (أخو معاوية) يقاتل بثبات شديد، وأقبل عليه أبوه أبو سفيان الذي كان يقوم ببث روح الحماس في الجيش، فرأى ابنه فقال: ياروح أبيك في هذا الوقت يظهر كل جندي في الميدان جوهر الشجاعة، أنت قائد، فمن الحق أن تكون أكثر الجنود شجاعة، لأنه لا فاقك أحد من جنودك في الشجاعة لكان هذا من دواعي الخجل.

أما شرحبيل فكان محاصراً من قبل الروم من جميع الجهات فظل واقفاً بينهم ثابتاً كالجبل وهو يقرأ قوله تعالى:

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ [التوبة: ١١١] وكان يصيح قائلاً: أين المتاجرون مع الله ؟ أين من يدعون أنهم في ظل الله ؟، فكان من يسمع هذا النداء يرجع رغماً عنه، حتى تمالك الجيش المنهار نفسه من جديد، فمضى به شرحبيل وقاتل بشجاعة حتى أوقف الروم الذين كانوا يقاتلون هنا

وهناك كما يحلو لهم.

ومن الناحية الأخرى خرجت النساء من الخيام ووقفن وراء الجيش ورحن ينادين لو فررتم من المعركة فلن تشاهدوا وجوهنا.

كانت المعركة حتى ذلك الوقت تمضي سجالاً بين الفريقين، بل كانت كفة الغلبة للروم، وفجأة انطلق قيس بن هبيرة من الخلف وكان خالد قد عينه بعد أن سلمه كتيبة من الجيش، ليحمي ظهر الميسرة، وراح يهجم بشدة على الأعداء، وحاول قادة الروم الصمود والتماسك أمام هجماته إلا أن الجيش لم يتمكن من الصمود، فانقلبت جميع صفوفه، واضطربت وتراجعوا إلى الوراء، وخرج سعيد بن زيد في الوقت نفسه من القلب، وهجم على الأعداء فانسحب الروم إلى مسافة بعيدة حتى وصلوا إلى حافة الميدان حيث الممر المائي، وفي فترة وجيزة كان الممر المائي قد امتلأ بجثثهم، وصار الميدان خالياً.

وهناك واقعة[1] جديرة بالتذكّر هنا في هذه المعركة ففي الوقت الذي كان القتال لا يزال محتدماً، كان حباش بن قيس الجندي الشجاع يقاتل بفدائية لا نظير لها فضرب أحدهم رجليه بالسيف فقطع إحدى ساقية ولم يدر حباش بما حدث له، وبعد أن استرد وعيه راح يدور يبحث عنها ويقول، ماذا حدث لرجلي، وظل أهل قبيلته دائماً يفخرون بهذه الواقعة وأنشد الشاعر سوار بن أدن:

ومنّا ابن عتّاب وناشد رجله ومنا للذّي أدّى إلى الحي حاجباً

ويوجد اختلاف بين المؤرخين في أعداد من قتلوا من الروم، فقد ذكر الطبري والأزدي أن عددهم يزيد عن مائة ألف، بينما كتب البلاذري أنهم سبعون ألفاً، وكانت خسائر المسلمين ثلاثة آلاف كان من بينهم ضرار بن الأزور، وهشام بن العاص وآبان وسعيد وغيرهم.

---

(١) هذه الواقعة مذكورة في فتوح البلدان ص ١٢١ .

كان قيصر في أنطاكية حين بلغه نبأ الهزيمة، وكان يستعد للذهاب إلى القسطنطينية، وعند الرحيل تطلع ناحية الشام وقال: الوداع ياشام.

كتب أبو عبيدة إلى عمر رضي الله عنه رسالة النصر، وأرسل سفارة مختصرة كان فيها حذيفة بن اليمان، وكان عمر رضي الله عنه لم يذق طعم النوم عدة أيام في انتظار أخبار اليرموك، وحين وصله خبر النصر خرّ ساجدًا من فوره وشكر الله.

رجع أبو عبيدة من اليرموك إلى حمص، وأرسل خالد إلى قنسرين، فقاتله أهل المدينة في البداية لكنهم احتموا بالقلعة بعد ذلك وطلبوا الصلح على الجزية، وكانت إحدى قبائل العرب وتدعى تنوخ قد سكنت هذه المنطقة منذ فترة طويلة، فكانوا يعيشون لسنوات من خيام من الوبر، لكنهم تأثروا تدريجياً بالمدنية والحضارة فبنوا العمارات العظيمة، فراح أبو عبيدة يدعوهم إلى الإسلام نظراً لأنهم من العرب أصلًا، فأسلموا جميعاً إلا قبيلة بني سليح فقد ظلت على نصرانيتها، لكنها قبلت الإسلام أيضاً بعد عدة أيام. وكان كثير من أهل قبيلة طيِّىء يعيشون في هذه المنطقة فقبلوا الإسلام أيضاً عن طيب خاطر.

بعد فتح قنسرين، انطلق أبو عبيدة رضي الله عنه إلى حلب التي كان يقيم خارجها ومن حولها كثير من القبائل العربية فصالحهم على الجزية، وبعد أيام قلائل أعلنوا جميعاً إسلامهم، أما أهل حلب فقد تحصنوا في القلعة بعد أن سمعوا بمقدم أبي عبيدة ـ فحاصر عياض بن غنم قائد مقدمة الجيش المدينة، وبعد عدة أيام عقد الصلح بنفس الشروط مثلما حدث في المدن المفتوحة الأخرى، على أن يدفع النصارى الجزية وكتب معاهدة تقضي بحماية أرواحهم وأموالهم، وأسوار المدينة وقلعتها وكنائسهم، ثم جاء أنطاكية بعد حلب وكانت العاصمة الخاصة لقيصر، وقد اتخذها كثير من الروم وعامة النصارى ملاذاً لهم، فحاصر أبو عبيدة المدينة من جميع جهاتها وبعد أيام أُجبر النصارى على توقيع معاهدة صلح، وقد أصاب فتح هذه المدن الهامة

الشام كلها بالرعب، ووصل الأمر إلى أن النصارى أنفسهم كانوا يطلبون الصلح من تلقاء أنفسهم إذا ما توجه ناحيتهم أي قائد مع قليل من الجنود، وهكذا نشر أبو عبيدة الجيوش في جميع النواحي بعد فتح أنطاكية، وفتحت بسهولة مراكز صغيرة كثيرة مثل بوقا، وجومة، وسرمين، وتوزي، وقورس، وتل غرار، ورعبان، دون إراقة قطرة واحدة من الدماء، كما فتحت بالس وقاصرين من أول هجمة، ورفض أهل جرجومة دفع الجزية قائلين بأنهم سيحاربون جنباً إلى جنب مع المسلمين، وقد تمت الموافقة على هذا لأن الجزية كانت بديلًا عن الخدمة العسكرية.

وفي بغراس إحدى ضواحى أنطاكية التي تتاخم حدود آسيا الوسطى، كانت القبائل العربية مثل غسان وتنوخ وآياد يعدون العدة مع الروم عند هرقل، فهجم عليهم حبيب بن مسلمة ودارت معركة كبرى، قتل فيها الآلاف، وهجم خالد على مرعش، وتم الصلح شريطة أن يترك النصارى المدينة ويرحلوا عنها.

## بيت المقدس سنة ١٦هـ/٦٣٧م

كتبنا في الصفحات السابقة أن أبا بكر حين أراد الهجوم على الشام أرسل قائداً لكل إقليم من الأقاليم، فقدم عمرو بن العاص إلى فلسطين، وفتح بعض المدن في عهد أبي بكر، وفي عهد الفاروق رضي الله عنه تم الاستيلاء على جميع المدن الكبرى مثل نابلس ورام الله وعمواس وبيت جرين، وإذا ما نشبت معركة شاملة كان عمرو يترك فلسطين وينضم إلى أبي عبيدة ويعاونه، ويعود فوراً بعد انتهاء مهمته، وكان يعكف على أداء واجباته[١] حتى إنه قام بمحاصرة بيت المقدس بعد أن فتح المدن المحيطة، واحتمى النصارى بالقلعة وراحوا يقاتلون، وكان أبو عبيدة ـ في ذلك الوقت ـ قد انتهى من فتح بقايا

---

(١) فتوح البلدان ص ١٤٠ .

أقاليم الشام كقنسرين وغيرها، وهكذا واتته الفرصة للتحرك من هناك والتوجه إلى بيت المقدس، فضعفت همم النصارى وطلبوا الصلح بعد أن أضافوا شرطاً يقضي بأن يأتي عمر بنفسه لتكتب على يديه معاهدة الصلح، وذلك زيادة في الطمأنينة، فكتب أبو عبيدة خطاباً لعمر رضي الله عنه يخبره فيه أن فتح بيت المقدس متوقف على حضوركم، فجمع عمر رضي الله عنه جميع الصحابة الكبار وطلب رأيهم فقال عثمان: صار النصارى في رعب مكسوري الخاطر، فإن رفضت طلبهم أضفت إلى مذلتهم الكثير، ويظنون أن المسلمين يحتقرونهم تماماً، وأنهم سيلقون السلاح بدون شروط، لكن علياً رضي الله عنه خالف هذا الرأي.

استحسن عمر رضي الله عنه هذا الرأي وتم الاستعداد للسفر(١) واستخلف علياً وأسند إليه أمور الخلافة(٢) وغادر المدينة في رجب سنة ١٦هـ.

لعل القراء يتشوقون لمعرفة كيف كان سفر الفاروق الأعظم، ذلك السفر الذي كان هدفه إدخال الرعب في الأعداء عن طريقة إظهار ما للإسلام من عظمة وجلال، لكن استعدادات هذا السفر لم تكن فيها طبول تدق ولا موسيقى تعزف، ولم يكن هناك خدم أو حشم يصطفون، بل لم تكن هناك حتى خيمةً، كل ما هنالك فرس مع عدة رجال من المهاجرين والأنصار ومع هذا كانت الأرض تهتز عندما كان النداء يدوي معلناً بأن الفاروق الأعظم عزم على السفر من المدينة إلى الشام.

أُبلغ القادة أن يلتقوا به في الجابية، وهكذا قدم لاستقباله يزيد بن أبي سفيان وخالد بن الوليد وغيرهما، ولم تعد في هؤلاء القادة بساطة العرب بعد أن عاشوا في الشام، ولهذا حين قدم هؤلاء أمام عمر، وتفحص عمر هيئتهم وكانوا يرتدون الملابس الحريرية الثمينة والأردية المزركشة التي تجعلهم

---

(١) هذه رواية الطبري.

(٢) فتوح البلدان ١٤٠.

كأنهم من العجم أصحاب العظمة، غضب غضباً شديدًا ونزل عن جواده والتقط بعض الأحجار ورماهم بها وقال:

أبهذه السرعة اعتدتم طبع العجم.

فقال هؤلاء الناس:

إن الأسلحة تحت ملابسنا (أي أن جوهر الجندية لا يزال بداخلهم).

فقال: لا بأس[١].

وعندما وصل بالقرب من المدينة، وقف على هضبة عالية، وراح يتطلع حواليه، كانت الغوطة تتراءى له بمراعيها الخلابة، بينما كانت دمشق أمامه بمبانيها العالية الرائعة مما ترك أثراً على قلبه فقرأ بلهجة فيها عبرة الآية الكريمة: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ . . . ﴾ [الدخان: ٢٥] إلى آخر الآية ثم أنشد بعض أشعار النابغة المملوءة بمعاني الحسرة.

أقام في الجابية فترة حيث كتبت معاهدة بيت المقدس، وكان النصارى قد وصلهم خبر قدوم عمر رضي الله عنه، فسارت جماعة من أعيان المدينة إلى دمشق للقائه، وبينما كان عمر يجلس مع جماعة من الجند إذا بكوكبة من الفرسان تبدو على مرمى البصر تسابق خيلها الريح، وتبرق السيوف من بعيد، فاستعد المسلمون من فورهم وأمسكوا بأسلحتهم، فسأل عمر: ما الأمر؟ فأشار الناس إلى ناحية الفرسان، ففهم عمر بفراسته أنهم نصارى بيت المقدس، فقال: لا تقلقوا فقد جاء هؤلاء الناس يطلبون الأمان، وباختصار كتبت المعاهدة، ووقع عليها كبار الصحابة[٢].

قصد عمر رضي الله عنه بيت المقدس بعد إتمام المعاهدة، وكان الجواد

---

(١) الطبري ص ٢١ـ٢٣.

(٢) هذه رواية الطبري، وقد كتب البلاذري والأزدي أن معاهدة الصلح كتبت في بيت المقدس، وقد نقلنا هذه المعاهدة كاملة في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

الذي يركبه قد تآكلت حوافره فكان يتعثر وهو يمشي، فنزل عمر رضي الله عنه بعد أن رأى حال الفرس، فأحضروا له جواداً تركياً أصيلًا، كان جواداً ذكياً شقياً، بدأ يتبختر بعمر رضي الله عنه بعد أن ركبه فقال عمر: يالتعاستك من أين تعلمت هذا التبختر!! ونزل عمر رضي الله عنه من على الجواد ومضى مترجلًا، وعندما اقترب من بيت المقدس، قدم أبو عبيدة وقادة الجيش لاستقباله، وخجل المسلمون عندما رأوا ملابس عمر رضي الله عنه ومتاعه البسيط، ماذا سيظن النصارى؟! ولذا أحضروا له جواداً تركياً، وثوباً ثميناً، فقال عمر رضي الله عنه إن الله أعزنا بالإسلام، وهذا يكفينا ودخل بيت المقدس على هذه الحال، فذهب أولاً إلى المسجد، ووصل إلى محراب داؤد، وقرأ آية سجدة داؤد، ثم سجد، ثم أتى إلى كنيسة النصارى وظل يتجول هنا وهناك.

ولما كان معظم قادة الجيش قد اجتمعوا هنا، لذلك أقام عدة أيام وأصدر بعض الأحكام الضرورية، وذات يوم جاءه بلال (مؤذن رسول الله ﷺ) يشكو: «ياأمير المؤمنين إن قادتنا يأكلون لحم الطير وخبز الدقيق وعامة المسلمين لا يجدون حتى ما يسد رمقهم».

فتطلع عمر إلى القادة فقالوا: «إن كل شيء في هذه البلاد رخيص، فثمن لحم الطير والخبز المصنوع من الدقيق يساوي ثمن خبز وتمر الحجاز، ولم يتمكن عمر من إجبار القادة على شيء لكنه أمر أن يحددوا نصيب كل جندي من الطعام بالإضافة إلى مال الغنيمة والراتب.

وذات يوم طلب من بلال أن يؤذن للصلاة، فقال بلال: لقد عزمت ألا أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ، لكن اليوم (واليوم فقط) سأطيع أمرك، وبدأ بلال يؤذن، فتذكر جميع الصحابة عهد رسول الله ﷺ المبارك، وطرأت على قلوبهم رقة حتى بكى أبو عبيدة ومعاذ بن جبل بكاءً حاراً، وأجهش عمر رضي الله عنه بالبكاء وهو يحاول أن يتماسك، واستمر هذا الشعور مسيطراً على

الجميع لفترة.

ذات يوم ذهب عمر رضي الله عنه إلى المسجد الأقصى، واستدعى كعب الأحبار وسأله: أين تقام الصلاة، وكان بالمسجد حجر من آثار الأنبياء السابقين يقال له «الصخرة» وكان اليهود يقدسون هذه الصخرة مثلما يقدس المسلمون الحجر الأسود، وحين سأل عمر رضي الله عنه عن اتجاه القبلة قال كعب: ناحية الصخرة، فقال عمر رضي الله عنه، لا يزال تأثير اليهودية فيك لذلك خلعت نعليك عند الصخرة، ويظهر موقف عمر هذا رؤيته فيما يتعلق بالآثار القديمة وتجب ملاحظة هذا في الجزء الثاني من الكتاب.

## محاولة النصارى استرداد حمص سنة ١٧هـ/٦٣٨م

### هجوم النصارى على حمص

هذه المعركة جديرة بالذكر لأنها أوجدت فرصة للفتوحات في الجزيرة وأرمينيا، وقد سبق ذكر الأسباب التي أدت إلى إرسال الحملات إلى إيران وإلى قتال الروم، ولم يكن هناك سبب معين للهجوم على أرمينيا، كانت الفتوحات الإسلامية تتسع يوماً بعد يوم، مما جعل حدود مناطق الحكم الإسلامي تترامى وتشمل مناطق واسعة، وبالطبع بدأ الخوف يساور الممالك المجاورة التي شعرت بأن الدور قادم عليها، عندئذ كتب أهل الجزيرة لقيصر وطلبوا منه أن يعزم على القتال من جديد وأنهم سيعضدونه، وهكذا أرسل قيصر جيشاً كبيراً إلى حمص بينما ساق أهل الجزيرة إلى الشام حشوداً بلغت ثلاثين ألفاً، وجمع أبو عبيدة الجيوش من هنا وهناك وصفهم صفوفاً متماسكة خارج حمص، وأطلع عمر رضي الله عنه على جميع الأمور، وكان عمر رضي الله عنه قد أقام معسكرات للجيش في ثمان مدن كبيرة، ووضع في كل منها أربعة آلاف جواد لتكون على أهبة الاستعداد فإذا ما حدث طارىء ما، انطلقت الجيوش فوراً من كل مكان ووصلت إلى هدفها. وهكذا عندما وصله خطاب أبي عبيدة، أرسل رسولاً إلى كل ناحية، وكتب إلى القعقاع بن عمرو

الذي كان يقيم في الكوفة أن يأتي فوراً إلى حمص على رأس أربعة آلاف فارس وأمر سهيل بن عدي أن يصل إلى الجزيرة ليمنع أهلها من التقدم إلى حمص، وأرسل عبدالله بن عتبان إلى نصيبين، وأمر الوليد بن عقبة أن يصل الجزيرة وأن يمسك بزمام القبائل العربية المقيمة هناك.

ولم يقتنع عمر بهذه الترتيبات، فغادر بنفسه المدينة ووصل إلى دمشق، وعندما سمع أهل الجزيرة أن المسلمين دخلوا بلادهم تركوا حصار حمص وعادوا إلى الجزيرة، أما القبائل العربية التي كانت قد جاءت لمساعدة النصارى فقد شعرت بالندم، وكتبوا لخالد سراً بأنهم على استعداد للتخلي عن النصارى الآن أو في أي وقت يشاء إن كان هذا يُرضيه فأرسل لهم خالد يقول: بأنه يأسف فالأمر ليس بيده لأنه تحت إمرة رجل آخر (يقصد أبا عبيدة) وأنه لا يحبذ الهجوم، وقال: أما أنا فلا أهتم أبدًا بذهابكم أو ببقائكم، ومع هذا فاتركوا الحصار إن كنتم صادقين، وارحلوا حيث شئتم، ومن ناحية أخرى بدأ الجيش يطلب من أبي عبيدة الإذن بالهجوم، فسأل خالد، فقال خالد أنت تعرف رأيي فالنصارى يحاربون دائماً معتمدين على كثرة الجيش، والآن لم تبق هذه الكثرة ففيم التفكير إذن، ورغم هذا لم يكن قلب أبي عبيدة مطمئناً، فجمع الجيش كله وخطب فيهم خطبة قوية مؤثرة للغاية فقال:

«أيها المسلمون! من يثبت منكم اليوم سينال إن بقي على قيد الحياة المال والجاه، وإن مات سينال نعمة الشهادة، وأشهد (ولا مجال لقول الزور هنا) أن رسول الله ﷺ قال: «من مات غير مشرك دخل الجنة».

كان الجيش من قبل متشوقًا متحمسًا للقتال، فزادته خطبة أبي عبيدة حماساً على حماس، فحمل الجميع سلاحه من فوره، وكان أبو عبيدة في قلب الجيش بينما تقدم خالد والعباس على الميمنة والميسرة، وكان القعقاع الذي خرج من الكوفة على رأس أربعة آلاف جندي على بعد عدة أميال من حمص، وعندما سمع بما حدث ترك الجيش، وقدم للقاء أبي عبيدة ومعه مائة

فارس، ومع هجوم المسلمين على النصارى انسحبت القبائل العربية (موفون بوعدهم مع خالد) وبانسحابهم تحطمت قوة النصارى، فقاتلوا قتال اليائس ثم هربوا في ذهول مضطربين، ولم يتمكنوا من الثبات حتى عند مرج الديباج، وكانت هذه المعركة الأخيرة التي بدأها النصارى أنفسهم، ولم يجرؤا من بعدها على التقدم أبداً.

## عزل خالد رضي الله عنه

كان عزل خالد من أهم أحداث فتوحات الشام وسنة ١٧هـ/ ٦٣٨م، وقد ذكر المؤرخون عامة أن عزل خالد كان أول قرار اتخذه عمر مع توليه الخلافة، هذا ماكتبه ابن الأثير وغيره وهذا من الأخطاء الفادحة التي وقع فيها المؤرخون، ومن المؤسف أن ابن الأثير نفسه لم يفكر في التناقض الذي وقع فيه فهو يذكر عزل خالد ضمن أحداث سنة ١٣هـ ثم يضع عنواناً منفصلًا لعزل خالد ضمن أحداث سنة ١٧هـ، وينقل الأحداث كلها بتمامها في كلٍّ من الموضعين.

والحقيقة أن عمر رضي الله عنه كان غاضباً من بعض تصرفات خالد الحادة، وذلك منذ فترة، ومع هذا لم يشأ أن يتعرض له بشيء في بداية خلافته، ولكنه كتب إلى خالد أن يرسل إلى دار الخلافة تفاصيل النفقات نظراً لأن خالد كان قد اعتاد ألا يرسل مستندات النفقات ـ ولما رد عليه خالد بقوله: إنني كنت أفعل هذا منذ زمان أبي بكر، ولا أستطيع أن أفعل خلاف هذا ـ لم تكن هذه الاستقلالية من جانب خالد تعجب عمر رضي الله عنه ولا يمكن أن يعجبه هذا الأسلوب وهو الذي لم يكن يترك بيت المال في يد أحد بدون أن يحاسبه، لذا كتب إلى خالد: «يمكنك أن تظل قائداً للجيش شريطة أن ترسل دائماً حساب نفقات الجيش» فلم يوافق خالد على هذا الشرط، وعليه فقد عزل من منصب قيادة الجيش ـ وقد ذكر الحافظ بن حجر هذه الحادثة بالتفصيل في كتاب الإصابة في أحوال خالد بن الوليد.

ورغم كل هذا لم يُعزل خالد تماماً، بل ثبته تحت إمرة أبي عبيدة، وبعد ذلك حدثت واقعة سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م، ومفادها أن خالداً رضي الله عنه أنعم على أحد الشعراء بعشرة آلاف، فكتب أصحاب السجلات بذلك إلى عمر رضي الله عنه فكتب عمر بدوره خطاباً إلى أبي عبيدة: إذا كان خالد قد أعطى الجائزة من ماله الخاص، فهذا إسراف وإذا كان من بيت المال فهذه خيانة وهو في الحالتين يستحق العزل.

ويجدر أن نعرف الطريقة التي عُزل بها خالد، فقد سأله الرسول الذي حمل خطاب عزله أمام جمع من الناس: «من أين أعطيت هذه الجائزة؟» ولو اعترف خالد بخطئه لأمر عمر رضي الله عنه بالعفو عنه، لكن رفض الاعتراف بخطئه، فاضطر الرسول أن يرفع العمامة عن رأسه علامة على عزله، وربطه في رقبته بنفس العمامة عقاباً له على تمرده.

ولا تخلو هذه الواقعة من الحيرة، فكيف يهان بهذه الطريقة مثل هذا القائد الفذ الذي لا مثيل له في الإسلام والذي حسم سيفه أمر العراق والشام، ثم لا ينطق ببنت شفة؟!

لا شك أن هذه الواقعة تدل على طيب نفس خالد واعترافه بالحق من ناحية، ومن ناحية أخرى تشهد على مدى سطوة عمر وهيبته.

وصل خالد إلى حمص، وألقى خطاباً عن عزله جاء فيه أيضاً أن أمير المؤمنين عمر كان قد ولاّني على الشام ولما أخضعت الشام كله عزلني.

وعند هذه الجملة وقف أحد الجنود وقال مقاطعًا إياه :

اسكت أيها القائد، فيمكن أن تثير كلماتك هذه الفتنة بين الناس.

فقال خالد : «حقاً لكن هل يمكن أن تثار أي فتنة في وجود عمر»[١] .

---

(١) انظر كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف ص ٨٧ وتاريخ الطبري ص ٢٥٢٧ .

قدم خالد إلى المدينة المنورة، وحضر إلى عمر رضي الله عنه، وقال له: ياعمر والله لم تكن عادلاً في أمري، فقال عمر رضي الله عنه:

من أين لك هذه الثروة؟ فأجاب خالد: من الأنفال ثم قال ومازاد عن ستين ألفاً أعطيه لك» وهكذا أُحصيت ثروته وأُدخل إلى بيت المال عشرون ألفاً.

فالتفت عمر رضي الله عنه إلى خالد وقال: ياخالد والله إنك حبيب إليّ وإنني أبجلك وأعزك» ثم أرسل إلى جميع عمال المناطق المختلفة يخبرهم بأنه لم يعزل خالداً لسخط أو خيانة ولكنني كنت قد رأيت الناس قد فتنوا به، فوجدت من المناسب عزله حتى يعلم الناس أن ما يأتي يأتي من عند الله.

ويستطيع كل من يدقق في الأمور أن يفهم بسهولة الأسباب التي أدت إلى عزل خالد والحكمة من وراء عزله.

## وباء عمواس سنة ١٨هـ/٦٣٩م

في سنة ١٨هـ انتشر الوباء بكثرة في الشام ومصر والعراق وضاع الكثير من الشخصيات الإسلامية من جراء هذا الوباء الذي بدأ في أواخر سنة ١٨هـ واستمر بشدة عدة شهور، وعندما وصل الخبر في البداية إلى عمر رضي الله عنه سار بنفسه لوضع التدابير المناسبة وعندما وصل إلى سرغ[١] واستقبله أبو عبيدة ومن معه عرف منهم أن المرض قد اشتد واتسعت دائرته، فاستدعى المهاجرين الأولين والأنصار وطلب رأيهم في الأمر، فأدلى كل منهم برأيه وجاءت الآراء متضاربة إلا أن الصحابة الذين هاجروا في الفتح اتفقوا على رأي واحد وهو أن بقاء عمر في الشام غير مناسب، فأمر عمر ابن عباس رضي الله عنه أن يعلن عن الرحيل في اليوم التالي، فغضب أبو عبيدة ـ وكان يؤمن إيماناً راسخاً بالقضاء والقدر ـ وقال: «أفرار من قدر الله:» فتحمل عمر رضي

(١) اسم موضع .

الله عنه كلامه الشديد وقال: «أفر من قضاء الله إلى قضاء الله».

والخلاصة أن عمر رضي الله عنه عاد إلى المدينة وكتب إلى أبي عبيدة: لي عندك حاجة فلتحضرني في غضون أيام، فظن أبو عبيدة أنه يطلبه خوفاً من الوباء، فأجابه: ما كتب في القدر سيكون لا محالة وأنا لا أستطيع أبداً أن أفر من هنا بروحي تاركاً المسلمين، قرأ عمر الخطاب وبكى وكتب له: إن المكان الذي نزل فيه الجيش سهل منخفض ورطب فاختر مكاناً ملائماً وانتقل إليه، وهكذا نفذ أبو عبيدة هذا الأمر، وانتقل إلى الجابية وعسكر هناك، وكانت مشهورة بجوها الطيب.

بعد أن وصل أبو عبيدة إلى الجابية، أصابه المرض وحين اشتد به جمع الناس، وأوصاهم بألفاظ مؤثرة للغاية واستخلف معاذ بن جبل من بعده، ولما كان وقت الصلاة قد دخل أمر معاذ بن جبل بأن يؤم المصلين، ولم تكد الصلاة تنتهي حتى لبى داعي الأجل، واشتد الوباء وانتشر بين الجيش، فقال عمرو بن العاص للناس: إن هذا الوباء من البلاء الذي حاق بمصر أيام بني اسرائيل لهذا يجب أن نفر من هنا، فسمعه معاذ فصعد المنبر وخطب في الناس وقال: هذا الوباء ليس بلاء بل هو رحمة من الله .

وبعد الخطبة رجع إلى خيمته فوجد ابنه مريضاً، فقال بثبات شديد يابني! ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤]. فقال الابن: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] قالها وانتقل إلى الرفيق الأعلى، ومرض معاذ نفسه بعد أن رجع من دفن ابنه، فاستخلف عمرو بن العاص، وتوفي مطمئنًا مسروراً فقد كان يرى أن الحياة حجاب بين العبد وقربه من ربه.

إن نشوة الدين شيء عجيب، فقد اشتد الوباء وراح آلاف الناس طعمة للأجل لكن معاذاً رضي الله عنه اعتبره رحمة من الله، ولم يشأ أن يلجأ إلى أي نوع من التدبير، لكن النشوة كانت أقل لدى عمرو بن العاص الذي جمع

الناس بعد موت معاذ وخطب فيهم وقال: إذا بدأ الوباء انتشر كما تنتشر النار في الهشيم، ولهذا يجب على الجيش بأكمله مغادرة هذا المكان والذهاب إلى الجبل، ورغم أن بعض الصحابة المؤيدين لرأي معاذ من قبل، اختلفوا مع هذا الرأي حتى قال بعضهم علانية: «إنك تكذب» إلا أن عمرو بن العاص نفذ ما رأى وانتشر الجيش في أماكن متفرقة في الجبال، طبقًا لأوامره، وزال خطر الوباء تدريجياً إلا أن هذا التصرف جاء بعد أن قضى الوباء على خمسة وعشرين ألف مسلم كان يمكنهم فتح نصف العالم، وصاروا ضيوفًا على الموت، ومن بينهم أبو عبيدة، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، وحارث ابن هشام، وسهيل بن عمرو، وعتبة بن سهيل، وكلهم من كبار الصحابة، وكانوا يطلعون عمر رضي الله عنه على جميع الأحوال، فيرسل لهم الأوامر المناسبة فأمر بتعيين معاوية على دمشق وشرحبيل على الأردن بعد أن علم بوفاة يزيد بن أبي سفيان ومعاذ.

توقف فيضان الإسلام فجأة بسبب هذا الوباء الذي كان كيوم القيامة، وبدل أن يهجم الجيش على الأعداء سار أسيراً لما هو فيه، تيتم آلاف الصبيان، وترملت آلاف النساء، وأمتعة من مات صارت منشورة هنا وهناك، وعندما علم عمر رضي الله عنه بهذه الأحوال ذهب إلى الشام. وسلم مقاليد الحكم في المدينة لعلي رضي الله عنه، واتجه ناحية أيلة مصطحباً غلامه (يرفا) مع كثير من الصحابة، وحين وصل بالقرب من أيلة، ولحكمة ما أعطي فرسه لغلامه وركب هو على بعيره، فكان كل من يراه في الطريق يسأله: أين أمير المؤمنين ؟ فيقول: أمامكم، ودخلوا أيلة على هذا الحال، فأقاموا بها يومين، وتمزق ثوب عمر رضي الله عنه من الخلف بسبب الاحتكاك بمحفة البعير فأعطاه لأسقف أيلة حتى يرقعه، فرتقه بيديه وصنع له قميصًا جديدًا أهداه له، فارتدى عمر قميصه قائلاً، هذا أنفع للعرق ووصلوا من أيلة إلى دمشق، وأقام في معظم مناطق الشام يومين أو أكثر، رتب فيها الأمور وقسم

رواتب الجند واستدعى ورثة من قضوا في الوباء من هنا وهناك فأعطاهم ميراثهم، وأقام معسكرات الجيش على المناطق الحدودية، وعين موظفين جدد في المناصب التي شغرت، وسيرد ذكر هذا بالتفصيل في الجزء الثاني من الكتاب، وعند رحيله عن الشام جمع الناس وتحدث إليهم فيما أجراه من ترتيبات.

في تلك السنة عم القحط الشديد جزيرة العرب ولو لم ينظم عمر الأمور بكفاءةٍ لا نظير لها، لمات جوعاً الآلاف بل مئات الآلاف من الناس، وفي تلك السنة أجرى عمر الرواتب والأرزاق على المهاجرين والأنصار وقبائل الجزيرة العربية وسيرد تفصيل هذا الأمر في الجزء الثاني من الكتاب.

## فتح قيسارية [1] شوال ١٩هـ/ ٦٤٠م

تقع مدينة قيسارية على ساحل بحر الشام وتعد ضمن مناطق فلسطين، وهي اليوم منطقة خربة لكنها كانت آنذاك من أشهر المدن، وكما يقول البلاذري: «كان بها ثلاثمائة سوق» في أوائل سنة ١٣هـ/ ٦٣٥م هجم عليها عمرو بن العاص وظل يحاصرها لفترة، لكنه لم يستطع فتحها.

بعد وفاة أبي عبيدة عين عمر مكانه يزيد بن أبي سفيان، وأمر بأن يرسل حملة إلى قيسارية، فقام يزيد على رأس سبعة عشر ألفًا بالتوجه إلى قيسارية ومحاصرتها ولكنه حين مرض سنة ١٨هـ استخلف أخاه معاوية وسار هو إلى دمشق حيث وافته المنية. وقام معاوية بإحكام الحصار على المدينة بكل ما يتوفر لديه من عدة وعتاد، إلا أن أهل المدينة تمكنوا من الخروج من القلعة عدة مرات وقاتلوا المسلمين، لكنهم هزموا في كل مرة، ورغم ذلك لم يتمكن المسلمون من السيطرة على المدينة.

وذات يوم قدم يهودي يدعى يوسف إلى معاوية فدل المسلمين على نفق

---

(١) البلاذري.

يصل إلى باب القلعة المؤدي إلى داخل المدينة فقام مجموعة من الشجعان بالوصول إلى القلعة عن طريق هذا النفق وفتحوا باب القلعة وانقضوا على الجيش وقضوا عليه، ويذكر المؤرخون أن جيش النصارى كان على أقل تقدير ثمانين ألفًا لم ينج منهم غير القليل، ولما كانت هذه المدينة من المدن المعروفة والمشهورة كان فتحها بمثابة تطهير لسماء الشام من سحب الكفر فأشرقت سماء الشام بنور الإسلام.

## الجزيرة [١] سنة ١٦هـ/٦٣٧م

انفتحت عيون العجم جميعاً فجأة بعد فتح المدائن، فقد كانوا ينظرون إلى العرب نظرة احتقار، فراحوا الآن يرتعدون خوفاً إذا ما سمعوا ذكرهم، ولهذا بدأت كل محافظة في بلاد العجم تعد العدة لمواجهة العرب، فكانت محافظة الجزيرة أول محافظة ترفع السلاح، لأن حدودها كانت متصلة وملاصقة لحدود العراق، فأطلع سعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على هذا الأمر، فكلف من هناك عبدالله بن المعتم، ولأن عمر رضي الله عنه اهتم بهذه المعركة اهتماماً خاصاً لذا عين القادة بنفسه، فأوكل مقدمة الجيش إلى ربعي ابن الأفكل، وعين على الميمنة الحارث بن حسان، وعلى الميسرة فرات بن حيان، وعين على الساقة هانىء بن قيس. وتقدم عبدالله بن المعتم نحو تكريت[٢] على رأس جيش قوامه خمسة آلاف وحاصر المدينة لأكثر من شهر، وشن عليها هجوماً أكثر من أربع وعشرين مرة، واشترك مع العجم بعض القبائل العربية مثل أياد وتغلب وغر، فأرسل عبدالله إليهم رسالة سرية،

---

(١) الجزيرة اسم يطلق على المنطقة الآهلة بالسكان الواقعة بين دجلة والفرات، ويحدها من الغرب جزء من أرمينيا وآسيا الصغرى، ومن الجنوب بلاد الشام ومن الشرق العراق ومن الشمال جزء من أرمينيا .

(٢) تكريت أول مدينة في الجزيرة تتصل حدودها مع حدود العراق، وتقع على الجانب الغربي لنهر دجلة، وهي على مسافة ستة منازل من الموصل.

يثير فيها غيرتهم ويؤنبهم: كيف تقبلون وأنتم العرب عبودية العجم؟ وكان من تأثير رسالته أن تحولوا جميعاً إلى الإسلام، وأرسلوا له يطلبون منه الهجوم على المدينة، وأنهم سيخذلون العجم أثناء المعركة وينضمون إلى المسلمين، وبعدها وضعت الترتيبات وحدد موعد الهجوم، وعندما برز العجم للقتال هجم عليهم العرب من الخلف، فتساقط العجم تحت الأقدام بعد أن وجدوا أنفسهم مطوقين من جميع الجهات.

ورغم أن هذه المعركة تشملها معارك الجزيرة إلا أنها من حيث الموقع ترد مع ذكر الحملات على العراق، ولهذا لا يبدأ المؤرخون الإسلاميون فتوحات الجزيرة بها، ولم يكن يُعتقد آنذاك أنها منفصلة عن سلسلة معارك العراق.

وفي سنة ١٧ هـ عندما اطمأنوا من ناحية الشام والعراق أرسل عمر أمراً إلى سعد ليرسل الجيوش إلى الجزيرة فأسند سعد إلى عياض بن غنم هذه المهمة وجهزه بخمسة آلاف رجل، فانطلق من العراق واتجه ناحية الجزيرة، وعسكر بالقرب من مدينة الرها التي كانت في وقت ما مقاماً تاريخياً للإمبراطورية الرومانية، وهنا قبل الحاكم بعد لأي الصلح على الجزية وبعد الرها فتحت الجزيرة كلها من أولها إلى آخرها، وحدثت مناوشات عسكرية بسيطة في أماكن متفرقة نذكرها فيما يلي: الرقة، وحرّان ونصيبين وميافارين، وسمساط، وسروج، وقرقيسيا وزوزان وعين الوردة.

# خوزستان (١)

في سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م عُين مغيرة بن شعبة حاكماً على البصرة، ولما كانت حدود خوزستان متصلة بالبصرة، فقد رأى أن الأمان لا يمكن أن يتحقق كلية في البصرة دون فتح خوزستان، ولذلك هجم في بداية سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م على الأهواز التي يطلق عليها الفرس مدينة هرمز، وقد دفع حاكمها مبلغاً من المال قليل، وتم الصلح وتوقف المغيرة عندها، وفي سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م عُزل المغيرة وعين مكانه أبو موسى الأشعري، فأوقف حاكم الأهواز دفع المبلغ السنوي المتفق عليه قبلاً، مستفيداً من التغيير الذي حدث، وأعلن العصيان، مما اضطر الأشعري إلى الهجوم عليه ومحاصرة الأهواز التي كان يقيم فيها الجيش الإمبراطوري الذي قاتل بشجاعة كبيرة، ولكنه انهزم، ودخل أبو موسى المدينة، وقسم الغنائم مع آلاف الغلمان والإماء، ولكن حين بلغ الخبر عمر رضي الله عنه كتب إليه وأمره أن يطلق سراح الجميع، وهكذا تركهم جميعاً.

بعد الأهواز اتجه أبو موسى إلى مناذر، وكانت هي الأخرى مكاناً حصيناً، فتصدى أهل المدينة للهجوم بشجاعة وثبات، واستشهد في هذه المعركة مهاجر بن زياد، وكان من كبار القادة، وقطع من بالقلعة رأسه وعلقوه في أعلى البرج.

ترك أبو موسى ربيعاً شقيق مهاجر في هذه المدينة، وسار بنفسه إلى سوس، فتمكن ربيع من فتح مناذر، بينما حاصر أبو موسى سوس من جميع الجهات مانعاً عنها جميع الإمدادات، ونفذ الطعام والشراب من القلعة واضطر حاكم المدينة إلى طلب الصلح على أن يترك هو ومائة شخص من

---

(١) اسم لتلك المنطقة التي تقع بين العراق وفارس، وتضم أربع عشرة مدينة كبيرة، ومن أكبرها الأهواز .

أفراد عائلته أحياء، فوافق أبو موسى، وحدد الحاكم أسماء كل فرد من أفراد أسرته، فأُعطوا الأمان، ومن سوء الحظ أن الأمير نسي ذكر اسمه هو نفسه، وبعد أن اكتمل العدد مائة أقر أبو موسى بقتل الحاكم الذي لم يتضمنه الحصر، وبعد سوس تم حصار رامهرز، وعقد صلح على أن يدفع أهلها جزية مقدارها ثمانمائة ألف سنوياً، وكان يزدجرد يقيم في قم وقتها، ومعه جميع أفراد العائلة الإمبراطورية، وكانت تصله باستمرار أخبار انتصارات أبي موسى وتفوقه، وكان هرمزان خال شيرويه قائداً قوياً مقتدراً، فحضر إلى يزدجرد، وطلب منه أن يمنحه حكم فارس والأهواز على أن يوقف هجوم العرب الكاسح، فمنحه يزدجرد سلطة الحكم من فوره مع حشد كبير، وصل هرمزان إلى شوستر عاصمة خوزستان التي كانت تضم جميع المباني الحكومية والعسكرية، فقام بإصلاح القلعة، وحصنها ودعمها بالخندق والأبراج هذا بالإضافة إلى إرساله للنقباء والخطباء حتى يبثوا الحماس في قلوب الناس ويعدوهم ويهيئوهم للحرب، وبهذه الطريقة تجدد الحماس القومي الذي كان قد تبلّد، وفي غضون أيام قلائل تجمعت حشود غفيرة، فكتب أبو موسى إلى دار الخلافة طالباً النجدة، فوصلت رسالة إلى عمار بن ياسر وكان حاكماً على الكوفة يأمره فيها الخليفة بأن يرسل النعمان بن مقرن مع ألف رجل للنجدة، لكن ما أعده العدو من سلاح وعتاد جعل هذا المدد لا قيمة له، فكتب أبو موسى رسالة ثانية، فجاء الأمر لعمار بأن يترك عبدالله بن مسعود ومعه نصف الجيش في الكوفة ويذهب بنصف الجيش لنجدة أبي موسى، ومن ناحية وصل جرير البجلي مع جيش كبير إلى جلولاء، وتوجه أبو موسى بعتاده وعدته إلى شوستر ووصل بالقرب من المدينة وعسكر هناك.

خرج هرمزان بنفسه من المدينة للهجوم معتمداً على كثرة قواته، ونظم أبو موسى صفوفه تنظيماً دقيقاً، فعين على الميمنة براء بن مالك وهو شقيق أنس ابن مالك (الصحابي الشهير) وعين على الميسرة البراء بن عازب الأنصاري

بينما جعل أنس رضي الله عنه على كتيبة الفرسان، وخاض الجيشان معاً حرباً ضروسًا، وراح البراء بن عازب يقاتل ويقاتل حتى وصل إلى بوابة سور المدينة، ومن ناحية أخرى كان هرمزان يقود الجيش ويقاتل بشجاعة منقطعة النظير، حتى تقابل الاثنان أمام بوابة سور المدينة، وقتل البراء، فتقدم مجزأة ابن ثور الذي كان يقود الميمنة وحمل على الهرمزان، إلا أن الهرمزان قتله أيضاً، ومع ذلك ظلت مجريات المعركة في صالح المسلمين، فقتل من العجم ألف وأسر ستمائة، وأغلق هرمزان القلعة واستمر في القتال.

وذات يوم جاء أحد سكان المدينة سراً إلى أبي موسى وقال: لو أمنت على روحي ومالي، جعلتكم تستولون على المدينة، فوافق أبو موسى، أخذ الرجل معه أحد العرب ويدعى أشرس، فعبرا نهر دجيل وهو فرع من نهر دجلة يمر من تحت شوستر، ودخلا المدينة عن طريق سرداب، وضع الرجل اللثام على وجه أشرس وقال له: امض ورائي وكأنك خادم ومرّ من حواري وأزقة المدينة حتى وصل إلى قصر هرمزان الخاص، وكان هرمزان جالساً في مجمع مع الأمراء ورجال البلاط، وبعد أن أطلع الرجل أشرس على جميع مباني المدينة وعلى جغرافيتها حضر إلى أبي موسى، فقال له: لقد أديت واجبي وجاء دور همتكم ونصيبكم، وصدَّق الأشرس على ما قاله الرجل وقال: لو كان معي مائتا فدائي لفتحت المدينة فوراً ـ فتطلع أبو موسى ناحية الجيش، فتقدم مائتا بطل قائلين: أرواحنا في سبيل الله حاضرة، ووصل الأشرس إلى بوابة سور المدينة عن طريق السرداب فقتل الحراس وفتح البوابة من الداخل في الوقت الذي كان أبو موسى مستعدًا مع الجيش، ومع انفتاح البوابة تدفق الجيش كله، وشاعت الفوضى في المدينة كلها، وهرب الهرمزان واحتمى بالقلعة، وحين وصل المسلمون إلى القلعة صعد الهرمزان إلى البرج وخاطبهم بقوله: في جعبتي الآن مائة سهم ولا يمكن أن أقع أسيراً حتى أفترش هذا المكان بالجثث ومع هذا فسوف أنزل على شرط أن ترسلوني إلى المدينة ليقرر عمر في شأني ما يريد.

ووافق أبو موسى، وأمر أنس أن يصحبه إلى المدينة، وسار الهرمزان في أبهة وعظمة مصطحباً معه جميع خدمه وحشمه بالإضافة إلى جميع أفراد أسرته، وحين اقترب من المدينة ارتدى الملابس الملكية، ووضع على رأسه التاج المرصع المعروف باسم آذين، ولف نفسه بقباء من الديباج، وتحلى بالمجوهرات على طريقة أباطرة العجم، وربط السيف المرصع في خصره، وهكذا دخل المدينة في أعظم وأبهى صورة وسأل الناس عن أمير المؤمنين، وكان يظن أن الرجل الذي انتشرت هيبته وجلاله في جميع أنحاء الدنيا لابد أن يكون بلاطه مناسباً لمكانته من حيث العظمة والأبهة وكان عمر رضي الله عنه في ذلك الوقت يجلس في المسجد راقداً على الأرض.

دخل الهرمزان المسجد فكان معه مئات المتفرجين الذين راحوا يرددون أنظارهم في ملابسهم الفخمة الفاخرة، ويتعجبون، استيقظ عمر على همهمة الناس وفتح عينيه فرأى أمامه صورة مجسمة للعظمة والفخامة العجمية، نظر عمر إلى الهرمزان من فوقه إلى أسفله وخاطب الحاضرين فقال: هذه ملذات الدنيا الدنية، وبعدها خاطب الهرمزان ولم يكن المترجم قد أتى بعد، وكان المغيرة بن شعبة على دراية بسيطة بالفارسية، ولهذا قام بالترجمة، فسأل عمر أولاً عن الوطن، ولم يكن مغيرة يعرف معنى كلمة وطن بالفارسية لهذا قال: أزكدام أرضي؟ [أي: من أي أرض أنت؟] ثم بدأ الكلام.

بعد القادسية تصالح الهرمزان مع سعد عدة مرات وكان ينقض العهد في كل مرة، وفي معركة شوستر قتل على يديه اثنان من قادة المسلمين الكبار[1]، وتألم عمر كثيراً وحزن لمقتلهما حزناً شديداً حتى أنه عزم على قتل الهرمزان دون تراجع، ومع هذا ولإتمام الحجة سمح له بتقديم طلبه ـ فقال الهرمزان، ياعمر! عندما كان الله معنا كنتم عبيدًا لنا، والآن الله معكم

---

(١) وردت هذه الأحداث بالتفصيل في الطبري.

ونحن عبيد لكم، ثم طلب الماء ليشرب، وحين حضر الماء أمسك الكوب بيده وطلب ألا يقتل مالم يشرب، ووافق عمر رضي الله عنه على هذا عندئذ وضع الهرمزان الكوب من يده وقال: أنا لا أشرب الماء، ولهذا لا يمكن أن تقتلوني بعد أن وافقتم على شرطي، وتحير عمر لهذه الخدعة.

نطق الهرمزان بالشهادتين وقال: لقد كنت قد أسلمت ولكني لجأت لهذه الحيلة حتى لا يقول الناس إنني أسلمت خوفاً من السيف[1] وسُرّ عمر كثيراً، وسمح له بالإقامة داخل المدينة وعين له راتباً سنوياً وكان عمر رضي الله عنه كثيراً ما يستشيره في أمر حملات فارس وغيرها.

بعد شوستر تم الهجوم على جنديسابور وهي على مسافة أربعة وعشرين ميلًا من شوستر، فحاصروها لأيام، وذات يوم فتح أهل المدينة أبواب أسوار المدينة بأنفسهم، وانصرف جميع الناس إلى شئونهم باطمئنان وسكينة، وتعجب المسلمون من هذا الأمر ثم سألوا عن السبب، فقال أهل المدينة، لقد أمنتونا على أنفسنا بشرط الجزية، فلا خلاف إذن بيننا، وتحير الجميع وتساءلوا من ذا الذي أمّنهم، وعرفوا بعد تقصي الأمر أن غلاماً قام بكتابة وثيقة الأمان خفية عن أعين الناس، فقال أبو موسى: إن رأي الغلام لا يمكن أن يكون حجة، فقال أهل المدينة، نحن لا نعرف الحُرِ من العبدِ من رجالكم، وفي النهاية كتبوا إلى عمر فأجابهم:

إن عبد المسلمين مسلم، ومن أعطاه الأمان فقد أُعطى الأمان من المسلمين أيضاً، وبفتح هذه المدينة استقر الإسلام في خوزستان كلها، وأُضيف إلى البلاد المفتوحة بلد آخر.

---

(١) العقد الفريد لابن عبدربه المكيدة في الحرب.

# العراق العجمي [١] سنة ٢١هـ/٦٤١م

بعد فتح جلولاء كما سبق وذكرنا، رحل يزدجرد إلى الري ولكن حاكمها آبان جادويه غدر به، ولهذا ترك الري ووصل إلى خراسان مروراً بأصفهان وكرمان وأقام يزدجرد في مرو، وكانت معه نار البارسين المقدسة، ولهذا أسس (معبد النار)، ولم يكد يستقر ويبدأ في تنظيم أمور السلطنة والحكم حتى جاءه خبر فتح العرب لخوزستان بالإضافة إلى العراق، وأن الهرمزان ساعِد الدولة وعضدُها قد أُسر حيًّا، فأصيب بالهلع بعد سماع هذه الأخبار، ورغم أن مكانة إمبراطوريته لم تعد كما كانت قبلًا لكن لم يكن من الممكن أن يتلاشى أثر الأسرة التي حكمت ثلاثة آلاف سنة هكذا فجأة. وكان الفرس يعتقدون في ذلك الوقت أن عاصفة العرب ستتوقف بعد أن تصل إلى المناطق الحدودية، ولهذا ظلوا مطمئنين على مملكتهم الخاصة، لكن واقعة خوزستان فتحت أعينهم، وبعدها جاءت أوامر الملك ووصلهم النقباء، ونتج عن هذا فجأة قلق شديد عمّ مناطق واسعة شملت طبرستان وجرجان ونهاوند، والري وأصفهان، ومروراً من همدان حتى خراسان والسند، فجاءت جموع غفيرة كالجراد وصل عددها حوالي مائة وخمسين ألفاً، تجمعت كلها في قم، وعيّن يزدجرد مردان شاه (ابن هرمز) قائدًا للجيش فسار نحو نهاوند، وخرج حاملًا راية كاوياني «وهي الراية التي يتفاءل بها الفرس» وهكذا سار مردان شاه في ظل هذه الراية المباركة!!

---

(١) ينقسم العراق إلى قسمين: القسم الغربي ويطلق عليه العراق العربي والقسم الشرقي ويطلق عليه العراق العجمي وحدود العراق العجمي الأربعة هي: طبرستان شمالاً، وشيراز جنوباً، وخوزستان شرقاً، ومراغة غربًا، وكانت همدان والري وأصفهان من أعظم مدنها في ذلك الوقت والآن صارت الري مدينة خربة تمامًا، وظهرت بالقرب منها مدينة طهران عاصمة ملوك الدولة القاجارية.

أخبر عمار بن ياسر، وكان في ذلك الوقت حاكماً على الكوفة، عمر رضي الله عنه بهذه الأخبار، فأخذ عمر خطاب ياسر وذهب إلى المسجد النبوي وقرأه على الجميع ثم قال: يامعشر العرب! إن جميع إيران استعدت هذه المرة لتمحو المسلمين من الدنيا، فما رأيكم ؟.

فقام طلحة بن عبيد الله وقال: ياأمير المؤمنين! لقد حنّكتك الأحداث ولانعرف سوى أن تأمرنا فنأتمر، وقال عثمان رضي الله عنه أرى أن ترسل لقادة الشام واليمن والبصرة ليرسلوا جيوشهم إلى العراق، ولتأخذ أنت نفسك أهل بيتك وتغادر المدينة، ولتتجمع كل الجيوش تحت رايتك في الكوفة، ثم تُوجَّه ناحية نهاوند، فاستحسن الجميع رأي عثمان رضي الله عنه، لكن علياً رضي الله عنه كان صامتًا فالتفت إليه عمر رضي الله عنه فقال علي رضي الله عنه: إذا سحبنا الجيوش من الشام والبصرة فسوف يستولي الأعداء على المناطق الحدودية، ولو تركت المدينة قامت قيامة العرب في كل مكان، وربما يكون من الصعب السيطرة على بلادك ذاتها، لذا أرى ألا نتحرك من هنا وأن تُرسل الأوامر إلى الشام واليمن والبصرة وغيرها بأن يرسلوا ثلث الجيوش الموجودة هناك إلى مناطق القتال.

فقال عمر رضي الله عنه هذا هو رأيي أيضاً، لكني لم أكن أرغب في أن أتخذ رأياً بمفردي.

ثم جاء البحث في أمر من سَيُعَيّن قائدًا للجيش في هذه المهمة الصعبة؟ وأخذ الناس يجولون بأفكارهم في كل ناحية، لكنهم لم يجدوا أحداً، ذلك لأن القادة الجديرين بهذا المنصب انشغلوا بمهمات أخرى.

من الأمور التي تضاف إلى عبقرية عمر أنه كان على معرفة جيدة بجميع أحوال البلاد حتى إنه كان على دراية كاملة بمميزات كل فرد من أفراد الأمة وأوصافه، وهكذا قال له الحاضرون من حوله: من يستطيع أن يفصل في هذا

الأمر بطريقة أفضل منك: فاختار عمر رضي الله عنه النعمان بن مقرن، وأيده الجميع، فانطلق النعمان بن مقرن من الكوفة بكتيبة بلغ تعدادها حوالي ثلاثين ألفاً، وتضم عدداً من كبار الصحابة من بينهم حذيفة بن اليمان، وعبدالله بن عمر وجرير البجلي والمغيرة بن شعبة وعمر بن معد يكرب. وأرسل النعمان الجواسيس وعلم أن الطريق مفتوح أمامه حتى نهاوند، وهكذا واصل التقدم حتى نهاوند، وعسكر الجيش في مكان يقال له أسبدهان يبعد عن نهاوند تسعة أميال. وكان عمر رضي الله عنه قد أعد خطة محكمة تقضي بألا تتقدم الجيوش الإسلامية الموجودة في فارس جيوش العجم نحو نهاوند وبذلك يحرم العدو من إمدادات كبيرة.

أرسل العجم رسالة إلى النعمان يطلبون رسولاً، وهكذا ذهب إليهم المغيرة بن شعبة سفيراً وكان قد تولى هذه المهمة من قبل.

هيأ العجم البلاط وزينوه بأفخم الزينات، وألبسوا مردان شاه التاج وأجلسوه على العرش الذهبي، وجلس عن يمينه وشماله الأمراء بحللهم المزركشة بالديباج وعلى رؤوسهم تيجان من الذهب وفي أيديهم أساور من الذهب، ومن خلفهم صفوف الجند الممتدة إلى مسافة بعيدة، وكان بريق سيوفهم المسلولة يخطف العيون، وبدأ الحديث عن طريق المترجم فقال مردان شاه: أيها العرب! أنتم أسوأ الناس حظاً، وأكثرهم فقراً، وأكثرهم دنساً، إن رماة السهام الواقفين حول عرشي يمكنهم أن يقضوا عليكم الآن، لكنني لا أريدهم أن يدنسوا سهامهم بدمائكم القذرة، ومع هذا إذا رحلتم من هنا فسوف أعفو عنكم.

قال المغيرة: نعم كنا قوماً أذلاء حقراء، لكننا تذوقنا طعم الثروة بعد أن أتينا إلى هذا البلد، وسنظل نتذوق طعم هذه الثروة حتى تفترش جثثنا التراب.

**والخلاصة** أن السفارة لم تنجح في تحقيق شيء وبدأ الفريقان يستعدان للحرب، فعين النعمان حذيفة وسويد بن مقرن على الميمنة والميسرة، عين

القعقاع على المجردة، وعين مجاشع على الساقة، وفي الناحية الأخرى كان زردك على الميمنة، وبهمن على الميسرة، وكان العجم قد فرشوا ميدان المعركة بالشوك من قبل، مما جعل تقدم المسلمين من الصعوبة بمكان، وكان العجم يخرجون من المدينة ويقومون بالهجوم كلما رغبوا، وعندما رأى النعمان ذلك، جمع القادة وأخذ رأيهم واحداً واحداً، واتفق على ما رآه طليحة بن خالد الأسدي، فقد استعدت الجيوش وتجمعت على بعد ستة أو سبعة أميال من المدينة، وأُرسل القعقاع على رأس جماعة من الجيش لمهاجمة المدينة وخرج الفرس للقائه بحماس شديد، وكلما تقدموا للأمام وحتى لا ينسحب أحدهم فرشوا الطريق من ورائهم بالشوك، وبدأ القعقاع المعركة ثم بدأ في التراجع تدريجياً، فراح العجم يتقدمون كلما تراجع حتى خرجوا من المنطقة المفروشة بالشوك، وكانت الحشود التي جمعها النعمان تتحفز تريد الهجوم فكان النعمان يستوقفهم بينما كان العجم يمطرونهم بالسهام حتى أصابوا المئات بل الآلاف من المسلمين، لكن المسلمين امتثلوا لحكم قائدهم وأطاعوه وتحملوا ما يصيبهم من جروح، ووقفوا مكتوفي الأيدي، وراح المغيرة يردد: إن الجيش سيصبح عديم الفائدة، وسوف تضيع الفرصة من أيدينا، لكن النعمان كان ينتظر وقت انكسار الشمس ناحية الغروب، وهو الوقت الذي كان رسول الله ﷺ يختاره للهجوم على العدو.

**والخلاصة** أنه حين انكسرت الشمس ناحية الغروب كبر النعمان حسب المعتاد ثلاث تكبيرات، وعند التكبيرة الأولى استعد الجيش بأسلحته، وعند التكبيرة الثانية سل الجنود سيوفهم، وعند التكبيرة الثالثة بدأ الهجوم دفعة واحدة، وانقض المسلمون على الأعداد حتى ظهرت أكوام من القتلى، وسالت الدماء في ميدان المعركة حتى عثرت أقدام الخيل وانزلقت، وانزلقت أقدام جواد النعمان وسقط النعمان مع جواده وكان مثخناً بالجراح وبزيه المميز الذي يرتديه دائماً في المعارك القلنسوة والقباء الأبيض، وقد سارع إليه شقيقه نعيم بن مقرن فحمل الراية وامتطى جواده وارتدى قلنسوته وقباءه،

وهكذا لم يعلم أحد باستشهاد النعمان في المعركة، واستمر القتال كما هو عليه.

والحادثة التالية تلقي الضوء على الصبر والثبات الذي وهبه الله للمسلمين في ذلك الزمان المبارك، في الوقت الذي جُرح فيه النعمان وسقط قال لمن حوله، إنني أموت ولا يجب أن يُعنى بي أحد تاركاً المعركة، وبالصدفة وصل عنده أحد الجنود فنظر فإذا أنفاس النعمان لا تزال تتردد بداخله، فنزل من فوق جواده وأراد الجلوس بجانبه، لكنه تذكر بسرعة أوامره فتركه ومضى يقاتل الأعداء، وبعد الفتح وصل إليه أحد الجنود ففتح عينيه وسأل: كيف انتهت ؟ فقال: انتصر المسلمون، فشكر الله وقال أسرعوا بإخبار عمر .

وكلما دخل الليل كلما تزلزلت أقدام العجم وسارعوا بالفرار من الميدان فتعقبهم المسلمون حتى همدان ووصل حذيفة بن اليمان الذي عين قائدًا للجيش خلفًا للنعمان إلى نهاوند وعسكر فيها، وكان هناك معبد للنار مشهور فجاء «موبده» إلى حذيفة وقال: أعطني الأمان وأنا أدلكم على كنز ثمين، وهكذا قدم لهم جواهر كسرى برويز القيمة التي كان كسرى قد حفظها للأوقات العصيبة، فقسم حذيفة أموال الغنيمة وأرسل الخمس والجواهر إلى عمر، الذي لم تكن وصلته أخبار القتال منذ أسابيع فبشره الرسول بالنصر فسر عمر سروراً عظيماً، لكنه حين سمع خبر شهادة النعمان انفجر باكياً ولم يتمالك نفسه، ووضع يديه على رأسه واستمر في البكاء، ثم ذكر الرسول أسماء بقية الشهداء ثم قال: لقد استشهد كثيرون غيرهم ممن لا أعرفهم فقال عمر: ماضرهم ألا يعرفهم عمر، ولكن الله يعرفهم، وعندما رأى الجواهر قال بغضب: ارجع فوراً وقل لحذيفة أن يقسمها بين الجند، وهكذا بيعت هذه الجواهر بأربعين مليون درهم.

وقد قتل في هذه المعركة حوالي ثلاثون ألفاً من العجم ولم تقم لهم قائمة بعد هذه المعركة، ولهذا سمى العرب هذا الفتح باسم «فتح الفتوح» وقد أسر في هذه المعركة فيروز الذي كتبت شهادة عمر رضي الله عنه على يديه.

# الحرب الشاملة سنة ٢١هـ/٦٤٢م

لم تكن في نية عمر رضي الله عنه الاستيلاء على إيران بكاملها، وكانت المعارك التي دارت حتى تلك الفترة تهدف إلى تأمين حدود الدولة الإسلامية، ولا شك أن العراق ضُمَّت إلى دولة الإسلام، لكنها في الحقيقة جزء من بلاد العرب، لأن العرب كانوا يسكنون مناطقها المختلفة قبل الإسلام، أما المعارك التي حدثت بعد أن تقدم المسلمون إلى ما بعد العراق، فقد نشبت بطريقة تلقائية من جراء سلسلة المعارك في العراق ـ وكان عمر رضي الله عنه نفسه يقول: ليت بيننا وبين فارس جبل نار فلا يستطيعون الهجوم علينا، ولا نستطيع أن نهجم عليهم.

لكن العجم لم يهدأ بالهم بأي حال من الأحوال، فراحوا على الدوام يعدون الجيوش بعد الجيوش ويبدأون القتال، وكانوا يثيرون الناس في البلاد التي دخلت في نطاق دولة الإسلام، وهكذا فكر عمر رضي الله عنه في معركة نهاوند، فجمع كبار الصحابة وسألهم: لماذا يظهر التمرد مراراً وتكراراً في البلاد المفتوحة ؟ فأجابوه: لا يمكن لهذه الفتنة أن تخمد جذوتها مالم يطرد يزدجرد من حدود إيران، لأنه طالما فكر الفرس بأنهم ورثة عرش كيان فلا يمكن لآمالهم أن تنقطع.

وبناءً عليه عزم عمر على القيام بالحرب الشاملة، وأعد بنفسه وبيديه عدة رايات، ووضع على كل راية اسم بلد معين وأرسلها إلى القادة المشهورين، وهكذا أرسل براية خراسان إلى الأحنف بن قيس، وراية أردشير وسابور إلى مجاشع بن سعود وراية اصطخر إلى عثمان بن العاص الثقفي وراية فسنا إلى سارية الكناني وأرسل راية كرمان إلى سهيل بن عدي، وأرسل براية سجستان إلى عاصم بن عمر، وأرسل راية مكران إلى الحكم بن عمير التغلبي، وأرسل

راية آذربيجان إلى عتبة، وفي سنة ٢١هـ انطلق هؤلاء القادة إلى البلاد المحددة لهم، وسنفصل الحديث عن هذا الأمر بالترتيب.

تأتي أصفهان في المرتبة الأولى ضمن سلسلة الفتوحات فقد هجم عبدالله ابن عبدالله على هذا الإقليم سنة ٢١هـ ـ وكان حاكمها ويلقب «استندار» أي: حاكم الإقليم قد جمع جيشاً كبيراً في نواحي أصفهان، جعل على مقدمته شهر براز جادويه، وكان قائداً محنكاً ذا خبرة طويلة، والتقى الجيشان معاً، وقدم جادويه إلى ساحة المعركة وصاح: من أراد النزال فلينازلني منفرداً، فخرج له عبدالله نفسه، وقُتل جادوية وانتهت المعركة بقتله، وقبل «استندار» الصلح على الشروط المعتادة، وقدم عبدالله إلى «جي» أي: أصفهان نفسها، فقام بحصارها، فأرسل حاكمها (فاذوسفان) رسالة قال فيها: لماذا نزهق أرواح الآخرين؟ فلنتقاتل أنا وأنت، وليكن في هذا الأمر الفصل، فبرز الخصمان إلى الميدان، فهجم فاذوسفان بالسيف وواجه عبدالله هجومه بثبات وشجاعة، حتى خرجت عبارات الاستحسان من فم فاذوسفان بطريقة عفوية ثم قال: لا أريد أن أقاتلك، لكني أسلم لك المدينة على شرط أن يقيم فيها من يشاء من السكان ويدفعوا الجزية، ومن شاء الخروج منها فليخرج، فقبل عبدالله هذا الشرط، وكتبت معاهدة الصلح.

في ذلك الحين وصل خبر مفاده أن تمرداً وقع في همدان، فأرسل عمر إليها نعيم بن مقرن، فوصلها في اثني عشر ألفاً، وأعد العدة لحصارها، وحين طال أمد الحصار، نشر الجيوش في جميع أنحاء المنطقة حتى أن الجيش ترك همدان وفتح جميع المناطق الأخرى في الإقليم، وحين رأى المحاصرون ماجرى، هبطت همتهم وطلبوا الصلح، وفتحت همدان، إلا أن الديلم اتصلوا بالري وآذربيجان، واجتمعت هذه الجيوش في وادي رود، وكانت هذه المعركة من الشدة حتى تذكر الناس معركة نهاوند، وانهزم الديلم في النهاية، وحمل عروة ـ الذي كان قد حمل قبلًا رسالة هزيمة موقعة الجسر

ـ بشارة الفتح وهكذا عوّض ما حدث من قبل، وكان عمر رضي الله عنه في غاية التردد بعد أن سمع عن استعدادات الديلم، فراح يعد العدة لإرسال الإمدادات وفجأة وصل عروة، فقال عمر رضي الله عنه بطريقة عفوية وهو يظن أنه يحمل خبراً سيئاً: «إنا لله» فقال عروة: لاتضطرب فقد نصر الله المسلمين.

كتب عمر رضي الله عنه إلى نعيم بأن يعين نائباً عنه على همدان ويسير هو إلى الري، الذي كان يحكمها في ذلك الوقت سياوش، وهو حفيد بهرام جوبين، طلب سياوش النجدة من حكام ديناوند وطبرستان وقوس وجرجان، فجاءت جيوش النجدة من كل مكان، إلا أن «الزنبيدي» ـ وكان بينه وبين سياوش خلاف ـ تحالف مع نعيم بن مقرن، وهوجمت المدينة بحيلة دبرها، وفتحت بطريقة مفاجئة، وسلم نعيم بن مقرن حكم الري للزنبيدي، وبعد تدمير المدينة القديمة أمر أن تبنى من جديد، وطبقاً لأوامر عمر رضي الله عنه أقام نعيم في الري، وأرسل أخاه سويداً إلى قوس التي فتحت دونما قتال، وبهذا الفتح خضع العراق العجمي بأكمله للمسلمين.

# آذربيجان [١] سنة ٢٢هـ/٦٤٣هـ

كما ذكرنا قبلًا أرسل عمر رضي الله عنه راية آذربيجان إلى عتبة (بن فرقد) وبكير وعين لهما جهات فقدمهما، وعندما وصل بكير إلى الميدان كان في مواجهة اسفنديار، فانهزم اسفنديار وأُسر حيًّا، وفي الجانب الآخر قام بهرام شقيق اسفنديار بقطع الطريق على عتبة، لكنه انهزم أيضاً وفرّ هارباً، وعندما علم اسفنديار بهزيمة أخيه قال لبكير: انطفأت الآن نار الحرب وأُصالحكم على الجزية، ولما كانت آذربيجان تحت تصرف الأخوين معاً، أطلق عتبة سراح اسفنديار على هذا الشرط وهو أن يظل حاكماً على آذربيجان ويدفع الجزية للمسلمين .

ويذكر البلاذري المؤرخ أن راية آذربيجان أُسندت إلى حذيفة بن اليمان، فسار من نهاوند ووصل إلى أردبيل التي كانت عاصمة لآذربيجان، وكان حاكمها قد جمع حشوداً كبيرة من ماجروان وميمند وسراة وسبز وميانج وغيرها لقتال المسلمين، ولكنه انهزم ثم عقد الصلح على أن يدفع ثمانمائة ألف درهم سنوياً، ثم هجم حذيفة بعد ذلك على موقان وجيلان، ورفرفت رايات النصر.

---

(١) من خريطة آذربيجان تظهر مدينة تبريز العاصمة (أما قديماً فقد كانت العاصمة مدينة مراغة) وكانت بروعة وارد بيل من مدن هذا الإقليم ويذكر أن سبب تسميته آذربيجان بهذا الاسم هو:
أ ـ أن موبد آذربيجان بني فيها معبدًا للنار كان اسمه آذر آباد.
ب ـ أن آذر تعني النار في اللغة البهلوية أما بايجان فتعني المحافظ أو سادن معبد النار، ومن هنا أطلق هذا الاسم على المنطقة لكثرة معابد النار فيها ويطلق عليها العرب بلغتهم آذربيجان.

# طبرستان [١] سنة ٢٢هـ/٦٤٣م

ذكرنا من قبل أن نعيماً حين فتح الري تقدم أخوه سيد نحو قومس، وضم هذه المنطقة الواسعة بدون حرب أو نزاع وكانت جرجان عاصمة طبرستان الشهيرة قريبة جداً، لهذا كتب سويد إلى حاكم المنطقة روزبان فصالحه على الجزية، ووردت في معاهدة الصلح بوضوح عبارة أن المسلمين مسئولون عن أمن جرجان ودهستان وغيرها، وأن من يشترك مع المسلمين من سكان المدينة في صد أي هجوم خارجي عليها يعفى من دفع الجزية ـ وبعد أن سمع حاكم طبرستان (سبهدار) ما جرى في جرجان طلب الصلح بشرط أن يدفع كل سنة خمسمائة ألف درهم ولا يكون للمسلمين حق عليه ولا يكون له حق على المسلمين.

# آرمينية [٢]

وصل بكير الذي تولى مهمة آذربيجان إلى حدود «باب» بعد فتحه لآذربيجان ـ حينئذ أعد عمر رضي الله عنه جيشاً جديداً وأرسله لمساعدته، كان شهربراز حاكم «باب» مجوسيا خاضعاً للإمبراطورية الفارسية ـ حين سمع بقدوم

---

(١) إقليم طبرستان في الخريطة موجود ضمن فتوحات عثمان رضي الله عنه لأنهم امتنعوا عن دفع الجزية في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه وحدودها كما يلي: من الشرق خراسان وجرجان، ومن الغرب اذربيجان ومن الشمال بحر جرجان ومن الجنوب بلاد جبل بسطام ومن أشهر مدنها استر آباد.

(٢) يطلق على إقليم أرمينية أيضاً بلاد الأرمن، وهي جزء من آسيا الصغرى، وهي تمتد من البحر الأسود جنوباً إلى المناطق الجبلية والصحراوية وتحدها من الشرق كرجستان ومن الغرب بلاد الروم، ولما كانت قد فتحت كلها في عهد الخلافة العثمانية لهذا فلونها في الخريطة يختلف عن لون المناطق التي فتحت في العهد الفاروقي.

المسلمين بادر بلقائهم وقال: أنا لا أتعاطف أبداً مع لئام أرمينية وخبثائها، فأنا إيراني الأصل، ومادامت إيران قد خضعت لكم، فأنا أيضاً من أتباعكم، ولكن لي مطلب واحد وهو ألا تؤخذ منيّ الجزية، في مقابل إمدادكم بالجيش إذا ما دعت الضرورة، ولأن الجزية تؤخذ في الحقيقة عوضاً عن الدفاع فقد قبل طلبه هذا.

وتقدمت الجيوش بعد ذلك، وسار عبدالرحمن بن ربيعة إلى بلخير وهي عاصمة مملكة الخزر، وكان يرافقه شهرباز فقال له متعجباً: ماذا تنوي أن تفعل ؟ في زماننا كان الناس يعتبرون إحجام هؤلاء عن مهاجمتنا غنيمة ـ فقال عبدالرحمن: لكني لا يمكن أن أتراجع حتى أغوص في كبد هذه البلاد، وكان قد فتح البيضاء حين انتهت خلافة عمر الفاروق.

ومن ناحية أخرى اتجه بكير إلى «قان» حيث بداية حدود «أران» فضمها إلى الدولة الإسلامية، وتوجه حبيب بن مسلمة وحذيفة إلى تفليس وجبال أملان وانتهت خلافة عمر قبل أن ترتفع راية الإسلام هناك وتم استكمال هذه الفتوحات في عهد عثمان رضي الله عنه.

## فارس [1] سنة ٢٣هـ/٦٤٤م

مع أن أول حملة على فارس كانت سنة ١٧هـ، ولم تكن بإذن من عمر رضي الله عنه، كما أنها لم تحقق انتصارات آنذاك ـ لهذا لم نر أنه من المناسب الكتابة عنها ضمن أحداث هذه الفترة.

---

(١) في الجغرافية المعاصرة أُنقصت حدود العراق وزيدت حدود فارس، لكن الخريطة المرسومة هنا توضح حدود فارس آنذاك وهي أصفهان من الشمال وبحر فارس من الجنوب وكرمان من الشرق والعراق العربي من الغرب وكانت شيراز أكبر وأشهر مدنها.

فتحت العراق والأهواز وكانتا جارتين للعرب، وكثيراً ما كان عمر رضي الله عنه يقول: «لو كان بيننا وبين فارس جبل من نار لكان هذا أمر طيب»، لكن الحرب نشبت مع فارس بالصدفة ودون تخطيط فقد عُيّن علاء بن الحضرمي عاملًا على البحرين سنة ١٧هـ وكان رجلًا شجاعاً ذا همة عالية، ولما كان بينه وبين سعد بن أبي وقاص منافسة نتيجة لبعض الأسباب، فقد كان يريد أن يتفوق عليه في كل ميدان، وحين انتصر سعد في معركة القادسية غبطه علاء كثيراً واغتاظ لدرجة أنه أعد الجيوش وهجم على فارس دون إذن من دار الخلافة، وكان خليد بن منذر قائداً للجيش كما كان لكل من جارود بن المعلى وسوار بن همام جيش مستقل عن الآخر، فوصلوا إلى إصطخر ورست السفن ونزلت الجيوش على الساحل، وكان الحاكم على هذه المنطقة يدعى هيربد، جمع جيشاً كبيراً وصفَّه على الساحل حتى لا تصلهم سفن المسلمين، ورغم قلة عدد المسلمين وإمكانية وقوع سفنهم في يد العدو، إلا أنهم ثبتوا في ظل قائدهم الشجاع الذي تقدم بكل حماس وصاح في الجيش: أيها المسلمون، لا تجزعوا إن العدو يريد أن يسلبنا سفننا، لكن الله شاء أن يكون لكم مع السفن ملك هؤلاء الأعداء.

وكان خليد وجارود ينشدان وهما يقاتلان بفدائية حتى قتلوا بسيوفهم الآلاف:

يا آل عبدالقيس للنزاع قد خفل الإمداد بالجراع
وكلهم في سنن المصاع بحسن ضرب القوم بالقطاع

**والخلاصة** أن معركة رهيبة حدثت، ورغم أن النصر كان حليف المسلمين إلا أن جزءاً كبيراً من الجيش قد استشهد لأنهم عجزوا عن التقدم، وعندما أرادوا الانسحاب كان العدو قد أغرق السفن، واضطر الجيش إلى التوجه برًّا إلى البصرة إلا أنه لسوء الحظ كانت الطرق قد سدّت أيضاً، فقد سدّ الفرس الطرق من جميع النواحي، ووضعوا الجيوش في كل مكان وجهة.

وعندما علم عمر رضي الله عنه بخبر الهجوم على فارس، غضب غضباً شديداً، وكتب إلى علاء يهدده، وكتب إلى عتبة بن غزوان ليعد جيشاً على الفور ويتوجه إلى فارس لإنقاذ المسلمين، فأعد عتبة جيشاً قوامه اثنا عشر ألفاً على رأسه أبو سبرة، واتجه الجيش إلى فارس ووصل إلى حيث كان المسلمون فأقام الجيش معسكره هناك. بينما أرسل المجوس النقباء في كل جهة، فجمعوا حشوداً كبيرة تحت قيادة شهرك، وتحارب الخصمان بكل ما لديهما من قوة وفي النهاية انتصر أبو سبرة، ولكنه عاد إلى البصرة، فلم تكن لديه أوامر بالتقدم.

وبعد معركة نهاوند أرسل عمر رضي الله عنه الجيوش في كل ناحية، وهجمت على فارس، وعين لكل ناحية جيشاً منفصلًا عن الآخر، عندئذ جعل المجوس (البارسيون) من «توج» عاصمة لهم وجمعوا فيها العدة والعتاد، ولكن حين انتشرت الجيوش الإسلامية في المناطق المختلفة، اضطروا هم أيضاً إلى نشر قواتهم فكان هذا الأمر مقدمة لهزيمتهم، وهكذا فتحت سابور وأردشير وتوج وإصطخر تباعًا، لكن في أواخر خلافة عمر رضي الله عنه أي في سنة ٢٣هـ فحين عين عثمان بن أبي العاص عاملًا على البحرين أعلن شهرك العصيان وكان حاكماً لفارس، وهكذا ساد التمرد جميع البلاد المفتوحة من قبل مما دعا الخليفة الرشيد عثمان رضي الله عنه إلى تكليف أخيه الحكم بمهمة إخضاع هذه البلاد ثانية، ووضع تحت إمرته جيشاً كبيراً ـ ففتح الحكم جزيرة أبركادان، وتقدم بعدها إلى توج ففتحها وأقام فيها معسكراً، وبنى فيها بعض المساجد، وأسكن فيها كثيراً من القبائل العربية التي كانت تغير أحياناً على المدن الحدودية، وهكذا أخمدوا الفتن وأعادوا الوضع كما كان في معظم أجزاء أردشير وسابور وإصطخر وأرجان ـ وعندما علم شهرك بهذا الأمر جُن جنونه فجمع جيشاً جراراً توجه به إلى توج ووصل إلى رامشهر، بينما كان الحكم قد التف لمواجهته، وصف شهرك جيشه في نظام دقيق، وعين كتيبة في مؤخرة الجيش مهمتها قتل من يفكر في الانسحاب من المعركة. وبدأت المعركة واستمر القتال

وبعد ذلك أرسل عثمان رضي الله عنه الجيوش إلى كل ناحية، وانتشر الرعب في جميع أنحاء فارس بعد هذه المعركة، وكان عثمان رضي الله عنه يفتح البلاد تلو البلاد كلما اتجه وهكذا فتحت جازرون ونوبندجان، وأرجان وشيراز وسابور التي تعتبر كلها من مدن فارس الرئيسة، وقد فتحت كلها على يد عثمان رضي الله عنه واتجهت الجيوش إلى فساو ودارابجرد وعادت جميعها منتصرة.

## كرمان (١) سنة ٢٣هـ/٦٤٤م

كان سهيل بن عدي قد كُلّف بفتحها، فقاد جيشاً عام ٢٣هـ كان على مقدمته بشير بن عمر العجلي، وهجم على كرمان، فطلب حاكمها النجدة من قفس وغيرها وواجه جيش المسلمين لكنه قتل في ميدان المعركة على يد النسير، وهكذا لم يعد هناك ما يعوق تقدم الجيش حتى جيرفت وسيرجان، وغنم المسلمون الإبل وقطعان الأغنام الكثيرة، وكانت جيرفت المركز التجاري لكرمان فيما كانت سيرجان من أشهر مدنها.

## سيستان (سجستان) (٢) ٢٣هـ/٦٤٤م

فتحت سيستان (سجستان) على يد عاصم بن عمر، وقد قاتل أهلها في منطقة الضواحي قتالاً بسيطاً ثم هربوا، وتعقبهم عاصم حتى زرنج وهو الاسم

---

(١) اسمها القديم كرمانية، تحدها كوهستان من الشمال، وبحر عمان من الجنوب وسجستان من الشرق، وفارس من الغرب، كانت عاصمتها في الزمان الغابر أسير (بيروسير) مكان «جيرفت» الحالية.

(٢) سيستان يقال لها بالعربية سجستان وتحدها هراة شمالاً ومكران جنوبًا والسند شرقًا وكوهستان غربًا، وأشهر مدنها زرنج حيث توجد بها الفاكهة بكثرة ومساحتها ٢٥ ألف ميل مربع.

الثاني لسيستان (سجستان) فحاصرهم، وبعد عدة أيام طلب المحاصرون الصلح بشرط أن تعتبر جميع أراضيهم حمى، فقبل المسلمون هذا الشرط وأوفوا به لدرجة أنهم كانوا إذا خرجوا ناحية الزروع الخاصة بأهل البلاد كانوا يعبرونها بسرعة خشية ألا يلتصق بهم شيء منها، وكانت الفائدة الكبيرة من الاستيلاء على سجستان هو الاستيلاء على مفتاح بوابة البلدان الواقعة بين السند ونهر بلخ، وهكذا كانوا يهجمون على تلك البلدان بين الحين والحين.

## مكران [1] سنة ٢٣هـ/٦٤٤م

عُين الحكم بن عمرو التغلبي لفتح مكران، فسار إليها سنة ٢٣هـ وأنزل الجيوش ناحية نهر مكران، فقام ملك مكران ـ وكان يدعى ـ راسل ـ بعبور النهر بنفسه، ورتب جيشه، وحدثت معركة شديدة انهزم فيها راسل وتم الاستيلاء على مكران، وأرسل الحكم مع رسالة النصر عدة أفيال من الغنائم إلى دار الخلافة، وسأل عمر رضي الله عنه صحارى عبدي الذي جاءه حاملًا رسالة النصر، عن أحوال مكران، فقال: أرض سهلها جبل وماؤها وشل، وثمرها دقل، وعدوها بطل، وخيرها قليل وشرها طويل والكثير بها قليل ـ قال عمر رضي الله عنه: أتخبرني عن حال البلاد ـ أم تقول سجعًا ؟ فقال: إنني أذكر الحقائق الواقعية، فأرسل عمر رسالة أمرهم فيها أن تتوقف الجيوش حيث وصلت، وهكذا كانت مكران آخر حدود الفتوحات الفاروقية، وهذه رواية الطبري، أما البلاذري المؤرخ فيروي أن الجيوش وصلت حتى السهل المنخفض عند ديبل وتهانه، وإن صحت هذه الرواية يكون الإسلام قد دخل السند والهند في عهد عمر رضي الله عنه.

---

(١) يطلق على نصف مكران اليوم بلوتشستان ورغم أن البلاذري يذكر أن الفتوحات الفاروقية وصلت إلى مدينة ديبل في السند إلا أن الطبري يذكر أن مكران كانت نهاية الفتوحات ولهذا حددنا آخر الفتوحات الفاروقية عندها.

# فتح خراسان [1] وهزيمة يزدجرد سنة ٢٣هـ/٦٤٤م

كتبنا قبلًا أن عمر أرسل للقادة كُلًا على حدة راية باسم كل بلد سيتولون مهمة فتحه، وهكذا سلم الأحنف بن قيس راية خراسان، فتوجه الأحنف سنة ٢٢هـ إلى خراسان ووصل هرات بعد أن مر بطبسين، ففتحها ومضى إلى مرو شاهجهان حيث كان يقيم يزدجرد إمبراطور فارس، وحين سمع يزدجرد بقدوم المسلمين انتقل إلى مرو رود، وكتب يطلب العون من خاقان الصين والسلاطين الآخرين، فترك الأحنف حارثة بن النعمان على مرو شاهجهان وذهب بنفسه إلى مرو رود، فهرب يزدجرد من هناك ووصل مباشرة إلى بلخ، في تلك الأثناء وصلت جيوش النجدة من الكوفة وكان على رأسها علقمة بن النضري، وربعي بن عامر التميمي، وعبدالله بن أبي عقيل الثقفي وابن أم غزال الهمداني على الميمنة والميسرة وغيرها، فسار الأحنف بجيش كامل الاستعداد وهجم على بلخ، وانهزم يزدجرد، وعبر النهر ولجأ إلى الخاقان، وعندما وجد الأحنف الميدان أمامه خالياً سيّر الجيوش إلى كل ناحية، وفتح نيسابور ووصل حتى طخارستان وجعل مرو رود عاصمة وأقام فيها، وأرسل رسالة إلى عمر رضي الله عنه أخبره فيها أن خراسان صارت في حوزة الإسلام، ولم يكن عمر رضي الله عنه يفضل اتساع الفتوحات بهذا الشكل، فقرأ الرسالة وقال: «لو كان بيننا وبين خراسان بحر من النار لكان ذلك خير»، ومع أنه امتدح كثيراً همة الأحنف وقال: «الأحنف سيد أهل الشرق» إلا أنه

---

(١) يرى العلامة البلاذري أن مناطق ما وراء النهر وفرغانة وخوارزم وطخارستان وسجستان كلها تدخل ضمن حدود خراسان، إلا أن حدود خراسان اختلفت على مر الزمان وكانت مدنها المشهورة هي نيسابور ومرو وهراة وبلخ وطوس وفسا وأبي درد وغيرها، بما فيها ما سبق، وهما الآن غير معمورة.

كتب له ردًا على رسالته ألا يتجاوز حدود ما وصل إليه.

ومن ناحية أخرى ذهب يزدجرد إلى الخاقان، فأكرمه وعززه وأمده بجيش كبير وانطلق معه إلى خراسان، وسمع الأحنف الذي كان يقيم في بلخ بجيش قوامه أربعة وعشرون ألفاً، عن قدوم الخاقان فسار إلى مرو رود وعسكر هناك، وعبر الخاقان بلخ ووصل إلى مرو رود - وانفصل يزدجرد عن الخاقان وتقدم ناحية مرو شاهجهان، ورأى الأحنف أن المواجهة في الميدان المفتوح غير مناسبة، فعبر النهر ووصل إلى سهل فسيح يقع وراءه جبل، ورتب صفوف جيشه وظل الجيشان مصطفين أمام بعضهما لمدة، وكان العجم يتسلحون بعتادهم ويجوبون الميدان، ثم يعودون أدراجهم لأن أحداً من المسلمين لم يتعرض لهم بقتال، وكان من عادة الأتراك المتبعة أن يخرج ثلاثة أبطال من بينهم على التوالي مع دق الطبول وعزف الأبواق، ثم يتحرك الجيش كله بعد ذلك، وذات يوم ذهب الأحنف بنفسه إلى الميدان فخرج إليه أحد الأتراك بالطبل والراية حسب عادتهم، فهجم الأحنف ودار النزال بينهما لفترة حتى قتل الأحنف التركي برمح أسقطه على الأرض وأنشد الأحنف بحماس:

إن على كل رئيس حقًا أن يخضب الصعدة أو يندقا

وطبقاً للتقليد المتبع خرج بطلان تركيان آخران إلى الميدان فقتلا على يد الأحنف، وجاء الخاقان بنفسه إلى الميدان ورأى جثث رجاله الشجعان ملقاة على الأرض، وكان هذا فألاً سيئاً، فتألم كثيراً وقال للجيش: لماذا نتحمل مصائب الآخرين دونما فائدة، ثم أصدر أمراً بالرحيل.

وكان يزدجرد يحاصر مرو شاهجهان، فوصله خبر ما حدث، فيئس من النصر، وحمل خزائنه وجواهره وقصد تركستان، وعندما رأى رجال البلاط أن ثروة البلاد خرجت من أيديهم، منعوه من حملها، وحين عارضهم هاجموه واستولوا على جميع الأموال والأمتعة قطعة قطعة، وهكذا وصل

يزدجرد إلى الخاقان بلا مال أو متاع، وظل يقيم في فرغانة عاصمة الخاقان حتى آخر خلافة عمر رضي الله عنه.

كتب الأحنف رسالة إلى عمر رضي الله عنه يبشره فيها بالنصر، وعندما وصل الرسول إلى المدينة جمع عمر رضي الله عنه الناس كلهم وبشرهم بالنصر، وخطب فيهم خطبة مؤثرة، قال في آخرها: لقد انتهت اليوم دولة المجوس ولا يستطيعون اليوم أن يصيبوا الإسلام بأذى، ولكن إذا لم تثبتوا على العمل الطيب فسينزع الله منكم الحكم، ويضعه في يد من هم أحق به منكم.

## فتح مصر سنة ٢٠هـ/٦٤١م

مع أن فتح مصر يدخل ضمن المآثر الفاروقية إلا أن واضع أساس هذا الفتح كان عمرو بن العاص، الذي كان يحترف التجارة قبل الإسلام، وكانت مصر ميداناً لتجارته، وربما لم يخطر على باله في ذلك الزمان أن يفكر في مصر من هذا المنطلق (أي: فتحها)، إلا أن صور أراضيها الخصبة ونضارتها وخضرتها ظلت دائماً تتراءى أمام عينيه. وقد التقى به عمر رضي الله عنه في سفره الأخير إلى الشام، ودار الحديث عن مصر، ورفض عمر رضي الله عنه فكرة فتح مصر، وكان رفضه في البداية على سبيل الاحتياط لأنه عاد ووافق في النهاية بناء على إصرار عمرو بن العاص، وسيّر معه أربعة آلاف مجاهد، ورغم هذا لم يكن عمر رضي الله عنه مطمئنًا، وقال لعمرو: سر باسم الله، ولكن إن وصلك خطابي قبل أن تصل إلى مصر فأرجع ولم يكد عمرو بن العاص يصل إلى العريش، حتى وصله خطاب عمر، يمنعه من التقدم، ولكن الأمر كان مشروطًا ـ كما ذكرنا ـ لهذا قال عمرو بن العاص، لقد دخلنا حدود مصر[1] ومضى عمرو بن العاص من العريش ووصل «الفرما» وهي مدينة

(١) كتب المقريزي وغيره أن الرسول التقي بعمرو في رفح، فلم يأخذ الخطاب من الرسول اعتقادًا منه أنه قد يمنعه من التقدم وقال له: أسرع سأخذه منك حين =

كانت على ساحل بحر الروم، وكانت عامرة آنذاك وتعد من المدن العظيمة لأنها كانت مزاراً لجالينوس وكان يقيم بها الجيش الحكومي، فخرج من المدينة لمواجهة المسلمين، وظلت رحى المعركة تدور لشهر حتى انهزم الروم في النهاية ـ وانطلق عمرو بن العاص من فرما، ووصل إلى بلبيس وأم دنين ففتحهما، وكانت الفسطاط آنذاك مجرد صحراء، وهي تطلق على الأرض الواقعة بين نهر النيل وجبل المقطم، وكانت هناك مساحات خضراء مزروعة أو غير مزروعة تستخدم للرعي، ولأن القلعة الحكومية كانت كائنة بهذه المنطقة، وكان يقيم فيها حكام الروم الذين يعيشون في مصر بالإضافة إلى أنها كانت تقع على نهر النيل فكانت السفن والمراكب تصل إلى بوابة القلعة، لكل هذه الأسباب كانت مكاناً مناسباً تماماً للمستلزمات الحكومية، لذا ركز عليها عمرو بن العاص منذ البداية وبدأ يعد العدة لمحاصرتها.

ووصل المقوقس حاكم مصر وتابع قيصر إلى القلعة قبل عمرو بن العاص، وراح يعد العدة للقتال، وعندما رأى عمرو استحكام القلعة وقلة جيشه أرسل إلى عمر رضي الله عنه وطلب المساعدة، فأرسل إليه عشرة آلاف جندي مع أربعة من القادة، وكتب له في خطابه، إن كل قائد من هؤلاء القادة يساوي ألف فارس، والقادة هم: الزبير بن العوام، عبادة بن الصامت، والمقداد بن عمرو، ومسيلمة بن مخلد، واختار عمرو الزبير بن العوام قائداً للجيش نظراً لمنزلته، وسلمه أمر الحصار وغير ذلك من ترتيب، فركب الزبير جواده وطاف حول الخندق من جميع جهاته وعين على كل مكان مايناسبه من

---

= أصل إلى أقرب منزل، وحين اقترب من العريش أخذ الخطاب وفضه وقرأه وقال إن أمير المؤمنين كتب: إن لم تكن وصلت إلى مصر فلا تدخلها، لكننا وصلنا في حدود مصر ـ ونتساءل هنا ماالداعي إلى إلصاق تهمة الاحتيال في عمرو بن العاص، وقد ذكر البلاذري وغيره صراحة أنه تسلم الخطاب في العريش، حتى لو كان لقي الرسول في رفح فلا حرج في ذلك لأن رفح نفسها تدخل في حدود مصر.

الفرسان والمشاة، ومع هذه الترتيبات بدأ إلقاء الحجارة بالمنجانيق، ومضى على هذا الأمر سبعة أشهر كاملة، دون حسم المعركة بنصر أو هزيمة.

ذات يوم ضاق الزبير من هذا الحال فقال: اليوم أفتدي المسلمين بنفسي، وسل سيفه ووضع سلمًا وصعد سور القلعة، وساعده بعض الصحابة، وحين وصل إلى أعلى السور كبروا معاً بصوت عظيم، وكبرّ معهم الجيش كله تكبيرة هزّت أرض القلعة، وفهم النصارى أن المسلمين دخلوا القلعة، فارتبكوا ارتباكاً شديداً وفروا هاربين، فنزل الزبير من فوق السور وفتح باب القلعة، فدخل الجيش كله، ورأى المقوقس ماحدث فسارع يطلب الصلح، فأعطي الأمان للجميع في الحال. وذات يوم دعا النصارى عمرو بن العاص وقادة الجيش إلى مأدبة عظيمة وقبل عمرو بن العاص الدعوة مصطحباً معه بعض الناس المهذبين.

وفي اليوم التالي دعاهم عمرو، فجاء الروم وهم في غاية الهندام وجلسوا على الكراسي المخملية، واشترك المسلمون معهم في تناول الطعام مثلما أمرهم عمرو من قبل، كانوا يرتدون ملابسهم العربية البسيطة، وجلسوا يأكلون على طبيعتهم وطبقًا لعاداتهم العربية البسيطة، وكان الطعام بسيطًا اللحم والخبز، وبدأ العرب يأكلون، فراحوا يغمسون اللحم في المرق، وراحوا ينهشونها بأسنانهم بقوة حتى تطايرت قطرات المرق على ملابس الروم.

وبعد انتهاء الطعام سأل الروم: أين أولئك الناس الذين شاركونا دعوتنا بالأمس؟ أي: أنهم لم يكونوا هكذا عديمي الكياسة غير مهذبين.

فقال عمرو: كان أولئك أهل الرأي وهؤلاء هم الجنود.

ورغم أن المقوقس كتب معاهدة الصلح لمصر كلها، إلا أن هرقل أبدى سخطه وغضبه حين علم بذلك، وكتب له بأن الأقباط إذا لم يستطيعوا مواجهة العرب فإن عدد الروم ليس بقليل، وسير جيشاً عظيماً إلى الإسكندرية، فوصل الجيش إليها وراح يعد العدة لقتال المسلمين.

## فتح الإسكندرية سنة ٢١هـ/٦٤١/٦٤٢م

أقام عمرو بن العاص في الفسطاط عدة أيام بعد فتحها، ومنها كتب إلى عمر رضي الله عنه يبشره بفتح الفسطاط، ويطلب منه الإذن بالتوجه إلى الإسكندرية، وجاءته الموافقة، فأمر عمرو الجيش بالتحرك إلى الإسكندرية، وحدث بالصدفة أن بنت حمامة عشها في خيمة عمرو، وعندما أرادوا فك الخيمة لمحها عمرو فأمرهم بإبقاء الخيمة كما هي حتى لا يقلق ضيفهم (أي: الحمامة)، ولما كانت كلمة فسطاط في العربية تطلق على الخيمة، كما أن عمرو حين عاد من الإسكندرية أسس مدينة بجوار هذه الخيمة لذلك عرفت المدينة نفسها باسم الفسطاط ولا تزال تعرف بهذا الاسم حتى اليوم.

على كل حال اتجه عمرو إلى الإسكندرية في سنة ٢١هـ وحاول الروم القاطنون في أماكن متفرقة بين الإسكندرية والفسطاط إغلاق الطريق أمامه، وهكذا جمعوا حشوداً كبيرة ضمت الأقباط المصريين أيضاً، واتجهت هذه الحشود ناحية الفسطاط لصد المسلمين هناك وحدثت المواجهة بين الطرفين في مكان يطلق عليه «كربون» فثار المسلمون وغضبوا غضبة شديدة، واندفعوا يقاتلون النصارى حتى قتل الكثير من النصارى، ولم يجرؤ بعدها أحد منهم على مواجهة المسلمين أو معارضتهم، ووصل عمرو إلى الإسكندرية دون توقف وكان المقوقس يريد الصلح بعد دفع الجزية، لكنه لم يستطع ذلك خوفاً من الرومان، ورغم هذا طلب أن يعقد الصلح لمدة محددة، فرفض عمرو - وحتى يُخيف المسلمين أمر المقوقس جميع سكان المدينة أن يحملوا السلاح، وأن يتمركزوا في صفوف متلاحمة على سور قلعة المدينة لمواجهة المسلمين، وشمل هذا الأمر النساء أيضاً، وحتى لا يُعرفن، وجهن وجوههن ناحية المدينة، فأرسل عمرو رسالة إلى المقوقس جاء فيها: فهمنا قصدك، لكنك لا تدري أن

ما فتحناه من بلدان حتى الآن، لم نعتمد فيه على كثرة الجيش، وتعلم أيضاً أن الأسلحة والعتاد الذي قدم به ملكك هرقل كله كان بلا فائدة، والنتيجة لا تخفى على أحد[١].

فقال المقوقس: صحيح إنهم العرب الذين أجبروا ملكنا على التراجع حتى القسطنطينية، وغضب قادة الروم من هذا كثيراً وعنفوا ووبخوا المقوقس وبدأوا استعدادات المعركة.

ولأن الحرب لم تكن بموافقة المقوقس، لذا أخذ عهدًا من عمرو بن العاص مفاده أنه مستقل عن الروم، ولهذا يجب ألا يصيب قومه (القبط) أذى على يد المسلمين، ولم يكتف الأقباط بهذا الأمر أي البقاء على الحياد في المعركة، بل ساعدوا المسلمين كثيراً، فراحوا يمهدون الطرق، ويصلحون الكباري كلما تقدم جيش المسلمين من الفسطاط حتى الإسكندرية، بل قاموا بإمداد المسلمين بالمؤن وغيرها أثناء حصارهم للإسكندرية، وكان الروم يخرجون أحياناً من القلعة للقتال، وذات يوم دارت معركة طاحنة، وانتهى دور النبال والسهام وبدأ دور السيوف وخرج أحد الروم من الصفوف قائلًا، هل من مبارز؟ فتقدم مسلمة بن مخلد على جواده، لكن الرومي أسقطه وطرحه على الأرض، وأراد أن يجهز عليه بسيفه لكن أحد الفرسان أسرع وأنقذه، وغضب عمرو غضباً شديداً حتى قال غير مبالٍ بمكانة مسلمة: «ماضرورة أن يتقدم جبان إلى أرض المعركة» واستاء مسلمة كثيراً لكنه لم يقل شيئاً حرصاً على المصلحة.

واستمرت المعركة بكل ضراوتها وشراستها وفي النهاية هجم المسلمون بكل قوتهم حتى ضغطوا على الروم فتراجعوا ودخلوا القلعة، واستمرت المعركة في صحن القلعة لفترة، وفي النهاية تمالك الروم أنفسهم وتمكنوا من دفع المسلمين خارج القلعة، وأغلقوا الأبواب، وحدث أن كان عمرو بن العاص ومسلمة وشخصان آخران بالقلعة، فأراد الروم القبض عليهم أحياء ولكن حين شاهدوا

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٢٥ .

استبسالهم واستعدادهم للفداء قالوا: ليخرج منا رجل وليخرج منكم رجل، فلو قتل رجلنا تركناكم تخرجون من القلعة، وإذا قتل رجلكم فعليكم جميعاً أن تستسلموا.

وافق عمرو بن العاص مسروراً، وأراد الخروج للنزال، فأوقفه مسلمة قائلًا: أنت أمير الجيش ولو أصابك مكروه اختل نظام الجيش، وركب الجواد وتقدم وتقدم له أحد الروم ممسكاً بسلاحه، واستمر النزال فترة، وفي النهاية ضرب مسلمة الرومي بسيفه ضربةً جعلته يخر على الأرض صريعاً، ولم يكن الروم على علم أن قائد جيش المسلمين بين هؤلاء الناس، وطبقاً للشرط الذي قطعوه على أنفسهم فتحوا باب القلعة، وخرج الجميع سالمين، وطلب عمرو من مسلمة أن يعفو عن إساءته له من قبل، فسامحه بقلب سليم[(١)].

كلما طال أمد الحصار كلما قلق عمر رضي الله عنه واضطرب، فكتب إلى عمرو رسالة جاء فيها: لعلكم ببقائكم هناك أحببتم الدنيا وحياة الدعة كالنصارى، وإلا ما تأخر الفتح إلى هذا الحد، حين يصلك خطابي اِجمع الجيش وحدثهم عن الجهاد، ثم اهجم، واجعل القادة الذين أرسلتهم لك في مقدمة الجيش، وليهجم الجيش كله مرة واحدة على العدو.

فجمع عمرو الجيش كله، وخطب فيهم خطبة مؤثرة جددت من حماسهم الذي فتر واستدعى عبادة بن الصامت الذي ظل لسنوات في صحبة الرسول ﷺ وقال له: «هات رمحك»، ثم خلع عمامته وثبتها على الرمح وسلمها له قائلًا: هذه راية القائد، وأنت اليوم أمير الجيش.

ثم جعل الزبير بن العوام وسلمة بن مخلد على مقدمة الجيش وتقدم بكل عتاده وعدته إلى القلعة ففتحت المدينة عند أول هجوم. وعندئذ استدعى عمرو معاوية بن خديج وقال له: انطلق بقدر ما تستطيع، وبلغ أمير المؤمنين

---

(١) المقريزي ص ١٦٤ـ١٦٥ المجلد الأول.

بشارة الفتح، فركب معاوية الناقة وراح يمضي بين منازل الطريق دون أن يستريح حتى وصل إلى المدينة في وقت الظهيرة. واتجه إلى المسجد النبوي أولاً ظنًّا منه أن هذا وقت الراحة فلم يشأ أن يذهب مباشرة إلى دار الخلافة، وحدث أن مرت جارية عمر فرأته على هيئة السفر فسألته: من أنت ؟ ومن أين جئت ؟ فقال: من الإسكندرية، فانطلقت وأخبرت عمر رضي الله عنه وعادت وقالت: هيا إن أمير المؤمنين يستدعيك. ولم يكن عمر رضي الله عنه يستطيع الانتظار فاستعد للذهاب بنفسه ولم يكد يمسك بردائه حتى وصل معاوية. وعندما سمع بشارة النصر خرّ ساجداً شاكراً لله، ونهض عمر رضي الله عنه وقدم إلى المسجد وأمر المنادي أن ينادي: «الصلاة جامعة» وقدم جميع أهل المدينة، فأوضح معاوية أمام الجميع أخبار الفتح، وقام ومضى مع عمر رضي الله عنه إلى داره، وسأل عمر الجارية أن تأتي بالطعام، فأحضرت الخبز وزيت الزيتون: ووضعته أمام الضيف وقال له عمر، لماذا لم تأت عندي حين وصلت ؟ قال: ظننت أن هذا وقت الراحة وربما كنت نائماً، فقال: وا أسفاه أن يكون هذا ظنك بي، من ذا الذي يحمل عبء الخلافة إن نمت النهار[1]

عاد عمرو بن العاص إلى مكان الفسطاط بعد أن فتح الإسكندرية وأراد أن يؤسس مدينة في هذا المكان، فقسمه إلى قطع منفصلة، ووضع أساسها على أن تقام المباني على الطراز العربي البسيط، وسيأتي تفصيل ذلك في الجزء الثاني من الكتاب.

ورغم أنه لم يعد أمام المسلمين خصماً أو ندًّا لهم بعد فتح الإسكندرية والفسطاط إلا أن الروم كانوا ينتشرون في جميع أقاليم مصر، فأرسل عمرو بن العاص وحدات صغيرة من الجيش إلى كل مكان حتى يقضي على أي خطر محتمل في المستقبل، وهكذا أرسل خارجة بن حذافة إلى الفيوم وأشمونين، وأخميم وبشرودات، ومعيد، فقام بالتجول في جميع ضواحيها، وقبل الناس في

(١) تفاصيل هذه القصة كلها نقلًا عن المقريزي.

كل مكان أداء الجزية بسرور، كما قام عمير بن وهب الجمحي بإحكام بالسيطرة على تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبنا وبوهير، أما عقبة بن عامر الجهني فقد فتح جميع مناطق مصر السفلى[١].

ونظراً لكثرة عدد الأسرى من الأقباط والروم في المعارك التي دارت، لذا كتب عمرو إلى دار الخلافة يسأل ماذا يفعل بشأنهم، فأجابه عمر رضي الله عنه وطلب منه أن يجمعهم ويخيرهم بين الإسلام أو البقاء على دينهم فإن قبلوا الإسلام كان لهم جميع حقوق المسلمين وإلا دفعوا الجزية التي تؤخذ من جميع الذميين، وهكذا جمع عمرو الأسرى كلهم وكانوا يزيدون عن الآلاف، في مكان واحد، وطلب أيضاً قادة النصارى، وجلس المسلمون والنصارى بالترتيب كل على حدة أمام بعضهم البعض وفي الوسط كانت جماعة الأسرى وقُرىء عليهم أمر الخلافة، فأسلم كثير من الأسرى الذين تعرفوا على الإسلام من خلال معاشرتهم للمسلمين، وبقي كثيرون أيضاً على دينهم، وكلما كان أحد الأسرى يعلن إسلامه، كان المسلمون يكبرون بصوت عالٍ «الله أكبر» ويقدرونه تقديراً عظيماً بكل سرور، وكان إذا أعلن نصراني عن بقائه على ديانته، يتصايح النصارى فرحًا مباركين له ذلك، بينما كان المسلمون يجزعون لدرجة أن أنهار الدموع كانت تسيل من عيونهم، واستمر هذا الأمر لفترة طويلة، وكان كل فريق يفوز طبقًا للأعداد التي انضمت إليه[٢].

---

(١) فتوح البلدان ص ٢١٧.

(٢) الطبري ص ٢٥٨٢-٢٥٨٣.

# شهادة عمر رضي الله عنه في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ٢٣هـ/٦٤٤م

## (كانت مدة خلافته رضي الله عنه عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام)

كان هناك غلام مجوسي في المدينة المنورة يدعى فيروز، وكانت كنيته أبا لؤلؤة، جاء ذات يوم إلى عمر رضي الله عنه يشكو من أن سيده المغيرة بن شعبة فرض عليه خراجاً كبيراً، وطلب من عمر رضي الله عنه أن يخفف هذا الخراج، فسأله عمر عن الخراج فقال: درهمان كل يوم، فسأله عمر عن حرفته فقال: أعمل بالنجارة والنقاشة والحدادة، فقال عمر: ما تدفعه ليس بكثير بالنسبة لهذه الحرف التي تقوم بها، وذهب فيروز وهو يحمل في قلبه الغضب الشديد.

وفي اليوم التالي خرج عمر رضي الله عنه لصلاة الفجر، فحمل فيروز خنجراً ودخل المسجد، وكان عمر رضي الله عنه قد عين بعض الناس لتسوية الصفوف إذا ما قاموا لصلاة الجماعة، على أن يأتي عمر رضي الله عنه بعد تسوية الصفوف ليؤم الناس، وتمت تسوية الصفوف كالعادة في ذلك اليوم، وتقدم عمر رضي الله عنه للإمامة، ولم يكد عمر رضي الله عنه يبدأ الصلاة حتى خرج فيروز من الصف فجأة، وطعنه ست طعنات جاءت إحداها تحت السرة، فأمسك عمر من فوره بعبد الرحمن بن عوف وأوقفه مكانه ووقع هو من صدمة الجرح. وصلى عبدالرحمن بن عوف في هذه الحالة وعمر أمامهم يعاني جراحه، وجرح فيروز أناساً آخرين لكنهم أمسكوا به في النهاية، إلا أنه انتحر بخنجره.

حمل الناس عمر رضي الله عنه إلى داره، فكان أول ما فعله هو سؤاله لهم: «من قاتلي».

فقال الناس: «فيروز».

فقال عمر رضي الله عنه: الحمد لله إنني لم أُقتل بيد رجل كان ينتسب إلى الإسلام.

وظن الناس أن الجرح لم يكن غائراً وأنه سيشفى في الغالب، فاستدعوا طبيباً، فسقاه نبيذًا ولبناً فكانا يخرجان من الجرح، عندها تأكد الناس أنه لا يمكن أن يشفى من هذا الجرح، فقالوا له: «اختر الآن خليفتك».

طلب عمر ابنه عبدالله وقال له: اذهب إلى عائشة وقل لها: «إن عمر يستأذنك أن يدفن بجوار رسول الله ﷺ».

فذهب عبدالله إلى عائشة فوجدها تبكي فأبلغها سلام عمر ورسالته، فقالت عائشة، كنت أريد أن أحتفظ بهذا المكان لنفسي، لكني اليوم أفضل عمر على نفسي وأعطيه له، فرجع عبدالله فأخبر الناس عمر، فخاطب ابنه وقال: بأي خبر جئت؟ فقال: جئت بما كنت تريد، فقال عمر: هذه كانت أعظم أمنياتي.

كان اختيار الخليفة هو أهم أمر من أمور الإسلام في ذلك الوقت، وظل الصحابة جميعهم يطلبون من عمر رضي الله عنه مرة بعد مرة أن يقرر هذا الأمر، وكان هو بدوره يفكر في أمر الخلافة من فترة طويلة وكثيراً ما كان يستغرق في التفكير ويراه الناس منعزلاً يعمل فكره فإذا ما سألوه فيم يفكر، عرفوا أنه قلق وحائر في أمر الخلافة.

ورغم تفكيره في الأمر لفترة طويلة لم يستقر على اختيار شخص معين، وكثيراً ما كانت تخرج آهة عفوية من أعماقه وهو يقول: ياللأسف لا يبدو أن هناك من يحمل هذا العبء الثقيل، وكان قد اختار في ذلك الوقت ستة أشخاص من بين جميع الصحابة وهم: عثمان والزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين، إلا أن عمر رضي الله

عنه كان يجد في كل منهم نقصاً[١]، وكان قد أوضح ذلك في مناسبات مختلفة وقد ذكر الطبري وغيره هذه الملاحظات بالتفصيل وكان يعلم أن عليًا أفضل الصحابة المذكورين قبلًا لكنه لأسباب ما لم يكن باستطاعته أن يحسم الأمر لعلي رضي الله عنه[٢].

**والخلاصة** أنه حين أصر الناس على ذلك وقت وفاته قال: اختاروا الخليفة من بين من يحصل على أكثر الآراء من الأشخاص الستة.

ويمكن أن نقدر من هذا مدى ما كان يفكر فيه عمر رضي الله عنه من صلاح العباد والبلاد، فرغم معاناته وآلامه ظل فكره مشغولاً بقدر ما كانت تسعفه قواه، فراح يخاطب الناس قائلًا:

أوصي الشخص الذي يختار الخليفة أن يراعي جيداً حقوق خمس فرق: المهاجرون والأنصار والأعراب وأهل العرب الذين سكنوا المدن الأخرى وأهل الذمة (أي: النصارى واليهود والمجوس الذين كانوا من رعايا الإسلام) ثم أوضح حقوق كل واحد، فكان ما قاله في حق أهل الذمة هو: أوصي الخليفة من بعدي أن يعتني بأمر الله وأمر رسول الله، أي يوفي ما أقر به لأهل الذمة، يحاربوا عدوهم وألا يكلفوهم فوق طاقتهم.

---

(١) مع أننا لم نكتب تأدّباً ما قاله عمر رضي الله عنه في حق بقية الصحابة إلا أنه ليس هناك جدل فيه ولا شك أن ماورد على لسان عمر رضي الله عنه فيما يتعلق بعلي رضي الله عنه منقول في كتب التاريخ، أي إن في مزاجه ظرف، ويبدو من هذا أن علياً رضي الله عنه كان ظريفاً لكن لا يمكن أن يكون من كبار الظرفاء المتلطفين.
والحقيقة أن علاقات علي رضي الله عنه مع قريش كانت معقدة لدرجة أن قريشاً لم يكن من الممكن أن تنحني أمامه، وقد نقل الطبري آراء عمر فيما يتعلق بهذه العلاقة في شكل حوار أثبته الطبري من ص ٢٧٦٨ حتى ص ٢٧٧١ .

(٢) الطبري ص ٢٧٧٧ .

وعندما انتهى من أمور الأمة اتجه إلى أموره الشخصية فاستدعى ابنه عبدالله وقال: كم عليّ من دين، فأخبره أن عليه ستة وثمانين ألف درهم، قال عمر رضي الله عنه: إن استطعت أن تؤديه من مالي فخيراً وإلا فاسأل بني عدي، وإذا لم توف فاسأل قريشاً، ولا ترهق الآخرين، عدا قريش. وهذه رواية صحيح البخاري، (انظر كتاب المناقب باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان)، إلا أن عمر بن شيبة روى في كتاب المدينة بسند صحيح أن نافعاً غلام عمر كان يقول: «كيف يمكن أن يكون على عمر دين مع أن أحد ورثته قد باع نصيبه من الإرث بمائة ألف[١]، والحقيقة أن عمر رضي الله عنه كان عليه دين قدره ستة وثمانون ألف درهم، لكنها سددت عندما بيع بيته، حيث كان يسكن، وقد اشتراه معاوية وكان هذا البيت يقع بين باب السلام وباب الرحمة، وهكذا سدد دينه، وظل هذا البيت يعرف لمدة طويلة باسم دار القضاء، والواقعة مذكورة بالتفصيل في خلاصة الوفاء في أخبار دار المصطفى[٢].

وتوفي عمر رضي الله عنه بعد ثلاثة أيام، ودفن في يوم السبت أول المحرم، وصلى صهيب صلاة الجنازة وقام بدفنه عبدالرحمن وعلي، وعثمان وطلحة وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم، وهكذا غربت شمس العالم المنيرة في التراب.

---

(١) انظر فتح الباري ط مصر مجلد ٧ ص ٥٢ .

(٢) انظر الكتاب المذكور طبعة مصر ص ١٧٩ وص ١٢٩ .


الجُزء الثاني

## نظرة إجمالية على الفتوحات

قرأتم في الجزء الأول من هذا الكتاب تفاصيل الفتوحات، ولعلها أوجدت في قلوبكم أثراً قوياً لما كان عليه مسلمو ذلك العهد من حماس وهمة وعزم وثبات، ولكن سماع حكاية الأسلاف قد يجعلكم لا تهتمون بالنظر إلى هذه الوقائع نظرة فلسفية تاريخية.

لكن هناك أسئلة قد تظهر فوراً على خاطر المؤرخ الذي يتمتع بالمقدرة النقدية، وهي:

كيف قلبت هذه الجماعة من ساكني الصحراء صفحة فارس والروم؟ هل هذه حادثة استثنائية في تاريخ العالم؟ وأخيراً ماذا كانت أسبابها؟ ألا يمكن تشبيه هذه الأحداث بفتوحات الإسكندر وجنكيزخان؟ وكم كانت مساهمة الخليفة فيما حدث؟

ونحن بدورنا نريد الإجابة على هذه الأسئلة، ولكن من الضروري أن نذكر أولاً بإجمال مدى اتساع الفتوحات الفاروقية وماذا كانت حدودها الأربعة؟

### اتساع الفتوحات الفاروقية :

المساحة الكلية للبلاد التي كانت تحت إمرة عمر رضي الله عنه ٢,٢٥١,٠٣٠ ميلًا مربعاً، أي: ١٠٣٦ ميلًا شمال مكة المكرمة و ١٠٨٧ شرقها و ٤٨٣ ميلًا جنوبها أما غرب مكة فليس جديراً بالذكر لأن حدود الحكومة الإسلامية كانت تصل إلى جدة فقط.

وهذه المساحة كانت تشمل الشام ومصر والعراق والجزيرة وخوزستان والعراق العجمي وأرمينية وآذربيجان وفارس ومكران التي كانت تضم جزءاً من بلوتشستان أيضاً، وكان الهجوم على آسيا الصغرى التي يطلق عليها العرب «الروم» سنة ٢٠ هجرية، إلا أنه لا يجدر ذكر هذه البلاد في قائمة الفتوحات،

وكانت هذه الفتوحات كلها فتوحات خاصة بعمر رضي الله عنه، تمت في مدة تزيد قليلًا عن عشر سنوات.

## أسباب الفتح في رأي المؤرخين الأوربيين :

أجاب المؤرخون الأوربيين على السؤال الأول، فقالوا إن الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية سقطتا من أوج رفعتهما في ذلك الوقت، فقد اختل أساس نظام الإمبراطورية الفارسية بعد خروج برويز؛ لأنه لم يوجد من هو جدير بإدارة شئون الحكم، وبدأت المؤامرات بين رجال البلاط، التي أدت بالتالي إلى تغيير ولاة العرش باستمرار حتى تولى الحكم ستة أو سبعة ملوك في فترة لم تتعدى ثلاث أو أربع سنوات ثم فلت زمامه بعد ذلك.

وهناك سبب آخر، وهو أن فرقة المزدكية كانت قد قويت شوكتها قبل عهد أنوشيروان بقليل، وكانت تميل إلى الإلحاد والزندقة، ورغم أن أنوشيروان قضى على هذه الفرقة بقوة السيف إلا أنه لم يستطع أن يستأصل جذورها تماماً، وحين دخل الإسلام بلاد فارس، اعتبر أهل هذه الفرقة أن المسلمين حماةٌ لهم لأن المسلمين لم يتعرضوا لمذهب أو عقيدة أحد من الناس، وفرقة الشاطرة النصرانية التي لم تجد ملاذاً في ظل أية حكومة، وجدت الأمن في ظل الإسلام، كما وجدت النجاة من ظلم مخالفيها وقهرهم، وهكذا كسب المسلمون تعاطف وعون هاتين الفرقتين الكبيرتين.

أما الإمبراطورية الرومانية فكانت قد ضعفت من تلقاء نفسها، بالإضافة إلى ازدياد حدة الخلافات في تلك الأيام داخل النصرانية، ولما كان للدين دخل في نظام الحكم حتى ذلك الوقت، لهذا لم يكن أثر هذا الاختلاف قاصراً على الأفكار الدينية بل تعداها إلى الإمبراطورية ذاتها التي راحت تضعف رويداً رويداً بسبب هذا الخلاف.

## خطأ رأي المؤرخين الأوربيين :

ورغم أن هذه الإجابة لا تخلو من الحقيقة إلا أن التلاعب في طريقة الاستدلال هنا يزيد على الحقيقة نفسها، وهذا هو المنهج الخاص للأوربيين، ولا شك أن الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية لم تكونا في أوج قوتهما الأصلية، ويمكن أن نستنتج هنا فقط أنهما لم تكونا قادرتين على مواجهة إمبراطورية قوية مثلًا، لا أن تتفككا إلى قطع صغيرة على يد قوم بلا عدة أو عتاد كالعرب، فمهما كانت حالة الفرس والروم، فقد كانوا أهل خبرة في فنون القتال، والكتب التي أُلفت عن قواعد وأصول الحرب في اليونان والتي لا تزال موجودة حتى الآن، ظلت مطبقة لدى الروم بشكل عملي لمدة من الزمن، ولم يطرأ عليها أي نقص في مجال وفرة المؤن، وكثرة العتاد، وتنوع آلات الحرب، وكثرة الجيوش. وأكثر من ذلك أنها لم تخرج للهجوم على أي بلد، ظلت في بلدها، في حصونها وفي معسكراتها من أجل الدفاع عن بلدها. وقبل هجوم المسلمين وفي عهد خسرو برويز الذي كانت فيه إيران في أوج عظمتها وقوتها، هجم قيصر الروم على إيران، وحالفه النصر وظل يتقدم حتى وصل إلى أصفهان، واستعاد أقاليم الشام التي كان الإيرانيون قد استولوا عليها وأعاد تنظيم الأمور من جديد.

ومن المسلّم به وبشكل عام أن الإمبراطورية الإيرانية كانت في أوج عظمتها وقوتها حتى زمان خسرو برويز وكانت الفترة بين موت خسرو برويز والغزو الإسلامي ثلاث أو أربع سنوات فقط، فكيف وإلى أي مدى يمكن أن تضعف مثل هذه الأمة ومثل هذه الإمبراطورية العريقة في هذه الفترة القصيرة، ولاشك أن فرقاً حدث في نظام الإمبراطورية نتيجة لتغيير من جلسوا على العرش، إلا أن إدارات الدولة مثل المالية والجيش وموارد الدخل لم يصبها أي تغيير، ولهذا حين اعتلى يزدجرد العرش واتجه أهل البلاط إلى إصلاح البلاد، استردت الإمبراطورية ما كانت عليه من عظمة

وجاه، أما فرقة المزدكية فكانت موجودة في إيران، ومع هذا لم يخبرنا التاريخ عن عون أو مساعدة قدمتها للمسلمين، كما لم يخبرنا التاريخ أيضاً عن عون أو مساعدة قدمتها فرقة النساطرة للمسلمين، كما أن المؤرخين الأوربيين أنفسهم لم يذكروا أثر الاختلاف المذهبي في النصرانية على أي حادثة مما يعنينا هنا.

والآن انظروا إلى حالة العرب، لم يصل العدد الكلي لجميع الجيوش التي تحارب في مصر وإيران وبلاد الروم إلى مائة ألف، أما معرفتهم لفنون الحرب فيكفي أن نعرف أن موقعة اليرموك كانت أول حرب خاضوها، واستخدموا فيها نظام التعبئة في تنظيم صفوف المجاهدين، أما مستلزمات ملابس الحرب[1] لدى الجنود الإيرانيين مثل الخوذة، والدرع والسترة والجوشن المدرع، والقفاز الحديدي والخف وغيرها، فلم يعرف العرب منها آنذاك سوى الدرع، وكان يُصنع في الغالب من الجلد، كما كان الركاب يصنع من الخشب بدلاً من الحديد أما آلات الحرب فلم يكن العرب يعرفون من بينها سوى الصولجان والوهق، وكان لديهم سهام لكنها كانت صغيرة وضعيفة، حتى إن الإيرانيين عندما رأوها لأول وهلة في معركة القادسية ظنوها مغازل.

الأسباب الحقيقية للفتوحات :

إن الجواب الحقيقي للسؤال الذي طرحناه هو في رأينا جواب بسيط، وهو أن الحماس والعزيمة والثبات وعلو الهمة والشجاعة قد ظهرت في المسلمين في ذلك الوقت بسبب بعثة رسول الإسلام ﷺ، وقد زاد عمر رضي الله عنه من كل هذه الصفات بداخلهم، فصاروا أكثر حماساً وثباتاً وشجاعة، وهكذا لم تستطع الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية في عصريهما الذهبي أيضاً أن تواجهاهم، ولا شك أن هناك أموراً أخرى ساعدتهم ليس في الفتوحات فقط ولكن في تأسيس الحكم، يأتي في مقدمتها صدق المسلمين وأمانتهم

---

(١) كتب ابن قتيبة في الأخبار الطوال أن كل جندي كان ملزماً باستخدام هذه الأشياء.

واستقامتهم على الحق، فكانوا إذا ما فتحوا بلداً وقع أهله في حبهم لما كان عليه المسلمون من صدق، وتمنى أهل هذا البلد ألا يزول حكم المسلمين لهم رغم اختلاف العقيدة، فحين خرج المسلمون من مدن الشام في معركة اليرموك، صاح جميع الرعايا النصارى «ليردكم الرب إلى هذه الديار» وحمل اليهود التوراة في أيديهم وقالوا: لا يمكن أن يأتي القيصر هنا ما دمنا على قيد الحياة.

كان حكم الروم في الشام ومصر حكماً ظالماً يعتمد على القهر، ولهذا واجه الروم المسلمين معتمدين على قوة الإمبراطورية وجيشها ولم يكن الرعايا في صفهم، وحين قضى المسلمون على قوة الإمبراطورية في مصر والشام كان الطريق ممهداً أمامهم؛ أي أنهم لم يجدوا مقاومة تذكر من جانب رعايا البلاد، ولا شك أن الأمر اختلف بالنسبة لإيران، ففي ظل الإمبراطورية الإيرانية كان هناك العديد من حكام الأقاليم الذين راحوا يحاربون للحفاظ على حكمهم الذاتي، وليس من أجل الحفاظ على الإمبراطورية الفارسية نفسها، وكان هو السبب الذي جعل المسلمين يواجهون مقاومة مستمرة في أنحاء فارس حتى بعد فتحهم للعاصمة، ولكن عامة الشعب تأثروا كثيراً بالمسلمين، وأُعجبوا بهم، ولهذا وجد المسلمون منهم العون الكثير في استتاب الحكم الإسلامي بعد الفتح.

وكان هناك سبب آخر عظيم، فحين قام المسلمون في البداية بإرسال الحملات إلى الشام والعراق، كان كثير من العرب يسكنون هاتين المنطقتين، وفي الشام كان حاكم دمشق من الغساسنة بينما كان حكم قيصر لها حكماً بالاسم فقط، وفي العراق كانت أسرة اللخميين هي المتصرفة في شئون البلاد، رغم أنها كانت تدفع لكسرى إتاوة على سبيل الخراج.

وقد واجه هؤلاء العرب المسلمين لأنهم كانوا قد اعتنقوا النصرانية، إلا أن عاطفة الوحدة القومية لم تذهب سُدى، فأسلم كبار حكام العراق بسرعة

وصاروا بعد إسلامهم عوناً للمسلمين[١] وفي الشام أسلم العرب في النهاية، وتحرروا من حكم الإمبراطورية الرومانية.

## الموازنة بين فتوحات الإسكندر وغيره، والفتوحات الإسلامية:

ليس من المناسب أن نذكر هنا اسم الإسكندر الأكبر وجنكيزخان وغيرهما، فلا شك أنهما قاما بفتوحات واسعة ولكن كيف؟ بالقهر والظلم والقتل العام.

يعرف الجميع أحوال جنكيزخان، أما الإسكندر فحين اتجه إلى الشام وفتح مدينة صور، أمر بالقتل العام لأن الناس هناك حاربوه بثبات لفترة طويلة، وعلق رأس ألف مدني على أسوار المدينة، وقبض على ثلاثين ألفاً من سكان المدينة واسترقهم وباعهم، أما أعيان المدينة وأولئك الناس الذين يعشقون الحرية فلم ينج أحدهم من القتل، وحدث الشيء نفسه في إيران حين فتح إصطخر، فقتل جميع الرجال، هذا بالإضافة إلى مظالم من هذا النوع تنسب إليه.

من المعروف بصورة عامة أن الدول تزول نتيجة للظلم والقهر، ومن هذه الناحية لا بقاء للظلم، وهكذا لم تُعمر إمبراطوريتا الإسكندر وجنكيزخان طويلًا، إلا أن هذا النوع من سفك الدماء قد أثبت نجاحه من أجل الفتوحات السريعة؛ لأنها تصيب البلاد كلها بالرعب، ولأن طائفة كبيرة من الرعايا تموت، لهذا لا يكون هناك أدنى تفكير في العصيان أو الثورة، وهذا هو السبب في أن يكون جنكيزخان، وبخت نصر، وتيمور، ونادر (شاه الأفغاني الذي غزا الهند) وغيرهم من كبار الفاتحين جميعهم من السفاكين.

لكن في الفتوحات العُمرية لا يمكن أن يُتجاوز قانون العدل قيد أنملة،

---

(١) سوف نورد أسماءهم بالتفصيل فيما بعد.

ولم يسمح بالقتل العام، بل لم يسمح حتى بقطع الأشجار، ولا يمكن أن يتعرض أحد لطفل أو عجوز، ولا يمكن أن يُقتل أي إنسان إلا في ساحة المعركة، ولا يمكن أن يُنقض عهد مع العدو أو يخدع في أي مناسبة، فقد كانت الأوامر المشددة تعطى للقادة: فإن قاتلوكم فلا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً[(١)] .

فإذا قام أناس بالعصيان بعد إعلانهم الطاعة كان يُعفى عنهم بعد إقرارهم بالطاعة ثانية، حتى إنه حين أقر أهل عربسوس بالطاعة ثلاث مرات ثم عادوا إلى العصيان، لم يُعاقبوا إلا بإجلائهم من هناك، ومع هذا دُفعت لهم قيمة ممتلكاتهم، وأُخرج يهود خيبر بجريمة التآمر والعصيان، وتم تعويضهم عن الأراضي التي تم الاستيلاء عليها، وأرسلت الأوامر إلى حكام الأقاليم حتى يساعدوا من يمر منهم بأراضيهم بكل طريقة، وكان إذا استقر هؤلاء في مدينة ما أعفوا من دفع الجزية لمدة سنة.

أما من يجيب بحيرة وتعجب عن الفتوحات الفاروقية ويقول بأن هناك فاتحين مثل عمر، فعلينا أن نوضح ونبين لهم مَن مِن حكام الدنيا فتح بلاداً بمثل هذا الاحتياط، وهذا الالتزام وهذا الانضباط وهذا العفو.

بالإضافة إلى هذا نوضح أن الإسكندر وجنكيزخان وغيرهما كانوا يشاركون بأنفسهم في كل قتال وفي كل موقعة، وكانوا يقودون الجيش ويحاربون بأنفسهم، ولهذا السبب، وبسبب وجود قائد خبير للجيش كانت عزيمة الجيش تقوى، وكان من الطبيعي أن يوجد هذا الأمر بداخل الجنود حماس وروح الفداء.

أما عمر رضي الله عنه فلم يشترك طوال مدة خلافته ولو لمرة واحدة، في القتال، وبينما كانت الجيوش تقاتل في كل مكان ظل زمام قيادتها في يده.

---

(١) كتاب الخراج صفحة ١٣٠ .

وهناك فرق واضح آخر وهو أن فتوحات الإسكندر وغيره مرت كالسحاب الذي جاء مرة بقوة ثم انقشع، فلم يؤسس هؤلاء الناس نظاماً للحكم في البلاد التي فتحوها، وعلى عكس هذا كانت الفتوحات الفاروقية فتوحات ثابتة، لدرجة أن البلاد التي فتحت آنذاك لا تزال حتى اليوم في حوزة الإسلام بعد مرور ثلاثة عشر قرناً من الزمان، وفي عهد عمر رضي الله عنه أقيمت التنظيمات والإدارات المدنية على كافة أنواعها .

**اختصاص عمر في الفتوحات :**

إن الإجابة عن السؤال الأخير من وجهة نظر الرأي العام هو أنه لم يكن للخليفة اختصاصات تذكر في الفتوحات، إذ كان الحماس والعزيمة في ذلك الوقت وراء جميع الفتوحات، لكن هذا في رأينا ليس بصحيح، فالمسلمون في عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما هم أنفسهم المسلمون في عهد عمر، لكن ماذا كانت النتيجة ؟

لا شك أن الحماس والتأثر لهما قوة البرق، ولكن هذه القوة يمكن أن تكون ذات فائدة إذا ما كان الإنسان الذي يستخدمها على نفس مستوى القوة، وهذا لا يحتاج إلى قياس أو استدلال، فالأحداث نفسها يمكن أن تكون الفيصل في هذا الأمر.

يبدو واضحاً بعد مطالعة وقائع الفتوحات بالتفصيل أن الجيش الإسلامي كله كان يتحرك كالدمية بإشارة من عمر رضي الله عنه، كما كان نظام الجيش وإدارته نتيجة مباشرة لسياسة عمر وتدبيره، وحين تُطالعون هذا الكتاب ستقرأون فيما بعد في صفحاته التالية بالتفصيل أن عمر رضي الله عنه أوجد بنفسه نظام ترتيب الجيش وتدريبه، ونظام بناء المعسكرات، وتربية وتدريب الخيول، وحماية الحصون والقلاع، وتعيين وقت الهجوم مع مراعاة المناخ؛ أي برودة الجو أو حرارته وحركة نقل الجيوش، ونظام المراسلات، واختيار القادة العسكريين، واستعمال الآلات الخاصة بضرب الحصون والقلاع،

وغيرها من مثل هذه الأمور المتعلقة، التي أوجدها وأثبتها بقوة وعزيمة تدعو للعجب والدهشة، وتجعل القارىء يقرر بنفسه أن مثل هذا الأمر ما كان يحدث أبداً بدون عمر رضي الله عنه.

وقد كان عمر رضي الله عنه هو نفسه قائد الجيش في فتوحات العراق، فقد كان يحدد بنفسه ويعين للجيش منازله، حين سار من المدينة، وحدد بنفسه الطرق التي يسلكها الجيش، وظل يرسل أوامره المكتوبة طبقًا لمرئياته، وحين وصل الجيش بالقرب من القادسية، أرسل عمر رضي الله عنه يطلب خريطة للمكان، وطبقاً لما ورد في هذه الخريطة أرسل نصائحه فيما يتعلق بترتيب صفوف الجيش، وتم تعيين كل قائد في مهمته الموكلة له بحكم خاص من عمر رضي الله عنه.

وإذا ما نظرنا بالتفصيل إلى أحداث العراق في تاريخ الطبري، يتضح بجلاء أن قائداً كبيراً ظل يقود الجيوش كلها من بعيد، وأن كل ما يدور كان يتم بإشارة منه.

كانت هناك معركتان من أخطر المعارك في جميع الحروب التي وقعت على امتداد السنوات العشر: المعركة الأولى معركة نهاوند التي وقعت حين أرسل الفرس نقيباً من كل إقليم، فأشعلوا نار الحماس في جميع البلاد، وأعدوا مئات الآلاف من الجنود، الذين اتجهوا لمهاجمة المسلمين، والمعركة الثانية حين هجم قيصر الروم على حمص للمرة الثانية بمساعدة أهل الجزيرة، وفي المعركتين ظهر حُسن تدبير عمر رضي الله عنه، فقد أخمد من ناحية الطوفان الثائر، ومن ناحية أخرى حطم جبلًا صلباً وقد كتبنا عن هذه الأحداث بالتفصيل في الجزء الأول.

يتضح مما سبق بما لا يدعو للشك أنه لم يظهر فاتح أو غازٍ مثل عمر الفاروق رضي الله عنه، منذ فجر التاريخ حتى اليوم، له ما لعمر رضي الله عنه فقد جمع بين الفتح والعدل.

# نظـام الحكـم

مع أن أساس الخلافة أو الحكم في الإسلام وضع في عهد أبي بكر رضي الله عنه، إلا أن فترة ترتيب الحكم تبدأ من عهد عمر رضي الله عنه، ورغم أن خلافة أبي بكر رضي الله عنه التي استمرت لسنتين، شهدت حسم قضايا على درجة كبيرة من الأهمية؛ أي: القضاء على المرتدين العرب وبدء الفتوحات الخارجية، إلا أنها لم تشهد إقامة أي نظام خاص للحكم، كما أن قصر مدة الخلافة لم تكن كافية لمثل هذا الأمر.

قام عمر رضي الله عنه من ناحية بتوسيع رقعة الفتوحات حتى قضى على إمبراطوريتي قيصر وكسرى وضمهما إلى جزيرة العرب، ومن ناحية أخرى أسس نظاماً للحكم والسلطة وطور هذا النظام حتى ظهرت جميع أقسام ومؤسسات الحكم إلى الوجود عند وفاته.

وقبل أن نفصل الحديث عن قواعد وأسس الحكم أود أن أذكر أولاً كيف كان تركيب وتشكيل ذلك الحكم؛ أي: هل كان فردياً أو على أساس الشورى ؟ ومع أن المدى الذي وصلت إليه مدنية العرب في ذلك الوقت لا تجعل من السهل أن نطلق على خلافة عمر أيًّا من الصفتين: أي: الفردي أو الشورى، لكن يكفي هنا أن ندرك هذا الأمر وهو هل طريقة الحكم كانت تشبه نظام الشورى، أو النظام الفردي ؟ أي هل كان الحكم يميل إلى السلطة الفردية أو إلى الرأي العام ؟!

## موازنة بين حكم الشورى والحكم الفردي :

إن أهم ما يميز بين أسلوب حكم الشورى (الجمهوري) وأسلوب الحكم الفردي هو مشاركة الجمهور من عدمه، فبقدر ما يكون للرعايا من حق في

المشاركة في الحكم بقدر ما يكون عنصر الشورى في هذا الحكم، ومنتهى الحكم الجمهوري أو حكم الشورى هو أن تتلاشى جميع السلطات الذاتية للحاكم ليصبح عضواً داخل الجماعة، وعلى العكس حين تكون جميع سلطات الحكم في يد فرد واحد فإن النتائج التالية تظهر بالضرورة كرد فعل للحكم الفردي:

١ـ يقتصر تصريف أمور الدولة على فكر وتدبر قلّة من أبنائها بدلاً من الاستفادة بكفاءات جميع أفراد الدولة الممتازين.

٢ـ ولأن تنظيم أمور البلاد يكون في يد قلة من المسئولين فإن أغلبية أفراد الأمة يفقدون بالتدريج قدرتهم الإدارية وكفاءاتهم.

٣ـ لا يُحافظ على الحقوق الخاصة للجماعات والفرق المختلفة بشكل طيب لأن أصحاب هذه الحقوق لا يكون لهم حق في إدارة شئون الدولة، بينما من بيدهم إدارة شئون الدولة لا يمكن أن يهتموا بحقوق الآخرين بنفس القدر الذي يهتم بها أصحابها، ولأنه لا يُسمح لأي شخص في الدولة بالتدخل في الشئون الوطنية والقومية لذا لا يهتم الشعب إلا بمصالحه الشخصية فينعدم الإحساس بالعمل القومي.

وهذه النتائج من لوازم الحكومة الفردية ولا يمكن أن تنفصل عنها، وعلى العكس من هذا تكون نتائج الحكم الجمهوري (حكم الشورى)، ولهذا يمكن تحديد نوعية الحكم سواء كان جمهورياً (شورى) أو فردياً من خلال نتائج هذا الحكم نفسه.

ولا يجب أن نعتقد أن أسلوب الشورى كان متأصلًا في العرب ولهذا كان الحكم الذي راج بين العرب هو حكم الشورى، فمنذ مدة بعيدة كان في جزيرة العرب ثلاث حكومات في ظل دولة اللخميين والحميريين والغساسنة، وكانت كلها حكومات تتبع نظام حكم الفرد، وكان رؤساء القبائل الذين ينتخبون على طريقة الشورى لا يتمتعون بأي نوع من المشاركة في الحكم،

بل كانوا بمثابة قادة جيش أو قضاة، ولم تقرر خلافة أبي بكر هذا الأمر أيضاً، ورغم أن انتخابه كان بكثرة الآراء لكن هذا كان إجراءً فورياً ـ اقتضته الضرورة ـ كما قال عمر رضي الله عنه:

«فلا يغترن امرؤ أن يقول إنما بيعة أبي بكر فلتة وتمت، إلا وأنها قد كانت كذلك، لكن الله وقى شرها»(١).

كما أن نظام حكم الإمبراطوريات التي كانت حول عمر بن الخطاب كان غير جمهوري أيضاً، ولم يظهر هذا الاتجاه في إيران على الإطلاق منذ بداية عصورها، أما الروم فقد شرفوا بهذا النظام في وقت من الأوقات، ولكن كانت الإمبراطورية الرومانية تُحكم حكماً فردياً قبل عهد عمر رضي الله عنه، وفي عهد عمر رضي الله عنه كانت هناك حكومة ظالمة تتمتع بالحكم الذاتي أو بالاستقلال ـ عن الإمبراطورية الرومانية ـ وخلاصة القول هو أن عمر رضي الله عنه وضع أساس حكم الشورى (الجمهوري) دون أن يكون أمامه مثلًا أو نموذجاً يحتذيه، ولم يكن من الممكن وضع جميع أصوله وفروعه نظراً لظروف العصر، إلا أن الأمور التي تعد بمثابة روح الحكم الجمهوري (حكم الشورى) ظهرت كلها إلى حيز الوجود في عصر عمر رضي الله عنه.

### مجلس الشورى في خلافة عمر رضي الله عنه:

وكان أساس هذا الحكم انعقاد مجلس الشورى، فقد كان مجلس الشورى يعقد دائماً إذا ما استلزم الأمر ذلك، ولم يكن في الإمكان تنفيذ أي أمر بدون الشورى ورأي الأغلبية، وكان المجتمع الإسلامي يضم آنذاك جماعتين كانتا في موقع القيادة، وكانت جزيرة العرب كلها تعترف بأنهما يمثلانها، ونقصد هنا جماعة المهاجرين وجماعة الأنصار.

---

(١) صحيح البخاري المطبعة الأحمدية ميرته ط ٢ ص ١٠٠٩.

## أعضاء مجلس الشورى وطريقة انعقاده :

وهكذا كان اشتراك أعضاء هاتين الجماعتين أمراً ضرورياً على الدوام، كان الأنصار ينقسمون إلى قبيلتين هما الأوس والخزرج، وهكذا كان من الضروري أن يشترك أعضاء من هاتين القبيلتين في مجلس الشورى، ورغم أننا لا نستطيع أن نذكر جميع أعضاء مجلس الشورى، إلا أنه من المعروف أنه كان يضم من بين أعضائه عثمان رضي الله عنه، وعليًا رضي الله عنه، وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه، ومعاذ بن جبل رضي الله عنه، وأبيّ بن كعب رضي الله عنه، وزيد بن ثابت رضي الله عنه[١] ، أما طريقة انعقاد المجلس فكانت تتم عن طريق النداء بـ «الصلاة جامعة» وحين يجتمع الناس، يتوجه عمر رضي الله عنه إلى المسجد النبوي، ويصلي ركعتين ثم يصعد إلى المنبر ويخطب موضحاً الأمر الذي يحتاج إلى بحث[٢] .

## جلسات مجلس الشورى :

وكانت قرارات هذا المجلس تعتبر كافية فيما يتعلق بشئون الحياة اليومية والعادية، ولكن حين يعرض أمر هام وجب عقد جلسة عامة للمهاجرين والأنصار، ويتم إقرار هذا الأمر باتفاق الجميع، وعلى سبيل المثال حين أصر بعض الصحابة بعد فتح العراق والشام أن توزع البلاد المفتوحة على أفراد الجيش، انعقدت جلسة كبيرة ضمت بالإضافة إلى جميع عامة المهاجرين والأنصار القدامى، عشرة من كبار شيوخ القوم أجمعين، خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج، واستمرت جلسات هذا المجلس منعقدة لعدة أيام، وظل الناس يتحدثون بحرية تامة ودون أدنى خوف، وننقل هنا بعض الفقرات المختارة من خطبة عمر رضي الله عنه في هذا المجلس وهي تعطي فكرة عن

---

(١) كنز العمال، نقلًا عن طبقات ابن سعد، مجلد ٣ صفحة ١٣٤ طبعة حيدرآباد.
(٢) تاريخ الطبري ص ٢٥٧٤ .

حقيقة منصب الخلافة وسلطات خليفة ذلك الزمان[١] .

«إني لم أُزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي، فيما حملت من أموركم، فإني واحد كأحدكم، ولست أُريد أن تتبعوا هذا الذي هواي» .

وفي سنة ٢١ هجرية حين بدأت معركة نهاوند الشرسة واستعد العجم بكل ما لديهم من عتاد حربي حتى رأى الناس أنه من الضروري أن يتوجه الخليفة بنفسه إلى هذه المعركة، انعقد مجلس الشورى بكافة أعضائه، فوقف كل من عثمان، وطلحة بن عبدالله، والزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم وغيرهم يخطبون واحداً بعد الآخر فقالوا للخليفة: ليس من المناسب أن تذهب بنفسك إلى ميدان المعركة، ثم وقف علي رضي الله عنه وألقى خطبة أيّد فيها رأي هؤلاء الناس، وهكذا تم الاتفاق بالأغلبية على ألا يذهب عمر رضي الله عنه إلى ميدان المعركة، وهكذا حدث بالنسبة لتحديد مرتبات الجيش، وترتيب الديوان، وتعيين العمال، وحرية التجارة للأجانب، وتحديد الضرائب على هذه التجارة، وغير ذلك من أمور وقضايا ورد ذكرها صراحة في كتب التاريخ التي أشارت إلى أنه اتفق عليها بعد عرضها في مجلس الشورى، كما ذكرت الخطب التي ألقاها أعضاء المجلس وقت عرض هذه القضايا في كتب التاريخ أيضاً.

إن انعقاد مجلس الشورى، ومشورة أهل الرأي لم يكن على سبيل الاستحسان أو المباهاة، بل إن عمر رضي الله عنه كان يوضح وفي مناسبات مختلفة أنه لا وجود للخلافة على الإطلاق إلا بالشورى، وعبارته بالتحديد هي: «لا خلافة إلا عن مشورة[٢] » .

---

(١) تفصيل ذلك في كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف ص ١٤، ١٥ .
(٢) كنز العمال، نقلاً عن ابن أبي شيبة مجلد ٣ ص ١٣٩ .

## مجلس آخر :

كانت جلسة مجلس الشورى تُعقد في حالة عرض الأمور الخاصة التي تقتضي ذلك، ولكن كان هناك مجلس آخر بالإضافة إلى مجلس الشورى تناقش فيه الأمور الإدارية ومستلزمات الحياة اليومية، وكان هذا المجلس يعقد دائماً بالمسجد النبوي، ويشترك فيه المهاجرون من الصحابة فقط، فكان عمر رضي الله عنه يعرض في هذا المجلس الأخبار اليومية التي تصل إلى دار الخلافة من الأقاليم والمراكز، ولو طرأ أمر يحتاج إلى بحث استفتى الناس بشأنه، وقد عرضت مسألة فرض الجزية على المجوس أول مرة في هذا المجلس، وكتب البلاذري المؤرخ عن هذا المجلس ضمن ذكره لبعض الأمور التاريخية :

«كان للمهاجرين مجلس في المسجد، فكان عمر يجلس معهم فيه، ويحدثهم عمّا ينتهي إليه من أمر الآفاق فقال يوماً ما أدري كيف أصنع بالمجوس» .

## مشاركة عامة الناس :

كان عامة الناس يشتركون بآرائهم في الأمور الإدارية مع أعضاء مجلس الشورى، فكان حكام المراكز والأقاليم يعينون بموافقة أكثر الرعايا، بل كان ذلك يتم في بعض الأوقات بطريقة الانتخاب الكامل، وعند تعيين عمّال الخراج في الكوفة والبصرة والشام أرسل عمر رضي الله عنه أوامره إلى الأقاليم الثلاثة لكي يختار الناس من يعجبهم، فيرسلونه إلى عمر على أن يكونوا من أكثر الناس تديناً وكفاءة. وهكذا تم اختيار عثمان بن فرقد من الكوفة، والحجاج بن علاط من البصرة، ومعن بن يزيد من الشام، فعين عمر رضي الله عنه هؤلاء الناس حكاماً لتلك البلاد وقد بيّن القاضي أبو يوسف هذه الواقعة بالألفاظ التالية :

«كتب عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة يبعثون إليه رجلًا من أخيرهم،

وأصلحهم، وإلى أهل البصرة كذلك وإلى أهل الشام كذلك، قال فبعث إليه أهل الكوفة عثمان بن فرقد وبعث إليه أهل الشام معن بن يزيد وبعث إليه أهل البصرة الحجّاج بن علاط كلهم سلميّون قال فاستعمل كل واحد منهم على خراج أرضه»[١].

وكان سعد بن أبي وقاص من كبار الصحابة، وهو فاتح العاصمة الأنوشيروانية، عينه عمر رضي الله عنه حاكماً على الكوفة لكنه عزله حين اشتكى الناس منه.

من أكبر أصول حكم الشورى هو أن يضمن كل إنسان الحفاظ على حقوقه وأعراضه، وأن تكون له الخيرة في ذلك، وقد هيأت حكومة عمر لكل إنسان هذه الفرصة بحرية تامة، فكان الناس يطالبون بحقوقهم علانيةً، وكانت السفارات تفد كل عام من الأقاليم، وكانوا يطلقون عليها «الوفود»، وكان هدف هذه السفارات ينحصر في إطلاع خليفة المسلمين عمر رضي الله عنه على أحوال البلاد المتنوعة وعلى الشكاوى المختلفة طلباً للعدل.

وقد أعلن عمر رضي الله عنه هذا الحق بنفسه في مناسبات مختلفة حتى إنه طلب الناس وخطب فيهم خصيصاً في مثل هذه الأمور، وذات مرة طلب جميع عمال الدولة في زمان الحج، وأعلن هذا الأمر أمام جميع الناس، وسيأتي ذكر هذا بالتفصيل في معرض الحديث عن «عمال الدولة الإسلامية».

## مساواة الخليفة للجميع في الحقوق العامة :

إن أهم ما يميز حكم الشورى أن يساوى الحاكم بين عامة الناس في جميع الحقوق، فلا يستثنى أحد من طائلة أي قانون، ولا يمكن أن يأخذ من إيرادات الدولة أكثر من متطلبات الحياة، وألا يستغل مكانته كحاكم في المجتمع العام، وأن تكون سلطاته محدودة، وأن يكون لكل إنسان الحق في

(١) كتاب الخراج ص ٦٤ .

نقده، وقد وصلت كل هذه الأمور في خلافة عمر رضي الله عنه إلى درجة ما بعدها درجة، وكل ما حدث في زمانه كان بسبب أسلوب عمر وطريقته في الحكم، وقد صرح في أكثر من مناسبة عن مكانته وحيثيته كحاكم وعن سلطاته، ويجدر أن نذكر هنا فقرة من خطاب ألقاه في إحدى المناسبات :

«إنما أنا ومالكم، كولي اليتيم، إن استغنيت، استعففت، وإن افتقرت، أكلت بالمعروف، لكم عليّ أيها الناس خصال، فخذوني بها، لكم عليّ ألا أجتبي شيئاً من خراجكم، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم عليّ إذا وقع في يدي، ألا يخرج مني إلا في حقه، ولكم عليّ أن أزيد في أعطياتكم، وأسد ثغوركم، ولكم عليّ ألا ألقيكم في المهالك»[١] .

وفي إحدى المناسبات قال رجل لعمر عدة مرات: «اتق الله ياعمر» فمنعه أحد الحضور قائلًا: كفى لقد زدت عن الحد، فقال عمر رضي الله عنه: لا اتركه يتكلم «لا خير فيهم إن لم يقولوها لنا ولا خير فينا إن لم نقبل»[٢] .

وكان من تأثير تلك الأمور اتضاح حدود الحكم، وسلطات الخلافة لجميع الناس فزالت من مخيلاتهم السطوة الفردية والسيطرة الشخصية، وكانت الخطبة التي ألقاها معاذ بن جبل رضي الله عنه حين أُرسل إلى الروم هي الشكل الأصلي لحكومة الشورى، ولا يوجد حتى اليوم شكلٌ أوضح وأفضل من ذلك التصور الذي وضعه عمر رضي الله عنه لحكم الشورى.

ننتقل الآن إلى ذكر نظام حكم عمر رضي الله عنه بعد أن أوضحنا نوعية حكمه.

إن أهم ما يميز نظام الحكم هو أن تستقل جميع التنظيمات الإدارية عن بعضها، وهذا أكبر دليل على التمدن والرقي، فكما كانت البيوت في بداية

---

(١) نفسه ص ٦٠ .
(٢) نفسه ص ٧ .

أزمنة الحضارة تتكون من حجرة واحدة تكفي لجميع الأغراض، ومع زيادة التمدن والحضارة صارت هناك حجرات مستقلة للأكل وللنوم والاستقبال وللقراءة والكتابة وغيرها، فهكذا الحال بالنسبة لأمور الدولة.

ففي بداية التمدن والحضارة كانت التنظيمات الإدارية كلها متداخلة، فحاكم الإقليم كان هو نفسه قائد الجيش وقت الحرب، وكان هو القاضي يفصل في القضايا، كما كان يتولى مهمة الشرطة في تطبيق عقوبة الجرائم، وكلما كانت الحضارة تتطور كلما كان يتولى مهمة الشرطة في تطبيق عقوبة الجرائم، وكلما كانت الحضارة تتطور كلما كانت الإدارات المستقلة تظهر، فيعين لكل إدارة رئيس، لقد مضى على الحكم الإنجليزي مائة عام، ومع هذا لا تزال السلطات القانونية والإدارية متداخلة حتى الآن، فحاكم الإقليم هو الذي يجمع الخراج، وهو الذي يفصل في القضايا، أما الأقاليم الحرّة التي لا تخضع للقانون فالحالة فيها أكثر مما ذكرناه تداخلًا وتشابكاً.

كانت هذه واحدة من إنجازات عمر العجيبة الرائعة فرغم أن حضارة العرب ومدنيتهم كانت في بدايتها الأولى، ولم يكن قد مرّ على تأسيس الحكم سوى خمس سنوات قليلة فقط، لكنه فصل بين الإدارات المتداخلة، فأوجد إدارات وهيئات مستقلة، وهذا ما سنفصل الحديث عنه فيما بعد.

# تقسيم الدولة

## الأقاليم والمحافظات

## الموظفون الرسميون

إن السلسلة الأولى لنظام الحكم التي تقوم عليها فروع التنظيمات كلها تتمثل في تقسيم الدولة إلى أقسام مختلفة يطلق عليها الأقاليم والمحافظات والمراكز، وكان عمر رضي الله عنه هو أول رجل في الإسلام بدأ هذه التقسيمات، فأقام حدودها بشكل غاية في الدقة والتوازن، وقد صرح جميع المؤرخين بأنه قسم البلاد المفتوحة إلى ثمانية أقاليم :

**تقسيم عمر لأقاليم الدولة :**

وهي مكة، والمدينة، والشام، والجزيرة، والبصرة، والكوفة، ومصر، وفلسطين، وقد ذكر اليعقوبي المؤرخ أنها سبعة أقاليم بدلاً من ثمانية، وكتب أن عمر رضي الله عنه أوجد هذا التقسيم في سنة ٢٠ للهجرة، ومع أن بيان المؤرخين هو في الحقيقة بيان صحيح إلا أن فيه إجمالاً يستلزم التفصيل؛ لأن اتساع الفتوحات الفاروقية يتطلب تقسيم البلاد إلى أكثر من ثمانية أقاليم، بالإضافة إلى أن فارس وخوزستان وكرمان وغيرها أيضاً كانت أقاليم «إدارية» بذاتها.

والمسألة هنا أن عمر رضي الله عنه أبقى على التقسيم السابق للبلاد المفتوحة سواء كانت إقليماً أو محافظة، ولهذا لم يذكرها المؤرخون، وذكروا فقط الأقاليم التي أوجدها عمر رضي الله عنه، وكانت الثمانية التي أشرنا إليها قبلًا، وهذا الرأي صحيح في الغالب، وإلا فإنه من الثابت من الأقوال التاريخية أن عمر رضي الله عنه قد غير في التقسيم السابق للدولة،

فكانت فلسطين تعد منذ البداية إقليماً، يشتمل على عشر محافظات، وفي سنة ١٥ هجرية حين ذهب عمر رضي الله عنه بنفسه إلى فلسطين، وعقد معاهدة الأمان، قسم الإقليم إلى قسمين، جعل عاصمة أحدهما إيليا وعاصمة الآخر الرملة، وعين على أحدهما علقمة بن حكيم، وعلى الآخر علقمة بن مجزز[١].

وفيما يتعلق بمصر لا نعلم كيف كانت حالتها قبل الفتح، لكن عمر رضي الله عنه قسمها إلى إقليمين، مصر العليا ويقال لها في العربية «صعيد» وكانت تشتمل على ٢٨ محافظة، فجعلها إقليماً مستقلًا، وعين عليها عبدالله بن أبي مسرح، ومصر السفلى وكانت تشتمل على ١٥ محافظة فعين عليها حاكما آخر، بينما كان عمرو بن العاص هو الحاكم العام.

## الأقاليم في عهد كسرى أنوشيروان :

لما كان عمر رضي الله عنه قد أبقى على جميع الإدارات الأنوشيروانية كلها كما هي، فيكفي أن نشير فقط إلى عدد المناطق التي كانت تنقسم إليها البلاد في عهد أنوشيروان، يذكر اليعقوبي المؤرخ[٢] أن مُلك أنوشيروان كان ينقسم إلى ثلاثة أقاليم كبيرة بالإضافة إلى العراق :

**خراسان**: كانت تضم المحافظات التالية: نيسابور وهراة ومرو ومرورود وفارياب وطالقان، وبلخ وبخارا وبادغيس وباورد وغرشتان وطوس وسرخس وجُرجان.

**آذربيجان**: وكانت تضم المحافظات التالية: طبرستان والري وقزوين،

---

(١) الطبري صفحة ٢٤٠٣،٢٤٠٧ وأصل العبارة: «فصارت فلسطين نصفين نصف مع أهل إيليا ونصف مع أهل الرملة، وهم عشر كور وفلسطين تعدل الشام كلها وفرق فلسطين على رجلين فنزل كل واحد منهما في عمله».

(٢) تاريخ اليعقوبي ص ٢٠١، ٢٠٢ المجلد الأول.

وزنجان وقم وأصفهان وهمدان ونهاوند ودينور وحلوان وماسندان ومهرجان وقذق وشهرزور وصامغان وآذرسبحان.

**فارس**: وكانت تضم المحافظات التالية: إصطخر وشيراز ونوبندجان وجور وكازرون، وفسا ودارابجرد وأردشيرخره، وسابور والأهواز وجنديسابور وسوس ونهرتيرى ومناذر وتستر وايذج ورام هُرمز.

**حُكام الأقاليم**: كان كبار الموظفين المقيمين في الأقاليم هم: الوالي أي حاكم الإقليم، والكاتب أي رئيس الكتبة، وكاتب الديوان أي رئيس كتبة الديوان العسكري، وصاحب الخراج أي من يجمع الخراج، وصاحب الأحداث أي رئيس الشرطة، وصاحب بيت المال أي رئيس الخزانة، والقاضي أي قاضي القضاة، وهكذا كان عمار بن ياسر والياً على الكوفة ومعه عثمان بن حنيف صاحب الخراج، وعبدالله بن مسعود صاحب بيت المال أي رئيس الخزانة، وشريح في منصب القضاء بينما كان عبدالله بن خلف الخزاعي كاتباً للديوان[١].

وفي كل إقليم كان هناك قائد للجيش لكن والي الإقليم كان يتولى في معظم الأحيان هذه المهمة، ولم تكن إدارة الشرطة إدارة منفصلة في جميع الأماكن على قدر علمنا، ففي معظم الحالات كان صاحب الخراج أو الوالي يتولى هذه المهمة بنفسه، وعلى سبيل المثال أسندت مهمة الأحداث (الشرطة) إلى عمار بن ياسر حين كان حاكماً للكوفة، وكان قدامة بن مظعون صاحب الخراج في البحرين، فتولى أيضاً مهمة الشرطة.

أما إدارة الوالي فكانت تضم عدداً كبيراً من الموظفين وكانت لها صفة الاستقلالية، وكان هؤلاء الموظفون يعينون من قبل الخلافة، فحين أرسل عمر رضي الله عنه عمار حاكماً للكوفة عين له ضمن هيئة الإدارة عشرة رجال

---

(١) الطبري ص ٢٦٤٧ وابن خلكان ص ٢٥٣ .

على درجة عالية من الكفاءة كان من بينهم قرظ الخزرجي[١] .

كان على رئيس الكتبة أن يكون كُفئاً وأن يكون فريداً في الخطابة والكتابة، وكان زياد بن سمية رئيس كتبة أبي موسى الأشعري والي البصرة، فكان عمر رضي الله عنه نفسه يتعجب لفصاحته وبلاغته، وكان عمرو بن العاص يقول: لو أن هذا الشاب من نسل قريش لانطوت العرب كلها تحت لوائه.

وهكذا وجد في المحافظات أيضاً العامل وصاحب بيت المال، والقاضي وغيرهم، وكان هؤلاء جميعًا يعملون تحت إمرة الحاكم وتحت إدارته، أما المحصلون فكانوا غالباً يقيمون في المراكز مع معاونيهم في الإدارة.

كان أهم شيء بعد تقسيم البلاد إلى أقاليم ومحافظات هو اختيار موظفي الحكومة ووضع دستور عملهم، فمهما كان الحاكم يقظاً وفطناً ومهما كان القانون مكتملًا، إلا أن الدولة لا يمكن أبداً أن ترقى، مالم يكن أعضاء الحكومة أي موظفوها على درجة من الكفاءة والصلاحية والصدق والأمانة والتدين، ومالم يعملوا بيقظة كاملة، والحق هو أن التدبر والحكمة والسياسة التي اتبعها عمر رضي الله عنه، لا نظير لها مهما قلبنا آلاف الصفحات في تاريخ العالم.

### فراسة عمر رضي الله عنه :

في هذه المرحلة، ساعدته فراسته ومعرفته بالناس، وهي صفة متأصلة فيه منذ البداية، فقد كان بفراسته يكتشف أغوار الناس الذين يمتلكون كفاءات خاصة، بالإضافة إلى تعرّفه على جميع أهل البلاد الأكفاء، ولهذا كان إذا فوض عملًا ما لشخص معين، لم يكن من الممكن أن يوجد غيره أفضل منه لأداء هذا العمل، كان في جزيرة العرب أربعة أشخاص يطلق عليهم «دهاة العرب» أي أنه لم يكن لهم مثيل في فن السياسة والتدبير وهم: معاوية،

---

(١) أسد الغابة تذكرة قرظ .

وعمرو بن العاص، ومغيرة بن شعبة[١] وزياد ابن سمية، فعهد إليهم عمر رضي الله عنه بأكبر مناصب الدوله عدا زياد بن سمية؛ لأن هؤلاء الثلاثة كانوا أصحاب تطلعات ـ للحكم ـ ولهذا تغلب عليهم بهذه الطريقة حتى لايجدوا ذريعة للتمرد أبداً، أما زياد فكان آنذاك شاباً في السادسة عشرة من عمره، لهذا لم يسند إليه أي وظيفة كبيرة، ولكن نظراً لكفاءته وأهليته كتب إلى أبي موسى الأشعري حتى يجعله مستشاراً له في شئون الحكم.

وكان عمرو بن معد يكرب وطليحة بن خالد من الممتازين في فن الحرب، بعيدين عن شئون السياسة والتدبير ولهذا عينهما عمر رضي الله عنه تحت إمرة النعمان بن مقرن في فتوحات العراق، وكتب إلى النعمان بألا يعهد إليهما بأي نوع من أنواع الإدارة لأن كل إنسان أدرى بفنه[٢].

كان عبدالله بن الأرقم صحابياً جليلًا، ذات يوم وصلت إلى رسول الله ﷺ رسالة من مكان ما تستلزم الإجابة فقال رسول الله ﷺ: من سيكتب الإجابة؟ فقال عبدالله بن الأرقم: «أنا يارسول الله» ثم كتب الإجابة بنفسه وقدمها إلى رسول الله ﷺ، فسمعها الرسول ﷺ وأُعجب بها. وكان عمر رضي الله عنه موجوداً آنذاك، فكان لكفاءة عبدالله بن الأرقم أثرها في نفس عمر، وكما كتب ابن الأثير: ظل هذا الأثر بداخله على الدوام حتى صار (عمر رضي الله عنه) خليفة فعينه كاتباً.

وحين عقدت الجلسة العامة لمجلس الشورى لمناقشة مهمة «فتح نهاوند» الخطيرة طلب عمر مشورة الناس فيمن يرسله على رأس هذه المهمة، قال الجميع في صوت واحد: ليس لدينا ما لديك من معرفة، وإنك تدري جيداً كفاءة كل إنسان، وحين ذكر عمر رضي الله عنه اسم النعمان بن مقرن قال

---

(١) الاستيعاب للقاضي ابن عبدالبر والطبري ص ٢٦١٧.
(٢) كتاب الخراج ص ٦٥ وأصل العبارة هي: إن عمر بن الخطاب دعا أصحاب رسول الله فقال إذا لم تعينوني فمن يعينني... إلخ.

الجميع في صوت واحد: هذا هو الاختيار الصحيح والمناسب.

وكان عمّار بن ياسر من كبار الصحابة، لا مثيل له في الورع والتقوى، لكنه لم يكن على دراية بأمور السياسة والتدبير، فعينه عمر رضي الله عنه حاكماً على الكوفة لما له من شهرة عامة بين الناس ولأسباب أخرى استدعتها المصلحة. لكنه عزله بعد عدة أيام حين لم يتمكن من تصريف شئون البلاد، وأوضح للمؤيدين له أنه ليس مناسباً لهذا العمل.

وهناك مئات الأمثلة من هذا القبيل لا يمكن حصرها، ومن أراد ذلك فعليه أن يستخرج من كتب الرجال، الأكفاء من جزيرة العرب، ويرى كيف كان عمر يرتب هؤلاء الناس وكأنهم تروس في عجلة إدارة الحكم، وضع كل منها في مكانه المناسب حتى تدور العجلة بالطريقة المناسبة.

ورغم كل هذا لم يكن من الممكن أن يتحمل رجل واحد مسئولية هذا العمل الكبير، ولهذا عقد عمر رضي الله عنه مجلس الشورى وخطب في الصحابة قائلاً: إذا لم تعينوني فمن يعينني؟ فقال أبو هريرة، نحن نعينك، لكن الاشتراك في إدارة الدولة كان يعتبر في ذلك الوقت أمراً منافياً للزهد والورع، وهكذا قال أبو عبيدة: ياعمر لقد لطخت أصحاب رسول الله ﷺ بالدنيا، فقال عمر رضي الله عنه: إن لم أستمد العون من هؤلاء الكبار فممن أستمد العون، فقال أبو عبيدة: أما إن فعلت فأغنهم بالعمالة عن الخيانة[١]، والخلاصة أن عمر رضي الله عنه اختار أناساً أمناء أكفاء من خلال رأي الناس ومشورتهم وعهد إليهم بخدمة البلاد.

## مجلس الشورى وتعيين الموظفين (المسئولين):

كان مجلس الشورى ينعقد لاختيار من يوكل إليهم أمور الخدمات الهامة، وكان مَن يُنتخبون من قبل جميع الأفراد توكل إليهم هذه الخدمة، وهكذا تم

(١) كتاب الخراج ص ٦٤.

تعيين عثمان بن حنيف بهذه الطريقة، وفي بعض الأحيان كانت الأوامر تصدر لأهل المحافظات أو المراكز حتى يختاروا من بينهم من هو أكثر كفاءة، ويرسلوا اسمه، وهكذا كان يتم تعيينه حاكماً هناك لأن الناس قد اختاروه، وهكذا عين كل من عثمان بن فرقد، ومعن بن يزيد، والحجاج بن علاط بهذه الطريقة التي ذكرناها قبلًا.

**مسألة الرواتب :**

كانت هناك مشكلة تمثلت في إعراض الناس عن أخذ رواتب مقابل ما يقومون به من عمل أو خدمة، فقد اعتبروا هذا مخالفًا للزهد والتقوى، وهذا ما نراه اليوم أيضاً فإذا طلب من واعظ جليل أن ينتظم في أداء خدماته مقابل راتب معين فسوف يشعر بالاستياء الشديد، لكنهم لا يتورعون عن قبول الأموال التي تصلهم على سبيل الهدايا والنذور، وقد ابتلى كثير من الناس بهذا الخطأ في زمان عمر رضي الله عنه، إلا أن هذا الأمر كان ضد التمدن وأصول الإدارة، ولهذا قضى عمر على هذه الفكرة الخاطئة بجهد كبير، وقرر الرواتب للناس وذات مرة رفض أبو عبيدة ـ وكان صحابياً معروفاً وقائداً للجيش ـ أخذ حق الخدمة[١]، فاسترضاه عمر بصعوبة بالغة، ولم يقبل حكيم بن حزام على الإطلاق قبول منحة أو راتب رغم إصرار عمر المتكرر[٢].

**تفصيل واجبات العُمّال طبقًا لما ورد في أوامر عمر رضي الله عنه:**

كان كل من يُعين عاملًا يتسلم أمراً مكتوباً يتضمن تعيينه وسلطاته وواجباته[٣]، وتُثبت في هذا الأمر شهادة الكثير من المهاجرين والأنصار،

---

(١) الطبري ص ٣٥٧ .
(٢) كنز العمال مجلد ٣ ص ٣٢٢ .
(٣) الطبري ص ٢٧٤٧ ، أسد الغابة وتذكرة حذيفة بن اليمان تصدق هذا القول ونصها مايلي: كان عمر إذا استعمل عاملًا كتب عهده: قد بعثت فلاناً وأمرته بكذا.. فلما قدم المدائن استقبله الدهاقين فلما قرأ عهده ... الخ .

وكان العامل إذا ما وصل إلى المكان المعين فيه، يجمع الناس ويقرأ عليهم هذا الأمر، وهكذا يطلع الناس على سلطاته وواجباته فإذا ما تجاوز حدود سلطاته كان الناس يجدون فرصتهم لمحاسبته، وكان عمر رضي الله عنه يحرص كل الحرص على هذا الأمر أي أن يعرف الناس واجبات العمال بالتفصيل، وكثيراً ما خطب عن هذا الأمر في مختلف المناسبات والأماكن، وفي إحدى الخطب التي ألقاها في جمع كبير من الناس خاطب العمال بالألفاظ التالية :

«ألا وإني لم أبعثكم أمراء ولا جبّارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم، فأدّوا على المسلمين حقوقهم، ولا تضربوهم فتذلوهم، ولا تحمدوهم فتفتنوهم، ولا تغلقوا الأبواب دونهم، فيأكل قويهم ضعيفهم، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم».

وعندما كان يعين عاملًا في مكان ما كان يعطيه أمر التعيين[١] أمام جماعة من الصحابة فيشهد عليه هؤلاء الصحابة، وكان القصد من هذا هو الإعلان عن الشخص الذي عُيّن وعن قدراته وعن واجباته.

**العهد الذي يؤخد على العمال :**

كان عمر يأخذ عهداً على كل عامل بألا يركب حصاناً تركياً وألا يلبس ثوباً رقيقاً، وألا يأكل دقيقاً (منخولاً) وألا يتخذ حاجباً، وأن يترك بابه مفتوحاً دائماً أمام حوائج الناس[٢]، وكانت هذه الشروط في الغالب تُثبت في أمر التعيين وتُقرأ أمام جمع من الناس.

**قائمة أموال العمال وممتلكاتهم :**

عندما يتم تعيين عامل من العمال كان يسجل إقراراً بالذمة المالية يرد فيه

---

(١) كتاب الخراج ص ٦٦ : كان عمر إذا استعمل رجلًا أشهد عليه رهطاً من الأنصار.

(٢) كتاب الخراج ص ٦٦ .

تفصيل ممتلكاته وأمواله ويُحفظ هذا الإقرار، فإذا زادت أحواله المالية بشكل غير عادي، كان يُحاسب[1]، وذات مرة وقع كثير من العمال في هذا البلاء وأطلع خالد بن الصعق عمر بهذا الأمر في قصيدة شعرية، فاستعرض عمر ما كان لدى العمال، وقسم أموالهم نصفين وأدخل النصف في بيت المال، وهذه بعض الأبيات الشعرية التي قيلت في هذا الشأن.

أبلـــغ أمير المـــؤمنين رســـالـــة     فـأنـت أمين الله في المـال والأمـر
فلا تدعن أهل الرساتيق والقرى     يسيفـون مـال الله في آلادم الـوفـر
فأرسل إلى الحجاج فاعرف حسابه     وأرسـل إلى جـزء وأرسـل إلى بشر
ولا تنسين النـــافعين كليهمـــا     ولا ابن غلاب من سراة بني نضر
ومـا عـاصـم منهـا بصفـر عيـابـه     وذاك الذي في السوق مولى بني بدر
وشبـلا فسلـه المـال وابـن محـرش     فقد كان في أهل الرساتيق ذا ذكر
نـؤوب إذا آبـوا أو نغـزو إذا غـزوا     فـإني لهـم دفـر ولسنـا أولى وفـر
إذا التـاجـر الـداري جـاء بقـارة     من المسك راحت في مفارقهم تجري

**استدعاء جميع العمال في موسم الحج :**

كان جميع العمال يؤمرون بالحضور في موسم حج كل عام، وكان أهل البلاد جميعها يحضرون قبل موسم الحج فيقف عمر ويعلن في الجميع: من لديه شكوى من أي عامل فليقدمها[2] وهكذا كانت الشكاوى بكل أنواعها ـ والبسيط منها ـ تُقدم ويتم بحثها وتداركها، وذات مرة خطب عمر رضي الله عنه في حشد من الناس فقال: «أيها الأصحاب! إني لا أبعث إليكم العمّال

---

(١) فتوح البلدان ص ٢١٩، كان عمر بن الخطاب يكتب أموال عماله إذا ولآهم ثم يقاسمهم مازاد على ذلك.

(٢) جاء في تاريخ الطبري صفحة ٢٦٨٠ : وكان من سنة عمر وسيرته أن يأخذ عماله بموافاة الحج في كل سنة للسياسة وليحجزهم بذلك عن الرعية وليكون لشكاة الرعية وقتاً وغاية ينهونها فيه إليه.

ليضربوكم أو ليأخذوا أموالكم، لكني أبعثهم ليعلموكم سنة رسول الله ﷺ فإذا عمل أي عامل خلاف ذلك فأخبروني حتى أقتص منه».

فقام إليه عمرو بن العاص وكان حاكماً على مصر، فقال لو أن عاملًا أدّب أحداً فهل تقتص منه ؟ فقال عمر رضي الله عنه: «والله الذي نفسي بيده لأقتص منه، لأنني رأيت رسول الله ﷺ يفعل هذا، حذار! ولا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتجبروهم على كفر النعمة»[1].

وحدث ذات مرة أن جاء العمال جميعًا حسب العادة فقام رجل وقال: لقد ضربني عاملك مائة سوط دون ذنب اقترفته، فأمر عمر رضي الله عنه المستغيث (صاحب الدعوى) بأن يضرب العامل أمام الناس مائة سوط، فوقف عمرو بن العاص وقال: هذا سيكون ثقيلًا على العمّال فقال عمر: لكن هذا لا يمكن حتى أنتقم من الظالم، فجعل عمرو بن العاص يمتن على المستغيث حتى قبل أن يأخذ دينارين عوضاً عن كل ضربة سوط ويتنازل عن حقه.

**التحقيق مع العمال ولجنة التحقيق :**

أوجد عمر رضي الله عنه منصباً خاصاً للتحقيق في الشكاوى التي تقدم ضد العمال من وقت لآخر، وكان محمد بن مسلمة الأنصاري يتولى هذا المنصب، وكان من كبار الصحابة رافق رسول الله ﷺ في جميع غزواته، وذات مرة عيّنه رسول الله ﷺ نائباً له في المدينة حين خرج في إحدى المهمات، ولهذه الأسباب اختاره عمر رضي الله عنه لمثل هذا المنصب الكبير، فكان يكلف بالتحقيق إذا ما وصلت أي شكوى ضد أحد العمال[2]،

---

(١) كتاب الخراج ص ٦٦ .

(٢) أسد الغابة جاء في مذكرة محمد بن مسلمة: وهو كان صاحب العمال أيام عمر كان عمر إذا شكى إليه عامل أرسل محمد لكشف الحال، وهو الذي أرسله عمر إلى عماله ليأخذ شطر أموالهم، وقد ذكر الطبري في مواضع مختلفة أن محمد بن مسلمة كان مكلفًا بالتحري عن العمال.

فكان يذهب إلى مكان الشكوى، ويجمع آراء الناس علانية، ويُذكر أنه في سنة ٢١هـ ذهب الناس إلى عمر رضي الله عنه واشتكوا إليه سعد بن أبي وقاص الذي فتح القادسية، وكان حاكماً على الكوفة، ووصل الشاكون إلى عمر في وقت كان الفرس يستعدون فيه استعداداً كاملًا للمعركة، ووصلوا بالقرب من نهاوند بجيش بلغ حوالي مائة وخمسين ألف جندي، وكان المسلمون في غاية التردد، وساقوا جيوشهم من الكوفة لمواجهة الفرس، ووصل هؤلاء الناس إلى عمر في ذلك الوقت فقال عمر: رغم أن الوقت حرج جداً، ومحفوف بالخطر، ولكن هذا لا يمكن أن يمنعني من التقصي عن سعد ابن أبي وقاص، وأرسل في ذلك الوقت محمد بن مسلمة إلى الكوفة، فتنقل من مسجد إلى مسجد حتى طاف بكل مساجد الكوفة ليجمع أقوال الناس ثم اصطحب معه سعد بن أبي وقاص إلى المدينة المنورة، وهناك سمع عمر رضي الله عنه بنفسه أقواله[١].

وكان عمر رضي الله عنه يرسل في بعض الأحيان لجنة للتحقيق «مكونة من عدة أشخاص، وقد ذكر هذا في كتب التاريخ، وفي بعض الأحيان كان يستدعي العامل إلى المدينة المنورة ويتم التحقيق معه مباشرة، وغالباً ما كان هذا يحدث حين يكون العامل حاكماً للإقليم أو مسئولاً له مكانته، كما حدث مع أبي موسى الأشعري الذي كان حاكماً على البصرة، فحين قدمت شكوى في حقه كتب عمر رضي الله عنه أقوال الشاكي بيده، واستدعى أبا موسى إلى دار الخلافة وحقق معه، وكانت التهم الموجهة ضده هي:

١ـ خصص أبو موسى لنفسه ستين من أبناء الدهاقين من بين أسرى الحرب.
٢ـ ترك أمور الحكم إلى زياد بن سمية بعد أن فوضه بذلك، فسيطر زياد

---

(١) هذه الواقعة بتفاصيلها وردت في تاريخ الطبري من ص ٢٦٠٦ حتى ص ٢٦٠٨. وفي صحيح البخاري أيضاً إشارة إلى هذه الواقعة انظر الكتاب المذكور المجلد الأول ص ١٠٤ ط ميرته.

على كل صغيرة وكبيرة.

٣ـ له جارية تقدم له الطعام الفاخر ليل نهار وهو الطعام الذي لا يتوفر لعامة المسلمين.

وقد ثبت من التحقيقات بُطلان التهمة الأولى، ورد أبو موسى على التهمة الثانية بقوله أن زياداً رجل سياسة وحنكة ولهذا اتخذته مستشاراً لي، فاستدعى عمر رضي الله عنه زياداً وامتحنه فكان حقيقة رجلًا جديراً بما أُسند إليه، لذا أمر عمر رضي الله عنه بنفسه حكام البصرة أن يجعلوا زياداً مستشاراً لهم، وحين عرضت التهمة الثالثة لم يستطع أبو موسى الرد عليها، فأخذت منه الجارية[1].

وكان العُمال يحاسبون محاسبة شديدة على أخطائهم وخاصة تلك المتعلقة بالترفع والتمييز أو الفخر والظهور، فكانوا يؤاخذون بشدة على ذلك، وكان العامل الذي يثبت أنه لا يعود المريض ولا يسمح للضعيف بالدخول عليه في مكان عمله، يعزل على الفور[2].

ذات مرة كان عمر رضي الله عنه يتجول في السوق، فسمع من ينادي: ياعمر! أترى هذه الشروط التي حددتها لعمالك تنجيك من عذاب الله ؟ أتعلم أن عامل الجزيرة عياض بن غنم يلبس الملابس الرقيقة وعين حاجباً على بابه، فدعا عمر محمد بن مسلمة وقال: إيتني بعياض على الحالة التي تجده عليها ـ فوصل محمد بن مسلمة إلى هناك ورأى الحاجب على بابه، ورأى عياض يرتدي الملابس الرقيقة، فأخذه إلى المدينة بحالته تلك، فأمر عمر رضي الله عنه بنزع قميصه الرقيق وألبسه قميصاً من الصوف، وطلب قطيعاً من الغنم وأمره بأن يذهب إلى الصحراء ويرعاها.

ولم يكن هناك مجال للرفض، إلا أن عياض ظل يردد عبارة «الموت

(١) الطبري من ص ٢٧١٠ حتى ص ٢٧١٢.
(٢) كتاب الخراج ص ٦٦.

أفضل من هذا» فقال له عمر رضي الله عنه، لماذا تكره هذا ؟ وإنما عُرف أبوك واشتهر بغنم لأنه كان يرعى الغنم، وخلاصة القول أن عياض تاب توبة خالصة من كل قلبه وظل يؤدي واجباته على أكمل وجه طوال حياته[١] .

بنى سعد بن أبي وقاص لنفسه قصراً في الكوفة، وكان فيه دهليز، فظن عمر أنه لمنع أصحاب الحاجة فأمر محمد بن مسلمة أن يذهب ويشعل النار في الدهليز، وتم تنفيذ هذا الأمر وراح سعد بن أبي وقاص ينظر إلى ما يجري وهو صامت.

يمكن الاعتراض في الظاهر على مثل هذه الإجراءات لأن التعرض للأعمال الشخصية وأسلوب حياة الناس هو ضد أصول الحرية ومبادئها، لكن الحقيقة هي أن ما كان يريد عمر رضي الله عنه أن يطبقه في جميع أمور الدولة، من روح للمساواة وللعدالة، لم يكن من الممكن تطبيقه، دون أن يطبق على عمر رضي الله عنه نفسه، وعلى جميع أركان دولته تطبيقاً كاملًا، أما عامة الناس فكان لهم مطلق الحرية في أن يفعلوا ما يريدون، لأن تأثير أفعالهم سيكون محدوداً عليهم، أما الناس الذين يمثلون أركان الحكم، يدفع أسلوبهم المتميز - عن غيرهم - في المعيشة إلى جلب حقد الناس عليهم، وبالتدريج تظهر من هذه الأمور جميع خصائص الحكم الشخصي (الديكتاتوري) وهذا يعني أن يصبح شخصاً واحداً هو السيد، ويصبح الآخرون عبيداً، هذا بالإضافة إلى أن من يعرف طبيعة العرب يستطيع أن يفهم بسهولة أن مثل هذه الأمور (الإجراءات) لم تكن تخلو من المصالح السياسية، فالمساواة والتكافؤ وهو ما يطلق عليه بمصطلح يومنا الاشتراكية Socialism هو طبع أصيل في جزيرة العرب، فالحكم الذي يقام في جزيرة العرب على هذه الأصول يكون أكثر نجاحاً من جميع أنواع الحكم الأخرى، وهذا هو السبب في أن هذه الأحكام كانت محدودة في المناطق الآهلة في

---

(١) كتاب الخراج ص ٦٦ .

جزيرة العرب، وإلا فمعاوية كان يعيش في الشام حياة رغد وترف، ولم يتعرض له عمر بشيء على الإطلاق، وعندما رأى عمر خدمه وحشمه في سفر الشام قال له: أكسروانية هذه ؟ وعندما أجاب قائلًا: نحن نعيش هنا بجوار الروم ولا يمكن أن تظل للدولة هيبتها بغير هذا، عندئذ لم يتعرض له عمر.

وضع عمر رضي الله عنه قواعد وأصولاً عظيمة لكي يبقى العمال على أمانتهم وصدقهم، وتمثلت هذه القواعد والأصول في الرواتب المرتفعة، وقد تعلمت أوربا هذه الأصول بعد تجارب طويلة، أما الدول الآسيوية فلم تفهم هذا السرّ حتى الآن، ولهذا السبب صارت الرشوة والغبن من صفات الدول الآسيوية، وبالرغم من أن الحياة الاقتصادية في المجتمع على عهد عمر كانت رخيصة وكانت قيمة العملة مرتفعة، إلا أن الرواتب كانت مرتفعة بالنسبة للمناصب فكان راتب حاكم الإقليم يصل إلى خمسة آلاف بالإضافة إلى ما يناله من تقسيم الغنائم، وهكذا كان راتب معاوية ألف دينار شهرياً[١] وهو ما يساوي خمسة آلاف روبية.

ونثبت هنا فهرساً إجمالياً لعمال عمر رضي الله عنه يمكن أن نقدر من خلاله نوعية الأفراد الذين استخدمهم عمر في إدارة حكومته.

| الاسم | مكان العمل | العمل | الحالة |
|---|---|---|---|
| أبو عبيدة | الشام | والي | صحابي معروف ومن العشرة المبشرين بالجنة |
| يزيد بن أبي سفيان | الشام | والي | لم يكن في بني أمية كلها من أكثر كفاءة منه |
| الأمير معاوية | الشام | والي | اشتهر بالسياسة والحِنكة |
| عمرو بن العاص | مصر | والي | هو الذي فتح مصر |
| سعد بن أبي وقاص | الكوفة | والي | خال رسول الله ﷺ |

(١) الاستيعاب للقاضي عبدالبر (معاوية بن أبي سفيان) وإزالة الخفاء مجلد ٢ ص٧١.

| الاســم | مكان العمل | العمــل | الحالــة |
|---|---|---|---|
| عتبة بن غزوان | البصرة | والي | من المهاجرين ـ هو الذي عمّر البصرة |
| أبو موسى الأشعري | البصرة | والي | صحابي جليل القدر معروف |
| عتاب بن أُسيد | مكة المكرمة | والي | كان الرسول قد عينه عاملاً على مكة المكرمة |
| نافع بن حارث | مكة المكرمة | والي | من أفاضل الصحابة |
| خالد بن العاص | مكة المكرمة | والي | ابن أخي أبي جهل وكان رجلاً عظيماً |
| عثمان بن أبي العاص | الطائف | والي | ملك زمام أهل الطائف حين انتشرت الردة بعد وفاة رسول الله ﷺ |
| يعلى بن أمية | اليمن | والي | كان من الصحابة وقد ذاعت شهرته بالكرم والفيض |
| علاء بن الحضري | اليمن | والي | له نفوذ كبير عينه النبي ﷺ عاملاً على اليمن |
| النعمان | المدائن | صاحب الخراج | — |
| عثمان بن حنيف | مراكز الفرات | المسئول عن الأراضي | كان خبيراً بأعمال الحساب والمساحة والمقاييس |
| عياض بن غنم | الجزيرة | والي | فاتح الجزيرة |
| عمر بن سعد | حمص | والي | كان عمر رضي الله عنه يحترمه ويقدره |
| حذيفة بن اليمان | المدائن | والي | صحابي مشهور وصاحب سرّ النبي ﷺ |
| نافع بن عبدالحارث | — | — | من قبيلة كبيرة لها مكانتها |
| خالد بن حرث الدهماني | أصفهان | مسئول الخزانة | — |
| سمرة بن جندب | سوق الأهواز | — | من أكابر الصحابة |
| النعمان بن عدي | ميسان | — | كان أول صحابي تلقى مال الوراثة |
| عرفة بن هزعة | الموصل | مسئول الخراج | بنى معسكراً للجيش في الموصل |

# إدارة الأموال

## (الخراج)

### أوجد عمر رضي الله عنه طريقة الخراج عند العرب :

كان تنظيم الخراج إضافة جديدة في تاريخ الحضارة العربية ومع أن قبائل العرب كانوا قبل الإسلام أصحاب تيجان وعروش، أقاموا جميع أمور وشئون المملكة، لكن لم يوجد لديهم على الإطلاق نظام مستقل للخراج، وفي صدر الإسلام نلاحظ أنه عندما تم فتح خيبر طلب اليهود أن تترك الأراضي في حوزتهم لأنهم يجيدون أعمال الزراعة، وقبل الرسول ﷺ طلبهم نظير أجر معين. وفيما عدا هذا تقرر العشر على الأراضي في الأماكن التي صار جميع سكانها من المسلمين، وكان هذا نوعاً من أنواع الزكاة، وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه فتحت أجزاء من العراق، لكن لم يتم تنظيم الخراج أو ما شابه ذلك بل تقرر مبلغ من المال بصورة إجمالية.

حين اطمأن عمر رضي الله عنه على الناحية القتالية بصورة إجمالية بعد الاستيلاء على العراق العربي كلية سنة ١٦هـ وبعد أن استأصل من ناحية أخرى قوة الروم بفتح اليرموك، بدأ رضي الله عنه الاهتمام بتنظيم الخراج، وكانت أول مشكلة واجهته في هذه المرحلة، هي إصرار أمراء الجيش على أن يقطعهم جميع الأراضي المفتوحة مكافأة لهم على النصر، وأن يسترقوا أهلها.

بعد فتح العراق أمر عمر رضي الله عنه سعد بن أبي وقاص أن يحصي عدد السكان هناك، فقام سعد بإجراء إحصاء دقيق للسكان، ورتب كل ذلك وأرسل الأوراق إلى عمر رضي الله عنه، وقارن بين عدد السكان وعدد الجنود فكان نصيب الرجل من المسلمين ثلاثة من أهل البلاد، واستقر رأي عمر

آنذاك على أن تترك الأراضي في حوزة السكان ويطلق لهم فيها كافة الحرية[١]، لكن عبدالرحمن بن عوف وغيره من أكابر الصحابة كانوا مؤيدين لرأي الجيش، وقد أصر بلال على ذلك حتى أن عمر رضي الله عنه تضايق وقال: اللهم أكفني بلالاً أي نجّني من بلال.

وكانت حجة عمر رضي الله عنه في هذا هو أن البلاد المفتوحة لو قُسمت على الجيش فمن أين يأتي بنفقات تجهيز الجيوش، وحماية البلاد من الحملات الخارجية، والحفاظ على أمن وسلامة البلاد، فقال عبدالرحمن بن عوف: إن الذين فتحوا البلاد يحق لهم الاستيلاء عليها، ولا يمكن للأجيال القادمة أن تستولي عليها دون كفاح.

ولما كان أسلوب عمر في الحكم هو أسلوب الشورى أي الأخذ بقرار الأغلبية لهذا عقدت جلسة عامة حضرها قدماء المهاجرين وخمسة من الأوس وخمسة من زعماء الخزرج اشتركوا[٢] كمحامين، واتفق علي وعثمان وطلحة رضي الله عنهم مع رأي عمر ومع هذا لم يُتخذ أي قرار، واستمروا على هذه الحال عدة أيام.

**استدلال عمر رضي الله عنه :**

وفجأة تذكر عمر رضي الله عنه آية من القرآن الكريم فكانت نصًا قاطعاً لهذا الجدل والنقاش وهي: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ . . .﴾ [الحشر:٨] واستدل عمر بالفقرة الأخيرة من هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠] بأن للأجيال القادمة حقاً في هذه الفتوحات، ولكن لو قسمت هذه البلاد على الفاتحين الآن فلن يتبقى شيء للأجيال القادمة.

---

(١) الطبري ص ٢٦٧ وفتوح البلدان ص ٢٦٦ وكتاب الخراج ص ٢١ .

(٢) كتاب الخراج ص ١٤ .

نهض عمر رضي الله عنه، فألقى خطبة عصماء، وقدم هذه الآية حجة ودليلًا على صحة رأيه، فقال الناس من فورهم: لا ريب، رأيك صحيح ـ وبناءً على هذا الاستدلال صار هذا الأمر أصلًا ومبدأً وهو أن البلاد التي تفتح لا تعد ملكاً للجيش، بل تظل ملكاً للحكومة، ولا تخلى من أصحابها السابقين، وهكذا بدأ عمر رضي الله عنه الاهتمام بتنظيم أمور البلاد المفتوحة بعد إرساء هذا المبدأ .

**تنظيم العراق وإدارته :**

لما كان العراق هو أقرب البلاد إلى جزيرة العرب ونظراً لاستيطان الأعراب فيه فقد صار إقليماً عربياً، وهكذا بدأ به عمر رضي الله عنه أولاً .

كان من مبادىء عمر رضي الله عنه أن يتعرف على تقاليد وعادات البلاد القديمة قبل أن يبدأ في تنظيم أمور هذا البلد، وكثيراً ما كان يبقى على النظم القديمة كما هي مع إجراء بعض الإصلاحات البسيطة، كانت الطريقة المتبعة في خراج العراق في ذلك الوقت أن تُجمع الضرائب بنسبة معينة على كل نوع من المحاصيل الزراعية على ثلاثة أقساط، وكان قباد أول من استحدث هذه الطريقة، وأكملها أنوشيروان وقد روعي في زمان أنوشيروان ألا تزيد نسبة الضريبة عن نصف المحصول الزراعي، واستمر هذا المبدأ حتى أضاف خسرو برويز على هذه النسبة، كما حدث فيها تعديلات في عهد يزدجرد[١] .

**تعيين مسئولي المساحة :**

أمر عمر رضي الله عنه بمسح الأراضي والتأكد من كل شيء، وكان من الضروري أن تتوفر الأمانة مع المهارة في فن المساحة، ولم يكن هذا رائجاً بين العرب حتى تلك الفترة، ولهذا واجه في البداية بعض الصعوبات ثم اختار

---

(١) كتاب الأوائل ذكر أول من غير سنة ساسان وذكر أول من وضع الخراج.

رجلين هما: عثمان بن حنيف وحذيفة بن اليمان، وهما من كبار الصحابة، وكانا قد تعرفا على مثل هذه الفنون بسبب إقامتهما الطويلة في العراق، وكان عثمان بن حنيف من الماهرين في هذا الفن، ويذكر القاضي أبو يوسف في كتابه الخراج أنه كان يقيس الأراضي بدقة كما لو كان يقيس قطعة من القماش النفيس، وقد أعد عمر رضي الله عنه «مقياس المساحة» بنفسه، واستمرت عملية مسح الأراضي باهتمام كبير ودقة متناهية عدة أشهر.

**مساحة العراق الإجمالية :**

المساحة الإجمالية للعراق ٣٧٥٠ ميلًا طولاً و ٢٤٠٠ ميلًا عرضاً وتصل المساحة الكلية إلى ٣٠ ألف ميل مربع، ولا يدخل في ذلك الصحراء أو الأنهار أو الجبال، ووصلت الأرض الصالحة للزراعة إلى ثلاثين مليوناً وسبعمائة ألف «جريب».

أما: ١ـ إقطاعية الأسرة الملكية. ٢ـ وأوقاف معابد النار. ٣ـ وممتلكات من لا وارث لهم. ٤ـ والهاربين. ٥ـ والمتمردين. ٦ـ والأراضي التي خصصت لشق الطرق وإصلاحها، والأراضي الموقوفة لنفقات البريد. ٧ـ وطرح الأنهار. ٨ـ والغابات... كل هذه الأراضي جعلها عمر رضي الله عنه خالصة للحكومة، ويبلغ دخلها السنوي سبعة ملايين خصصها لأعمال الصالح العام، وأحياناً كانت تقتطع من تلك الأراضي إقطاعية لشخص ما نظير خدماته الإسلامية إلا أن هذه الإقطاعيات لم تكن تستثنى من الخراج أو العشر بأي حال من الأحوال، وأُعطيت جميع الأراضي الباقية لملاكها القدامى بعد تحديد الضريبة طبقًا لما يلي:

**نسبة الضريبة**

| | | |
|---|---|---|
| القمح | في الجريب (أي ربع فدان) | درهمان سنوياً |
| الشعير | » | درهم سنوياً |

| | | |
|---|---|---|
| قصب السكر | في الجريب (أي ربع فدان) | ستة دراهم سنوياً |
| القطن | « | خمسة دراهم سنوياً |
| العنب | « | عشرة دراهم سنوياً |
| النخيل | « | عشرة دراهم سنوياً |
| السمسم | « | ثمانية دراهم سنوياً |
| الخضروات | « | ثلاثة دراهم سنوياً |

وكان هناك تفاوت في هذه النسبة باعتبار جودة الأراضي، فجعلت نسبة الضريبة أحياناً أربعة دراهم في جريب القمح ودرهمين في جريب الشعير .

**خراج العراق :**

أما الأراضي البور (المراحة) فقد حدد لها درهم على كل جريبين شريطة أن تكون صالحة للزراعة، وهكذا وصل مجموع خراج العراق إلى ثمانية ملايين وسبعمائة ألف درهم، ولأن كفاءة مسئولي المساحة كانت متفاوتة ظل هناك فرق في تحديد مجموع الضرائب، وكان فرق مجموع الضرائب المحددة يُترك عادة لملاك الأراضي. وكان عمر رضي الله عنه يهتم بأهل الذمة لدرجة أنه استدعى مسئولي المساحة وقال لهم: هل تشددتم في تحديد الجمع ؟ فقال عثمان: لا بل إن هذا التحديد يتسع لمثله أيضاً[١] .

**صاحب الأرض والمزارع :**

أما أصحاب الأراضي والمزارعون القدامى ويقال لهم بالفارسية مرزبان ودهقان، فقد تركهم عمر على حالهم، وتمتعوا بكل السلطات التي كانت لديهم.

وكانت نتيجة التنظيم الدقيق للأراضي نتيجة طيبة، فرغم أن نسبة الضرائب زادت على تلك النسبة المحددة أيام أنوشيروان إلا أن مساحات شاسعة من

---

(١) كتاب الخراج ص ٢١ .

الأراضي البور عُمِّرت واستُصَلحت وحدث نمو مفاجىء في كمية المحاصيل الزراعية.

### تنمية الدخل والإنتاج الزراعي :

وهكذا وفي السنة التالية لهذا التنظيم ارتفع مقدار الخراج من ثمانين مليون إلى مائة مليون وعشرين ألف درهم، وزاد هذا المقدار أيضاً في السنوات التالية، وكان عمر رضي الله عنه يحتاط كثيراً في هذا أيضاً فكان إذا ما وصله خراج العراق كل عام يطلب عشرة من ثقات الكوفة، ومثلهم من البصرة، فيجعلهم يقسمون بالله أربع مرات على أن هذا الخراج لم يؤخذ بظلم من مسلم أو من ذميٍّ[١] .

ومن العجيب أنه رغم أن عمر رضي الله عنه حدد الخراج في يسر إلا أن مقدار الخراج الذي جُبي في عهده لم يُجب أبداً في أي عهد بعد عهده.

وكان عمر بن عبدالعزيز يقول: لعن الله الحجاج فإنه لم يكن يصلح للدين ولا للدنيا، فقد جبى عمر بن الخطاب رضي الله عنه خراج العراق مائة مليون ومليونين وثمانمائة ألف درهم، وجبى زياد خراج العراق مائة مليون ومليون ونصف المليون، ثم جبى الحجاج مع ظلمه وقهره عشرين مليوناً وثمانمائة ألف[٢] ، وفي عهد المأمون بن الرشيد الذي اشتهر بالعدل والإنصاف لم يزد مقدار خراج العراق عن خمسين مليوناً وأربعة ملايين وثمانمائة ألف درهم.

وعلى قدر ما نعلم لم يأمر عمر رضي الله عنه بمسح أي إقليم سوى العراق فقد أبقى على الإجراءات والتنظيمات السابقة وترك جميع مستندات المساحة

---

(١) كتاب الخراج ص ٦٥ والعبارة الأصلية هي: أن عمر كان يجبي من العراق كل سنة مائة ألف ألف أوقية ثم يخرج إليه عشرة من الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله أنه من طيب ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد .

(٢) معجم البلدان، ذكر السواد .

والمقاييس المعدة قبلاً على حالها دون تغيير، لدرجة أنه لم يغير حتى لغة الديوان، فقد كان الديوان في العراق وإيران بالفارسية، وكان في الشام بالرومية وكان في مصر بالقبطية، فظلت لغة الدواوين في عهد عمر على ما كانت عليه، واستمر الموظفون من الفرس واليونان والأقباط يمارسون عملهم في إدارة الخراج كما كانوا من قبل، ومع ذلك كان عمر رضي الله عنه يصلح مايراه خطأً في النظام القديم وهذا ما سنفصله فيما بعد.

**قواعد الخراج في مصر في عهد الفراعنة :**

أبقى البطالمة على نظام المساحة الذي كان قائماً في مصر الفرعونية واستمر هذا النظام كما هو عليه في زمان الإمبراطورية الرومانية، وكان الفراعنة قد قاموا بمسح الأراضي، وحددوا أسلوب الخراج على الأراضي المثبتة وطريقة الدفع :

١ـ يتم تحصيل الخراج نقداً أو من خلال تقديم كمية من المحصول.

٢ـ تحديد نسبة الضريبة طبقاً لمتوسط إنتاج عدة سنوات.

٣ـ يعاد مسح الأرض كل أربع سنوات[١].

**الزيادة التي أجراها الرومان :**

أبقى الرومان على جميع القواعد في عهد حكومتهم دون تغيير يذكر، لكنهم وضعوا قانوناً جديداً يقضي بأن يرسل كل عام كمية كبيرة من الغلال إلى القسطنطينية فضلاً عن الخراج المقرر، كما كانت الغلال ترسل من هنا مؤنةً للجيش في جميع أقاليم الإمبراطورية، ولم تكن تحسب من الخراج،

---

(١) كتب البروفسر فافان برخوم Favan Ber Ghom كتاباً باللغة الفرنسية عن قانون الخراج عند المسلمين وقد حصلت على هذه المعلومات من هذا الكتاب وعنوانه:
La propriere Territorial etu, Impot Foncier Sons les premiers calife.

فألغي عمر كلا القانونين الظالمين.

**إصلاح عمر للطريقة القديمة :**

كتب المؤرخون الأوربيون أن القاعدة المشار إليها قبلًا استمرت أيضاً في عهد عمر رضي الله عنه، وأن الغلال التي أُرسلت من مصر إلى المدينة المنورة في عام المجاعة أُرسلت طبقاً لهذه القاعدة، إلا أن هذا خطأ فادح، وقياس فاسد، فلا شك أن الغلال وصلت من مصر عام المجاعة، واستمرت هذه القاعدة لمدة، لكنها كانت الغلال التي تُرسل على سبيل الخراج، ولم يُقرر خراج جديد أو ضرائب جديدة، وهكذا صرح العلامة البلاذري بكل وضوح في فتوح البلدان وأكبر دليل علي هذا هو أنه عندما بقيت طريقة دفع الخراج نقداً، كانت الغلال التي ترسل إلى الحرمين تشترى أولاً، كما صرح بذلك المقريزي في معرض حديثه عن أيام حكم معاوية(١)، وكان عمر رضي الله عنه قد أقام نظام جمع مؤنة الجيش في شكل غلة في كل إقليم، وكانت هذه الغلة ذاتها هي الخراج أيضاً.

**طريقة تحصيل الخراج في مصر :**

سهل عمر رضي الله عنه طريقة تحصيل الخراج في مصر كثيراً ومن هذه الناحية أجرى تعديلات مجملة في القواعد القديمة للدولة، كانت مصر بلداً يعتمد إنتاجه الزراعي على فيضان نهر النيل، ولما كان منسوب فيضان النيل يتفاوت تفاوتاً كبيراً من سنة لأخرى، كان من الصعب تقدير الإنتاج الزراعي بشكل ثابت، ولا يفيد هنا حساب متوسط عدة سنوات، والفلاح غير المتعلم قد لا يستطيع تقسيم نفقاته على هذا الأساس بحيث تمضي أموره في سنوات الجفاف طبقاً لحساب متوسط عدة سنوات.

---

(١) المقريزي المجلد الأول ص ٧٩ .

على كل حال كانت طريقة تحصيل الخراج في زمان عمر تتم باستدعاء الأعيان وأصحاب الأراضي والعرّافين من جميع المناطق، إذا ما حلّ أجل الأقساط، فيقومون بتقدير خراج كل بلد حسب حالة الإنتاج والمحصول وبعد ذلك يتم تقدير خراج كل محافظة وكل مركز، ويشترك في هذا أصحاب الأراضي المحليين ورؤساء القرى ويتم إبلاغ القرى كلها بالمبلغ الذي تقرر بعد مشورة هؤلاء الناس، فيتم استقطاع التكاليف العامة: تكاليف الكنائس، وتكاليف العمالة، وضيافة المسلمين، ثم يُؤدى المال بعد التقدير الكليّ لما تبقى، ويُستخرج من بقية المحصول المحدد من الخراج من أصحاب الحرف في كل قرية أيضاً[1].

ومع أن هذه الطريقة كانت من الصعوبة بمكان فقد اقتضت القيام بتنظيم الخراج وترتيبه كل سنة، إلا أن هذا كان مقتضى العدل والإنصاف فيما يتعلق بظروف مصر، وظلت هذه الطريقة هي المعمول بها في مصر مع إجراء بعض التعديلات البسيطة.

كانت نسبة الضريبة في «الجريب» دينار وثلاثة أرادب من الغلال، ونُص في المعاهدة على ألا يُضاف إليها أي مقدار آخر.

**الخراج الكُلّي لمصر :**

قدر الخراج الذي كان يجمع في عهد عمر رضي الله عنه بالعدل والإنصاف حوالي اثنا عشر مليون دولار أي: مايقرب من خمسين مليوناً وستمائة ألف روبية.

كتب المقريزي أن هذا المبلغ كان فقط الجزية والخراج لا يدخل في هذا المبلغ، ويؤكد هذا ما نقله ابن حوقل البغدادي في كتابه عن ابن حزم، ولكني

---

(١) فصل المقريزي الحديث عن هذا الأمر انظر كتابه (خطط المقريزي) ص ٧٧ وقد أكد العلامه بشارة هذا في كتاب الجغرافيا (أحسن التقاسيم) ص ٢١٢ .

أرى أنهما على خطأ، فالمقريزي نفسه كتب أن عمر رضي الله عنه اعترض على عمرو بن العاص حين جبى في السنة الأولى مبلغ عشرة ملايين دينار، وقد ظن عمر أن المقوقس كان قد جبى في السنة السابقة مائتي مليون دينار، ولهذا استفسر حقيقة الأمر من عمرو بن العاص ـ ومن المعروف أن قانون الجزية لم يكن جارياً في عهد المقوقس، ولهذا فلو كان هذا المبلغ الذي جمعه عمرو بن العاص هو مبلغ الجزية فلا يجوز مقارنته بالمبلغ الذي كان المقوقس قد جمعه، أضف إلى هذا أن جميع المؤرخين والمقريزي نفسه عندما قارنوا بين مبلغ الخراج قبل الإسلام ومبلغ الخراج في العهد الإسلامي، ذكروا هذا المبلغ نفسه. وعلى كل حال فإن المقدار الذي وصل إليه الخراج في عهد عمر لم يصل إليه في العصور التالية، فلم يزد الخراج في عهد بني أمية وبني العباس عن ثلاثة ملايين دينار.

## خراج مصر في عهد بني أمية والعباسيين :

عندما مسح هشام بن عبدالملك باهتمام شديد جميع أراضي الدولة قدرت المساحة بثلاثين مليون فدان، وارتفع مقدار الخراج من ثلاثة ملايين إلى أربعة ملايين دينار، ولا شك أنه في عهد عثمان رضي الله عنه جبى عبدالله بن سعد عامل مصر أربعة عشر مليون دينار، ولكن حين قال عثمان رضي الله عنه لعمرو بن العاص مُفتخراً «لقد درّت الناقة هذه المرة كثيراً»، فقال عمرو بن العاص بصراحة: «نعم لكن صغارها لم يجدوا مايشبع»[١] .

وفي عهد معاوية الذي يعد رمزاً لكل أنواع التطور في الحياة كان خراج مصر تسعة ملايين دينار[٢] وفي عهد الفاطميين وعلى الرغم من أن عامل الخليفة المعز لدين الله ضاعف من نسبة الخراج إلا أن ما جمع لم يصل إلى

---

(١) المقريزي المجلد الأول ص ١٨ .
(٢) معجم البلدان ذكر مصر المجلد الأول ص ٧٤،٧٥ .

أكثر من ثلاثة ملايين ومائتي ألف دينار[١] .

**الشـام :**

كان القانون المعمول به في الشام حتى عهد الإسلام هو القانون الذي وضعه أحد ملوك اليونان في عموم البلاد التي كانت تحت سيطرته، وكان قد قسم الأراضي إلى طبقات لاختلاف محاصيلها ثم وضع على كل قسم من الأرض نسبة ضريبية مختلفة، وكان هذا القانون قد ترجم من اللغة اليونانية إلى لغة أهل الشام في بداية القرن السادس الميلادي، وظل هذا القانون معمولاً به في جميع الدول حتى الفتح الإسلامي[٢]، ويتضح من القرائن والقياس أن عمر رضي الله عنه أبقى على نفس القانون القديم في الشام، مثلما فعل في مصر. وكان الخراج الذي جمع من الشام في عهد عمر أربعة عشر مليون دينار أي: ٥٨ مليون روبية.

وفيما عدا العراق ومصر والشام فإن المعلومات غير متوفرة لدينا عن تنظيم وترتيب أمور الخراج في بقية البلاد المفتوحة قبل فارس وكرمان وأرمينية وغيرها، ولم يذكر المؤرخون في فتح هذه البلاد سوى أن الجزية فرضت على الناس وتقرر الخراج على الأرض في تلك البلاد، وكانت إذا عقدت معاهدة في بعض الأماكن نُص على مبلغ معين من المال، دون تفصيل جزئيات هذا المبلغ، ولأن التفاصيل الجزئية لا ترتبط بالنتائج الكبيرة لهذا لن نهتم بها كثيراً.

**إصلاحات عمر في قانون الخراج :**

لا شك أن نظرة الباحث ستتركز على الإصلاحات التي طرأت وعلى الأمور التي استحدثت في هذا الصدد إبان الفتوحات الفاروقية، ونحن بدورنا

---

(١) كتاب الخراج ص ٦٨ وابن حوقل ذكر مصر .

(٢) انظر كتاب البروفسر بروخيم الفرنسي «قانون الخراج عند المسلمين» .

نود إلقاء نظرة على هذا الجانب الخاص، إن أعظم ثورة أحدثها عمر في هذا الصدد، وتطورت بسببها فجأة رفاهية الناس وازدهر رقيهم، تمثلت في القضاء على القانون القديم للإقطاع وملكية الأرض، وكان قانوناً ظالماً.

حين استولى الرومان على الشام ومصر، سلبوا السكان الأصليين جميع أراضيهم، ووهبوها لبعض قادة الجيش ورجال البلاط، وجعلوا بعضها إقطاعاً ملكيًا، وجعلوا بعضها وقفاً للكنائس والكاتدرائيات، ولم يبق للسكان الأصليين ما يمتلكونه ـ وكان لهم فقط حق الزراعة، وكانت ملكية الأرض إذا ما آلت لشخص آخر، انتقل زارعوها معها إلى الشخص الجديد، وفي النهاية منح السكان المزارعون بعض الأراضي، لكنهم كانوا تحت حماية ملاك الأراضي الرومان، ينالون العون منهم، وبهذه الوسيلة صار المزارعون أنفسهم يتصرفون في الأرض. أما الفلاحون المساكين فظلوا كما هُم يفلحون الأرض ولا شيء غير ذلك.

ولم تكن هذه الطريقة قاصرة على الإمبراطورية الرومانية فقط لكنها ـ على حسب علمنا ـ كانت سائدة في جميع أنحاء العالم تقريباً، فقد كان النصيب الأكبر من الأراضي يُعطى لأعضاء الدولة أو قادة الجيش كإقطاعيات لهم حق التصرف فيها.

وقد قضى عمر على هذا القانون الظالم مع فتحه لهذه البلاد أما الرومان فقد رحل معظمهم من البلاد التي فتحت، كما نزعت الأراضي ممن بقي منهم، وقام عمر رضي الله عنه بتسليم أراضي الوقف الملكية أو تلك التي استولى عليها قادة الروم إلى أهالي البلاد، وبدلاً من أن يسلمها لقادة المسلمين من المدنيين أو العسكريين، وضع قاعدة لا تسمح بأي حال من الأحوال لمسلم أن يستولي على تلك الأراضي؛ أي أنه لا يمكنه شراؤها حتى لو دفع الثمن لمالكها، وظلت هذه القاعدة سارية المفعول لفترة من الزمان حتى إنه حين اشترى ليث بن سعد أرضاً في مصر، اعترض على ذلك بشدة

كبار أئمة الدين مثل الإمام مالك ونافع بن يزيد وابن لهيعة[١]. ولم يكتف عمر رضي الله عنه بهذا بل حظر على العرب الذين بدأوا الانتشار في تلك البلاد العمل بالزراعة، وهكذا أرسل أوامره إلى جميع قادة الجيش ليصرفوا رواتب هؤلاء الناس حتى لا يعمل أحدهم بالزراعة، وقد أصدر هذا الأمر بحزم شديد حتى أن شخصاً يدعى شريك الغطفي عمل بالزراعة في مصر، فاستدعاه عمر رضي الله عنه وعنفه بشدة وقال: «سأعاقبك عقاباً يكون عبرة للآخرين»[٢].

وإذا ما وضعنا هذه القواعد جانباً رأينا أن عمر رضي الله عنه أقام نموذجاً للعدل والإنصاف لا نظير له في أي مكان في العالم، لأن أحداً من الفاتحين لم يتسامح أبداً مع المهزومين بمثل هذا التسامح. ومن جانب آخر تطورت الزراعة وانتشر العمران نتيجة لهذا بطريقة كبيرة؛ ذلك لأن العرب من البدو لم يستطيعوا أن ينافسوا السكان الأصليين الذين برعوا في تلك الأعمال منذ مدة طويلة، وأكثر من هذا فإن هذه الإدارة قد لعبت دوراً كبيراً في اتساع الفتوحات، وقد كتب مؤلف فرنسي له اعتباره بين المؤرخين أن من المسلّم به أن أمور الخراج وجباية الأموال كان لها دخل كبير في الفتوحات الإسلامية. فقد ساعدت معاناة السكان الأصليين من جراء دفع الخراج في ظل الإمبراطورية الرومانية على مضاعفة سرعة الفتوحات الإسلامية كثيراً، فالمقاومة التي واجهتها حملات المسلمين لم تكن من قبل أهل البلاد الأصليين بل كانت من قبل الحكومة، ففي مصر كان الزراع الأقباط يساعدون المسلمين ضد اليونانيين، وفي دمشق وحمص أغلق السكان النصارى أبواب المدينتين في وجه جيش هرقل وقالوا للمسلمين: «نحن نفضل كثيراً حكمكم على حكم الرومان الظالم».

يجب ألا نظن أن عمر رضي الله عنه قد أجحف في حق قومه وهو يطبق

(١) المقريزي المجلد الأول ص ٢٩٥ .

(٢) حُسن المحاضرة ص ٩٣ .

العدل مع الأقوام الأخرى، فمنع قومه من الزراعة والفلاحة، في الحقيقة ماحدث يثبت بُعد نظر عمر، فمعدن العربي الأصيل هو الشجاعة والبسالة والصبر والمعاناة، والهمة والعزم، وهي صفات ظلت لديهم طالما كانوا بعيدين عن الزراعة والفلاحة، ومنذ وضعوا أيديهم على الأرض فقدوا جميع هذه الصفات.

**استشارة أهل الذمة في تنظيم الخراج :**

كانت هناك قواعد وأصول أخرى وضعها عمر في هذا الصدد، وهي قواعد وأصول اتصفت بالعدل والإنصاف، فقد كان عمر رضي الله عنه يطلب دائماً رأي الرعايا الذميين من المجوس أو النصارى في تنظيم الخراج، وما يتعلق به من جميع الأمور، وكان يراعي طلباتهم، وعندما أراد تنظيم أمور خراج العراق كتب للعمال أولاً حتى يرسلوا إليه اثنين من رؤساء العراق يرافقهم مترجم[١]، وبينما كانت عملية مسح الأرض تجري قام عمر رضي الله عنه باستدعاء عشرة من كبار المزارعين من العراق واطلع على آرائهم[٢] .

وهكذا الحال عند مسح أراضي مصر، وتنظيم أمور الخراج بها، فقد كتب للحاكم هناك أن يأخذ رأي المقوقس (الحاكم السابق لمصر) فيما يتعلق بأمور الخراج، وحين لم يطمئن لهذا استدعى خبيراً قبطياً إلى المدينة وأخذ رأيه[٣] ، وكما كانت هذه الطريقة نموذجًا طيباً للعدل والإنصاف كانت أيضاً مفيدة للإدارة والتنظيم.

ويجب أن تضم هذه الإصلاحات إلى ما ذكرناه قبلًا عن تنظيم الأراضي ومسحها.

---

(١) الخراج ص ٣١ .
(٢) كتاب الخراج ص ٥ .
(٣) المقريزي المجلد الأول ص ٧٤/ ٧٥ .

## التنمية الزراعية :

بالإضافة إلى تنظيم الأراضي ومسحها اهتم عمر رضي الله عنه بتنمية الزراعة وتعمير الأرض، وأصدر حكماً عاماً بأن يمتلك كل من يصلح قطعة من الأرض البور، هذه الأرض حيثما كانت، وفي جميع أنحاء البلاد، ولكن لو استولى أحد على قطعة أرض ليصلحها، ولم يستصلحها في غضون ثلاث سنوات، تسترد منه الأرض، وبهذه الطريقة استصلحت الأراضي البور بسرعة فائقة، وكان قد أُعلن أن من تركوا منازلهم وقت الفتح وهربوا، يمكنهم العودة، وامتلاك أراضيهم من جديد.

ويمكن تقدير مدى اهتمام عمر رضي الله عنه بتنمية الزراعة فحين جاءه ذات مرة رجل يشكو من أن له زرعاً بالشام «ومر به جيشك فخربه»، عندئذ أمر عمر رضي الله عنه من فوره أن يُعطى الرجل عشرة آلاف درهم عوضاً عما أُتلف من زرعه[1].

## مصلحة الري :

شق عمر الأنهار في جميع البلاد المفتوحة، وأقام السدود، وأنشأ البحيرات، ثم أسس هيئة كبيرة لبناء القناطر لتقسيم وتوزيع المياه، وشق الترع المتفرعة من الأنهار وما شابه ذلك من أمور.

وقد كتب العلامة المقريزي أن مائة وعشرين ألف عامل كانوا يقومون بهذه الأعمال في مصر بصفة خاصة، وذلك يومياً وعلى مدار السنة، وكانت جميع هذه النفقات تصرف من بيت المال[2]، وقد استأذن جزر بن معاوية عمر رضي الله عنه وشق كثيراً من الأنهار في مراكز خوزستان والأهواز، وهكذا تم استصلاح كثير من الأراضي البور، وشقت مئات الأنهار التي يرد ذكرها في

---

(١) كتاب الخراج ص ٦٨ .

(٢) المقريزي المجلد الأول ص ٧٦ .

كتب التاريخ المتفرقة.

**الخراج والعشر :**

تنقسم الأرض من ناحية الملكية إلى تقسيم من نوع آخر وهو: الخراجي والعشري، وقد سبق بيان الخراجي، أما العشري فكان يطلق على الأراضي التي يمتلكها المسلمون وأقسامها كما يلي:

١ـ أرض العرب التي يمتلكها المسلمون الأوائل كما هو الحال في المدينة المنورة وغيرها.

٢ـ الأرض التي انتقلت ملكيتها من ذمي إلى المسلمين كأن يموت الذمي دون أن يترك من يرثه أو يهرب أو يتمرد أو يقدم استقالته.

٣ـ الأرض البور التي لا يملكها أحد، فعمرها أحد المسلمين وامتلكها.

كل تلك الأراضي كان يطلق عليها «عشرى» ولما كان ما يؤخذ من المسلمين، كان على سبيل الزكاة، لهذا قررت الزكاة على تلك الأراضي بدلاً من الخراج، وكانت تعادل عُشر المحصول الأصلي، وكان الرسول ﷺ قد حدد بنفسه هذه النسبة، وبقيت كما هي في عهد عمر رضي الله عنه، وقد قرر عمر رضي الله عنه الخراج على الأراضي التي آلت إلى المسلمين، إذا كانت تروى من أنهار الذميين وآبارهم القديمة، وكان يمتلك مثل هذه الأراضي عبدالله بن مسعود وخباب وغيرهما فكان يؤخذ منهم الخراج، وإذا حفر المسلم لنفسه بئراً أو أجرى نهراً لري تلك الأرض فكان يُقرر عليه العشر(١).

وقد يبدو تخصيص العشر بالنسبة للمسلمين في الظاهر نوعاً من الظلم أو المحاباة القومية، لكن ليس الأمر كذلك في الواقع، فالمسلمون أولاً كانوا يدفعون مبالغ كبيرة بالمقارنة بما كان يدفعه أهل الذمة، مثل أموال الزكاة على المواشي، والزكاة على الخيل، والزكاة على المال، بينما كان أهل الذمة

---

(١) كتاب الخراج من ص ٣٥ـ٣٧.

يستثنون كلية من ذلك، ومن هنا كانت معاملة تلك الأرض التي كانت في حوزة قلة قليلة من المسلمين معاملة مبنية على العدل الكامل، وثانياً كان مبلغ العشر محدداً ومقرراً ولا يمكن أن يخفض، أو يعفى منه أحد بأي حال من الأحوال، حتى لو كان الخليفة نفسه أو الحاكم نفسه، وعلى العكس من هذا يمكن ويجوز تخفيض الخراج أو الإعفاء منه، وكان يعمل بهذا من وقت لآخر، هذا بالإضافة إلى أن الخراج كان يجبى مرة واحدة كل عام، بينما العشر كان يجبى عن المحاصيل المنتجة في كل فصل من فصول السنة.

## مصادر الدخل الأخرى

كانت هناك مصادر أخرى للدخل غير الخراج والعشر ونوجزها فيما يلي: الزكاة، والعشور، والجزية، وخمس مال الغنيمة، وكانت الزكاة خاصة بالمسلمين، ولا يستثنى منها أي نوع من ممتلكات المسلمين أو دخولهم، فكانت الزكاة تؤخذ على الأغنام والماعز والإبل، وقد رتبت جميع أحكام الزكاة في عهد رسول الله ﷺ أما ما أُضيف في عهد عمر رضي الله عنه فكان الزكاة على خيل التجارة.

**زكاة الخيل :**

رغم أن النبي ﷺ أمر باستثناء الخيل من الزكاة، لكن يجب ألا نفهم من هذا ـ والعياذ بالله ـ أن عمر رضي الله عنه خالف رسول الله ﷺ، لأن العبارة التي قالها رسول الله ﷺ يفهم من ظاهرها خيل الركوب، وقد أبقى عمر رضي الله عنه على هذا المفهوم، فلم يكن هناك وجود لخيل التجارة في زمان رسول الله ﷺ. ولهذا لم يكن هناك من سبب لاستثنائها من الزكاة، وعلى كل حال فقد كان هذا مصدراً جديداً من مصادر الدخل في نطاق الزكاة، وكانت بدايته في عهد عمر رضي الله عنه.

**العشـور :**

العشور من اختراع عمر رضي الله عنه، كانت بدايتها حين ذهب المسلمون

للتجارة في البلاد الأجنبية، فكان يؤخذ منهم طبقاً لقانون تلك البلاد ضريبة مقدارها عشرة بالمائة، تحسب على مال التجارة، وقد أخبر أبو موسى الأشعري عمر رضي الله عنه بهذه الواقعة، فأمر عمر رضي الله عنه بتحصيل هذه النسبة أيضاً على التجار الأجانب الذين يفدون على بلاد المسلمين، وقد أرسل نصارى منبج الذين لم يخضعوا للإسلام حتى ذلك الوقت كتاباً إلى عمر رضي الله عنه يطلبون فيه السماح لهم بالتجارة في الجزيرة العربية مع دفع العشر، فقبل عمر رضي الله عنه، ثم طبقت هذه القاعدة على المسلمين وأهل الذمة، وكانت بلا شك تختلف نسبتها، فكان يؤخذ عشرة بالمائة ممن يسكنون في دار الحرب، وخمسة بالمائة من أهل الذمة، واثنان ونصف بالمائة من المسلمين، وبالتدريج طبقت هذه القاعدة في جميع البلاد المفتوحة، وأقيمت لذلك إدارة خاصة، كانت وسيلة لزيادة الدخل زيادة ملحوظة، وكانت هذه الضريبة تؤخذ على مال التجارة خاصة، وكانت عمليات الاستيراد والتصدير تدور طوال العام، فالتاجر الذي يؤخذ منه المال يظل يتحرك حيثما شاء طوال السنة يمارس تجارته ولا يؤخذ منه ضريبة أخرى.

وكان هناك قانون آخر يقضي بألا تفرض ضريبة على المال الذي تقل قيمته عن مائتي درهم، وأكد عمر على جباة الضرائب بأن يأخذوا العشر على الأشياء الظاهرة، بمعنى ألا يبحثوا عن ممتلكات أو أموال غير ماهو ظاهر ومعلن.

أما الجزية فسنفصل الحديث عنها فيما بعد.

# إدارة العدل

## هيئة القضاء :

ظهرت هذه الهيئة في الدولة الإسلامية عن طريق عمر رضي الله عنه، فاستقلال هيئة القضاء عن إدارة الحكم أول ما يظهر من ملامح التقدم الحضاري، فحيث ظهرت الحكومات والسلطات في العالم يلاحظ استقلال الإدارتين عن بعضهما البعض بعد فترة من الزمن يطول مداها، ولكن عمر رضي الله عنه فصل بين هاتين الإدارتين بعد عدة أيام من خلافته، وحتى في عهد أبي بكر رضي الله عنه كان الخليفة نفسه، وقادة الدولة يتولون أمر القضاء، وقد أبقى عمر رضي الله عنه على هذا الأمر في البداية، وكان هذا ضرورياً، فلم يكن تنظيم الحكومة قد اكتمل بعد، وكانت كل هيئة وكل إدارة بحاجة إلى الهيبة والشدة، ولهذا كان الفصل في القضايا يمكن أن يتم عن طريق الشخص الذي ليس له من مهمة أو سلطة سوى ذلك، وكان هذا هو السبب الذي جعل عمر رضي الله عنه يكتب إلى أبي موسى الأشعري بألا يعين قاضياً مالم يكن له هيبة ومكانة[١]، بل بناء على هذا أوقف عبدالله بن مسعود من الفصل في القضايا.

ولكن عندما اكتملت أسس الإدارة تماماً فصل عمر رضي الله عنه القضاء عن بقية الإدارات فصلًا تاماً، وأقام المحاكم في جميع المراكز، وعين فيها القضاة، وكتب أمراً تضمن قواعد وأصول القضاء باسم أبي موسى الأشعري حاكم الكوفة، وقد تضمن هذا الأمر جميع الأحكام الأساسية لإدارة العدل، وننقله هنا كما جاء بنصه[٢].

---

(١) أخبار القضاة لمحمد بن خلف الوكيع.

(٢) ذكر الماوردي والجاحظ وابن عبدربه وكثير من المحدثين والمؤرخين هذا الفرمان.

كما أن قوانين الإمبراطورية الرومانية الاثنا عشر[١] التي تعد من المفاخر العظيمة للرومان والتي كتب عنها محاضر الروم الشهير سيسرو بأن هذه القوانين تزيد عن مؤلفات جميع الفلاسفة موجودة أمامنا أيضاً.

## وثيقة عمر عن أصول القضاء :

هذا أمر عمر نورده هنا بنصه :

---

(١) أرسلت الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٥١ ق.م السفراء إلى اليونان لدراسة القانون حتى يسنوا فيما بعد قانوناً خاصاً بالنظام والإمبراطورية، فذهب هؤلاء السفراء إلى اليونان، وعادوا من هناك، وأعدوا قانونًا يتضمن اثنا عشر مادة لاثنا عشر أمراً إدارياً - وحفرت هذه المواد على ألواح من الرصاص وظلت لفترة من الزمان هي قانون الإمبراطورية الرومانية، وفيما يلي المواد التي تتعلق بإدارة القضاء.

١- اذهبوا إلى المحكمة فوراً إذا تم استدعاؤكم وليحضر الخصم الدعوي معه.

٢- إذا رفض المدعي عليه الحضور أحضره أحد الشهود بالقوة.

٣- إذا أراد المدعي عليه الفرار فيمكنكم أن تقبضوا عليه.

٤- إذا كان المدعي عليه مريضًا أو عجوزًا فأعطوه مركبًا، وإلا فلا يمكن أن يُجبر على الحضور.

٥- لو قدم المدعي عليه الضامن فاتركوه .

٦- يجب أن يكون ضامن الثرى ثريًا.

٧- يجب أن يصدر القاضي حكمه باتفاق الطرفين.

٨- يسمع القاضي الدعوى من الصباح حتى الظهر.

٩- يكون الحكم بعد الظهر وفي حضور الطرفين المتنازعين.

١٠- تغلق المحكمة بعد المغرب.

١١- إذا أراد الطرفان تقديم وسيط فعليهم أن يقدما الضامن.

١٢- من لا يستطيع أن يقدم شاهدًا فعليه أن يصيح بدعواه على باب المدعي عليه.

هذه هي القوانين التي كانت تفخر بها أوربا حين تذكر محاسن الإمبراطورية الرومانية.

«أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، سوِّ بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا ييئس الضعيف من عدلك، ولا يطمع الشريف في حيفك البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز إلا صلحاً أحَلّ حراماً أو حرّم حلالاً، لا يمنعك قضاء قضية بالأمس، فراجعت فيه نفسك أن ترجع إلى الحق، الفهم الفهم فيما يختلج في صدرك مما لم يبلغك في الكتاب والسنة، واعرف الأمثال والأشباه، ثم قس الأمور عند ذلك، واجعل لمن ادعى بينة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذت له بحقه، وإلا وجهت القضاء عليه، والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حدّ أو مُجرّباً في شهادة الزور أو ظنيًّا في ولاء أو وراثة».

والأحكام القانونية المتعلقة بالقضاء المذكورة في هذا الأمر الفاروقي هي:

(١) القاضي من حيث كونه حكماً يجب أن يعامل جميع الناس على حد سواء.

(٢) البينة على المدعي.

(٣) إذا لم يكن للمدعي عليه إثبات أو شهادة فعليه أن يحلف.

(٤) يمكن للطرفين المتخاصمين أن يصطلحا على كل حال، ولكن لا يمكن أن يكون هذا الصلح في أمر يخالف القانون.

(٥) يمكن للقاضي أن يرجع في حكمه مرة أخرى بعد أن يكون قد حكم في القضية طبقًا لمرئياته.

(٦) يجب أن يحدد تاريخ معين لنظر الدعوى.

(٧) إذا لم يحضر المدعي عليه في ذلك التاريخ المحدد، فيمكن أن يصدر الحكم غيابياً.

(٨) كل مسلم يصلح للشهادة ماعدا من أُدين في جرم أو ثبت كذبه فلا تقبل شهادته.

إن عظمة إدارة القضاء أن العدل الكامل والإسهام التام في الفصل بين المنازعات يتوقف على الأمور التالية:

١ـ القانون الجيد المتكامل الذي يفصل القضايا طبقاً لمواده.
٢ـ اختيار القضاة الأكفاء المتدينين.
٣ـ وجود اللوائح والقانون التي تحول بين القضاة وبين انحيازهم لطرف من أطراف القضية، وتحول بينهم وبين قبول الرشوة أو اتباع أي وسيلة أخرى غير شرعية.
٤ـ أن يكون عدد القضاة كافياً بالنسبة لعدد السكان حتى لا يتأخر الفصل في الدعاوى.

وقد نظم عمر رضي الله عنه جميع هذه الأمور بطريقة لا يمكن أن يوجد أفضل منها، فلم تكن هناك حاجة لسن قوانين، فالقانون الأساسي للإسلام كان موجوداً وهو القرآن الكريم، ولا شك أنه لم يكن يحيط بالجزئيات، ومن هنا كانت هناك ضرورة للاستفادة من الحديث الشريف والإجماع والقياس.

وقد كتب عمر نصائحه إلى القضاة بصفة خاصة، كتب إلى القاضي شريح أن يحكم في القضايا أولاً بما جاء في القرآن الكريم، فإذا لم تكن تلك الحالة في القرآن، فليكن طبقاً لما جاء في الحديث، وإلا فطبقاً للإجماع، وإذا لم يجد لها مثيلاً في أي مكان فليجتهد برأيه[1].

لم يكتف عمر رضي الله عنه بهذا بل كان دائماً يكتب الفتاوى عن القضايا والمسائل الصعبة والمبهمة ويرسلها من حين لآخر إلى مسئولي القضاء، ولو رُتبت هذه الفتاوى اليوم لشكلت مجموعة قوانين مختصرة، لكننا لا يمكن أن

(١) كنز العمال المجلد ٣ ص ١٧٤ وقد ورد هذا الأمر في مسند الدارمي أيضًا باختلاف بسيط وعبارته الأصلية: عن شريح أن عمر بن الخطاب كتب إليه: إن جاءك شيء في كتاب الله فاقض به، فإن جاءك ماليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله ﷺ. فاقض بها، فإن جاءك ماليس في كتاب الله ولم يكن في سنة رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أي الأمرين شئت، إن شئت أن تجتهد برأيك ثم تقدم وإن شئت تتأخر فتأخر، ولا أرى التأخر إلا خيرًا لك.

نتناولها هنا بالبحث، ويمكن لمن يرغب أن يرجع إلى «كنز العمال» و «إزالة الخفاء» وغيرها، كما وردت بعض الفتاوى في «أخبار القضاة» .

**اختيار القضاة :**

إن الاحتياط والدقة في اختيار القضاة يمكن تقديرها إذا لاحظنا أن من اختيروا لمنصب القضاء كانوا جميعاً من خيرة العرب، فكان قاضي العاصمة أي المدينة المنورة هو زيد بن ثابت(١)، وكان كاتب الوحي في عهد رسول الله ﷺ وكان خبيراً باللغتين السريانية والعبرية، وفي علوم الفقة ولم يكن له نظير بين العرب في علم الفرائض، أما كعب بن سور الأزدي فكان قاضي البصرة، وكان قادراً على فهم الأمور وإدراكها بسرعة، وقد روى الإمام ابن سيرين الكثير من أحكامه(٢)، وكان عبادة بن الصامت هو قاضي فلسطين، ومعروف أنه من بين الخمسة الذين حفظوا القرآن كله في عهد الرسول ﷺ . ولهذا أوكل إليه النبي ﷺ تعليم أهل الصفة، وكان عمر رضي الله عنه يقدره ويحترمه لدرجة أنه حين اختلف معه الأمير معاوية، أبعده عمر عن تبعية معاوية(٣) .

**مسئولو القضاء في عهد عمر رضي الله عنه :**

كان قاضي الكوفة هو عبدالله بن مسعود، ولا يحتاج فضله وكماله إلى بيان، فهو المؤسس الأول للفقه الحنفي، وهو الذي تولى القضاء من بعده سنة ١٩هـ القاضي شريح، ومع أنه لم يكن من الصحابة إلا أنه كان ذكياً على قدر من الفهم كبير، لم يكن له نظير في جزيرة العرب كلها وهكذا يضرب به المثل اليوم، كان علي رضي الله عنه يقول عنه إنه «أقضى العرب»، وفضلًا عن هؤلاء العظماء

---

(١) في أخبار القضاة أن عمر استعمل زيدًا على القضاء وفرض له رزقاً .

(٢) انظر أسد الغابة في أحوال الصحابة والاستيعاب للقاضي ابن عبدالبر، تذكرة كعب بن سور الأزدي.

(٣) الاستيعاب للقاضي ابن عبدالبر.

كان هناك قضاة آخرون في عهد عمر منهم: جميل بن معمر الجمحي، وأبو مريم الحنفي، وسلمان بن ربيعة الباهلي، وعبدالرحمن بن ربيعة، وأبو قرة الكندي، وعمران بن الحصين، ويمكن معرفة عظمتهم وجلال شأنهم من كتب الرجال.

## تعيين القضاة بعد امتحانهم :

رغم أن القاضي كان تابعًا لحاكم الإقليم أو حاكم المركز الذي كان له السلطة الكاملة في تعيين القضاة إلا أن عمر رضي الله عنه ـ زيادة في الحيطة ـ كثيراً ما كان يختار بنفسه هؤلاء القضاة ويرسلهم، ومع أن شهرة المرشحين لمنصب القضاء كانت وحدها كافية لاختيارهم، لكن عمر لم يكن يكتف بهذا، بل كان كثيراً ما يختار هؤلاء القضاة بعد أن يمتحنهم امتحاناً عملياً وبعد تجربته لهم تجربة شخصية.

وهذا ما حدث عند تعيين القاضي شريح، وكان عمر رضي الله عنه قد اشترى من رجل فرساً بشرط الاستحسان، وأعطاه لفارس حتى يجربه، فجرح الفرس أثناء ركوب الفارس له وصار معيباً، فأراد عمر رضي الله عنه أن يُعيده للبائع، فرفض صاحب الفرس ذلك وحدث خلاف، وعين شريح حكماً، فحكم شريح بأنه لو كان صاحب الفرس أذن بالركوب لكان من الممكن رد الفرس، وإلا فلا يمكن، فقال عمر: هذا هو الحق، وعينه قاضياً للكوفة[1]، وحدث نفس الشيء تقريباً مع كعب بن سور الأزدي.

## طرق الوقاية من الرشوة :

وضع عمر كثيراً من القيود لمنع وسائل الدخل غير المشروعة :

١ـ صرف الرواتب الكبيرة على ألا تكون بالضرورة مبالغ طائلة وعلى سبيل المثال كان راتب سلمان بن ربيعة والقاضي شريح خمسمائة درهم شهرياً[2]،

---

(١) كتاب الأوائل الباب السابع ذكر القضاة.

(٢) فتح القدير، حاشية هداية المجلد ٣ ص ٢٤٧ .

وكان هذا المبلغ كافياً بالنسبة لظروف ذلك الزمان.

٢- وضع قاعدة تقتضي ألا يعين في منصب القضاء إلا من كان ذا مال وحسب، وأرسل أمراً إلى أبي موسى الأشعري حاكم الكوفة جاء فيه سبب وضع هذه القاعدة: فربما لا يميل الغني إلى الرشوة ولا يتأثر ذو الحسب من الناس في إصداره لحكمه بأي تهديد أو خوف[١].

هذا بالإضافة إلى أنه لم يسمح لأي قاض بالتجارة والبيع والشراء، وهذه هي القواعد التي أتبعت في الدول المتطورة بعد تجارب عهود طويلة.

**المساواة في العدل :**

إن المساواة العامة من أكبر الأمور المرتبطة بالعدل والانصاف، أي أن يكون الجميع سواسية في قاعة العدالة، الملك والشحاذ، الغني والفقير، الشريف والرذيل، وقد اهتم عمر رضي الله عنه بهذا الأمر إلى حد أنه كان يذهب إلى المحكمة كخصم أكثر من مرة حتى يختبر سير الأمور، ويجرب بنفسه القضاة، وذات مرة حدث خلاف بينه وبين أُبيّ بن كعب، فأقام أُبيّ الدعوة على الخليفة عند زيد بن ثابت، وحضر عمر رضي الله عنه كمدعي عليه، فاحترمه زيد وعظمه، فقال عمر رضي الله عنه: هذا أول الجور، قال هذا وذهب وجلس بجوار أُبيّ، فأراد أُبيّ أن يحلف عمر اليمين طبقاً للقاعدة لكن زيداً قضى لرتبته، وطلب من أُبيّ أن يعفي أمير المؤمنين من القسم، فتألم عمر رضي الله عنه كثيراً من هذا التحيز، وخاطب زيد قائلاً: «مادمت لم تساو بين عمر ورجل عادي، فلا يمكن أن تكون جديراً بمنصب القضاء».

فيما يتعلق بالقضاة وإجراءاتهم فإن الأصول التي اختارها عمر رضي الله عنه كانت سبباً في أن يظل القضاة عموماً في عهده، وحتى عهد بني أمية، منزهين عن تهمة الظلم والجور، وقد كتب العلّامة أبو هلال العسكري في

---

(١) أخبار القضاة لمحمد بن خلف الوكيع.

كتاب «الأوائل» أن بلال بن أبي برد، كان أول قاض، عمل خلافاً للعدل في الإسلام، وكان ذلك في عهد بني أمية.

**كفاية عدد القضاة بالنسبة لعدد السكان :**

كان عدد القضاة كافياً بالنسبة لعدد السكان لأن كل مركز كان فيه قاض، ولما كان مسموحاً لأصحاب المذاهب الأخرى أن يفصلوا في قضاياهم بأنفسهم، لهذا قلّ أن تعرض قضاياهم على المحاكم الإسلامية، وعليه فقد كان وجود قاض واحد في كل مركز يكفي على كل حال.

**شهادة الخبراء كلٌ في مجال تخصصه :**

كان من بين الأمور النادرة التي أوجدها عمر رضي الله عنه ـ والتي سيأتي ذكرها عند بيان اجتهاداته ـ فيما يتعلق بإدارة القضاء وخاصة قواعد الشهادة، شهادة الخبراء، كلٌّ في مجال تخصصه، أي أن الأمر الذي له علاقة بعلم أو فن معين، كان يستشار فيه خبير في العلم أو الفن ذاته، فمثلًا أنشد الحطيئة شعراً يهجو فيه الزبرقان بن بذر، وكان لا يبدو فيه الهجاء واضحاً، فرفع الزبرقان الأمر إلى عمر رضي الله عنه، ولأن الأمر كان يتعلق بالشعر وفن الشعر، ولما كانت المصطلحات الشعرية، وأسلوب البيان الشعري يختلف عن لغة الحياة اليومية، لذلك استدعى عمر حسان بن ثابت، وكان شاعراً قديراً وسأله، وأصدر حكمه طبقاً لرأي حسان، وهكذا في حالة الاشتباه في النسب، كان عمر رضي الله عنه يأخذ برأي النسابين، مثلما ورد في باب القذف في كتاب كنز العمال الكثير من مثل هذه القضايا.

ورغم أن عمر رضي الله عنه وضع الكثير من القوانين والقواعد الخاصة بالفصل في الخصومات، إلا أن هذه القوانين والقواعد، كان لها حدود بحيث لا تؤثر على مجريات العدالة وسهولتها وانخفاض تكلفتها، فالأهم عنده هو أن يتم العدل بسهولة ودون تكلفة، واليوم كبلت الدول المتقدمة العدل

والإنصاف بقيود جعلت طالبي العدل يتراجعون عن دعواهم بدلاً من أن يستمروا فيها؛ لأن هذا أسهل من طلب العدل. أما الأصول والقوانين والقواعد التي وضعها عمر رضي الله عنه فكانت بسيطة سهلة لدرجة أن طالب العدل لا يناله أي جهد، ولا تواجهه أي مشكلة في الحصول على حقه وكان عمر رضي الله عنه يراعي هذا الأمر دائماً.

**مكان المحكمة :**

اقتضت المصلحة ألا يكون هناك مبنى خاص للمحكمة، واكتفى بالمسجد؛ لأن التعميم والإذن العام الذي يوجد في مفهوم المسجد، لا يمكن أن يوجد في أي مبنى آخر، ولم تكن هناك صعوبة تذكر في عرض القضايا، ولم يكن هناك حاجز من الحواجز على باب المحكمة، وقد أكد على جميع القضاة أنه حين يكون الخصم في القضية رجل فقير أو مسكين، فعليهم أن يعاملوه برقة وبشاشة، حتى لا يؤثر خوفه على تقديمه لمظلمته.

## هيئة الإفتاء

توجد هيئة ضرورية جداً لها علاقة بالقضاء، أسست في بداية الإسلام، ولا مثيل لها في أي مكان آخر غير الإسلام، فمن الأصول الأساسية للقانون، وجوب افتراضنا أن كل شخص يعرف القانون، فمثلًا لو اقترف شخص جُرماً، فلا يمكن أن يفيده عذره بأنه لم يكن يعرف أن ارتكاب هذا الفعل جريمة يعاقب عليها، وهذه القاعدة مسلم بها في العالم كله، وتؤكد عليها الدول المتقدمة بشدة، ولا شك أن هذه القاعدة صحيحة، لكن العجيب هو أن الأمم الأخرى لم تتخذ أي نوع من التدابير الخاصة بها، ورغم أن التعليم ذاع وانتشر في أوربا لكنه لم يستطع أن يصل ولن يصل إلى درجة أن يصبح كل إنسان عالماً بالقانون، والإنسان الجاهل إذا أراد أن يعرف مسألة من مسائل القانون لن يجد وسيلة لذلك، لكن الأمر يختلف في الإسلام فهناك

هيئة خاصة اسمها هيئة الإفتاء، وكانت طريقتها أن يقيم علماء القانون الأجلاء أي الفقهاء في كل مكان، فكان كل من يرغب في معرفة مسألة ما، يمكنه أن يلجأ إليهم ويستفسر منهم عن مسألته، ولهذا لا يمكن أن يعتذر أحد بعدم معرفته بقضايا القانون، وقد ظهرت هذه الطريقة تلقائياً في بداية الإسلام، ولا تزال قائمة حتى اليوم، إلا أن الالتزام الذي مضت عليه هذه الطريقة في عهد عمر لم يستمر في الأزمنة التالية بل لم يكن الأمر كذلك قبلًا في عهد أبي بكر رضي الله عنه.

**المفتي في عهد عمر رضي الله عنه :**

إن الأمر الأهم لهذه الطريقة هو ألا يكون هناك إذن عام للجميع بالإفتاء بل يُعين الأكفاء الصالحين من الناس للإفتاء حتى لا يقوم كل من هبّ ودبّ بنشر الفتاوى الخاطئة. كان عمر رضي الله عنه يراعي دائماً هذه الخصوصية فقد أذن بالإفتاء لعليّ، وعثمان، ومعاذ بن جبل، وعبدالرحمن بن عوف، وأُبي ابن كعب، وزيد بن ثابت، وأبي هريرة، وأبي الدرداء رضي الله عنهم وغيرهم، ولم يأذن لسواهم من الناس بالإفتاء.

يذكر شاه ولي الله الدهلوي في كتابه «إزالة الخفاء»[١] أن الوعظ والإفتاء في الماضي كان متوقفاً على رأي الخليفة، فلم يكن لأحد الحق في الإفتاء إلا بأمره.

وفي كتب التاريخ أمثلة كثيرة لأولئك الذين لم يسمح لهم بالفتوى، وقد منعهم عمر رضي الله عنه حين أفتوا، مثلما حدث ذات مرة مع عبدالله بن مسعود[٢]. وقد احتاط عمر رضي الله عنه في هذا الأمر لدرجة أنه كان يختبر المفتيين، ويمتحنهم قبل تعيينهم، فقد سأل أبا هريرة مرة بعد مرة، ماذا تقول في هذه المسألة ؟ وعندما يجيبه، يقول له عمر: لو أنك أجبت على هذه

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٣٠ .

(٢) مسند الدارمي، وإزالة الخفاء ص ١٣٠ .

المسألة بطريقة أخرى، لما أذنت لك بالفتوى مستقبلًا .

والأمر الثاني اللازم للإفتاء هو إعلان أسماء المفتيين، فلم يكن هناك في ذلك الوقت جريدة أو صحيفة، لكن لم يكن هناك من وسيلة سوى الإعلان عن هذا في المجالس العامة، وكان عمر يعلن ذلك مراراً، ففي سفره للشام، وعند الجابية ألقى خطبة مشهورة في حشد من الناس، جاء فيها:

«من أراد القرآن فليأت أُبيًّا، ومن أراد أن يسأل الفرائض فيأت زيداً، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذًا».

**الشرطة وقضايا الجنايات :**

لم يؤسس عمر رضي الله عنه أي هيئة مستقلة للبت في القضايا الجنائية، على قدر ما وصلنا إليه من بحث، فقد كانت بعض أنواع القضايا مثل الزنا والسرقة يتم الفصل فيها عند القضاة، أما جميع الإجراءات الخاصة بالجرائم البسيطة، فكانت مرتبطة بالشرطة، وقد أسس هيئة مستقلة للشرطة كانت تسمى في ذلك الوقت الأحداث، وكان يطلق على قادة الشرطة، صاحب الأحداث، وقد عين عمر رضي الله عنه قدامة بن مظعون وأبا هريرة على البحرين.

أسند عمر إلى قدامة مهمة تحصيل الخراج، كما أسند مهمة الشرطة ـ مُصرِّحًا بذلك ـ إلى أبي هريرة، أما الأمور المتعلقة بالاحتساب مثل: منع الغش في الأوزان لدى التجار، وعدم بناء أي شخص لبيت في الشارع، ومنع تحميل الحيوانات بأثقال فوق طاقتها، وعدم بيع الخمر علانية وغيرها، فقد كانت لها إدارة تتولى أمرها، وعين لها مسئولين في كل مكان ومشرفين على هؤلاء المسئولين، لكن ليس من المعروف هل أُسست هيئة مستقلة للاحتساب أم لا ؟! أو أن هذه الخدمات كانت أيضاً من مسئوليات صاحب الأحداث، والرواية التي نقلت عن ابن سعد في كنز العمال تشير إلى أن عمر رضي الله عنه عين عبدالله بن عتبة لمراقبة السوق، وجاء أيضاً أن إيجاد عمر للسجن له صلة بمنصب الاحتساب.

## إيجاد السجن :

يعد بناء السجن من الأشياء التي أوجدها عمر في هذه الإدارة، فلم يكن لدى العرب من قبل فكرة عن السجن، وكان هذا هو السبب في شدة العقوبات. في البداية اشترى عمر رضي الله عنه دار صفوان بن أمية في مكة المكرمة بأربعة آلاف درهم، وجعلها سجناً[١]، ثم بنى السجون في المراكز الأخرى، ويفهم من بيان البلاذري أن سجن الكوفة كان مبنياً من البوص[٢]، وكان المجرمون فقط هم الذين يوضعون في السجن في ذلك الوقت، كما كانوا يرسلون إلى السجون.

بعد بناء السجون تغيرت بعض العقوبات فمثلًا أخذ أبو محجن الثقفي مراراً بتهمة شرب الخمر، فعاقبه عمر في المرة الأخيرة بالسجن بدلاً من إقامة الحد عليه.

## العقاب بالنفي :

كان العقاب بالنفي أيضاً من العقوبات التي أوجدها عمر، وكان عمر قد عاقب أبا محجن الثقفي بعقوبة النفي فأُرسل إلى إحدى الجزر[٣].

---

(١) المقريزي المجلد ٢ ص ١٨٧ .
(٢) فتوح البلدان ص ٤٦٣ .
(٣) أسد الغابة ذكر أبي محجن الثقفي .

# بيت المال أو الخزانة

ظهرت هذه الهيئة أي بيت المال أو الخزانة عن طريق عمر رضي الله عنه، كان آخر مبلغ جُمع أيام الرسول ﷺ هو خراج البحرين، وقدره ثمانمائة ألف درهم، لكن الرسول ﷺ وزع هذا المبلغ في جلسة واحدة، ولم ينشىء أبو بكر رضي الله عنه في عهده بيت مال أو خزانة، فكان رضي الله عنه يقسم مال الغنيمة حالة وصوله، وهكذا كان نصيب كل شخص في السنة الأولى عشرة دراهم، وفي السنة الثانية عشرين درهماً، وهذا ما جاء في كتاب الأوائل، وبرواية ابن سعد، الذي يروي رواية أخرى جاء فيها أن أبا بكر رضي الله عنه جعل أحد البيوت مقراً لبيت المال، لكنه ظل مغلقاً على الدوام، لأن ما كان يأتي إلى دار الخلافة كان يقسم على الفور، ولم يكن هناك ما يدخل بيت المال أو الخزانة، وقد تم حصر مافي بيت المال عند وفاته رضي الله عنه فلم يجدوا إلا درهماً واحداً.

**تأسيس بيت المال :**

في حوالي سنة ١٥ هجرية عين عمر رضي الله عنه أبا هريرة رضي الله عنه عاملاً على البحرين، فأحضر معه خراج السنة كلها الذي بلغ خمسمائة ألف، فعقد عمر مجلس الشورى وقال: لقد وصلنا مال كثير من البحرين فماذا ترون ؟ فرأى علي رضي الله عنه أن يقسم المبلغ الذي يصل كل سنة في السنة نفسها، ولا يوضع في بيت المال، بينما خالف عثمان رضي الله عنه رأي عليّ، وقال الوليد بن هشام: لقد رأيت عند ملوك الشام هيئتين منفصلتين لإدارة الخزانة وإدارة الشئون الأخرى.

ولو جرى هذا الحديث في زماننا لتجنب المسئولون ذكر أصحاب المذاهب الأخرى، لكن عمر استحسن هذا الرأي، فوضع حجر الأساس لبيت المال، فأسس خزانة ضخمة في أول عاصمة للدولة الإسلامية أي في المدينة المنورة،

وكانت هناك ضرورة ماسة إلى رجل على درجة كبيرة من الكفاءة والأمانة يتولى الإشراف عليها ومراجعة حساباتها.

**مسئول بيت المال :**

وهكذا عين عبدالله بن الأرقم على بيت المال، وكان صحابيا جليلًا، على قدر عظيم من التعليم، وعين له مساعدين أكفاء من بينهم عبدالرحمن بن عبيد القاري، ومعيقب[1]، وكان الأخير قد نال شرف حمل خاتم الرسول ﷺ، ولهذا كانت أمانته وتدينه من الأمور الثابتة التي يعترف بها الجميع.

بالإضافة إلى بيت المال الذي أقامه عمر رضي الله عنه في بيت الخلافة، فقد أقام بيت مال في جميع الأقاليم والمدن الكبرى، ومع أن الحكام الكبار في هذه الأقاليم كانوا يتمتعون بكافة أنواع السلطة، إلا أن هيئة بيت المال كانت مستقلة تماماً، وكان مسئول بيت المال له صلاحياته المستقلة، ففي الكوفة كان عبدالله بن مسعود، وفي أصفهان خالد بن حرث، هما المسئولان عن بيت المال.

**مباني بيت المال :**

مع أن عمر رضي الله عنه كان في غاية الاقتصاد فيما يتعلق بالإنفاق على المباني، إلا أنه أمر ببناء مبانٍ قوية وفخمة لبيت المال، فأسس في البداية قصراً لبيت المال في الكوفة، أشرف على بنائه روزابه المعماري المجوسي الشهير، وقد جلبت مواد البناء المستخدمة لهذا القصر من خسروان فارس، ولكن حين سرق هذا القصر عن طريق نقب في جداره، كتب عمر رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص، ليصل مابين عمارة المسجد وبيت المال، لأن المسجد يظل عامراً على الدوام بسبب المصلين، واجتماع الناس فيه كل وقت، وهكذا قام روزابه بتوسيع مبنى بيت المال بناءً على أمر سعد بن أبي

---

(١) انظر ذكر معيقب في كتب الرجال.

وقاص حتى وصله بالمسجد، وهكذا اطمأنوا عليه من السرقة وغيرها[١] .

ومن المعروف أنه في العصور التالية، كان الجنود يتولون حراسة الخزانة، زيادة في الاحتياط، وكتب البلاذري أنه عندما خرج طلحة والزبير على علي رضي الله عنه، وقدما إلى البصرة، وأرادا أن يستوليا على الخزانة، وجدا عندها أربعين جندياً من السيابجة، معينين على حراسة الخزانة، فمنعوا طلحة والزبير عن تحقيق مأربهم، وقد صرح المؤرخ سابق الذكر أن السيابجة هم أسارى السند الذين انضموا إلى جيش الفرس، وقد أسلم هؤلاء حين فُتحت إيران في عهد عمر رضي الله عنه، فأسكنهم أبو موسى البصرة[٢] .

وكان النظام المتبع في خزائن الأقاليم والمراكز أن يحتفظ فيها بقدر من المال يكفي لجميع أنواع المصروفات، وقد ترسل الأموال المتبقية في نهاية السنة إلى الخزانة الرئيسية أي بيت المال في المدينة المنورة. وكانت أحكام عمر ترسل إلى العمال باستمرار للتأكيد على هذا الأمر[٣]، ومن الصعب التعرف على المبالغ المالية التي كانت تحفظ في خزائن كل منطقة وإقليم.

## المبلغ المتبقي في خزانة دار الخلافة :

مانعرفه من بيان المؤرخ اليعقوبي هو أن الرواتب والمنح وغيرهما، الخاصة بسكان دار الخلافة، مما يخص خزانة دار الخلافة، كانت ثلاثمائة مليون سنوياً، وكان عمر رضي الله عنه يولي حراسة خزانة دار الخلافة اهتماماً كبيراً، تحدثت عنه كتب التاريخ ضمن وقائعها الشيقة وسوف نتغاضى عن ذكر تفاصيلها.

---

(١) كل هذه التفاصيل في الطبري في ذكر تعمير الكوفة .

(٢) فتوح البلدان ص ٣٧٣-٣٧٦ .

(٣) ورد في الأمر الذي كتبه عمر رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص مايلي: «فإذا حصل إليك وجمعته أخرجت عطاء المسلمين، وما يحتاج إليه مما لا بد منه، ثم انظر فيما فضل بعد ذلك فاحمله إليّ». كنز العمال نقلاً عن ابن سعد مجلد ٣ ص٦٣ .

## الأشغال العامة أو «النظارات النافعة»

هذه الإدارة إدارة مستقلة في عصرنا الحاضر، ولهذا السبب ليس لها مصطلح خاص في اللغة العربية، وترجمتها في مصر والشام «نظارات نافعة» أي إدارات المنافع العامة، ويدخل في نطاق اهتماماتها ما يلي :

المباني الحكومية، الأنهار والجسور، والشوارع والمستشفيات، ولم يكن لها إدارة مستقلة في زمان عمر، وكانت هذه الأشياء كلها المتعلقة بالإدارة موجودة عدا المستشفيات، وكانت منظمة تنظيماً دقيقاً وعلى مستوى عالٍ، وقد أجرى عمر أنهاراً عديدة سوف نتحدث عنها باختصار عند ذكر إدارة المحاصيل، ونذكر هنا الأنهار التي لا تخص إدارة الزراعة.

**الأنهار التي أجراها عمر :**

*** نهر أبي موسى .**

كان طول هذا النهر تسعة أميال، وتاريخ شق هذا النهر يرجع إلى قدوم وفد من أهل البصرة إلى عمر ذات يوم، فراح عمر رضي الله عنه كعادته يسألهم واحداً واحداً عن الأحوال، وكان من بينهم حنيف بن قيس، فألقى خطاباً مؤثراً، ورد نصه الكامل في كتب التاريخ، واشتكى من أن البصرة كلها أرض مالحة، مما يضطرهم لجلب الماء من مسافة ستة أميال، فأرسل عمر رضي الله عنه رسالة إلى أبي موسى الأشعري تضمنت حكماً بأن يحفر نهراً لأهل البصرة، وهكذا شق نهر من دجلة بطول تسعة أميال في البصرة، وبسببه توفر الماء بكثرة في كل بيت من بيوتها.

*** نهر معقل .**

نهر معقل نهر مشهور، وينسب إليه المثل العربي الشهير «إذا جاء نهر الله بَطَل نهر مِعقل»، وقد شق هذا النهر أيضاً من دجلة، وقد اشتهر النهر باسم

معقل لأن الصحابي الجليل معقل بن يسار هو الذي تولى مهمة حفر هذا النهر .

*** نهر سعد .**

كان أهلٍ الأنبار قد طلبوا من إمبراطور فارس شق هذا النهر، ولما جاء الإسلام صرح أهل الأنبار برغبتهم هذه إلى سعد بن أبي وقاص (والي الكوفة)، فأسند سعد بن أبي وقاص إلى سعد بن عمر هذه المهمة، فأدّاها سعد بن عمر باهتمام كبير، وبعد أن شقوا النهر لمسافة كبيرة اعترضهم جبل، فتوقف العمل عند هذا المكان حتى قام الحجاج في زمانه بقطع الجبل، واستكمال مجرى النهر، ولكنّه اشتهر باسم سعد.

*** نهر أمير المؤمنين .**

كان أكبرِ الأنهار وأعظمها فائدة ذلك النهر الذي شُق بأمر خاص من عمر رضي الله عنه، واشتهر باسم «نهر أمير المؤمنين»، ووصل مابين نهر النيل والبحر الأحمر (بحر القلزم) وحكايته باختصار أنه عندما أصاب القحط جميع الجزيرة العربية سنة ١٨هـ، كتب عمر إلى حكام الولايات جميعاً أن يرسلوا الغلة والحبوب بكثرة من كل مكان، ومع أن هذا الحكم قد نُفذ على الفور، إلا أن الطريق البري لمصر والشام، كان طويلًا جداً، ولهذا تأخر إرسال الحبوب والغلال، وفكر عمر رضي الله عنه في هذه المشاكل وكتب إلى عمرو ابن العاص (والي مصر) يطلب منه الحضور مع جماعة من أهل مصر إلى دار الخلافة، وحين وصل عمرو بن العاص إلى دار الخلافة قال له عمر رضي الله عنه، لو تم إيصال نهر النيل بالبحر فلن يكون هناك أي خوف مطلقاً من خطر القحط والغلاء في الجزيرة العربية، إذ أن مجيء الحبوب والغلال عن طريق البر لا يخلو من المشاكل، وعاد عمرو بن العاص، وبدأ العمل، وشق نهراً يصل من الفسطاط (يبعد عن القاهرة عشرة أو اثنا عشر ميلا) إلى البحر الأحمر (بحر القلزم) وبهذا الطريق كانت السفن تمضي من نهر النيل، وتدخل في بحر القلزم ثم تصل إلى جدة وترسو هناك، وكانت جدة هي ميناء المدينة

المنورة، كان طول النهر ٦٩ ميلًا تقريباً، ومن العجيب أنه شق في غضون ستة أشهر فقط، وهكذا وصلت في السنة الأولى عشرون سفينة كبيرة إلى المدينة المنورة عن طريق جدة، واستمر هذا النهر زمناً طويلًا ازدهرت بسببه تجارة مصر ازدهاراً سريعاً، وبعد عهد عمر بن عبدالعزيز تخرب النهر في مواضع كثيرة نظراً لإهمال العمّال حتى انسد تماماً عند منطقة «ذنب التمساح» وفي سنة ١٠٥هـ أغلقه المنصور العباسي لمصلحة ذاتية، لكنه جرى فيما بعد واستمر جريانه لفترة طويلة[١] .

ومن العجيب والغريب أن عمرو بن العاص كان يريد أن يصل ما بين البحر الأحمر وبحر الروم (الأبيض المتوسط) واقترح المكان الذي سيشق فيه النهر حيث «الفرما» حين تكون المسافة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض سبعين ميلًا فقط، ولكن حين علم عمر رضي الله عنه بنيته هذه، أبدى عدم رضاه عن ذلك، وكتب له بأنه لو حدث هذا فإن السفن اليونانية سوف تدخل، وتغير على سفن الحُجاج[٢]، ولو سمح لعمرو بن العاص بشق هذا الممر لكان شرف إيجاد قناة السويس حقيقة من نصيب العرب.

**المباني التي أقامها عمر رضي الله عنه :**

المباني التي أقامها عمر رضي الله عنه ثلاثة أنواع :

(١) **المباني الدينية**: مثل المساجد وغيرها وسيأتي تفصيل الحديث عنها في الإدارة الدينية، ويكفي أن نذكر أنه أمر ببناء أربعة آلاف مسجد كما يقول صاحب روضة الأحباب.

(٢) **المباني العسكرية**: مثل القلاع والمعسكرات ومساكن الجند وسيأتي ذكرها أثناء الحديث عن النظام العسكري.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في حسن المحاضرة للسيوطي ص ٩٣، ٩٤ وخطط المقريزي المجلد الأول ص ٧١ والمجلد الثاني ص ١٣٩ـ١٤٤ .

(٢) تقويم البلدان، لأبي الفداء ص ١٠٦ .

(٣) المباني المدنية: مثل دار الإمارة وغيرها، وتفاصيل هذا القسم غير معروفة ويمكن تقسيمها كما يلي:

١ـ دار الإمارة: وهي الأماكن التي يقيم فيها حكام المحافظات والمراكز، وتوجد فيها دواوينهم وقد كتب البلاذري والطبري عن دار إمارة الكوفة والبصرة بشيء من التفصيل.

٢ـ الديوان: وهو المكان الذي كانت تحفظ فيه أوراق الديوان، كما كانت تحفظ فيه أيضاً سجلات الجيش.

٣ـ الخزانة: أي بيت المال وكان هذا المبنى قوياً محكماً، وقد ذكرنا بيت مال الكوفة عند الحديث عن بيت المال.

٤ـ السجن: وقد ذكرنا أحوال سجن المدينة المنورة عند بيان إدارة الشرطة، أما السجن الذي وجد في البصرة فكان ملحقاً بمباني دار الإمارة[١].

٥ـ بيوت الضيافة: وهي البيوت التي بنيت للوافدين الذين يأتون للمدينة لبضعة أيام، فكانوا يُستضافون في هذه البيوت، وقد كتب العلامة البلاذري عن بيت الضيافة الذي بني في الكوفة مايلي:

«أمر (عمر رضي الله عنه) أن يتخذ لمن يُرد من الآفاق داراً فكانوا ينزلونها»[٢].

وقد بني بيت الضيافة في المدينة المنورة سنة ١٧هـ كما ذكر ابن حبان في «كتاب الثقات».

وبهذه المناسبة يجب أن نشير إلى أنه لا يجب أن يظن أحد أن هذه المباني كانت في غاية الفخامة، فالإسلام لا يبيح الإسراف، وما حدث من إسراف

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٤٧.

(٢) فتوح البلدان ص ٢٧٨.

وبذخ كان في العصور التالية، فالإسلام في الفترة التي نتحدث عنها كان على بساطته الشديدة وحالته الأولى، وكان عمر رضي الله عنه حريصاً جداً على الحفاظ على هذه البساطة، هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن للحاكم آنذاك أي سلطات مستقلة على بيت المال، الذي كان يعتبر ثروة الأمة كلها، وكان الناس يرون أن مجال إنفاقها هو فيما يخدم الناس وليس في بناء البيوت. وظلت هذه الفكرة عامة لفترة طويلة، وكان من نتيجتها أن انتشر السخط العام حين أنفق الوليد بن عبدالملك مبلغاً كبيراً على بناء المسجد الجامع في دمشق، وقال الناس علانية ليس هذا مجال إنفاق دراهم بيت المال. وعلى كل حال كانت المباني في عهد عمر تقام بالطوب اللبن والطين، فكان إيوان حكومة البصرة على هذه الشاكلة[(١)]، ولا شك أن المباني العسكرية كانت قوية ومحصنة.

## نظام الطرق والجسور :

بالرغم من أن نظام الطرق والجسور كان على مستوى عالٍ إلا أن هذا لم يكن تحت إشراف الحكومة المباشر، فقد كانت المعاهدة التي تعقد مع الأمم المفتوحة تتضمن أيضاً شرطاً بأن يقوم هؤلاء بإقامة الطرق والجسور تحت إشرافهم وعلى نفقتهم، وحين فتح أبو عبيدة رضي الله عنه الشام تضمنت شروط الصلح هذا الأمر أيضاً[(٢)] .

## المخافر والخانات بين مكة والمدينة :

مع أن مكة المكرمة كانت منذ زمن بعيد قبلة للخلائق إلا أن الطرق إليها

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٤٧ .

(٢) في كتاب الخراج ص ٨٠ «وعلى أن عليهم إرشاد الضال، وبناء القناطر على الأنهار من أموالهم» ـ وقد ذكر الطبري الطرق والجسور في أحداث عام ١٦هـ ص ٢٤٧٠ .

كانت مقفرة بلا ماء، وحين ذهب عمر رضي الله عنه سنة ١٧هـ إلى مكة المكرمة، شيدت بأمره المخافر والخانات، وحفرت الآبار في كل منزل من المدينة المنورة حتى مكة المكرمة.

ويكتب شاه ولي الله الدهلوي في إزالة الخفاء: «ومن بين تلك الأمور أنه حين قصد مكة المكرمة للعمرة ذات سنة، أمر عند عودته أن تقام المظلات والأبنية في المنازل مابين الحرمين، وأمر أن تطهر جميع الآبار ويتم تنظيفها، وأن تحفر آبار جديدة في المنازل التي تقل فيها مياه آبارها، حتى يتيسر للحجاج طي جميع مراحل السفر في راحة تامة».

## تعمير المدن

إن كل مدينة بُنيت في عهد عمر رضي الله عنه بُنيت لظروف خاصة بها، ويمكن القول بأنها صفحة من تاريخ الإسلام نظراً لما تتمتع به كل مدينة من خصائص معينة، ومن بين هذه المدن البصرة والكوفة اللتان ظلتا لفترة مَعلماً من معالم الآثار الإسلامية وفيهما وضع أساس النحو العربي، فمدرسة النحو الأصلية هي تلك المدينتين، كما أن أساس الفقه الحنفي الذي يروج اليوم في جميع أنحاء الدنيا، وضع في الكوفة، ولهذه الأسباب لن نخرج عن موضوعنا إذا فصلنا الحديث عن أحوال تأسيس هذه المدن وعمارتها.

**مدينة البصرة :**

كتبنا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن عمر رضي الله عنه كلّف في سنة ١٤هـ عتبة بن غزوان ليبني مدينة قريبة من ميناء أبلة حيث كانت ترسو سفن فارس والهند القادمة من خليج بحر فارس، وكان الهدف هو حماية البلاد من الحملات البحرية لفارس والهند، وحدد عمر بنفسه لعتبة بن غزوان مكان المدينة وموقعها، فسار عتبة بثمانمائة رجل، ووصلوا إلى خريبة حيث مدينة البصرة الحالية. كان المكان منطقة قفرة تملؤها الحجارة والحصى، ولم يكن يحيط بها ماء أو كلأ، فكانت مناسبة لطبيعة أهل الجزيرة العربية، والخلاصة

أن عتبة وضع أساس المدينة، وأقام لكل قبيلة سوراً يحيط بمنطقة خاصة بها، وبنى بيوتاً بسيطة من القش والبوص، وكلّف عاصم بن دلف حتى ينزل كل قبيلة في المكان الذي يناسبها، ومن المباني الحكومية التي أسسها المسجد الجامع، ومبنى إيوان الحكومة الملحق به السجن والديوان، وكان هذا المبنى متميزاً عن غيره، وفي سنة ١٧هـ شبت النيران وأتت على الكثير من البيوت، فأرسل سعد بن أبي وقاص حاكم الكوفة آنذاك إلى عمر يطلب منه الإذن لبناء مبان صلبة، فوافق عمر ولكنه أكد على ألا يبني أي شخص في البيت الواحد أكثر من ثلاث حجرات.

تقع مدينة البصرة[1] على مسافة عشرة أميال من نهر دجلة، ولهذا أمر عمر رضي الله عنه بشق نهر من دجلة إلى البصرة، وقد سبقت الإشارة إلى هذا النهر ضمن الحديث عن الأشغال العامة، وتطور عمران البصرة بسرعة كبيرة حتى كان عدد الناس في أيام حكم زياد بن أبي سفيان، ممن دونت أسماؤهم في السجلات العسكرية، حوالي ثمانين ألف أما أولادهم فبلغ عددهم مائة وعشرين ألفاً.

وكانت تربة هذه المدينة مناسبة للعلم والثقافة ويمكن تقدير ذلك إذا عرفنا أن أساس العلوم العربية قد وضع فيها، وكتب في هذه المدينة أول كتاب في علم اللغة العربية، في الدنيا كلها، وهو كتاب العين، الذي ألفه الخليل

---

(١) يذكر علماء اللغة في العموم أن سبب تسمية البصرة بهذا الاسم هو أن البصرة تطلق في اللغة على الأرض الحجرية الرخوة. فكانت هذه الصفة تنطبق على المكان الذي أُسست فيه المدينة، وقد جاء في معجم البلدان قول عن أحد علماء المجوس وهو أقرب إلى القياس، وهو يرى أن هذه الكلمة كانت في الأصل بس راه وتعني بالفارسية الطرق المتفرعة الكثيرة، لأن طرقاً كثيرة كانت تتفرع من هذا المكان لكل اتجاه، ولهذا أطلق عليها العجم هذا الاسم، والدليل على هذا أن ملوك العرب المحيطين بالمنطقة أسسوا بالقرب منها مبان لها أسماء فارسية الأصل مثل: خورنق وأصلها خورنكاه، وسدير في الأصل سه در.

البصري، ومن هذه المدينة أيضاً كانت بداية علم العروض العربي، والموسيقى وكان سيبويه أول مؤلف في النحو ممن درسوا في هذه المدينة، كما ولد على ترابها الحسن البصري وهو من الأئمة المجتهدين.

**الكوفة :**

كانت الكوفة المدينة الثانية أكثر شهرة من البصرة، حين فتحت المدائن وغيرها، كتب سعد بن أبي وقاص رسالة إلى عمر رضي الله عنه جاء فيها أن إقامة العرب في هذه البلاد، غيرت من حالتهم، شكلًا وموضوعًا، ويجب البحث عن مكان يكون مناسباً من الناحية البرية والبحرية، وهكذا اختار سلمان وحذيفة، اللذان كانا مكلفين بمثل هذه الأمور، أرض الكوفة وكانت الأرض هناك رملية حجرية، ولهذا أُطلق عليها الكوفة، وكان هذا المكان مقر عاصمة قبيلة النعمان بن المنذر التي كانت تحكم العراق العربي، وكانت مبانيهم الشهيرة الخورنق وسدير وغيرها تقع حولها، كان المنظر بديعًا وكان نهر الفرات يبعد عنها مسافة ميل ونصف أو ميلين، وكان أهل الجزيرة العربية يطلقون على هذا المكان اسم «خدّ العذراء»؛ لأنها كانت حديقة تضم الأنواع الطيبة من الزهور العربية المختلفة مثل: الأقحوان، وشقائق النعمان، والقيصوم، والخزامي.

**والخلاصة** أن أساس المدينة وضع سنة ١٧هـ؛ وكما أوضح عمر في رسالته بنيت بيوت لإسكان أربعين ألف رجل، وبفضل هياج بن مالك واهتمامه سكنت القبائل العربية المختلفة في أحياء متفرقة، وكان أمر عمر رضي الله عنه الذي جاء في خطابه عن وضع المدينة، وكيفية تخطيطها، يقضي بأن تكون الشوارع العامة ٤٠×٤٠ ذراعاً ثم يتفرع منها شوارع أخرى تكون ٣٠×٣٠ ذراعاً ثم شوارع أخرى تكون ٢٠×٢٠ ذراعاً، أما الحواري فيجب أن تكون باتساع ٧×٧ أذرع وبُني المسجد الجامع على ربوة عالية تتسع لأربعين ألف رجل، وتركت من حوله مساحة خالية واسعة على جميع

الأطراف الأربعة.

كانت المباني تشيد في البداية من القش والبوص، ولكن حين حدثت واقعة اندلاع النار (في البصرة) سمح عمر رضي الله عنه بأن تبنى البيوت من الطوب اللبن والطين، وبنيت مظلة واسعة أمام المسجد الجامع كان طولها مائتي ذراع، أقيمت على أعمدة من الرخام، أُحضرت بعد خلعها من مباني كسرى أنوشيروان، ويجب أن نذكر هنا بأنه رغم عدم وجود وارث لمباني كسرى أنوشيروان، وطبقاً لأصول الحكم، إذا كان لها من وارث، فالوارث هو الخليفة، لكن عدل عمر وإنصافه جعلاه يدفع قيمة هذه الأعمدة للرعايا المجوس، فخصمت القيمة التقديرية لهذه الأعمدة من جزيتهم.

وعلى مسافة مائتي ذراع من المسجد بني إيوان الحكومة والذي شمل أيضاً بيت المال أي الخزانة، وبنى بيت للضيافة ليقيم فيه المسافرون القادمون من الخارج، ويتناولوا طعامهم على حساب بيت المال.

بعد عدة أيام حدثت سرقة في بيت المال، وكانت الأخبار تصل إلى عمر بتمامها فكتب إلى سعد، وطلب منه أن يلحق إيوان الحكومة بالمسجد، وهكذا قام روزبه وهو معماري مجوسي، وكان خبيراً مشهوراً في فنه، ومكلفاً بأعمال الإنشاءات، بتوسيع مبنى إيوان الحكومة بطريقة جميلة ومناسبة حتى وصله بالمسجد، وأرسل سعد روزبه مع العمال الآخرين إلى دار الخلافة مكافأة لهم على عملهم، فأكرمهم عمر رضي الله عنه وعين لهم أجراً دائماً، وبنيت مساجد متفرقة لكل قبيلة، علاوة على المسجد الجامع ومن القبائل التي قطنت المدينة قبيلة يمنية ضمّت اثنا عشر ألف رجل، وقبيلة نزار وضمت ثمانية آلاف رجل، وهذه هي أسماء القبائل التي سكنت المدينة: سليم، وثقيف، وهمدان، وبجيلة، وتيم اللات، وتغلب، وبنو أسد، ونخع، وكندة، والأزد، ومزينة، وتميم، ومحارب، وأسد، وعامر، وبجالة، وجديلة، وأخلاط، وجهينة، ومدحج، وهوازن وغيرها.

وقد وصلت المدينة إلى أوج عظمتها في عهد عمر رضي الله عنه حتى أطلق عليها عمر رأس الإسلام، والحقيقة أنها صارت المركز الأساسي لقوة العرب، وقد زاد عدد سكانها باستمرار في الأزمنة التالية، لكن ظلت لها خصوصيتها التي ميزتها، وهي أن سكانها كانوا عموماً من العرب، وعندما تم إحصاء السكان سنة ٦٤هـ كان بها خمسون ألف بيت تخص قبيلة ربيعة ومضر، وأربعة وعشرون ألف بيت تخص القبائل الأخرى فضلاً عن ستة آلاف بيت لأهل اليمن.

ومع أن التغيرات والتطورات اللاحقة لم تحفظ الآثار القديمة على حالها، ولكن ما يثير العجب هو بقاء بعض آثار هذه المباني لزمن طويل، فابن بطوطة الذي رأى هذا المكان الطاهر في القرن الثامن الهجري يكتب في رحلته أن إيوان الحكومة الذي بناه سعد بن أبي وقاص لا يزال أساسه قائماً حتى اليوم.

وعن المكانة العلمية لهذه المدينة فيمكن القول بأنها كانت مولد علم النحو، فكان أبو الأسود الدؤلي أول من وضع قواعد النحو بها، كما وُضع أساس الفقه الحنفي فيها، فمجلس الفقه الذي كان يقيمه أبو حنيفة بالاشتراك مع القاضي أبي يوسف وغيره كان يعقد في هذه المدينة، ومن بين كبار أئمة الحديث والفقه والعلوم العربية نذكر إبراهيم النخعي، وحماد، والإمام أبا حنيفة، والإمام الشعبي[1].

**الفسطاط:**

عندما فتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية، رحل عنها اليونانيون الذين كانوا يقيمون فيها بكثرة، ولما رأى عمرو بن العاص بيوتهم الخالية أراد أن يجعل من الإسكندرية مقراً للحكومة، وهكذا أرسل يستأذن دار الخلافة، وكان عمر رضي الله عنه يخشى كثيراً الموانع المائية حتى إنه كان قد كتب إلى

---

(١) تفاصيل الكوفة والبصرة مأخوذة من الطبري والبلاذري ومعجم البلدان.

المسئولين أثناء بناء البصرة والكوفة، ألا يكون هناك أي مانع مائي، مابين المنطقة التي سيتم تعميرها، وبين المدينة المنورة، ولما كان نهر النيل يقع في الطريق إلى الإسكندرية لهذا لم يفضل عمر رضي الله عنه أن تكون مقرًا للحكومة.

ترك عمرو بن العاص الإسكندرية وقدم إلى قصر الشمع حيث كانت خيمته على حالتها كما تركها عندما هاجم الإسكندرية، وهكذا نزل في الخيمة، ووضع أساس مدينة جديدة، فجعل لكل قبيلة سوراً منفصلاً، وكلّف معاوية ابن خديج، وشريك بن سهمي، وعمرو بن محرم، وحويل بن ناشرة لإسكان القبائل في الأماكن التي يرونها مناسبة لهم، وقد أورد المقريزي في كتابه، الأحياء التي كانت موجودة آنذاك، وأسماء القبائل التي سكنتها بالتفصيل. وأسس المسجد الجامع باهتمام خاص، وطبقاً للرواية الشائعة فإن ثمانين صحابياً اجتمعوا وحددوا اتجاه القبلة، ومن بين هؤلاء الصحابة: الزبير، والمقداد، وعبادة، وأبو الدرداء، وشارك معهم عدد من كبار الصحابة، وبلغت مساحة المسجد خمسين ذراعًا طولاً، وثلاثين ذراعًا عرضاً، وجعلت له أبواب في ثلاث جهات، أحدها في مواجهة دار الحكومة، وكانت المسافة بين المسجد والمباني سبعة أمتار تقريباً.

وكان عمرو بن العاص قد بنى بيتًا خاصًا لعمر رضي الله عنه، ولكن حين كتب إليه عمر قائلًا: ومالي وهذا؟ أقاموا مكانه سوقًا، ولما كان بناء هذه المدينة في الأصل قد بدأ بخيمة، لهذا أطلق عليها اسم الفسطاط، ويعني بالعربية «الخيمة» وكان تعمير الفسطاط في سنة ٢١ هجرية.

**اتساع الفسطاط :**

تطورت مدينة الفسطاط تطوراً عظيماً، وصارت عاصمة لمصر بدلاً من الإسكندرية، وقد سُجّل في عهد الأمير معاوية بالدواوين أربعين ألف اسم من أهالي الجزيرة العربية، ويذكر المؤرخ «قضائي» أنه كان بها في وقت ما ألف وثلاثمائة وستون مسجداً وثمانية آلاف طريق وشارع وألف ومائة وسبعون

حَمَّاماً، وكتب المقريزي عدة صفحات مفصلة عن اتساع المدينة ووفرة متاعها، وقد ظلت هذه المدينة عاصمة لسلاطين مصر زمناً طويلًا، ومركزًا للحضارة والرقي، وقد كتب العلامة البشاري الذي ارتحل إلى بلدان الدنيا في القرن الرابع الهجري في كتابه أحسن التقاسيم أن هذه المدينة:

«ناسخة بغداد، مفخرة الإسلام، خزانة المغرب، ليس في الإسلام أكبر مجالس من جامعه، ولا أحسن تجملًا من أهله، ولا أكثر مراكب من ساحله».

**الموصل :**

كانت موجودة قبل الإسلام، لكنها كانت عبارة عن قلعة تحيط بها بعض معابد النصارى، وفي عهد عمر رضي الله عنه تم تعمير المكان حتى صار مدينة، وقد وضع أساسها هرثمة بن عرفجة، وأسكن بعض قبائل العرب في عدد من أحيائها، وبنى فيها مسجداً جامعاً معتبراً[1]، وتحتل هذه المدينة مكانة خاصة للدولة إذ هي ملتقى حدود الشرق والغرب، وربما سميت الموصل لهذا السبب. وكتب ياقوت الحموي: «من المعروف أن مدن العالم الكبيرة ثلاث: نيسابور وهي بوابة الشرق، ودمشق وهي بوابة الغرب، والموصل معبر الشرق والغرب، فلو أراد إنسان الذهاب إلى أي ناحية فلا بد أن يمر من هنا».

وتطورت هذه المدينة بالتدريج تطوراً عظيماً، ويمكن أن نطلع على أحوال تطورها واتساعها في معجم البلدان، وأحسن التقاسيم للبشاري.

**الجيزة :**

الجيزة مدينة صغيرة تقع على الجانب الغربي لنهر النيل قبالة الفسطاط، حين رجع عمرو بن العاص بعد فتح الإسكندرية إلى الفسطاط، عين جماعة

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٣١ـ٣٣٢ .

صغيرة من الجند في هذا المكان، حتى لا يهجم الروم على جيش المسلمين من ناحية النهر، وكانت هذه الجماعة تضم أناساً من قبيلة حمير، وأزد، وهمدان، وبعد بناء الفسطاط أراد عمرو بن العاص أن يستدعيهم، لكنهم أنسوا منظر النهر، حتى رغبوا عن ترك هذا المكان، وقدموا حجة مفادها أنهم جاءوا للجهاد، ولا يمكن أن يتركوا هذا الهدف المقدس ويذهبوا إلى مكان آخر، وحين أطلع عمرو بن العاص الخليفة على هذه التطورات، أذن لهم الخليفة بالبقاء لمصلحة ما، مع أنه كان يقلق حتى من سماع اسم النهر، وأرسل أمراً ببناء قلعة لحمايتهم، وهكذا وضع أساس القلعة سنة ٢١هـ، وتم بناؤها سنة ٢٢هـ.

ويجب أن نذكر هنا أنهم حين بدأوا بناء القلعة، قالت قبيلة همدان: لا نريد أن نقيم في داخل أسوار القلعة كالجبناء، إن سيوفنا هي قلعتنا، وهكذا خرجت هذه القبيلة ومعها بعض القبائل الأخرى من القلعة، وضربوا خيامهم في ميدان واسع، وظلوا يقيمون هناك، وبفضل عمر رضي الله عنه لم تخل هذه القرية الصغيرة من المكانة العلمية، فقد ولد هنا كبار المحدثين، ورد ذكر أسماء بعضهم في معجم البلدان[١].

---

(١) فصّل المقريزي الحديث عن الجيزة.

# إدارة الجيش

مع أن الإمبراطوريات الكبيرة في العالم كانت قد تدهورت قبل الإسلام، وبقيت آثارها في العهد الإسلامي إلا أن النظام العسكري في أي منها كان غير منظم ويتعارض مع المبادىء السياسية.

**النظام العسكري في الإمبراطورية الرومانية :**

في عهد روما الكبرى التي بسطت سلطانها في وقت من الأوقات على العالم كله كان نظام الجيش فيها يقوم على منح الرجال البارزين في البلاد ممن عرفوا بالخبرة والمهارة في الجندية والقيادة، إقطاعيات كبيرة، ويؤخذ عليهم عهداً بأن يقوموا بإحضار عدد من القوات للمشاركة في العمليات العسكرية، وكان مثل هؤلاء الناس منتشرين في عموم البلاد، ويحتفظون بأعداد خاصة من الجنود، الذين لم يكن لهم علاقة مباشرة بالدولة، ولهذا السبب إذا قام هؤلاء الناس أحياناً بالعصيان وقف هؤلاء الجند معهم وحاربوا الدولة، وكانت هذه الطريقة تدعى «النظام الإقطاعي» Feudal System ويطلق على القائد العسكري اسم «بيرون»، وقد راجت هذه الطريقة حتى إن جماعة البيرون كانت تحتفظ بدورها بإقطاعيات خاصة بها، ومناطق واسعة أيضاً ومستقلة، ومن هنا نشأت سلسلة متصلة من الطبقات ـ داخل الدولة ـ.

**النظام العسكري في فارس :**

كان في إيران نظام شبيه بالنظام السابق إلى حد كبير، فمن أطلق عليهم في فارس اسم مرزبان ودهقان كانوا مثل الإقطاعيين والمزارعين مالكي الأراضي، وكان هذا النظام قد قضى على إمبراطورية الروم، ومن المسلم به اليوم أنه كان بشكل عام من أسوأ الأنظمة.

## النظام العسكري في فرنسا :

لم يكن الجيش في فرنسا حتى سنة ٥١١م يحصل على راتب شهري أو أجر يومي، وكان مايناله من نهب وسلب، يقسم على الجند بالاقتراع، ثم حدث تطور بسيط فيما بعد، فاتُّبع النظام الإقطاعي المعروف لدى الرومان، واستمر الأمر على ماهو عليه بعد الإسلام وحتى سنة ٧٥١م .

وفي جزيرة العرب لم يكن هناك إدارة للنظام العسكري لدى ملوك اليمن وغيرهم، ولم يشعر أهل الجزيرة العربية بحاجتهم إلى ذلك حتى بداية الإسلام. وفي زمان أبي بكر رضي الله عنه طرأ تغيير بسيط إلى حد أن ما تبقى من الغنيمة في السنة الأولى للخلافة، قسم على جميع الناس بواقع عشرة دراهم للفرد، وعندما زاد الدخل في السنة الثانية، وصل المبلغ الموزع على الناس إلى عشرين، ولكن لم يحدد راتب للجيش، ولم يتم تسجيل أفراد الجيش، كما لم تؤسس إدارة للجيش، واستمر هذا الوضع حتى أوائل خلافة عمر رضي الله عنه، وفي سنة ١٥هـ قام عمر بتنظيم هذه الإدارة، ووضع لها أسساً تثير العجب، إذا ما قورنت بما كان عليه النظام العسكري في البلدان الأخرى.

## النظام العسكري في عهد عمر :

اتضحت الأسباب المختلفة لاهتمام عمر رضي الله عنه بهذا الجانب، فالرواية الشائعة هي أن أبا هريرة رضي الله عنه الذي عُيّن حاكماً على البحرين، قدم إلى المدينة ومعه خمسمائة ألف درهم، واطلع عمر رضي الله عنه على ذلك، وكان مبلغ خمسمائة ألف درهم في ذلك الوقت أمراً عجيباً، لدرجة أن عمر بادره بالسؤال: خيراً! ماذا تقول ؟ فقال: خمسمائة ألف، فقال عمر رضي الله عنه: هل أحصيتها ؟ قال أبو هريرة: نعم ثم قال: مائة ألف خمس مرات، فتأكد عمر من الأمر، وعقد مجلس الشورى، وطلب المشورة في كيفية إنفاق هذا المبلغ الضخم، فتقدم علي وعثمان وبقية

الصحابة رضوان الله عليهم باقتراحات مختلفة، وقال الوليد بن هشام: لقد رأيت حكام الشام وقد أعدوا سجلًا للجيش ونظموا ديواناً، فاستحسن عمر رضي الله عنه هذا الرأي، وفكر في تسجيل أسماء الجند وتنظيم الديوان[١] .

وفي رواية أخرى أن صاحب الرأي ذكر سلاطين العجم، وهذه الرواية أقرب إلى القياس لأن السجلات حين جهزت أُطلق عليها اسم «الديوان»، وهذه كلمة فارسية فكلمة دبستان (مدرسة)، ودبير (كاتب)، ودفتر (سجل)، وديوان (إدارة)، كلها كلمات من مادة واحدة، ومادتها الأصلية دب وهي كلمة بهلوية تعني المراقبة.

**بناء جيش الدولة الإسلامية :**

وعلى كل حال أراد عمر رضي الله عنه أن يؤسس إدارة مستقلة للجيش في سنة ١٥ هجرية، وكان الاقتراح الأكثر قبولاً هو تشكيل جيش للدولة بأكملها أو جعل الدولة كلها جيشاً، وأراد أن ينظم هذا الأمر بحيث يصبح كل مسلم جندياً في جيش الإسلام، ولما كان تعميم الأمر غير ممكناً، لذا بدأ بقريش والأنصار، وكان في المدينة آنذاك ثلاثة أشخاص لهم خبرة في الأنساب، كما كانوا خبراء في علم الحساب وهم: مخرمة بن نوفل، وجبير بن مطعم، وعقيل بن أبي طالب، وكان علم الأنساب علماً متوارثاً في العرب، وكان الثلاثة المذكورون من أبرز العرب كلهم في هذا الفن[٢] .

استدعاهم عمر رضي الله عنه، وأوكل إليهم مهمة إعداد سجل لقريش والأنصار جميعاً، يدون فيه اسم كل شخص ونسبه مُفصلًا، فأعدوا سجلًا

---

(١) المقريزي ص ٩٢ وفتوح البلدان ص ٤٤٩ .

(٢) ذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين (مجلد ٢ ص ٣٧) طبعة مصر أنه كان في قريش كلها أربعة أشخاص، يحفظون أخبار العرب، وأنسابهم وأشعارهم هم: مخرمة بن نوفل، وأبو الجهم، وحويطب بن عبدالعزى، وعقيل بن أبي طالب.

قدموه له، وكان في مقدمة هذا السجل بنو هاشم ثم قبيلة أبي بكر ثم قبيلة عمر، ووضع هؤلاء الثلاثة الترتيب المذكور طبقاً للخلافة والحكم، ولكن إذا بقي هذا الترتيب فستصبح الخلافة أداة لتحقيق المصالح الشخصية. فقال عمر رضي الله عنه:

ليس هكذا يكون الأمر، بل ابدأوا بأقارب رسول الله ﷺ الأقرب فالأقرب حتى الأدنى، واكتبوا الأسماء طبقاً لهذا الترتيب حتى تصلوا إلى قبيلتي فاكتبوا اسمي.

ويجب أن نذكر هنا أن نسب عمر رضي الله عنه هو آخر نسب من بين الخلفاء الأربعة يلتقي مع رسول الله ﷺ، والخلاصة أن السجل أُعدّ طبقًا لهذا التوجيه وحددت الرواتب كما يلي[1]:

| المراتب | الراتب السنوي |
|---|---|
| ـ أولئك الذين شاركوا في غزوة بدر | خمسة آلاف درهم |
| ـ مهاجرو الحبشة ومن شاركوا في غزوة أُحد | أربعة آلاف درهم |
| ـ الذين هاجروا قبل فتح مكة | ثلاثة آلاف درهم |
| ـ الذين أسلموا في فتح مكة | ألفا درهم |
| ـ الذين شاركوا في القادسية واليرموك | ألفا درهم |
| ـ أهل اليمن | أربعمائة درهم |
| ـ المجاهدون بعد القادسية واليرموك | أربعمائة درهم |
| ـ بقية المسلمين ممن لم يرد تصنيفهم | مئتا درهم |

(١) هناك روايات مختلفة في تفصيل الرواتب، وقد ذكرت البيانات الواردة في المصادر التالية بعد مطابقتها بقدر الإمكان: كتاب الخراج ص ٢٤، المقريزي المجلد الأول ص ٩٢، والبلاذري ص ٢٤٨، والبغوي ص ١٧٥، والطبري ص ٢٤١١.

ومن دُونت أسماؤهم في السجلات، أجريت الرواتب لزوجاتهم وأطفالهم، وهكذا كانت رواتب زوجات المهاجرين، والأنصار تتراوح مابين مائتين وأربعمائة درهم، كما تقرر ألفا درهم للأولاد الذكور من أبناء من شهدوا بدراً، ومن الجدير بالذكر أن من قررت لهم رواتب، قررت أيضاً لعبيدهم، ويمكن أن نقدر من هذا كيف كانت درجة العبيد في الإسلام.

ومع أن من سجلوا في الدفاتر كانوا في الحقيقة مرتبطين بالجيش، إلا أنهم قسموا إلى فئتين:

(١) المشاركون طوال الوقت في العمليات العسكرية وكأنهم يشكلون الجيش النظامي أي مجندون للجيش.

(٢) الذين كانوا يقيمون عادة في بيوتهم، ويمكن استدعاؤهم عند الضرورة ويطلق عليهم في العربية «المتطوعة» وبالمصطلح المعاصر يقال لهذا النوع من الجيش «المتطوعون volunteer» ولا شك أن الفرق هو أن المتطوع الآن لا يتقاضى أجراً[١].

---

(١) بهذه المناسبة هناك أمر جدير تماماً بالملاحظة، وهو أن الكثير من المحللين، يعتقدون أن الرواتب التي حددها عمر رضي الله عنه للعرب جميعاً لم تكن لها علاقة قوية بالإدارة العسكرية، بل كانت بهدف الرعاية الاجتماعية، إلا أن هذا الاعتقاد خاطىء تماماً.
أولاً: فالمؤرخون ذكروا في هذا الصدد أن الوليد بن هشام قال لعمر حين استشاره: قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً، فأخذ عمر بقول الوليد.
ثانياً: لم يقرر عمر رواتب لأولئك الذين لم يؤدوا الخدمة العسكرية، ولم يكن لهم خدمات عسكرية سابقة، وبناءً على هذا لم يتلق أهل مكة رواتب، وجاء في «فتوح البلدان» أن عمر رضي الله عنه كان لا يعطي أهل مكة عطاء، ولا يضرب عليهم بعثاً (فتوح البلدان ٤٥٨)، ولهذا السبب عندما طلب أهل البادية من أبي عبيدة أن يحدد لهم راتباً قال: لا أرزقكم حتى أرزق أهل الحاضرة، ولا شك أن سجلات الجيش كانت تضم في البداية الكثير من أنماط الناس =

كانت هذه بداية التنظيم العسكري ولهذا السبب كان هناك شيء من عدم التنظيم، وكان من أكبر ماحدث من خلط هو أن الرواتب العسكرية كانت تتضمن أيضاً رواتب سياسية، وكلاهما مدون في سجل واحد، إلا إنه بالتدريج أي سنة ٢١هـ نظم عمر رضي الله عنه هذه الإدارة، ورتبها بطريقة لم يشهدها أي مكان حتى تلك الفترة، وهكذا سنذكر جزئيات هذا النظام بدقة وتفصيل، وسيتضح مما سنذكره كيف أقام العرب في بداية حضارتهم هذه الفروع الخاصة بالتنظيمات العسكرية، وكيف رتبوا ونظموا كل فرع على حدة، وكيف تأسس هذا العمل بفضل الرجل الذي لُقب بالفاروق الأعظم.

كان التنظيم الأول والأساسي في هذه الإدارة هو تقسيم البلاد إلى مناطق مختلفة من الناحية العسكرية، فقد قسم عمر رضي الله عنه البلاد سنة ٢٠هـ إلى قسمين من الناحية العسكرية والمدنية ـ وقد سبق ذكر الناحية المدنية في معرض الحديث عن التنظيمات الديوانية.

**الوحدات العسكرية المركزية :**

أما من الناحية العسكرية، فقد أُقيمت عدة مراكز كبيرة أطلق عليها اسم «جند»[1]، وهذا المصطلح لا يزال قائماً حتى اليوم، وتفصيل هذا الأمر أن حدود الفتوحات في عهد عمر كانت المدينة، والكوفة، والبصرة، والموصل، والفسطاط بمصر، ودمشق، وحمص، والأردن، وفلسطين، ورغم أن الحدود وصلت إلى بلوتشستان إلا أن الدولة التي يمكن أن يطلق عليها اصطلاحاً أو

---

= مثل: حفظة القرآن الكريم، والخبراء في فن من الفنون أو علم من العلوم، ولكن يفهم من الاستقراء أن الخلط الذي حدث نتيجة ظروف معينة قد انتهى بالتدريج، وسيأتي بحث هذا الأمر فيما بعد.

(١) لتحقيق كلمة جند انظر فتوح البلدان ص١٣٢، وذكر اليعقوبي المؤرخ في أحداث سنة ٢٠هـ أن عمر رضي الله عنه قد أقام الوحدات العسكرية المركزية في هذه السنة، إلا أن المؤرخ المذكور ذكر فقط اسم فلسطين، والجزيرة، والموصل، وقنسرين، وهذا خطأ واضح.

رسمياً اسم الدولة كانت هي فقط العراق ومصر والجزيرة والشام، وهكذا وطبقًا لهذه الأصول أقيمت في تلك الدول وحدات عسكرية مركزية، فكانت الموصل هي مقر الوحدة المركزية للجزيرة، وكانت هناك ضرورة لإقامة أكثر من مقر للوحدات المركزية بالشام، نظراً لاتساعها، لهذا أقيمت أربع وحدات مركزية في دمشق، وفلسطين، وحمص، والأردن، والفسطاط التي أصبحت الآن القاهرة، وكان لها أثر كبير على مصر كلها، أما البصرة والكوفة فكانتا بوابتي فتوحات فارس وخوزستان والشرق كله.

وكانت تنظيمات الجيش في تلك الوحدات المركزية كما يلي:

**(١) معسكرات الجيش :**

كانت هناك معسكرات لإقامة الجيش، وقد أسست الكوفة والبصرة والفسطاط في الأصل لإقامة الجيش، وكان بالموصل قلعة ترجع إلى زمان العجم مع بعض الكنائس والبيوت العادية، فقام هرثمة بن عرفجة الأزدي (حاكم الموصل) بناء على توجيهات عمر، بجعلها حجر الأساس، وحولها إلى شكل مدينة، فأقام أحياء متفرقة لكل قبيلة من مختلف قبائل العرب.

**(٢) تربية الخيل :**

كانت الإصطبلات الكبيرة في كل مكان تأوى أربعة آلاف جواد على أتم الاستعداد طوال الوقت بعدتها وعتادها، وكانت معدة بصفة خاصة إذا مادعت الضرورة، فيتم تشكيل كتيبة فرسان قوامها اثنان وثلاثون ألف فارس[١]، وفي سنة ١٧ هجرية أعلن أهل الجزيرة العصيان فجأة، فكان هذا الاستعداد المشار

---

(١) جاء في تاريخ الطبري ص ٥٠٤ «كان لعمر أربعة آلاف فرس عدة لكون أن كان يشتريها في قبلة قصر الكوفة، وبالبصرة نحو منها، وقيم عليها جزء بن معاوية، وفي كل مصر من الأمصار الثمانية على قدرها، فإن نابتهم نائبة، ركب القوم وتقدموا إلى أن يستعد الناس.

إليه هو مفتاح النصر، وكانت الخيل تربى تربية جيدة ويُعتنى بها غاية بالغة.

وقد تولى عمر رضي الله عنه بنفسه تنظيم أمور المدينة المنورة، فأقام مرعى للخيل على بعد أربعة منازل من المدينة المنورة[١]، وأسند رعايته والحفاظ عليه إلى غلامه، وكان يدعى «هنى» وكانوا يطبعون على أفخاد الخيول عبارة «جيش في سبيل الله»[٢] وذلك عن طريق الكي.

وتولى هذه المهمة في الكوفة سلمان بن ربيعة الذي برع في تربية الخيل ومعرفتها حتى دخلت هذه الصفة على اسمه، فراحوا ينادونه بسلمان الخيل، وكانت هذه الخيول توضع في الإصطبلات في الشتاء، وظل هذا المكان يعرف باسم «آرى» حتى القرن الرابع الهجري ومعناه «الإصطبل»، ولهذا كان العجم يطلقون عليه «آخور شاه جهان» (اصطبل ملك الدنيا) وكانت الخيول في الربيع ترعى في المراعي الخضراء القريبة من «عاقول» على شاطىء نهر الفرات، وكان سلمان يجتهد للغاية في تربية الخيل كما كان يقيم دائماً سباقًا للخيل مرة كل عام.

وقد طور كثيراً في سلاسلة الخيول الأصيلة، ولم يكن العرب يهتمون قبلا بالأم، فكان سلمان أول من اهتم بذلك، إذ كانوا يعتبرون الفرس من أم غير عربية غير أصيل، ويحرم الفارس من نصيبه في تقسيم الغنائم[٣].

وكان جزء بن معاوية مسئولاً عن البصرة، وظل حاكماً على محافظة الأهواز.

---

(١) أعد عمر رضي الله عنه مراع متعددة في الجزيرة العربية لتربية الخيول والإبل ورعايتها، وكان أكبر مركز في منطقة زبدة، وهو في نجد على مسافة أربعة منازل من المدينة المنورة، وتبلغ مساحة هذا المركز عشرة أميال طولاً وعرضاً، ويتسع لتربية أربعين ألف ناقة تقريباً، انظر تفصيل ذلك في خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى طبعة مصر ص ٢٥٥ـ٢٥٦ .

(٢) كنز العمال المجلد السادس ص ٣٢٦ .

(٣) انظر تذكرة سلمان في كتب الرجال.

**(٣) ديوان الجيش :**

كانت جميع الأوراق والدواوين المتعلقة بالجيش تبقى في هذه المراكز والوحدات العسكرية.

**(٤) الحبوب والغلال الخاصة بمئونة الجيش :**

كانت الحبوب والغلال التي تعد للمؤن تحفظ في هذه المراكز والوحدات، وكانت ترسل منها إلى المراكز والوحدات الأخرى.

**معسكرات الجيش :**

فضلا عن هذه الوحدات المركزية أقام عمر رضي الله عنه معسكرات للجيش بكثرة في المدن الكبيرة والمناطق المناسبة، وانتشر العرب في جميع البلاد المفتوحة، ورغم أنه كان من عادة العرب، أنهم إذا فتحوا مدينة، عينوا فيها عدداً مناسباً من الجند، لا يغادرونها[1]، وعندما فتح أبو عبيدة الشام عين عاملًا في كل محافظة، ومعه قوة مناسبة ولكن لم تكن هناك أي مدينة كبيرة أو محافظة تخلو من الترتيبات العسكرية، مع قيام الأمن والأمان.

وعندما سافر عمر رضي الله عنه سنة ١٧هـ إلى الشام، كانت حدود الدولة الإسلامية تلتقي بدولة العدو في تلك المناطق أي دلوك، ومنبج، ورعيان، وقورس، وتيزين، وأنطاكية وغيرها (ويقال لها بالعربية فروج أو ثغور) فقام بزيارة كل مدينة، ونظم الإدارة العسكرية لها، ومايناسبها من تنظيمات، أما المناطق التي تقع على ساحل البحر وتسمى بالبلاد الساحلية (أي عسقلان،

---

(١) جاء في فتوح البلدان ص ١٢٨ : وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو، وسربوا إليها الإمداد وفي ص ١٥١ جاء: وولّى أبو عبيدة كل كورة فتحها عاملًا، وضم إليه جماعة من المسلمين وشحن النواحي المخوفة.

ويافا، وقيسارية، وأرسوف، وعكا، وصور، وبيروت، وطرطوس، وصيدا، وأياس، واللاذقية)، فكانت دائماً هدفاً لقوة الروم البحرية، ولهذا جعل لها نظاماً مستقلاً وعين لها عبدالله بن قيس قائداً عاماً(١)، أما بالسي التي كانت تقع على شاطىء نهر الفرات الغربي، وتشارك العراق في نفس الحدود، فقد زاد شيئاً آخر مع تنظيم الجيش، وهو توطين العرب الشوام المسلمين بها(٢).

وعندما توفي يزيد بن أبي سفيان سنة ١٩هـ أخبر أخوه معاوية عمر رضي الله عنه بضرورة إقامة استعدادات أكبر على سواحل الشام.

فأرسل عمر إليه على الفور يأمره بترميم جميع القلاع، وترتيب الجيوش فيها وأن يُعين الحراس على مناراتها وأن تظل النيران مضيئة فيها.

وفي الإسكندرية أُجري ترتيب يتم بمقتضاه تخصيص ربع القوات التي كانت تحت قيادة عمرو بن العاص للإسكندرية، والربع الآخر يقيم في المناطق الساحلية، ويرابط نصف الجيش المتبقي مع عمرو بن العاص في الفسطاط. فكانت هذه الجيوش تقيم في قصور واسعة، ويقيم في كل قصر عريف يكون قائداً لجماعة يتولى تقسيم رواتبهم، وكان أمام القصور أرض فضاء كالفناء(٣).

وفي سنة ١٦هـ حين أراد هرقل الهجوم على مصر عن طريق البحر، أقام عمر رضي الله عنه معسكرات للجيش على طول السواحل لدرجة أنه خصص

---

(١) العبارة الأصلية في تاريخ الطبري ص ٢٥٣٣ هي «قسم عمر الأرزاق وسمى الشواتي والصوائف وسد فروج الشام ومسالحها، وأخذ يدور بها، وسمى ذلك في كل كورة، واستعمل عبدالله بن قيس على السواحل من كل كورة».

(٢) فتوح البلدان ص ١٥٠: «ورتب أبو عبيدة ببالس جماعة من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام.

(٣) في فتوح البلدان ص ١٢٨: «أن معاوية كتب إلى عمر بن الخطاب بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل، فكتب إليه في مرمة حصونها، وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على مناظرها، واتخاذ المواقيد لها.

لتلك المناطق ربع القوات التي كانت تحت إمرة عمرو بن العاص[١]، وبالرغم من أن الكوفة والبصرة في العراق كانتا منطقتين محصنتين فكان يرابط في الكوفة ذاتها أربعون ألف مقاتل، وزعوا على أن يكون من بينهم عشرة آلاف يتولون المهمات الخارجية[٢]، ومع هذا فقد تم إعمار معسكرات العجم التي كانت موجودة في تلك المراكز من قبل وعضدت بالقوات العسكرية، وكان في خريبة وذابوقة سبعة معسكرات صغيرة، تم إعمارها من جديد[٣]، كما أقيمت معسكرات كثيرة جداً للجيش في مقاطعة خوزستان مثل نهر تيري، ومناذر، وسوق الأهواز، وسرق، وهرمزان، وسوس، وبنيان، وجنديسابور، ومهرجانقدق، وامتلأت هذه المناطق بالجيوش[٤]، وكان في معسكرات الري وآذربيجان عشرة آلاف جندي يقيمون بصفة دائمة.

وهكذا أقيمت مئات المعسكرات في كل مكان، ولا يحتاج بيانها إلى تفصيل، إلا أن ما يجدر ملاحظته هنا هو: لماذا اتسع نطاق هذه المعسكرات إلى هذه الدرجة ؟! وماهي الأصول التي اتبعت في اختيار هذه المناطق والوحدات العسكرية ؟! والحقيقة أن القوة العسكرية الإسلامية في ذلك الوقت رغم عظمتها، ووصولها إلى أوجها، إلا أنها افتقدت عتاد القوة البحرية، في وقت برع فيه الرومان منذ زمن بعيد في هذا المضمار، ولهذا السبب، ورغم أنه لم يكن هناك قلق من خطر عصيان داخلي في الشام ومصر، لأن أهل البلاد كانوا يفضلون المسلمين على النصارى كثيراً، رغم اختلافهم مع

---

(١) المقريزي المجلد الأول ص ١٦٧ وكان لكل عريف قصر ينزل فيه ومن معه من أصحابه واتخذوا فيه أخايذ.

(٢) انظر الطبري ص ٢٥٩٤ والمقريزي ص ١٦٧ .

(٣) جاء في تاريخ الطبري ص ٢٨٠٥ وكان بالكوفة إذ ذاك أربعون ألف مقاتل، وكان يغزو هذين الثغرين (أي: الري وآذربيجان) منهم عشرة آلاف في كل سنة، فكان الرجل يصيبه في كل أربع سنين عزوة.

(٤) فتوح البلدان ص ٣٥٠ .

المسلمين في الدين، لكن القلق الدائم كان من جراء حملات الروم البحرية، بالإضافة إلى أن آسيا الصغرى كانت لا تزال في قبضة الروم، ولم تصب قوتهم هناك بأي أذى، ونظراً لهذه الأسباب مجتمعة كان من الضروري أن يتم تحصين المناطق الحدودية، والموانىء تحصيناً محكماً.

**الأصول التي أقيمت عليها معسكرات الجيش :**

وهذا هو السبب الذي من أجله أقام عمر رضي الله عنه هذا القدر من الثكنات العسكرية في تلك المناطق التي تقع إما على الساحل أو على الثغور المواجهة لآسيا الصغرى، وكان وضع العراق مختلفاً لأنه لم يكن به سوى الحكومة وكبار رجال الدولة الذين يطلق عليها لقب «مرزبان» وكانوا يحاربون من أجل الإبقاء على إماراتهم، فكانوا يخضعون لسلطة الدولة بعد هزيمتهم، ولم يكن من الممكن الاطمئنان إلى خضوعهم هذا، ولهذا كان من الضروري إقامة ثكنات عسكرية في كل مكان في هذه البلاد حتى لا يفكر أدعياء الإمارات بالثورة والعصيان.

**اتساع ديوان الجيش :**

اهتم عمر رضي الله عنه بأنواع أخرى من التنظيمات الإدارية مع اهتمامه بما سبق، ونظم كل إدارة من الإدارات بطريقة تُعد معجزة بمقياس حضارة ذلك الوقت، وقد وسع إدارة التجنيد التي بدأت بالمهاجرين والأنصار حتى ضمت العرب كلهم على وجه التقريب، وقام بإحصاء أفراد القبائل المتواجدة بين المدينة المنورة وعسفان، وهي على بعد منزلين من مكة المكرمة، وأعد لذلك سجلًا كما قام بإحصاء وتسجيل جميع أفراد قبائل البحرين، آخر أقاليم جزيرة العرب، والتي يعدها الجغرافيون العرب من محافظات العراق، وهكذا سجلت جميع أسماء العرب القاطنين في الكوفة والبصرة والموصل والفسطاط والجيزة وغيرها، وعينت مرتبات لهذه الجماعة التي لا تحصى، كلٌّ على قدر مرتبته، ومع أن العدد الكلي غير معروف في كتب التاريخ، لكن القرائن تشير

إلى أن العدد كان حوالي ثمانمائة ألف أو مليون رجل مسلح على الأقل.

**تجهيز جيش جديد كل عام :**

جاء في رواية ابن سعد[١] أن ثلاثين ألف جندي مستجد كانوا يرسلون في الفتوح كل عام، ويذكر العلامة الطبري عن الكوفة أنه وُطنّ بها مائة ألف رجل من القادرين على القتال، من بينهم أربعون ألف جندي نظامي، كان من واجبهم البقاء في حالة استعداد للمشاركة في عمليات الري وآذربيجان بالتناوب.

وكان هذا النظام هو الذي جعل الدنيا كلها تخاف العرب وترهبهم لزمن طويل، وهو الذي جعل سيل الفتوح يستمر دون انقطاع، ثم ضعفت قوة العرب بقدر ما أصاب هذا النظام من ضعف، فكان الأمير معاوية أول من غير فيه، فأوقف رواتب الأطفال الرضع كما أنقص عبدالملك بن مروان أيضاً في هذا النظام، حتى كان المعتصم بالله فشطب أسماء العرب من الإدارة العسكرية، ومنذ هذا اليوم خرج الحكم أيضاً من يد العرب.

كانت هذه جملة اعتراضية أوردناها هنا، ونعود الآن إلى النظام العسكري لعمر رضي الله عنه، لقد وسع عمر في الإدارة العسكرية حتى أدخل فيها العجم أيضاً.

**العجمي والرومي والهندي واليهودي دخلوا في الجيش :**

كان يزدجرد إمبراطور فارس قد أعد جماعة مختارة من الديالمة، وصل عددها إلى أربعة آلاف، وأطلق عليها جيش الإمبراطور أو الحرس الخاص، وقد انفصل هذا الجيش عن الإيرانيين بعد عدة معارك في القادسية، ودخل أفراده دائرة الإسلام، فضمهم سعد بن أبي وقاص، حاكم الكوفة إلى

---

(١) كنز العمال المجلد ٦ ص ٣٣١ وذكر الإمام مالك في الموطأ أن عددهم أربعون ألف جندي بدلاً من ثلاثين ألف جندي.

الجيش، وقرر لهم الرواتب[١] بعد أن أسكنهم الكوفة، وهكذا ترد أسماؤهم في أماكن متفرقة في كتب التاريخ عند ذكر الفتوحات الإسلامية، وكان قائد مقدمة جيش يزدجرد مشهوراً وكان يلقب بسياه.

وحين سار يزدجرد سنة ١٧هـ إلى أصفهان أرسل سياه إلى إصطخر في ثلاثمائة فارس، منهم سبعون من الأبطال الشجعان المعروفين، حتى يقوموا باختيار شجعان كل مدينة، ويكونوا منهم كتيبة عسكرية، وعندما حاصر أبو موسى الأشعري «السوس» أمر يزدجرد سياه أن يذهب لمواجهة أبي موسى بهذه الكتيبة المختارة، وبعد فتح «السوس» طلب سياه، ومعه جميع القادة، الأمان من أبي موسى طبقًا لبعض الشروط التي لم يقبلها أبو موسى، ولما أطلع أبو موسى عمر رضي الله عنه على الأمر، أرسل له عمر بأن يوافق على جميع الشروط، وهكذا أُسكنوا جميعهم البصرة، وسجلوا في دفاتر الجيش، وتقررت لهم الرواتب، وتقرر لستة منهم وهم سياه وخسرو، وشهريار، وشيرويه وشهرويه، وأفرودين راتبا قدره ألفان وخمسمائة للفرد، كما تقرر لمائة مقاتل ألفين، وفي معركة تستر تحقق النصر بتدبير سياه[٢].

كان باذان حاكما على اليمن من قبل أنوشيروان، فأسلم أكثر الجيش الفارسي الذي كان في ركابه، فسُجلت أسماؤهم أيضاً في سجلات الجيش، ومن العجيب أن الجيش الفاروقي لم يخل أيضاً من شجعان الهند فجماعة الجات السندية التي يطلق عليها العرب الزطّ، كانوا ضمن جيش يزدجرد، أسلموا بعد معركة السوس، وأسكنوا البصرة بعد أن جندوا بالجيش[٣].

وضم الجيش أيضاً الأبطال اليونانيين والرومانيين أيضاً، وقد اشترك منهم خمسمائة رجل في فتح مصر، وحين أسس عمرو بن العاص الفسطاط،

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٨٠.
(٢) الطبري، أحداث سنة ١٧هـ ذكر فتح السوس، وفتوح البلدان من ص٣٧٢ـ٣٧٥.
(٣) فتوح البلدان ص ٢٧٥.

أُسكن هؤلاء في حي خاص بهم، كما لم يخل الجيش أيضاً من اليهود فشارك ألف رجل منهم الجيش الإسلامي في فتح مصر[١] .

**وخلاصة القول** أن عمر رضي الله عنه وسع من نطاق الإدارة العسكرية، ولم يخصها بقوم أو بلد، كما لم تفرض أية قيود بسبب الدين والملة، فقد ضم جيش المتطوعين آلاف المجوس، كانوا يحصلون على رواتب مساوية لرواتب المسلمين، كما أن هناك معلومات تفيد وجود المجوس أيضاً في الجيش النظامي، وسوف يأتي تفصيل ذلك في الحديث عن حقوق الأمم الأخرى، ولكن يجب أن نتذكر أن اتساع الإدارة العسكرية وإدخال جميع الأمم فيها، كان من سماحة الإسلام ليس إلا، إذ أن العرب لم يتحملوا منّةً من أحد كائن من كان، إذ لم يعتمدوا إلا على سيوفهم، ولا شك أنه لا يمكن أن ننكر أيضاً أنهم تعلموا أصول فن الحرب من مواطني تلك الأمم التي حاربوها.

وكما ذكرنا قبلًا لم تكن هناك إدارة عسكرية في البداية، فقد كان من يتلقون رواتب لاعتبارات أخرى تسجل أسماؤهم في السجلات العسكرية، وكان هذا لحكمة ما اقتضتها الظروف، وبعدها أراد عمر رضي الله عنه أن يوضح الأمور، فراح في بداية الأمر يقلل أو يزيد من الراتب طبقاً لقراءة القرآن، ولأن هذا لم يكن له علاقة بالشئون العسكرية، لهذا جعلهم عمر رضي الله عنه ضمن إدارة التعليم، وحذف أسماءهم من السجلات العسكرية، وهكذا أرسل إلى سعد بن أبي وقاص العبارة التالية: «لا تعط على القرآن أحداً».

## زيادة الرواتب :

اهتم عمر رضي الله عنه بعد هذا بزيادة الرواتب لأنه كان يبعد الجيش تماماً عن الزراعة والتجارة وجميع مثل هذه الأعمال، لهذا كان من الضروري أن

---

(١) ورد تفصيل كل ذلك في ص ٢٩٨ في المقريزي.

يتكفل بجميع حاجاتهم، ومن هنا زاد في رواتبهم كثيراً، فكانت أقل نسبة في المرتبات مائتين سنويا فجعلها ثلاثمائة، وزاد مرتبات القادة من سبعة آلاف إلى عشرة آلاف، وكانت الرواتب تقرر للأطفال منذ فطامهم، فأصدر حكمه بأن تقرر لهم الرواتب من يوم ولادتهم.

**نظام المؤن :**

كان نظام المؤن في البداية بسيطاً، فكانت الجيوش مثلًا حين تصل إلى القادسية تغير على القرى المجاورة وتستولي على الغلال والحبوب، أما إمدادات اللحوم فكانت تصل من دار الخلافة، فكان عمر رضي الله عنه يرسلها من المدينة المنورة[١]، ثم وضع نظاماً يقضي بتحصيل خمسين رطلًا من الغلة، عن كل فرد، من أهل البلاد المفتوحة بالإضافة إلى الجزية، وفي مصر كان يتم تحصيل زيت الزيتون والعسل والخل بالإضافة إلى الغلة، وهو ما كان يستخدم كإدام للجنود، وفي الجزيرة عُمل بهذا النظام أيضاً، ولما كان في هذا مشقة للرعايا، قرر عمر رضي الله عنه قيمة نقدية بدلاً من هذا[٢]، وارتضى الرعايا ذلك بكل سرور.

**الإدارة المستقلة للمؤن :**

وبالتدريج انتهى الأمر إلى أن أسس عمر رضي الله عنه إدارة مستقلة للمؤن كان اسمها «الأهراء»[٣]، وهكذا عُين عمرو بن عتبة رئيساً لهذه الإدارة في الشام. والأهراء جمع هري، وهري كلمة يونانية معناها مستودع البضائع،

---

(١) والعبارة الأصلية التي وردت في فتوح البلدان ص ٢١٥ هي: «فإذا احتاجوا إلى العلف والطعام أخرجوا خيولاً في البرّ فأغارت على أسفل الفرات، وكان عمر يبعث إليهم الغنم والجُرز».

(٢) فتوح البلدان ص ١٧٨ و٢١٦.

(٣) تاريخ الطبري ص ٢٦٢٥ وانظر معنى أهراء في لسان العرب وفتوح البلدان ص ٢٠٨.

لأن جمع المؤن في مكان واحد وتقسيمه مأخوذ من اليونانيين، لهذا بقي استخدام اللفظ اليوناني، فكانت الغلال والحبوب تجمع في مستودع واسع، وتوزع في أول الشهر فيحصل كل جندي على منٍّ واحدٍ وعشرين رطلًا بالإضافة إلى ٢٤ رطلًا من زيت الزيتون، و٢٤ رطلًا من الخل، وبعدها تطور الأمر فكان الطعام الجاهز يوزع على الجنود بدلاً من الحبوب وغيرها من المواد الجافة.

## الطعام والملابس والبدلات :

وهكذا يصرح اليعقوبي عند سفر عمر للشام: أنهم كانوا يتلقون من دار الخلافة الملابس أيضاً بالإضافة إلى الرواتب والطعام وسيأتي ذكر ذلك عند الحديث عن الملابس الرسمية، هذا بالإضافة إلى تحديد بدلات أيضاً كان يطلق عليها بالعربية معونة، وكان إعداد جواد الركوب من مهمة الفرسان أنفسهم، ومن كان راتبه لا يكفيه أو من لم يكن ميسوراً، كان يحصل على جواد من الحكومة، وهكذا كان في دار الخلافة أربعة آلاف فرس جاهزة في كل وقت لهذا الغرض[1].

## طريقة تقسيم الرواتب :

اختلفت أوقات تقسيم البدلات والرواتب وغيرها، فكان الراتب يوزع بداية المحرم، والبدلات توزع مع حصاد فصل الربيع، ويوزع إيراد الإقطاعيات الخاصة في موسم الحصاد[2]، وكانت طريقة تقسيم الرواتب تتم عن طريق عرّيف أي: مقدم أو رئيس كل قبيلة، وكان يرأس عدداً من الجنود

---

(١) كتاب الخراج ص ٢٧ والعبارة الأصلية: كان لعمر بن الخطاب أربعة آلاف فرس فإذا كان في عطاء الرجل خفة أو كان محتاجًا أعطاه الفرس.

(٢) الطبري ص ٢٤٨٦ والعبارة الأصلية: «وأمر لهم بمعاونهم في الربيع في كل سنة، وبأعطياتهم في المحرم من كل سنة، وبفيئتهم عند طلوع الشعرى في كل سنة، وذلك عند إدراك الغلات».

حوالي عشرة على الأقل، وكان يطلق عليهم أمراء الأعشار، فكانوا يعطون الرواتب فيقوم بتوزيعها على جنود القبيلة، وكان كل عريف يقوم بتقسيم مائة ألف درهم، وهكذا كان في الكوفة والبصرة مائة عريف، يقومون بتوزيع عشرة ملايين درهم بكل حيطة وحذر، وعندما حدث جور من أمراء الأعشار في العراق عند توزيعهم للرواتب، جمع عمر رضي الله عنه كبار نسابة العرب وأصحاب الرأي منهم مثل: سعيد بن عمران، ومشعلة بن نعيم وغيرهما، وأسند إليهم مهمة التفتيش والتدقيق، وهكذا أعاد هؤلاء الناس تحديد الرواتب والأجور للأهالي بدقة وبطريقة صحيحة، وعينوا على كل سبعة جنود أميراً بدلاً من عشرة جنود[١]، وهذا ما رواه البيهقي في كنز العمال ـ باب الاجتهاد.

ومن الجدير بالذكر أن تعيين العريف كان من الإبداعات الفاروقية واستمر تقليد هذا العمل لفترة طويلة.

### مراعاة زيادة الرواتب :

كانت الرواتب تُرفع من وقت لآخر مراعاة للأقدمية وإجادة العمل، وحين أبلى زهرة، وعصمة، والضبي بلاءً حسناً في القادسية، زيدت رواتبهم من ألفين إلى ألفين وخمسمائة، وكانت تقسم عليهم الغنائم التي يحصلون عليها من وقت لآخر، وذلك حسب درجات الجيش، ولم يكن لها حد معين، وهكذا وصل نصيب كل فارس في جلولاء تسعة آلاف درهم، وفي نهاوند ستة آلاف درهم.

### توزيع الجيش طبقًا لاختلاف الفصول :

تحددت القواعد التالية للمحافظة على صحة الجنود وسلامتهم:

---

(١) وردت هذه الأحداث بالتفصيل في الطبري ص ٢٤٩٥ و ٢٤٩٦ وفي المقريزي ص ٩٣ .

تحديد وجهات المعركة من حيث الشتاء والصيف، فكانت الجيوش ترسل في الصيف إلى البلاد الباردة بينما ترسل في الشتاء إلى البلاد الحارة، وأطلق على هذه العملية «الشواتي والصوائف» وهذا المصطلح قائم حتى اليوم حتى أن المؤرخين يعبرون عن المهمات والفتوحات الغربية بلفظ صوائف فقط، وقد أوجد عمر رضي الله عنه هذا النظام سنة ١٧هـ ويكتب الطبري: وسمى الشواتي والصوائف وسمى ذلك في كل كورة.

**راحة الجنود في فصل الربيع :**

كان الجنود يُرسلون في فصل الربيع إلى تلك المناطق المعتدلة المناخ حيث توجد المراعي والخضرة، وقد وضعت هذه القاعدة بدايةً سنة ١٧هـ وذلك بعد فتح المدائن حين تدهورت صحة الجيش بسبب سوء المناخ هناك، فكتب عمر إلى عتبة بن غزوان حتى يرسل الجيوش إلى المناطق الخضراء اليانعة إذا ماحل فصل الربيع[١]، وكان عمرو بن العاص حاكم مصر يرسل الجيوش خارج المدينة إذا ما جاء الربيع، ويأمرهم بقضاء أوقاتهم في التنزه والصيد، وأن يسمنوا خيولهم بإطلاقها في المراعي الخضراء.

**مراعاة المناخ :**

كان المناخ الجيد يُراعى دائماً في إقامة المتنزهات وبناء المعسكرات فكانت تترك أفنية واسعة أمام البيوت، أما المدن التي أُنشئت من أجل الجيوش مثل الكوفة والبصرة والفسطاط وغيرها فكانت شوارعها وأحياؤها وطرقاتها واسعة جداً مراعاة للصحة، ووصل الاهتمام بها عند عمر رضي الله عنه إلى حد قيامه بتحديد مساحتها واتساعها بنفسه، وقد سبق تفصيل ذلك عند ذكر تلك المدن.

---

(١) في تاريخ الطبري ص ٢٤٨٦ «كتب عمر إلى سعد بن مالك وإلى عتبة بن غزوان أن يتربعًا بالناس في كل حين ربيع في أطيب أرضهم .

### الراحة في السفر :

حددت الأوامر يوم الجمعة كيوم راحة للجيش في سفره، فيقيم يوماً وليلة حتى يستريح الناس في سفرهم، ويصلحوا من أسلحتهم وملبسهم، وكان هناك تشديد على أن يقطع الجيش في سفره مرحلة معينة لا ترهقه ولا تتعبه، وأن يكون منزلهم في مكان تتوفر فيه جميع حاجياتهم، وهكذا تضمن الحكم الذي كتبه عُمر إلى سعد بن أبي وقاص، والمتعلق بالتوجيهات العسكرية جميع تلك الجزئيات مع الأمور الهامة الأخرى[١].

### قواعد الإجازات :

تم تنظيم قواعد الإجازات أيضاً، فكانت الجيوش المكلفة بمهمات في مناطق بعيدة تحصل على إجازة مرة أو مرتين في السنة، بل حين سمع عمر مرة امرأة تشكو من فراق زوجها بأشعار محزنة، أُرسلت الأوامر إلى القادة ألا يجبروا إنساناً على البقاء في الخارج أكثر من أربعة أشهر.

إلا أن جميع هذه التسهيلات كانت تتم طبقًا لمستلزمات الضرورة، وإلا فقد كانت هناك قيود شديدة، لتجنب الراحة والكسل والترف، وقد أكد عمر رضي الله عنه بشدة على ألا يركب الجند الخيل بمساعدة الركاب، وألا يرتدوا الملابس الناعمة، وألا يتجنبوا أشعة الشمس، وألا يستحموا في الحمامات.

### لباس الجيش :

لا يعرف من التاريخ ما إذا كان عمر رضي الله عنه قد حدد لباسًا خاصًّا للجيش أم لا، وهو ما يطلق عليه الزي الرسمي، والأوامر المنقولة فيما يتعلق بالجيش في هذه الناحية هي فقط ألا يرتدي الجنود لباس العجم، ولكن من المعروف أنه لم يؤكد كثيراً على تطبيق هذا الحكم؛ لأنه في سنة ٢١هـ حين

---

(١) نقل صاحب العقد الفريد هذا الحكم بنصه الجزء الأول ص ٤٩.

تقررت الجزية على الذميين في مصر، كانت تشمل أيضاً ملابس الجيش، وهي جبة من الصوف، وعمامة طويلة وسروال وخف[١] مع أن عمر كان قد منع صراحة في البداية السروال والخف.

## الخازن والمحاسب والمترجم في الجيش :

من الأمور الجديدة الكثيرة التي أوجدها عمر في الجيش، ولم تعرفها جزيرة العرب أبداً، أن يكون مع كل جيش قائد مسئول عن الخزانة، ومحاسب وقاض وعدد من المترجمين، بالإضافة إلى عدد من الأطباء والجراحين، وهكذا كان عبدالرحمن بن ربيعة قاضياً، وكان زياد بن أبي سفيان محاسباً، وهلال الهجري مترجماً في حرب القادسية[٢] ومنذ ذلك الحين بدأت إدارة العدل، والحساب والترجمة والطب في الجيش.

## تطور فن القتال :

بالنسبة للقواعد العسكرية نعرف فقط أن الأحكام التي كان يرسلها عمر إلى قادة الجيش كان يؤكد فيها على تعليم أربعة أشياء:
«السباحة وسباق الخيل والرماية والمشي حفاة الأقدام».

ولا نعرف سوى ذلك، وهل كانت هناك أُصولٌ أخرى يتعلمها الجيش أم لا ؟ ولكن لا شك في أن فن الحرب، قد تطور كثيراً في عهد عمر، مقارنة بالعهود السابقة.

كانت الطريقة المتبعة في القتال عند العرب قبلًا هي أن تقف جماعتين

---

(١) فتوح البلدان ص ٣١٥.
(٢) كتب العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه عن طريقة الحرب عند الروم والفرس والعرب فصلًا بعنوان «فن الحرب» جاء فيه: كان مروان بن الحكم أول من أقام نظام التعبئة ولكن هذا خطأ فقد ذكر الطبري وبقية المؤرخين أن خالدًا كان أول من أوجد هذا النوع من التعبئة في معركة اليرموك.

متقابلتين غير منظمتين، ثم يخرج من كل جانب مقاتل واحد، ويقف بقية المقاتلين صامتين، وفي النهاية يبدأ الهجوم الشامل، ثم جرت طريقة تنظيم الصفوف مع بداية الإسلام حين تم تنظيم أقسام الجيش إلى أقسام مختلفة مثل: الميمنة، والميسرة، وغيرها، لكن كل قسم كان يحارب بنفسه دون تنسيق مع الأقسام الأخرى، أي الجيش بأكمله لم يكن يحارب تحت قيادة موحدة.

وكان خالد بن الوليد أول من عبأ الصفوف في معركة اليرموك سنة ١٥هـ فكان تعداد الجيش ما يقرب من أربعين ألف مقاتل، فقسمهم إلى ستة وثلاثين صفًّا، كانت تعمل كلها تحت إمرة خالد الذي كان يقود الجيش كله وحده.

**أقسام الجيش :**

في عهد عمر رضي الله عنه كانت أقسام وفروع الجيش كما يلي:

القلب: حيث يوجد القائد.

المقدمة: أمام القلب تفصلها مسافة وجيزة.

الميمنة: على يمين القلب.

الميسرة: على يسار القلب.

الساقة: وهي آخر الجيش.

الطليعة: مجموعة من الجيش تراقب جيش العدو.

الرد: خلف الساقة حتى لا يتمكن العدو من الهجوم من الخلف.

الرائد: مجموعة مكلفة بالبحث عن الطعام والشراب للجيش.

الركبان: راكبو البعير.

الفرسان: راكبو الخيل.

الرجالة: أي المشاة.

الرماة: أي رماة السهام.

**ما يجب أن يحتفظ به الجندي :**

كان على كل جندي أن يحتفظ بجميع الأشياء اللازمة للقتال، كتب

صاحب فتوح البلدان أن جند جيش كثير بن شهاب (أحد قادة الجيش العمري) كانوا يحتفظون بالأشياء الضرورية التالية :
الإبرة، والمسلة، والخيط، والمقص، والرداء، والمخلاة، والغربال[١] .

## آلات مهاجمة القلاع :

ورغم أن استعمال المنجنيق للهجوم على القلاع بدأ من عهد الرسول ﷺ حين استخدم في ضرب قلعة الطائف للمرة الأولى سنة ٨هـ، لكنه تطور تطوراً كبيراً في عهد عمر رضي الله عنه، وفتحت به القلاع الكبيرة، وعلى سبيل المثال، أستعمل عشرون منجانيقاً في ضرب قلعة «بهره شير» (بهرسير) وذلك سنة ١٦هـ، كما كان هناك آلة أخرى تستخدم لضرب القلاع يقال لها دبابة، وكانت عبارة عن بُرج خشبي فيه عدة درجات للصعود إلى أعلى، وكان البرج يمضي على عجلات، ويجلس بالداخل رماة الحجارة، وناقبو الجدران، ورماة السهام وتدفع هذه الدبابة إلى الأمام حتى تبلغ جدران القلعة، فيتم تحطيمها بمثل هذه الآلات، وقد استعملت هذه الآلة في ضرب قلعة بهره شير (بهرسير).

## سلاح المهندسين :

كان تعبيد الطرق، وشقها، وإقامة الجسور وغيرها من الأعمال التي يطلق عليها بالمفهوم الحاضر سلاح المهندسين من واجبات أهل البلاد المفتوحة، وعندما فتح عمرو بن العاص مصر، قبل المقوقس حاكم مصر هذا الشرط، أي قيام المصريين بالأعمال المذكورة حيثما ذهب الجيش المصري[٢]، وهكذا عندما توجه عمرو بن العاص إلى الإسكندرية لمحاربة الروم كان المصريون

---

(١) فتوح البلدان ص ٣١٨ .

(٢) ورد في المقريزي ص ١٦٣ «فخرج عمرو بالمسلمين، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط، وقد أصلحوا لهم الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق.

أنفسهم يقيمون الجسور وينشئون الطرق، ويقيمون الأسواق في كل موضع، وفي كل مكان تحرك فيه الجيش وقد كتب المقريزي أن الأقباط كانوا يقومون بهذه الأعمال بسرور بالغ لأن سلوك المسلمين أعجبهم كثيراً.

**المخابرات والجاسوسية :**

نُظمت إدارة المخابرات والتجسس تنظيماً رائعاً، وتوفرت لديهم وسائل طبيعية، إذ سكن الشام والعراق كثير من العرب، أسلم منهم جماعة كبيرة، ولما كانوا يقطنون في هذه البلاد منذ فترة كبيرة لهذا لم يكن من الممكن أن تخفى عليهم خافية، وسُمح لهم ألا يعلنوا عن إسلامهم للجميع، ولما كان هؤلاء بهيئتهم يشبهون البارسيين (الفرس) أو النصارى لهذا كانوا يمشون بين جيوش الأعداء حيثما أرادوا، وفي معارك اليرموك والقادسية وتكريت تحققت أعمال عظيمة بفضل هؤلاء الجواسيس(١).

وفي الشام عين رؤساء جميع المدن من جانبهم الجواسيس عن طيب خاطر، فكانوا ينقلون أخبار الاستعدادات العسكرية لجيش قيصر وتحركاته، وقد كتب القاضي أبو يوسف صاحب كتاب الخراج(٢):

«فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعوناً للمسلمين على أعدائهم فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالاً من قبلهم يتجسسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم وما يريدون أن يصنعوا».

---

(١) تاريخ الشام للأزدي صفحة ١٥٤ والطبري ص ٣٣٤٩ وص ٢٤٧٥ وهذه عبارة الأزدي: «لما نزلت الروم منزلهم الذي نزلوا به، دسسنا إليهم رجالاً من أهل البلد، كانوا نصارى وحسن إسلامهم وأمرناهم أن يدخلوا عسكرهم ويكتموا إسلامهم ويأتوا بأخبارهم».

(٢) الكتاب المذكور ص ٨٠ .

وكان يسكن في مراكز الأردن وفلسطين فرقة من اليهود يقال لهم السامرة، فعين هؤلاء بصفة خاصة لأعمال الجاسوسية والمخابرات، في مقابل الإفراج عن أراضيهم[١]، وهكذا أسندت هذه المهمة إلى جماعة الجراجمة وأُعفوا من دفع الخراج.

ومن الأمور المحيرة فيما يتعلق بأمر التنظيمات العسكرية أنه رغم وجود هذه الجيوش التي لا تحصى والتي كانت تضم بينها أناساً من مختلف البلاد ومختلف القبائل ومختلف الطبائع والأمزجة، ورغم انتشارها في مناطق واسعة متباعدة، وصلت أحياناً إلى مئات الآلاف من الأميال عن دار الخلافة، إلا أن الجيش بأكمله في طول البلاد وعرضها كان تحت قيادة عمر، وتحت سيطرته، وكأنه موجود بنفسه مع الجيش حيثما كان.

### تنظيم المراسلات والتقارير :

والسبب الأساسي في هذا هو قوة شخصية عمر ورهبته، إلا أن أعظم الأسباب كان إرسال عمر من يكتب الأخبار ويسجلها ويرسلها إليه، من داخل الجيش في أي مكان كان، ويكتب الطبري عن هذا في موضع: «وكانت تكون لعمر العيون في كل جيش تكتب إلى عمر بما كان في تلك الغزاة وبلغه الذي قال عتبة»[٢]، وفي موضع آخر يكتب: «وكان عمر لا يخفى عليه شيء في عمله»[٣]، ومن خلال هذه الوسيلة كان عمر يتدارك أي شطط يصدر عن أي إنسان بالجيش حيثما كان، فيكون في ذلك غيره للآخرين، وفي فتوحات فارس قال عمرو بن معد يكرب كلمة أساء فيها إلى قائده، فعلم عمر على الفور بما حدث، وكتب في الوقت نفسه إلى عمرو بن معد يكرب يوبخه، فلم يجرؤ بعدها على فعل مثل هذا الأمر مطلقًا، وهناك المئات من الأمثلة من مثل هذا النوع لا يمكن حصرها.

---

(١) فتوح البلدان ص ١٥٨ .

(٢) الطبري ص ٢٣٠٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٢٦ .

# إدارة التعليم

طوَّر عمر رضي الله عنه التعليم إلى مدى كبير، فأقام دور التعليم الأولي في البلاد المفتوحة حيث كانوا يدرسون فيها القرآن الكريم والشعر الأخلاقي وأمثال العرب، كما عُين كبار علماء الصحابة لتعليم الحديث والفقه في مراكز البلاد، وحددت الرواتب للمدرسين والمعلمين ولما كان التعليم في معظمه دينياً لهذا سيأتي ذكره بالتفصيل في الحديث عن الإدارة الدينية.

# الإدارة الدينية

كان العمل الأساس لعمر كخليفة للمسلمين هو تعليم الدين وتلقينه، وكان هذا في الحقيقة من سمات أعمال عمر البارزة، ولكن التعاليم الروحية للدين ـ أي التوجه إلى الله، والاستغراق في العبادة وصفاء القلب وقطع العلائق والخضوع والخشوع، كل هذه الأمور لا يمكن أن تخضع لأي إدارة مادية محسوسة، ولهذا لا يمكن أن نذكرها في تفصيل نظام الحكم، وسترد في السيرة الذاتية لعمر رضي الله عنه، ولا شك أن نشر الإسلام، وتعليم القرآن الكريم والحديث وتطبيق الأحكام الدينية يمكن أن يندرج تحت هذه الإدارة أي الإدارة الدينية، وسيرد هنا بالتفصيل كل ما قام به عمر رضي الله عنه في هذا المجال.

**طريقة نشر الإسلام :**

كان نشر الإسلام من أهم الأعمال في هذه الإدارة، ونشر الإسلام لا يعني إكراه الناس على الدخول في الإسلام بقوة السيف، فقد كان عمر رضي الله عنه يعارض تماماً هذه الطريقة، وكل إنسان يعمل طبقاً للآية القرآنية الكريمة ـ دون تأويل[1] ـ ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ سيكون بالضرورة ضد هذه الطريقة

---

(١) هذه الرواية موجودة في طبقات ابن سعد، وهو كتاب موثوق به للغاية، انظر =

أيضاً، وقد قال عمر نفسه «لا إكراه في الدين» عندما لم يسلم غلامه رغم نصيحته له وترغيبه في الإسلام.

ومعنى نشر الإسلام هنا هو أن يدعى العالم كله إلى الإسلام، على أن يتم إفهام الناس أصول الإسلام ومبادئه ومن ثم ترغيبهم فيه.

وكان عمر رضي الله عنه يؤكد على الجيوش التي يرسلها إلى أي بلد أن يرغبوا أهله أولاً في الإسلام، وأن يُفهموهم أصوله وعقائده، وهكذا كتب إلى سعد بن أبي وقاص فاتح إيران رسالة جاء فيها:

«وقد كنت أمرتك أن تدعو من لقيته إلى الإسلام قبل القتال».

وكتب القاضي أبو يوسف أن من عادة عمر رضي الله عنه أنه إذا اجتمع إليه جيش عين عليهم قائداً من أهل العلم والفقه، ومن الواضح أن العلم والفقه كانا ضرورة لازمة للقادة، وهي ضرورة اقتضاها واجب نشر الإسلام، ولعلكم قرأتم في فتوحات الشام والعراق أن السفارات الإسلامية التي ذهبت إلى الفرس والنصارى أوضحت لهم أصول وعقائد الإسلام بطريقة جلية ورائعة.

إن أعظم طريقة لنشر الإسلام هو عرض نموذج الإسلام أمام غير المسلمين، وهو النموذج الذي يجذب قلوب هؤلاء الناس إلى الإسلام من تلقاء أنفسهم.

لقد انتشر الإسلام انتشاراً واسعاً في عهد عمر رضي الله عنه وكان السبب الأهم في هذا هو تربيته وإرشاده للمسلمين بحيث صاروا نموذجاً حقيقياً للإسلام، فحيثما كانت جيوش المسلمين تتوجه كان الناس يتوقون لرؤيتهم، لأن سيطرة بعض أهل البادية على الدنيا كان أمراً لا يخلو من الحيرة والعجب، وهكذا فإذا رأوا هؤلاء الناس والتقوا بهم، رأوا فيهم صورة

---

= كنز العمال المجلد الخامس ص ٤٩ ط حيدر آباد الركن.

الصدق والبساطة والطهارة والحماس والإخلاص، وكانت هذه الأمور ذاتها تجذب من تلقاء نفسها قلوب الناس فيدخل الإسلام في قلوبهم.

ولعلكم قرأتم في أحداث الشام كيف تأثر جورج سفير الروم حين ذهب إلى جيش أبي عبيدة، وكيف انفصل فجأة عن قومه وأسرته وصار مسلماً، وشطا الذي كان من أكبر رؤساء حكومة مصر سمع عن أحوال المسلمين، فانبهر بالإسلام، وفي نهاية الأمر أسلم مع ألفين من أصحابه(١).

وقد أكد إعجاز الفتوحات الإسلامية على هذه الفكرة، فأمام جماعة من البدو تزلزلت أقدام الأمم العريقة القوية، فوقر في قلوب الأمم أصحاب الفكر الطيب أن هذه الطائفة من البدو تحوطها الرعاية السماوية، وهكذا عندما أرسل يزدجرد إمبراطور الفرس وفداً إلى خاقان الصين، يطلب منه العون سأله الخاقان عن أحوال جيش المسلمين، وبعد أن سمع ما قال أجاب عليه بقوله: «لا فائدة من قتال هؤلاء الناس».

وفي معركة فارس حين فر أحد شجعان الفرس المشهورين، فقبض عليه قائد الجيش وأراد أن يعاقبه لفراره، قام بتحطيم حجر كبير بسهمه وقال: إن هذا السهم الذي لا يؤثر في مثل هؤلاء القوم يعني أن الله معهم، فلا فائدة من قتالهم(٢).

ويذكر جدّ أبي رجاء الفارسي أنه حضر معركة القادسية وكان مجوسياً في ذلك الوقت، وعندما بدأ العرب الرماية قلنا بعد أن رأينا سهامهم، إنها كالمغازل، لكن مغازلهم تلك قضت على إمبراطوريتنا.

وأثناء الهجوم على مصر كتب أسقف الإسكندرية إلى الأقباط بأن

---

(١) في المقريزي ص ٢٢٦ «فخرج شطا في ألفين من أصحابه ولحق بالمسلمين وقد كان قبل ذلك يحب الخير ويميل إلى ما يسمعه من سيرة أهل الإسلام».

(٢) الطبري أحداث معركة فارس.

إمبراطورية الروم قد زالت فانضموا الآن إلى المسلمين[١].

وهناك أسباب أخرى لانتشار الإسلام إضافة للأسباب التي سبق ذكرها، فالقبائل العربية التي كانت تسكن الشام والعراق، واعتنقت النصرانية كانت تميل بفطرتها إلى النبي العربي لا إلى الأمم الأجنبية غير العربية، ولهذا دخلوا الإسلام مع مرور الوقت، ولهذا السبب كان المسلمون الجدد من العرب آنذاك أكثر من المسلمين الذين كانوا ينتمون إلى قوميات أخرى، ومن الأسباب أن بعض كبار القادة الدينيين كانوا يسلمون، مثلما حدث حين فتحت دمشق فأسلم الأسقف أردكون على يد خالد بن الوليد[٢]، وربما كان إسلام أحد أئمة الدين سبباً في ترغيب أتباعه للدخول تلقائياً في الإسلام.

ولجميع هذه الأسباب المتنوعة دخل كثير من الناس في الإسلام، ولم يفرد مؤرخونا للأسف عنواناً مستقلًا لهذا الموضوع في أيٍّ من كتاباتهم، ولهذا لا يمكن تقدير عددهم ومع هذا سنحاول ذكر بعض ما وقفنا عليه من كتب التذاكر كلما تعرضنا لهذا الموضوع.

**من أسلموا في عهد عمر رضي الله عنه :**

في أواخر سنة ١٦هـ حين فتحت جلولاء أسلم كبار الرؤساء والأمراء عن طيب خاطر، وكان أكثرهم نفوذاً وشهرة جميل بن بصبهري وبسطام بن نرسي، ورفيل وفيروز[٣]، فبإسلام هؤلاء الأمراء والحكام انتشر الإسلام بين رعاياهم تلقائياً.

وبعد معركة القادسية، أسلم أربعة آلاف من جند الديلم الذين دربهم خسرو برويز وكان يطلق عليهم كتيبة الحرس الإمبراطوري، وقد أسلمت

---

(١) المقريزي المجلد الأول ص ٢٨٩ .
(٢) معجم البلدان، ذكر قنطرة بن سنان.
(٣) فتوح البلدان ص ٢٦٥ .

الكتيبة بأكملها[١].

وكان قائد مقدمة جيش يزدجرد بطلًا مشهوراً يدعى سياه، وحين ذهب يزدجرد إلى أصفهان استدعى سياه، وأرسله إلى إصطخر مع ثلاثمائة من كبار القادة والأبطال وأمره أن يختار وهو في طريقة الجنود الأقوياء من كل مدينة يمر بها ويصطحبهم معه، وعندما وصل الجيش الإسلامي إلى «تستر» كان سياه يقيم مع قواده في تلك النواحي، فجمع ذات يوم جميع من معه وقال لهم: كنا نقول إن هؤلاء الناس (العرب) سينتصرون علينا وهكذا يصدق هذا القول يوماً بعد يوم، فمن الأفضل أن نقبل الإسلام، وهكذا أسلموا جميعاً في ذلك الوقت[٢]، وكان يقال لهؤلاء الناس «الأساورة»، وفي الكوفة نهر معروف باسم نهر الأساورة، وبإسلامهم أسلم السيابجة والزط والاندغار، وكان هؤلاء من سكان السند، وكانوا قد أُسروا في عهد خسرو برويز وأُلحقوا بالجيش.

وفي مصر أيضاً انتشر الإسلام بكثرة، وحين أسر عمرو بن العاص أهالي بعض القرى في مصر لأنهم كانوا يقاتلون المسلمين، واسترقهم وباعهم فتفرقوا بين العرب قام عمر رضي الله عنه بإعادتهم من كل مكان، وإرسالهم إلى مصر واتخذ في سبيل ذلك أسلوباً حازماً، وكتب إلى عمرو بن العاص أن لهؤلاء الخيرة في أن يدخلوا الإسلام أو يبقوا على دينهم، وكان من بين هؤلاء سكان قرية بلهيب الذين أسلموا جميعاً عن طيب خاطر[٣]، وبعد فتح دمياط حين تقدمت الجيوش الإسلامية انتشر الإسلام في كل مكان من البقارة والورادة حتى عسقلان في الشام[٤].

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٧٤ .
(٣) المقريزي المجلد الأول ص ١٦٦ .
(٤) المقريزي في ص ١٨٤ جاء مايلي: «ولما فتح المسلمون الفرما بعدما افتتحوا =

وشطا[١] مدينة مصرية شهيرة، اشتهرت بصناعة النسيج والأقمشة، ومال حاكمها إلى الإسلام بعد أن سمع عن أحوال المسلمين وسيرتهم، وهكذا حين وصل الجيش الإسلامي إلى دمياط خرج من شطا في ألفين من أهلها فالتقى بالمسلمين وأعلن إسلامه[٢].

والفسطاط التي بناها عمرو بن العاص، ومكانها الآن القاهرة العاصمة، كان فيها ثلاثة أحياء كبرى حيث أسكن فيها المسلمون الجدد الذين شكلوا الغالبية العظمى، وقد بُني الحي الأول باسم محلة (بني نبه) وكانت أسرة يونانية اعتنقت الإسلام، وقد اشترك مائة مقاتل من هذه الأسرة جنباً إلى جنب مع الجيش الإسلامي في معارك فتح مصر.

والحي الثاني كان باسم (بنو الأزرق) وهذه أيضاً أسرة يونانية، كانت كثيرة العدد حتى إنها قدّمت أربعمائة مقاتل للمشاركة في فتح مصر.

والحي الثالث كان باسم محلة (روبيل) وضم أولئك الناس الذين كانوا يسكنون قبلًا في اليرموك وقيسارة، وكانوا قد جاءوا مع عمرو بن العاص إلى مصر بعد أن دخلوا في الإسلام، وكانت هذه أسرة يهودية كبيرة، شارك منها في فتح مصر ألف مقاتل[٣].

---

= أهلها في الإسلام وما حولها إلى عسقلان.

(١) كانت شطا مدينة مشهورة في العصور الوسطى وتقع على الشاطىء الغربي لبحيرة المنزلة، وقد ذكرها الأسقف أبرشية، وقد أقام العرب فرقاً من الجند عند أجزاء من الشاطىء لمواجهة هجمات الروم البحرية وكانت شطا بين هذه الأجزاء وغدت شطا في القرون الوسطى مركزاً صناعياً وأثنى الجغرافيون على بضائع شطا التي عرفت باسم شطاوى، وكان بها مصنع حكومي يسمى (دار الطراز) صنعت فيه كسوة الكعبة بأمر هارون الرشيد. (المراجع).

(٢) المقريزي المجلد الأول ص ٢٢٦.

(٣) انظر تفصيل ذلك في المقريزي المجلد الأول ص ٢٦٨.

وكان في الفسطاط حي آخر قاصر على توطين المسلمين الجدد من المجوس، وهكذا عرف هذا الحي بمحلة البارسيين أو الفرس، وكان هؤلاء القوم في الأصل من جيش باذان الذي ولاّه أنوشيروان على اليمن وعندما وصل المسلمون إلى الشام أسلم هؤلاء القوم، وقدموا إلى مصر مع عمرو بن العاص.

وهكذا يتضح من هذا أن الإسلام انتشر في كل مكان بكثرة، وقد كتب البلاذري عند ذكر «بالس» أن أبا عبيدة رضي الله عنه قد أسكن بها العرب الذين كانوا يقيمون بالشام وأسلموا[١]، ويذكر الأزدي في وصف معركة اليرموك أن جيوش الروم حين نزلت اليرموك كان يرسل للتجسس أُناس من نفس سكان المنطقة، كانوا قد دخلوا الإسلام، وقد أكّدَ عليهم ألا يظهروا إسلامهم حتى لا يشك فيهم الروم، وذكر الطبري في أحداث سنة ١٤هـ أن كثيراً من أهل فارس ساعدوا المسلمين في هذه المعركة، ومنهم من كان قد أسلم قبل المعركة ومنهم من أسلم بعدها[٢].

وهكذا يتضح من هذه الأحداث أن الإسلام انتشر بكثرة في أماكن متفرقة في عهد عمر، وانتشر بكرمه ولطفه وسماحته لا بالسيف.

ويأتي أمر هام بعد نشر الإسلام، وهو مبادىء الإسلام، أي نشر الأمور الدينية أي الأمور التي تعد أساس الدين الإسلامي.

ويأتي حفظ القرآن وتعليمه في مقدمة هذه الأمور كلها، وقد كتب شاه ولي الله عن الجهود التي قام بها عمر في هذا المجال، وصدق حين قال: إن كل من يقرأ القرآن الكريم اليوم من طوائف المسلمين يدين بالشكر لعمر الفاروق.

---

(١) البلاذري ص ١٥٠.

(٢) الطبري ص ٢٢٦١.

## جهود عمر رضي الله عنه في جمع القرآن وترتيبه

من المسلَّم به أن القرآن الكريم هو أصل أصول الإسلام، ولا يمكن لأحد أن ينكر أن ما بُذل من جهد في جمع القرآن الكريم وترتيبه، وكتابة نسخه الصحيحة وحفظها ونشر تعاليمه في جميع البلاد، كان بتوجيه من عمر رضي الله عنه. وتفصيل ذلك هو أن القرآن الكريم لم يرتب في عهد رسول الله ﷺ، وكان بعضه مخطوطاً على العظام، وبعضه على سعف النخيل، وبعضه على ألواح الحجارة، ولم يكن هناك من الناس من يحفظه كاملًا، فكان هناك من يحفظ سورة من القرآن، وكان هناك من يحفظ أخرى.

وفي عهد أبي بكر حين حدث القتال مع مسيلمة الكذاب، استشهد مئات الصحابة، وكان من بينهم كثير من حفظة القرآن، وبعد انتهاء المعركة ذهب عمر رضي الله عنه إلى أبي بكر رضي الله عنه وقال له: لو مات حفظة القرآن هكذا فسيضيع القرآن، لهذا يجب التفكير من الآن في جمعه وترتيبه.

فقال أبو بكر رضي الله عنه كيف أفعل مالم يفعله رسول الله ﷺ ؟

فأوضح له عمر رضي الله عنه مراراً وتكراراً أهمية هذا العمل وضرورته حتى وافق أبو بكر على رأيه، وكان زيد بن ثابت من أكثر الصحابة الذين تولوا مهمة كتابة الوحي فاستدعاه وأسند إليه هذه المهمة أي: جمع سور القرآن وآياته من كل مكان، ووضعها في مكان واحد، وأعلن عمر رضي الله عنه على الملأ أن يأتي إليه كل من تعلم جزءاً من أجزاء القرآن عن رسول الله ﷺ واشترط في هذا أن يشهد شاهدان على كل من يقدم آية من آيات القرآن الكريم، ويشهدان على أنهما رأيا هذه الآية مكتوبة في عهد رسول الله ﷺ، وهكذا جُمعت السور كلها، وتم تكليف عدد من الناس بكتابة القرآن الكريم في مجموعة واحدة تحت إشرافه، فكان سعد بن العاص يُملي وزيد يكتب، وأمر

المشرفين على هذا العمل بأنه لو ظهر اختلاف في نطق أي كلمة فلتكتب طبقاً للهجة قبيلة مضر لأن القرآن الكريم نزل بلغة مضر[١].

**احتياطات حفظ القرآن الكريم وضبطه وإعرابه :**

في ذلك الوقت كانت هناك احتياطات عدة يجب مراعاتها لحفظ القرآن وضبطه وإعرابه، ومنها التوسع في نشر تعليمه، وتخريج مئات الآلاف من حفظة القرآن حتى لا يكون هناك أدنى احتمال للتحريف والتغيير، والأمر الثاني هو الحفاظ على ضبط الألفاظ وصحتها، والأمر الثالث هو كتابة نسخ كثيرة من القرآن الكريم، وتوزيعها بكثرة في البلاد، وقد أنجز عمر هذه الأمور الثلاثة على أكمل وجه بحيث يصدق القول بأنه ليس في الأمكان أحسن مما كان.

**تنظيم تعليم القرآن الكريم :**

أقام عمر دروس تعليم القرآن الكريم في كل مكان في البلاد المفتوحة، فعين المعلمين والقراء، وحدد لهم رواتبهم، وهذا العمل يعد من أوليات عمر رضي الله عنه، وهو تحديد رواتب المعلمين[٢] ولم تكن الرواتب قليلة إذا ما قورنت برواتب تلك الأيام.

**كتاتيب القرآن :**

وعلى سبيل المثال كانت رواتب المعلمين الذين يعلمون الأطفال الصغار في كتاتيب المدينة المنورة خمسة عشر درهماً في الشهر.

**التعليم الإلزامي للبدو :**

وأقام عمر رضي الله عنه للبدو نظاماً للتعليم الإجباري لتحفيظ القرآن

---

(١) كنز العمال المجلد الأول ص ٢٧٩ والاتقان في علوم القرآن.

(٢) في سيرة العمرين لابن الجوزي «إن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كانا يرزقان المؤدبين والأئمة والمعلمين.

الكريم، وهكذا عين رجلاً يدعى أبو سفيان مع عدة رجال يتجولون بين القبائل ويمتحنون كل فرد ويُعاقب من لا يحفظ بعضاً من القرآن الكريم(١).

**تعليم الكتابة :**

وفي الكتاتيب كانوا يعلمون الكتابة أيضاً، وكانت الأوامر قد أُرسلت إلى جميع مراكز البلاد حتى يعلموا الأطفال الفروسية والكتابة، وقد رُوى على لسان أبي عامر سليم وهو من رواة الحديث أنه وقع أسيراً في طفولته فجاء المدينة المنورة، وهنا أُلحق بالكتاب، وحين كان المعلم يُملي عليه حرف الميم ولا يستطيع أن يكتبه بطريقة جيدة، كان يقول له اكتبه مستديراً كعيون البقرة(٢).

**ابتعاث القراء من الصحابة لتعليم القرآن في المناطق البعيدة :**

كان هناك خمسة من الصحابة حفظوا القرآن الكريم كله في عهد النبي ﷺ وهم: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأُبيّ بن كعب، وأبو أيوب، وأبو الدرداء، وكان أُبيّ بن كعب هو سيّد القُراء من بين هؤلاء، وقد امتدحه النبي ﷺ في هذا الصدد، استدعاهم عمر رضي الله عنه وقال لهم: إن مسلمي الشام في حاجة لأن تذهبوا إليهم وتعلموهم القرآن الكريم، وكان أبو أيوب قد طعن في السن، بينما كان أُبيّ بن كعب مريضاً، ولهذا لم يستطيعا الذهاب، ووافق الثلاثة الآخرون بكل سرور، فأوصاهم عمر بأن يذهبوا أولاً إلى حمص، ويقيموا هناك عدة أيام، وعندما ينتشر التعليم هناك، يبقى أحدهم بينما يتوجه واحد من الاثنين الآخرين إلى دمشق والآخر إلى فلسطين، وهكذا توجه هؤلاء الصحابة أولاً إلى حمص، وحين استتب الأمر هناك بطريقة طيبة، بقي

---

(١) الأغاني جـ ١٦ ص ٥٨ وهذه الواقعة مذكورة في الإصابة في أحوال الصحابة.
(٢) معجم البلدان، تنسب هذه الرواية إلى عهد أبي بكر، إلا أن صاحب المعجم نفسه اعترض عليها إذ لم تكن هذه البلاد قد فتحت حتى ذلك الوقت.

عبادة رضي الله عنه فيها، بينما توجه أبو الدرداء رضي الله عنه إلى دمشق، وتوجه معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى فلسطين، وتوفي معاذ بن جبل في طاعون عمواس[١] بينما عاش أبو الدرداء حتى آخر خلافة عثمان وظل مقيماً في دمشق.

## طريقة تعليم القرآن :

كانت طريقة أبي الدرداء في تعليم القرآن كما كتب العلامة الذهبي في طبقات القرّاء أن يجلس في المسجد الجامع بعد صلاة الفجر، ومن حوله قُرّاء القرآن الكريم، فكان أبو الدرداء يوزعهم في جماعات منفصلة تضم كل منها عشرة رجال، ويعين لكل جماعة قارئاً يُقرِئهم القرآن ويدور بينهم يُنصت جيداً إلى قراءتهم، وعندما يحفظ الطالب القرآن كله، كان أبو الدرداء يأخذه ليتتلمذ على يديه.

## عدد طلبة القرآن في مسجد دمشق :

وقد أحصاهم أبو الدرداء ذات يوم فكان في مجلسه الخاص ألف وستمائة طالب.

## وسائل نشر القرآن الكريم :

اتخذ عمر رضي الله عنه العديد من الوسائل والتدابير لنشر القرآن الكريم فضلًا عما سبق ذكره، ومن هذه الوسائل أنه أمر الناس جميعاً بأن يحفظوا السور الضرورية للمسلم مثل البقرة والنساء والمائدة والنور لأنها تتضمن الأحكام والفرائض[٢] وكتب إلى عمّاله أن يجعلوا لمن يحفظ القرآن راتباً[٣]

---

(١) هذه التفاصيل بأكملها في كنز العمال المجلد الأول ص ٢٨١ والرواية الأصلية في طبقات ابن سعد.

(٢) كنز العمال المجلد الأول ص ٢٢٤.

(٣) المصدر السابق ص ٢١٧.

(وقد ألغى هذا الحكم فيما بعد إذ لم تكن هناك ضرورة له) وكان من بين الأوامر الهامة التي يرسلها للجيش أن يتعلموا قراءة القرآن، وكان يطلب من وقت لآخر من العمال السجّل الذي يتضمن أسماء قراء القرآن الكريم، ونتيجة لهذه الإجراءات والتدابير قرأ القرآن عدد لا يحصى من الناس.

## عدد حفظة القرآن :

لم يكن من السهل أبداً إحصاء أعداد من كانوا يتلون القرآن الكريم في المصحف الشريف، لكن عدد حفظة القرآن وصل إلى المئات بل الآلاف، وعندما أرسل عمر رضي الله عنه إلى قادة الجيش خطاباً يطلب منهم أن يرسلوا إليه حفظة القرآن الكريم حتى يبعثهم إلى بعض الأماكن لتعليم القرآن الكريم، أجابه سعد بأن في جيشه فقط ثلاثمائة حافظ[١].

## وسائل ضبط القرآن الكريم :

وبالنسبة لهذا الجانب أي الإعراب الصحيح والنطق السليم، اهتم به عمر كثيراً وكان هذا الجانب في الحقيقة مقدماً على كل شيء، فعندما دوّن القرآن الكريم، لم يدون بالإعراب، لذا لم يكن من المفيد نشر القرآن الكريم فقط إذا لم تتخذ الإجراءات اللازمة لتعليم الإعراب الصحيح والنطق السليم، ففي هذا حماية للإسلام من مخاطر جسيمة، وهكذا اتخذ عمر عدة إجراءات وتدابير مختلفة في هذا الصدد، يأتي على رأسها إرسال الأوامر المشددة إلى كل مكان حتى يكون تعليم القرآن بالنطق الصحيح والإعراب الصحيح، وكانت عبارته التي صدرت عنه طبقاً لرواية ابن الأنباري كما يلي: «تعلموا إعراب القرآن كما تعلّمون حفظه» وجاء في مسند الدارمي: «تعلموا الفرائض واللحن والسنن كما تعلّمون القرآن».

---

(١) نفسه ص ٢٢٨.

## تعليم الآداب والعلوم العربية

والأمر الثاني أنه جعل تعليم الآداب والعلوم العربية إجبارياً بالإضافة إلى تعليم القرآن الكريم حتى يستطيع الناس تمييز الصحيح والخطأ من الإعراب بأنفسهم.

والأمر الثالث هو أنه أمر بألا يسمح بدراسة القرآن لمن لا يكون عالماً باللغة[١].

ويأتي الحديث في المنزلة الثانية بعد القرآن الكريم، ومع أن عمر رضي الله عنه بذل جهوداً كثيرة لنشر الحديث لكنه راعى الحذر، وهذا دليل على دقة إدراكه للأمور الحساسة، إذ لم يسمح برواية الحديث إلا لخاصة الصحابة.

**تعليم الحديث :**

يكتب شاه ولي الله: «وكذلك أرسل الفاروق الأعظم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه مع جماعة إلى الكوفة، وأرسل معقل بن يسار رضي الله عنه، وعبدالله بن مغفل وعمران بن حصين إلى البصرة، وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء إلى الشام، ثم أرسل تحذيراً إلى معاوية بن أبي سفيان أمير الشام: ألا يتجاوز أوامره»[٢].

والحقيقة أن الأصول التي أرساها عمر فيما يتعلق برواية الحديث من مآثر دقة إدراكه وفهمه، ولكن ليس هنا مجال تفصيل الحديث عنها، وسوف نفصل ذلك حين يأتي ذكر كماله وفضله في سيرته الذاتية.

**الفقه :**

وتأتي مرتبة الفقه بعد الحديث، ولأن كل إنسان يتعرض يومياً للمسائل

---

(١) كنز العمال المجلد الأول ص ٢٢٨.
(٢) إزالة الخفاء الجزء الثاني ص ٦.

الفقهية لذا قام عمر بنشر الفقه بدرجة لا يمكن أن تتم حتى في وقتنا الحاضر رغم وجود الوسائل الحديثة، واتخذ عمر السبل التالية لنشر المسائل الفقهية:

**نشر المسائل الفقهية :**

١ـ كان يتولى بنفسه شفاهة تعليم المسائل الفقهية كلما سنحت له الفرصة وسمح له الوقت بذلك، فكان يوضح في خطبة الجمعة جميع الأحكام والمسائل الضرورية، كما كان يوضح أحكام الحج ومناسكه في خطبة الحج، وجاء في موطأ الإمام محمد أن عمر ألقى خطبة في عرفات، فأوضح جميع أمور الحج، وهكذا في الخطب المشهورة والمؤثرة التي ألقاها من وقت لآخر في سفره إلى الشام وبيت المقدس وغيرهما، فقد أوضح فيها جميع أصول الإسلام وأركانه ومهماته، ولما كان يجتمع في مثل هذه المناسبات جماعات كثيرة من الناس، لذا كان بيان هذه المسائل على هؤلاء، يتم بصورة يصعب أن تحدث بأي شكل آخر، والفقهاء عادة يرجعون إلى ما ورد في الخطبة الشهيرة التي ألقاها عمر رضي الله عنه في الجابية بدمشق، في كثير من المسائل الفقهية.

٢ـ كما كان عمر رضي الله عنه يرسل الأحكام والمسائل الدينية إلى العمال من وقت لآخر، وعلى سبيل المثال فإنه أرسل إلى جميع عماله وصية مفصلة عن مسائل تحديد أوقات الصلاة الخمس التي يختلف فيها المجتهدون حتى يومنا هذا، وقد نقل الإمام مالك عباراتها بالنص في كتابه الموطأ، كما نقل أيضاً الكتاب الذي أرسله إلى أبي موسى الأشعري فيما يتعلق بهذه المسألة، وكان عمر رضي الله عنه قد أرسل كتاباً إلى عمّال البلاد المفتوحة يطلعهم على عدم جواز الجمع بين الصلاتين[١].

وفي سنة ١٤هـ حين أقام صلاة التراويح جماعة في المسجد النبوي كتب إلى حكام جميع الأقاليم بأن تقام التراويح هكذا في كل مكان، وكتب

---

(١) موطأ الإمام محمد ص ١٢٩.

بالتفصيل جميع الأحكام المتعلقة بالزكاة، وأرسلها إلى أبي موسى الأشعري وبقية العمّال والولاة وكان عنوان هذا الكتاب كما أثبته شاه ولي الله عن الإمام مالك:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب الصَدَقَة... إلخ» وسبق أن ذكرنا الرسالة التي أرسلها إلى أبي موسى الأشعري عن القضاء والشهادة، كما كان يكتب دقائق المسائل الفقهية ويرسلها إلى العمال فضلًا عن المسائل الهامة التي كانت تعرض للناس.

وكتب مرة إلى أبي عبيدة، إنني سمعت أن المسلمات يذهبن إلى الحمامات ويستحممن سافرات أمام نساء النصارى، إنه لا يجوز للمرأة المسلمة أن تكشف عن نفسها أمام امرأة تنتمي إلى دين آخر.

وفيما يتعلق بالصوم أرسل إلى جميع العمال حكماً يقول: «لا تكونوا من المسرفين لفطركم» وذكر زيد بن وهب أن جاءنا من عمر حكم بأن المرأة لا تصوم تطوعاً إلا بإذن زوجها ـ وروى أبو دايل أن عمر كتب إلينا أن الأهلة بعضها أكبر من بعض ـ وهكذا توجد أمثلة كثيرة من هذا النوع.

### الإجماع في المسائل الفقهية :

من الجدير بالملاحظة أن الأحكام الفقهية التي كان يصدرها عمر كانت بمثابة قانون للدولة لهذا كان يتوخى الحذر دائماً حتى تكون هذه المسائل بالإجماع، ومتفقاً عليها، إذ كان هناك كثير من المسائل اختلف فيها الصحابة، فكان عمر يعرضها في حضور جمع من الصحابة مثل أن يصدر حكمه فيها، وعلى سبيل المثال يكتب القاضي أبو يوسف صاحب كتاب الخراج عن حد السارق أن عمر رضي الله عنه استشار في السارق فأجمعوا...[1] الخ.

---

(١) الكتاب المذكور ص ١٠٦.

وعندما ظهر اختلاف فيما يتعلق وغُسل الجنابة، جمع المهاجرين والأنصار كلهم وعرض عليهم هذه المسألة، وطلب فيها رأي الجميع، فقدم الناس آراءً مختلفة فقال عمر حينئذٍ: أنتم أصحاب بدر وقد اختلفتم فمن بعدكم أشد اختلافاً، وهكذا عُرضت هذه المسألة على الأزواج المطهرات، ثم أصدر حكمه بعد مشورتهم[١].

وكان هناك خلاف شديد في تكبيرة الجنازة، فجمع عمر رضي الله عنه الصحابة، وتم الاتفاق بعد دراسة وتمحيص، أي تم الاتفاق على التكبيرات الأربع.

٣ـ كان عمر رضي الله عنه يراعي في تعيين عمال الأقاليم والقادة أن يكونوا علماء وفقهاء، وأعلن هذا في مناسبات كثيرة، وذات مرة خطب على الملأ فقال: «إني أشهدكم على أمراء الأنصار أني لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس في دينهم»[٢]، ولم يكن هذا الالتزام قاصراً على الحكام المدنيين بل كان يراعى أيضاً بالنسبة للقادة العسكريين، يكتب القاضي أبو يوسف[٣]: إن عمر بن الخطاب كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان بعث عليهم رجلًا من أهل الفقه والعلم، وهذا هو السبب في أننا نجد في عهد عمر رضي الله عنه من القادة المدنيين والعسكريين من أمثال أبي عبيدة وسلمان الفارسي وأبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم وغيرهم ممن كانوا يتميزون بالعلم والفضل فضلًا عن كفاءتهم في إدارة الشئون العسكرية والمدنية، وأسماؤهم ترد كثيراً في الحديث والفقه.

**تنظيم تعليم الفقه :**

٤ـ عين عمر رضي الله عنه الفقهاء والمعلمين في جميع أنحاء البلاد الإسلامية

---

(١) إزالة الخفاء ص ٨٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) كتاب الخراج ص ٦٧.

حتى يعلموا الناس الأحكام الدينية، ومع أن المؤرخين لم يكتبوا عن هذا الأمر تحت عنوان خاص، لهذا لا يمكن أن نعرف العدد الصحيح لهؤلاء المعلمين، ولكن يمكن أن نقدر من التصريحات المتفرقة أن عمر كان يعين عدة فقهاء في كل مدينة للقيام بهذه المهمة.

مثلًا كتب صاحب أسد الغابة في سيرة عبدالله بن مغفل رضي الله عنه وكان من بين عشرة صحابة أرسلهم عمر إلى البصرة ليفقهوا الناس(١).

ويكتب العلّامة الذهبي في طبقات الحفاظ عن عمران بن الحصين وهو من كبار الصحابة «وكان ممن بعثهم عمر بن الخطاب إلى البصرة ليفقههم»، وجاء في طبقات الحفاظ عن عبدالرحمن بن غنم أن عمر كان قد أرسله إلى الشام ليعلم الفقه، وكتب صاحب أسد الغابة في سيرته أيضاً أنه هو الرجل الذي علم التابعين في الشام الفقه، وكتب عن عبادة بن الصامت أنه عندما فتحت الشام بعثه عمر مع معاذ بن جبل وأبي الدرداء إلى الشام حتى يقرئوا الناس القرآن الكريم ويعلموهم الفقه، وكتب جلال الدين السيوطي عن حبان بن أبي جبلة في كتابه: أحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة(٢) أن عمر رضي الله عنه أوكل إليه مهمة تعليم الفقه في مصر.

وكانت طريقة التدريس التي يتبعها هؤلاء الفقهاء أنهم كانوا يجلسون في ناحية من نواحي صحن المسجد، ويجتمع من حولهم في حلقات، طلاب العلم بكثرة فيسألون عن المسائل الفقهية، ويتلقون إجابات الفقهاء، ويصرح أبو مسلم الخولاني أنه دخل المسجد في حمص فرأى ثلاثين من كبار الصحابة، يجلسون ويتحدثون في المسائل الفقهية، ولكن عندما يساورهم الشك في مسألة ما، كانوا يستشيرون أحد الشباب فسألت الناس عن اسم هذا

---

(١) العبارة الأصلية: «كان أحد العشرة الذين بعثهم عمر إلى البصرة يفقهون الناس».
(٢) تذكرة الحفاظ ترجمة معاذ بن جبل.

الشاب، فعرفت أنه معاذ بن جبل - ويذكر ليث بن سعد أن أبا الدرداء رضي الله عنه كان إذا قدم المسجد احتشد الناس من حوله بكثرة، وكأن حشداً من الناس قد احتاط بالملك، ويروح هؤلاء الناس يسألونه عن المسائل الفقهية(١).

## رواتب الفقهاء وعلو شأن معلمي الفقه :

يتضح من تصريح ابن الجوزي أن عمر حدد للفقهاء رواتبهم، والحقيقة أنه لم يكن من الممكن تنظيم هذا التعليم بدون رواتب، ومن الجدير بالذكر هنا أن من اختارهم عمر رضي الله عنه لتعليم الفقه مثل معاذ بن جبل وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وعبدالرحمن بن غنم وعمران بن حصين وعبدالله بن مغفل، كانوا خيرة جماعة المسلمين، ويجب علينا للتأكد من صحة هذا الكلام أن نطالع سيرتهم في أسد الغابة والإصابة وغيرها.

## الأشخاص المسموح لهم بتعليم الفقه :

ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن عمر رضي الله عنه كان يحتاط كثيراً فلم يكن يأذن لأي إنسان بتعليم الفقه والإدلاء برأي في المسائل الفقهية، فكانت المسائل الفقهية تُدرّس بشكل خاص، وهي المسائل التي اتفق عليها الصحابة أو التي عرضت بين الصحابة وتم الاتفاق عليها، وهو ما كتب عنه بتفصيل واضح شاه ولي الله، وننقل هنا بعض عباراتها المختارة التي تتعلق ببحثنا.

«وبعد هذا لم يكن هناك مجال للمخالفة بعد أن يقرر الخليفة شيئاً ما، فكانوا لا يتصرفون في كافة الأمور من تلقاء أنفسهم، إذ لم يكن في الإمكان أن يقرروا أمراً دون استشارة الخليفة، ولهذا السبب لم يحدث في هذا العصر أي نوع من الخلاف في المذاهب أو الآراء، فقد كان الجميع متفقين على مذهب واحد، وعندما انتهت تماماً أيام الخلافة الخاصة وظهرت الخلافة العامة، انشغل العلماء في كل بلد بإصدار الفتاوى، فها هو ابن عباس يفتي في مكة،

---

(١) تذكرة الحفاظ ذكر أبي الدرداء.

وها هي عائشة الصدِّيقة وعبدالله بن عمر يشتغلون برواية الحديث في المدينة، بينما يقضي أبو هريرة أوقاته في الإكثار من رواية الحديث، وبالعموم ظهرت في هذه الأيام اختلافات في الفتاوى، إذ لم يكن أحد يطلع على رأي الآخر، وإذا ما اطلع على رأي الآخر، فلا توجد فرصة للمناقشة، وإذا جرت المناقشة لا تتيسر الفرصة لإزالة الشبهات، والابتعاد بالتالي عن أسباب الخلاف للوصول إلى رأي متفق عليه، وإذا تتبعت رواية علماء الصحابة الذين رحلوا عن العالم قبل انتهاء الخلافة الخاصة لوجدتها قليلة، أما الجماعات التي قامت بالرواية بعد أيام الخلافة الخاصة، فكانت تضم صحابة عدول، روايتهم موثوق بها، بل ويجب العمل بها بموجب ما يثبت عنهم من رواية صادقة، أما الفرق بين ماوجد من حديث وفقه في عهد الفاروق، وما حدث ما بعده فهو كالفرق ما بين السماوات والأرض»[١].

**التنظيم العملي :**

كانت جميع الأمور التي ذكرت قبلًا تتعلق بالجانب النظري أو التعليمي، وقد اهتم عمر رضي الله عنه بالجوانب العملية أيضاً، وأسس جميع الهيئات الضرورية لذلك، فعين في كل قرية ومدينة إماماً ومؤذناً، وقرر لهما راتباً يصرف من بيت المال، ويكتب العلّامة ابن الجوزي في سيرة العمرين: «إن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان كانا يرزقان المؤذنين والأئمة»، ويُعلم من موطأ الإمام محمد أنه عين أناساً يقومون بصفة خاصة بتسوية الصفوف[٢]، وعين أناساً في أيام الحج للقيام بنقل الحجيج من العقبة إلى منى[٣] لأن معظم الناس كانوا يقيمون بالعقبة لجهلهم، مع أن القيام بها لا يعد من مناسك الحج.

---

(١) إزالة الخفاء المجلد الثاني ص ١٤٠.
(٢) موطأ الإمام محمد ص ٨٦.
(٣) نفسه ص ٢٢٩.

ولما كان عمر رضي الله عنه قد أدى مناسك الحج في زمان خلافته عشر مرات متصلة فكان أميراً للحجاج في كل مرة، وكان يتولى خدمة إرشاد الحجاج بنفسه.

## تعمير المساجد

شيد عمر رضي الله عنه مساجد كثيرة في جميع البلاد المفتوحة[١]، فقد كتب إلى أبي موسى الأشعري حاكم البصرة أن يبني في البصرة مسجداً جامعاً، وأن يبني لكل قبيلة مسجداً منفصلًا، وأرسل أوامر مشابهة إلى سعد ابن أبي وقاص وعمرو بن العاص، وكتب إلى جميع عمّال الشام حتى يشيدوا مسجداً في كل مدينة وبلدة، وهذه المساجد مشهورة اليوم بالجوامع العمرية مع أن مبانيها الأصلية لا وجود لها اليوم، ويقع أحد هذه الجوامع العمرية في بيروت، وكان للمؤلف شرف الصلاة فيه. وقد كتب المحدث جمال الدين في روضة الأحباب أنه في عهد عمر رضي الله عنه شيد أربعة آلاف مسجد، ومع أن هذا العدد الكبير غير ثابت، لكن لا شك أن عدد المساجد الفاروقية لا يقل عن عدة آلاف.

## توسعة الحرمين الشريفين

قام عمر رضي الله عنه بتوسعة الحرم الشريف، واهتم بتجميله، وتفصيل ذلك أنه مع انتشار الإسلام يوماً بعد يوم، بدأت مساحة الحرم تضيق، ولهذا قام عمر رضي الله عنه بشراء البيوت المحيطة بالحرم، وضم أراضيها إلى صحن الحرم الشريف، ولم يكن هناك حتى ذلك الوقت أي جدار يحيط بالحرم، يميز حدوده عن حدود المباني العامة، ولهذا بنى عمر رضي الله عنه حول الحرم جداراً، كان يضع عليه المصابيح التي تُضاء في الليل[٢]. ومع أن

---

(١) تاريخ المقريزي المجلد الثاني ص ٢٤٦.

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٥٤ وفتوح البلدان ص ٤٦.

الكعبة كانت تكسى دائماً، ففي الجاهلية كانت تكسى بالأنطاع، إلا أن عمر رضي الله عنه قد أمر بكسوتها بالقباطي، وهو نوع فاخر من القماش[١] يصنع في مصر، ولما كانت حدود الحرم (٣ أميال من جانب و ٧ أميال أو تسعة أميال من جانب آخر) تتعلق بالكثير من الأحكام الشرعية، من هنا نصبت أحجار في كل ناحية عرفت باسم أنصاب الحرم، ولهذا قام عمر سنة ١٧هـ بتجديدها، متوخياً في ذلك الحيطة والحذر، وأوكل هذه المهمة إلى مخرمة ابن نوفل وأزهر بن عوف وحويطب بن عبدالعزى وسعيد بن يربوع، وكانوا من الصحابة الذين يعرفون تماماً حدود الحرم، فأثبتوا الأنصاب بدقة بالغة.

كما قام عمر رضي الله عنه بتوسعة المسجد النبوي أيضاً وتجميله، فقد كان المبنى الذي أُقيم في عهد الرسول ﷺ يكفي للمسلمين آنذاك، لكن سكان المدينة كانوا يتزايدون يوماً بعد يوم، فتضاعفت أعداد المصلين، وفي سنة ١٧هـ أراد عمر رضي الله عنه أن يزيد من مساحة المسجد النبوي، فاشترى جميع البيوت المحيطة بالمسجد النبوي، إلا أن العباس رضي الله عنه رفض أن يبيع بيته، وكان عمر رضي الله عنه قد أعطاه تعويضاً كافياً إلا أن العباس لم يوافق على البيع بأي شكل من الأشكال، وفي النهاية رفع قضيته إلى أُبي بن كعب الذي حكم بأنه ليس من حق عمر الشراء بالجبر.

فقال العباس عندئذ: «الآن أعطي داري للمسلمين بلا ثمن»، والخلاصة أن عمر هدم البيوت المحيطة بالمسجد، عدا بيوت أزواج النبي المطهرات، وقام بتوسيع المسجد النبوي، وكان طول المسجد مائة ذراع فصار مائة وأربعين، وأضاف إلى عرض المسجد عشرين ذراعاً، لكن المباني كانت بسيطة، فبقيت الأعمدة وغيرها من الخشب، كما كانت في عهد النبي ﷺ وعند تجديد المسجد بنى عمر رضي الله عنه مصطبة في أحد أركان المسجد وقال للناس،

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٧.

كل من يريد أن يتكلم أو ينشد شعراً فهذا مكانه[١].

ولم يكن بالمسجد النبوي قبل عهد عمر أدوات أو معدات للإضاءة، فكانت بداية إضاءة المسجد النبوي في عهد عمر، فبإذن منه وضع تميم الداري المصابيح في المسجد، ونظم عمر رضي الله عنه تعطير المسجد وتبخيره، وبداية هذا الأمر كانت حين وصلت ذات مرة حزمة من بخور العود ضمن مال الغنيمة فأراد عمر رضي الله عنه أن يوزعها على المسلمين، لكنها لم تكن كافية، فأمر أن تكون للمسجد حتى يستفيد منها المسلمون جميعاً، وهكذا سلمها للمؤذن، فكان يحرقها في المجمرة كل يوم جمعة، ويمر بها أمام المصلين ليبخروا بها ثيابهم، وكان عمر رضي الله عنه هو أول من اهتم بفرش المسجد النبوي، ولكنه لم يلجأ إلى الفرش الغالية أو المزركشة، لكنه طبق في اختياره لها بساطة الإسلام، فاختار فرشاً من الحصير، وكان الهدف من هذا الفرش حماية ملابس المصلين من التلوث بالغبار والتراب.

## ترتيبات متفرقة

سبق ذكر تنظيم الإدارات الأساسية المتعلقة بالحكم، لكن هناك العديد من الإدارات الفرعية لا يمكن أن تُدرج تحت عناوين منفصلة، لهذا رأينا من المناسب أن تذكر هنا في مكان واحد.

من هذه الأمور الفرعية إقامة الديوان وترتيب المستندات وما يستلزم ذلك من تأريخ، فلم تكن هذه الأمور موجودة قبل عمر رضي الله عنه، إذ كانوا في الجاهلية يؤرخون بالأحداث العامة، ففي وقت من الأوقات كانوا يؤرخون بوفاة كعب بن لؤي، وفي وقت آخر كانوا يؤرخون بعام الفيل أي العام الذي هجم فيه أبرهة الأشرم على الكعبة، ثم بعام الفجار، وأرخوا بعد ذلك بسنوات مختلفة، وقد أوجد عمر رضي الله عنه تأريخاً مستقلًا لا يزال يعمل به حتى اليوم.

---

(١) خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ص ١٣٢، ١٣٣ طبعة مصر.

## تحديد السنة الهجرية :

كانت بداية تحديدها عام ١٦هـ حين وصل إلى عمر صك كتب فيه «شعبان» دون تحديد للسنة، فقال عمر كيف نعرف أن المقصود هو شعبان الماضي أو الحالي، وعندئذ عقد مجلس الشورى، فاجتمع كبار الصحابة وعرض عليهم القضية، فرأى أكثرهم تقليد الفرس، وهكذا استدعى هرمزان: (وكان ملك خوزستان، دخل في الإسلام، وكان يقيم في المدينة) فقال هرمزان: عندنا تقويم يقال له (ماه روز) يذكر فيه تاريخ اليوم والشهر، وبعد ذلك ظهرت قضية تحديد بداية السنة، فرأى علي رضي الله عنه أن تبدأ بالسنة الهجرية، فاتفق الجميع على هذا الرأي، وكان النبي ﷺ قد هاجر في ربيع الأول، ومضى من السنة شهران وثمانية أيام، ولهذا وجب أن تبدأ السنة بربيع الأول، ولكن لأن السنة كانت تبدأ عند العرب بشهر محرم، لهذا جعلوا السنة بعد مرور ثمانية وستين يوماً من بداية السنة[١].

ورغم أن الكتابة والقراءة كانت رائجة عموماً في جزيرة العرب منذ القدم، فمع بداية الإسلام كان في قبيلة قريش فقط سبعة عشر رجلًا يعرفون القراءة والكتابة، لكنهم لم يكونوا على دراية بالحساب حتى إنه حين فتحت آيلة سنة ١٤هـ لم يكن في الجيش كله من يعرف الحساب حتى يتولى تقسيم الغنائم بطريقة صحيحة، فاضطروا إلى اللجوء إلى صبي في الرابعة عشرة من عمره وهو زياد بن أبي سفيان، وقرروا له أجراً يوميا[٢] قدره درهمان عن هذا العمل.

كان هذا حالهم في البداية، حتى تم إعداد جميع أنواع المستندات والخرائط بطريقة سليمة بفضل عمر رضي الله عنه.

---

(١) المقريزي المجلد الأول ص ٢٨٤.

(٢) الطبري ص ٣٣٨٨.

## أقسام الدواوين :

كانت حسابات أصحاب الرواتب والأجور من أصعب المشكلات وأكثرها تعقيداً، وهم يعرفون بأهل العطاء، وكانت هذه الحسابات تضم أيضاً الجيش بجميع أقسامه، وقد تجاوز عددها مئات الآلاف، وكانت الجماعات المختلفة تنال رواتبها حسب مراتبها المختلفة مثل: الشجاعة، والشرف، والخدمات السابقة مع مراعاة الفرق بين القبائل، أي كان لكل قبيلة سجل خاص بها، وكان ترتيبها يقوم أيضاً على أسباب مختلفة. وقد أوكل عمر هذه المهمة إلى رجال لهم خبرة في ضبط الحسابات في إدارة الدواوين مثل: عقيل بن أبي طالب، ومخرمة ابن نوفل، وجبير بن مطعم الذين عملوا في دار الخلافة، ومثل المغيرة بن شعبة الذي عمل في البصرة ومثل عبدالله بن خلف الذي عمل في الكوفة.

## ديوان الخراج :

كما ذكرنا قبلًا ظلت جميع دواوين أو دفاتر الخراج باللغات الفارسية والشامية والقبطية، لأن هذا العلم لم يكن قد تطور بأي شكل من الأشكال عند العرب، مما يمكّن من تحويل هذه الدواوين أو الدفاتر إلى اللغة العربية.

## ديوان بيت المال :

كان ترتيب حسابات بيت المال يتم بدقة فائقة، فالمواشي التي كانت تأتي في الزكاة والصدقات كانت تتعلق ببيت المال، وكانت سجلاتها ترتب بتفصيل دقيق، فكانت أوصاف الحيوانات وألوانها وأعمارها تكتب في حيطة بالغة حتى إن عمر رضي الله عنه كان يكتبها بيده أحياناً[١].

## ديوان نفقات الحرب :

كانت حسابات نفقات الحرب وأموال الغنيمة تطلب دائماً من القادة،

---

(١) الطبري ص ٢٧٣٦.

وهكذا كان السبب الأول في عزل خالد عدم اكتراثه بإرسال حساب الدفاتر[١]، وفي فتح جلولاء الذي وقع سنة ١٦هـ حمل زياد بن أبي سفيان دفاتر الحساب، وقدم إلى المدينة وعرضها على عمر رضي الله عنه ليدققها[٢].

**ديوان تعداد السكان :**

كان تحديد الزكاة والجزية يتطلب إجراء إحصاء سكاني في كل منطقة، وكانت سجلاته تحفظ باهتمام بالغ، وقد أثبت المقريزي والطبري بالتفصيل عملية الإحصاء السكاني في كل من مصر والعراق.

وكانت الكشوف قد أُعدت لتتضمن بيانات بالصفات الخاصة، وأُرسلت الأوامر إلى سعد بن أبي وقاص ليعد قائمة تتضمن من يستطيعون قراءة القرآن، وقائمة بالشعراء أيضاً، وسيأتي ذكر ذلك في موضع لاحق.

وكانت المعاهدات المكتوبة مع أهال البلاد المفتوحة أو الأفراد الآخرين، توضع في صندوق وتحفظ بداخله، وكانت تبقى تحت رعاية عمر رضي الله عنه نفسه[٣].

**طريقة تدوين الديوان :**

من الضروري أن نشير هنا إلى طريقة تدوين الديوان في ذلك الوقت والخاص بالحسابات، إذ كانت الحسابات تكتب على ورق مستطيل يطوى بنفس الطريقة التي يستعملها التجار في بلادنا (أي الهند)، أما طريقة التسجيل في سجل أو ديوان خاص فقد اخترعها خالد البرمكي، وزير الخليفة السفاح في زمانه.

**النقود :**

أما عن النقود فيذكر عامة المؤرخين أن عبدالملك بن مروان كان أول من

---

(١) الإصابة في أحوال الصحابة، ذكر خالد بن الوليد.
(٢) الطبري ص ٢٤٦٥.
(٣) المقريزي المجلد الأول ص ٢٩٥٠.

ضرب النقود في الجزيرة العربية، إلا أنه يثبت مما كتب المقريزي أن عمر الفاروق قد ضرب النقود أيضاً، ولهذا ننقل هنا الترجمة الحرفية لعبارة المقريزي.

«عندما صار أمير المؤمنين عمر خليفة، وفتح الله على يديه العراق والشام ومصر، لم يتدخل أي تدخل في أمور النقود بل إنه أبقى العملات القديمة التي كانت تصدر على حالها، وفي سنة ١٨هـ عندما جاءت الوفود من المناطق المختلفة، جاءت وفود البصرة كذلك، وفيها الأحنف بن قيس فذكر الأحنف احتياجات سكان البصرة.

فأرسل عمر بن يسار بناء على طلبه فاحتفر نهراً في البصرة اسمه نهر معقل، وهو النهر الذي قيل فيه هذه الفقرة الشهيرة «إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل»، وقد رتب في ذلك الوقت الأمر بهذه الصورة بحيث قرر لكل فرد جريباً من الغلة ودرهمين شهرياً، وأصدر عمر عملته الدرهم في ذلك الوقت، فكانت تشبه نقود أنوشيروان مع فرق بسيط، فكان على عملات عمر «الحمد لله»، وعلى بعضها «محمد رسول الله»، وكان يكتب على بعضها لا إله إلا الله وحده ـ وفي نهاية عهد عمر كان مجموع وزن عشرة دراهم يعادل ستة مثاقيل»[١].

وهذه الرواية خاصة بالمقريزي، ولكن من المسلّم به عموماً أن عمر رضي الله عنه غيّر في العملة، وأصلح في شكلها وهيئتها، فقد كتب العلّامة الماوردي في الأحكام السلطانية أنه «كان في إيران ثلاثة أنواع من العملة فئة الدرهم وهي: البغلي وهو ثمانية دوانق، والطبري وهو أربعة دوانق، والمغربي وهو ثلاثة دوانق، فأمر عمر رضي الله عنه بخلط كل من البغلي والطبري لأنهما كانا أكثر رواجاً ثم جعل من نصفهما الدرهم الإسلامي، ولهذا أصبح الدرهم الإسلامي ستة دوانق»[٢].

---

(١) انظر كتاب النقود الإسلامية للمقريزي ص ٤ـ٥ مطبعة الجوائب ١٢٩٨هـ.
(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٧.

# حقوق أهل الذمة[1]

## سلوك البارسيين والنصارى مع غيرهم من الأمم :

إذا ما قورنت الحقوق التي أعطاها عمر لأهل الذمة بالحقوق التي أعطتها الإمبراطوريات الأخرى في ذلك الزمان كان الفرق شاسعاً. فالإمبراطوريتان المجاورتان لعمر رضي الله عنه، كانتا إمبراطورية الروم وإمبراطورية فارس، وكانت حقوق الأمم الخاضعة لهما أسوأ من حقوق العبيد، فرغم أن نصارى الشام كانوا على دين الروم، ولكن لم يكن لهم الحق في تملك أراضيهم المحتلة، بل كانوا أنفسهم يعتبرون نوعاً من الممتلكات، تنتقل بانتقال الأرض التي يعيشون فيها، وكان المالك الجديد يمارس عليهم نفس الحقوق التي كان يتمتع بها المالك السابق، أما حال اليهود فكان أسوأ من ذلك، فلم يستحقوا حتى أن يطلق عليهم اسم الرعايا، فالرعايا تنعم على الأقل ببعض الحقوق، أمّا هم فحُرموا حتى من كلمة الحق، وكانت حال النصارى في فارس تستحق الشفقة.

عندما أخضع عمر رضي الله عنه هذه البلاد تغيرت مباشرة تلك الحال، ومنحت لهم الحقوق التي لم تجعلهم فقط رعايا للدولة بل جعلت بينهم وبين الدولة علاقة تكافؤ بين طرفين متعاهدين، وتصديقاً لذلك ننقل هنا نص المعاهدات التي كتبت أثناء فتح البلاد المختلفة، وسوف يسمح هذا بالمقارنة، فأوربا التي تدعي رفع لواء الحضارة لم تعط مثل هذا النوع من الحقوق أبداً في أي بلد إلا لمواطنيها.

ويجب أن نتذكر أن المعاهدات التي تنقل في كتب التواريخ يرد بعضها بالتفصيل ويرد البعض الآخر مجملًا، لأن إعادة إثبات الشروط بالتفصيل

(١) المراد بأهل الذمة الأمم غير المسلمة التي تقيم في دار الإسلام.

إسهاب من غير داعٍ، ولهذا كان يُحال في أكثر المعاهدات إلى معاهدة مفصلة، وهذا نص معاهدة بيت المقدس التي سُطّرت كلماتها في حضور عمر رضي الله عنه.

**معاهدة بيت المقدس :**

«هذا ما أعطي عبدالله بن عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، وسقيمها، وبريئها، وسائر ملتها أنه لا يسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيّزها، ولا من صلبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، وعلى مافي هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخلفاء الراشدين، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبدالرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ هجرية[(١)].

ويتضح بجلاء من هذه المعاهدة أن أرواح النصارى وأموالهم ودينهم في أمان، ومن الواضح أن الحقوق التي يمكن أن تنالها أي أمة ترتبط بتلك الأمور الثلاثة، وبالنسبة للكنائس أوضحت المعاهدة بالتفصيل أنها لا تهدم ولا يصاب مبانيها أي ضرر من نقص أو غيره، ولا ينتقص من حيزها،

---

(١) انظر تاريخ أبي جعفر جرير الطبري فتح بيت المقدس.

وبالنسبة للحرية الدينية فقد ذكرت المعاهدة ثانية «لا يكرهون على دينهم». ولما كان النصارى يعتقدون أن اليهود صلبوا عيسى وقتلوه، وأن هذا حدث في بيت المقدس، ولهذا ووفق من أجلهم على هذا الشرط، وهو ألا يسمح لليهود بالإقامة في بيت المقدس، وبالرغم من وجود حرب بين المسلمين واليونانيين، والذين كانوا في الحقيقة العدو الأصلي للمسلمين، فقد ميزتهم المعاهدة، وجاء فيها: من رغب البقاء في بيت المقدس، فيمكنه البقاء، ومن أراد الخروج فيمكنه أن يخرج، وفي كلا الحالتين هو آمن، ولن تُصاب معابدهم بأذى، وأكثر من هذا أنه لو أراد نصارى بيت المقدس الرحيل عن البلاد واللحاق بالروم فلن يتعرض لهم أحد، بل ستظل كنائسهم وممتلكاتهم التي في بيت المقدس محفوظة.. ونتساءل: هل يمكن أن يعامل أُناس من البلاد المفتوحة معاملة عادلة أفضل من تلك المعاملة؟ ومن أهم الأمور أنه قد ساوى بين أرواح أهل الذمة وأموالهم وبين أرواح المسلمين وأموالهم، فإذا ما قتل مسلم ذمياً، فكان عمر رضي الله عنه يقتص له بقتل المسلم فوراً، وروى الإمام الشافعي أن رجلًا من قبيلة بكر بن وائل قتل نصرانياً من الحيرة فأرسل عمر أوامره بتسليم القاتل إلى ورثة القتيل وهكذا سُلّم القاتل إلى وريث المقتول وكان يدعى حنين، فقتله[١].

فهل يمكن أن يكون هناك أكثر من هذا للحفاظ على المال والممتلكات، إذ بقيت جميعها لدى أهل البلاد المفتوحة كما هي لم ينتقص منها شيء، وكما كانت قبل الفتح، فلم يسمح عمر رضي الله عنه للمسلمين بشراء تلك الأراضي، وهو ما سبق بيانه بالتفصيل عند ذكر خراج الدولة.

**مراعاة أهل الذمة عند تنظيم الخراج :**

كان الخراج الذي فرض على أهل الذمة بسيطاً سهلًا، ومع هذا كان عمر

---

(١) الدراية في تخريج الهداية، طبعة دهلي ص ٣٦٠.

رضي الله عنه يراعي دائماً ألا يتعرضوا للتشدد أو القهر، وظل يراعي هذا الأمر حتى وفاته رضي الله عنه، وكان من عادته كل عام أن يطلب عشرة أشخاص من أهل الكوفة ومثلهم من البصرة حين يأتيه خراج العراق، فيستشهدهم أربع شهادات بالله أن هذا الخراج لم يجمع بظلم أو قهر(١).

وحدث قبل وفاته بيومين أو ثلاثة أيام أن استدعى مسئولي الإدارة، وناقشهم في أمر تحديد الخراج، وظل يسألهم مرة بعد مرة هل تشددتم في جمع الخراج؟(٢).

## استشارة أهل الذمة في تنظيمات الدولة :

من أكبر الحقوق التي يمكن أن ينالها الرعايا إعطائهم حق المشاركة في تنظيمات الدولة، فكان عمر رضي الله عنه يستشير أهل الذمة فيما يتعلق بهم من تنظيمات، ولا يتخذ قراراً في ذلك، دون استفتائهم عليه، فحين أراد تنظيم أمور العراق، استدعى رؤساء العجم إلى المدينة المنورة، وسألهم عن أحوال الخراج، وعندما نظم إدارة مصر أخذ رأي المقوقس في هذا الشأن(٣).

ولم تكن حقوق الذميين المتعلقة بالروح والمال والممتلكات حبراً على ورق، بل طبقت بطريقة عملية بحزم شديد، وقد اشتكى أحد المزارعين في الشام لأن بعض الجنود خربوا زرعه، فعوضه عمر رضي الله عنه بعشرة آلاف درهم(٤).

وكان عمر رضي الله عنه يرسل إلى حكام المراكز أوامر مشددة ويؤكد

---

(١) كتاب الخراج ص ٦٥.
(٢) كتاب الخراج ص ٢١ «قال شهدت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بثلاث أو أربع واقفاً على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وهو يقول لهما: لعلكما حملتما الأرض مالا تطيق».
(٣) المقريزي المجلد الأول ص ٧٤.
(٤) كتاب الخراج ص ٦٨.

عليهم ألا يتشددوا مع الذميين، وكان يقول لهم هذا شفاهة أيضاً، وقد روى القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج، باب الجزية أن عمر رضي الله عنه عندما كان عائداً من الشام رأى قوماً وقفوا في الشمس ويصب على رؤوسهم الزيت، فسأل الناس: ماذا جرى؟ فقالوا: هؤلاء لم يعطوا الجزية، ولهذا يعاقبون، فسأل عمر ماعذرهم في ذلك؟ فقالوا: ذكروا أنهم لا يملكون شيئاً، فقال عمر: اتركوهم ولا تعذبوهم، فقد سمعت من رسول الله ﷺ: «لا تعذبوا الناس فإن الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة».

**الوفاء بشروط أهل الذمة :**

تضمن الأمر الذي أرسله عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة رضي الله عنه بعد فتح الشام العبارة التالية:

«وامنع المسلمين من ظلمهم، والإضرار بهم، وأكل أموالهم، إلا بحلها، ووفِّ لهم بشرطهم الذي شرطت لهم في جميع ما أعطيتهم»(١).

وحين قرب أجل عمر رضي الله عنه ذكر في وصية مفصلة لمن يخلفه، نقلها الإمام البخاري، وأبو بكر البيهقي والجاحظ وكثير من المؤرخين، مايلي:

«أوصيه بذمة الله، وذمة رسوله، أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفوا فوق طاقتهم»(٢).

هل يمكن أن يكون هناك أكثر من هذا ألا ينسى عمر رضي الله عنه أهل الذمة حتى لحظة مماته!!

كان غرفة الكندي أحد الصحابة، فسب أحد النصارى النبي ﷺ أمامه، فصفعه غرفة على وجهه، فذهب النصراني إلى عمرو بن العاص واشتكاه فاستدعى عمرو بن العاص غرفة، وحقق معه، فقص غرفة عليه ما حدث،

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٨٢.
(٢) صحيح البخاري ص ١٨٧ ط ميرته.

فقال عمرو بن العاص لقد عقدنا مع الذميين معاهدة أمن، فقال غرفة: معاذ الله، لم يُسمح لهم أبداً بأن يسبوا الرسول ﷺ علانية، كانت المعاهدة على أن يفعلوا ما يشاءون في كنائسهم وأن نكون معهم في قتالهم لعدوهم، وألا نحملهم مالا طاقة لهم به، فقال عمرو بن العاص: صدقت[١].

ويمكن أن نعرف من هذه الواقعة إلى أي مدى كانت مراعاة حفظ حقوق أهل الذمة.

**حرية الشئون الدينية :**

كان لأهل الذمة مطلق الحرية في الشئون الدينية، فكانوا يؤدون جميع شعائرهم الدينية، وكانوا يدقون أجراسهم علانية، وكانوا يظهرون الصلبان، ويقيمون الاحتفالات من كل نوع، وقد أمرت لزعمائهم الدينيين جميع امتيازاتهم الدينية، ففي مصر ظل بنيامين بطريرك الإسكندرية يتجول هنا وهناك على غير هدى ثلاث عشرة سنة، خوفاً من الرومان، وحين فتح عمرو ابن العاص مصر أرسل إليه عهد أمان مكتوب، فقدم شاكراً مقدرًا، وجلس ثانية من جديد على كرسي البطريرك، وقد ذكر المقريزي هذه القصة بالتفصيل في كتابه (المجلد الأول ص ٤٩٢).

وكانت المعاهدات تنص ـ بجانب الأمور الأخرى ـ على الالتزام بحق الحرية الدينية، وننقل هنا نص بعض العبارات التي وردت في بعض المعاهدات:

والعبارة التالية وردت في الكتاب الذي كتبه حذيفة بن اليمان لأهل ماه دنيار:

«لا يغيرون على ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم»[٢]، وكتبت هذه المعاهدة عند فتح جرجان.

---

(١) أسد الغابة تذكرة غرفة.
(٢) الطبري ص ٢٦٣٣.

«لهم الأمان على أنفسهم، وأموالهم، وملكهم، وشرائعهم، ولا يغير من شيء من ذلك»[١].

وجاء هذا البيان في معاهدة آذربيجان:

«الأمان على أنفسهم، وأموالهم، وشرائعهم»[٢].

ووردت هذه الكلمات في معاهدة موقان:

«الأمان على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وشرائعهم».

ورغم أن عمر رضي الله عنه كان يبذل الجهد العظيم في نشر الإسلام، وكان هذا واجبه الذي فرضه عليه منصب الخلافة، ولكن هذا أيضاً كان ممكناً عن طريق الوعظ والنصح، ومع هذا كان عمر رضي الله عنه يراعي دائماً ألا يُجبر أحدٌ على الدخول في الإسلام، وكان غلامه «أستيق» نصرانياً، فكان يدعوه دائماً إلى الإسلام، وحين رفض قال عمر ﷺ «لا إكراه في الدين»[٣].

**المساواة بين المسلمين وأهل الذمة :**

والحقيقة أن النتيجة التي يكن استنباطها من الأحداث هي أن عمر رضي الله عنه لم يميز على الإطلاق بين المسلمين وأهل الذمة في الحقوق المدنية فلو قتل مسلمٌ ذمياً، فكان يقتل قصاصاً دون أي تردد، وكان المسلم إذا ما أساء إلى الذمي، عوقب على ذلك، ولم يكن يُجبى من أهل الذمة إلا العشور والجزية، وفي مقابل ذلك كانت الزكاة تؤخذ من المسلمين، وكان مقدارها أكثر من العشور والجزية معاً وعلاوة على ذلك كانت العشور تُجبى من المسلمين أيضاً، ولا شك أن نسبتها كانت ضئيلة مقارنة بما كان يجبى من أهل الذمة، وكان الذمي ينال من بيت المال راتباً مساوياً للمسلم المتطوع

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٦٥٨.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦٦٢.

(٣) كنز العمال نقلاً عن طبقات ابن سعد المجلد الخامس ص ٢٤٩.

الذي يتلقى راتبه من بيت المال وهو جالس في بيته، وأكثر من كل هذا (ونسوق هنا مثالاً واحداً هو في الحقيقة الفيصل في هذا البحث) تلك القاعدة التي تنص على أن المسلم الذي يصير مُعَوَّقاً أو عجوزاً ضعيفاً ولا يمكنه كسب رزقه بالعمل والكدح، ينال منحة من بيت المال، هذه القاعدة كانت تطبق أيضاً بكرم شديد وسخاء على أهل الذمة ـ وقد طبقت هذه القاعدة في البداية زمان أبي بكر رضي الله عنه، وهكذا نصت المعاهدة التي كتبها خالد ابن الوليد في فتح الحيرة على ما يلي:

«وجعلت لهم أيما شيخ ضَعُف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيّل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم»(١).

وظلت هذه القاعدة متبعة في عهد عمر رضي الله عنه أيضاً، بل دعم عمر رضي الله عنه هذه القاعدة بالآياتِ القرآنية، أي كتب إلى خازن المال هذه الآية التي وردت في القرآن الكريم: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]. فذكر أن المراد بكلمة فقراء هم المسلمون، والمراد بكلمة مساكين هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ـ وتفصيل هذه الواقعة أن عمر رضي الله عنه رأى ذات مرة عجوزاً يتسول فسأله: لماذا تتسول فقال العجوز: «فرضت عليّ الجزية ولا أقدر على دفعها».

فأخذه عمر معه إلى البيت، وأعطاه بعض النقود وأرسل إلى خازن بيت المال يخبره أن يقرر منحة للمسنين الضعفاء أمثال هذا الرجل، من بيت المال، واستشهد بهذه الآية الكريمة المشار إليها قبلًا، وقال أيضاً: والله ليس هذا عدل فقد استخدمناه في شبابه وتركناه في هرمه(٢).

---

(١) كتاب الخراج ص ٨٥.
(٢) المرجع نفسه ص ٧٢.

## مراعاة كرامة أهل الذمة :

كانت كرامة أهل الذمة تراعي بنفس القدر الذي تراعي به كرامة المسلمين، فلم يكن من المستحب استعمال أي لفظ من ألفاظ التحقير في شأنهم، وكان عمير بن سعد الذي حكم حمص لا يدانيه أحد من الحكّام، في الزهد والطهارة والانشغال عن الدنيا، وذات مرة صدرت عنه في شأن أحد الذميين هذه الكلمة «أخزاك الله» فندم عمير بن سعد على هذا، وأسف أسفاً شديداً حتى إنه قدم إلى عمر رضي الله عنه، وقدم استقالته من الوظيفة وقال: لقد كان ما صدر عني بسبب هذه الوظيفة[١].

## سلوك الدولة المسلمة مع أهل الذمة في حالة التآمر والعصيان :

وهناك أمر خاص هو من الأمور الجديرة بالملاحظة وهو أن أهل الذمة إذا ما تآمروا على الدولة الإسلامية أو ثاروا عليها، فكانوا رغم كل هذا يتمتعون بامتيازات وينالون العفو، والحكومة التي تدعي اليوم الحضارة والمدنية تهتم برعاياها اهتماماً كبيراً طالما لم تصدر عنهم شبهة سياسية، وإلا تحول العطف وتحولت الرحمة فجأة إلى عذاب وقهر، وانتقم منهم انتقاماً دامياً، لا يصدر حتى عن الأمم المتوحشة، وعلى العكس من هذا لم تتزحزح قدم عمر عن جادة العدل، تحت أي ظرف من الظروف.

كانت هناك مدينة على آخر حدود الشام تدعى «عربسوس» تتصل حدودها بحدود آسيا الصغرى وقد فتحت هذه المدينة ضمن فتوحات الشام وعقدت معاهدة صلح، إلا أن أهل هذه المدينة كانوا يتآمرون في الخفاء مع الروم فيبلغونهم بأخبار المسلمين، فأخبر عمير بن سعد وكان حاكم هذه المنطقة - عمر رضي الله عنه بذلك، فكان انتقام عمر من هؤلاء الناس الأخسَّاء هو ما كتبه إلى عمير بن سعد بأن يحصى جميع ممتلكاتهم وأراضيهم ومواشيهم،

---

(١) انظر كتاب إزالة الخفاء ص ٢٠٣.

وأن يعوضهم عنها تعويضاً مضاعفاً ويأمرهم بمغادرة البلاد، فإذا لم يوافقوا أمهلهم مدة عام، وبعدها يقوم بنفيهم، وهكذا تم تنفيذ هذا الأمر لأن هؤلاء الناس لم يتراجعوا عن دسائسهم[١]، وهل يمكن أن تشاهد مثيلًا أو نظيراً لمثل هذا العفو والتسامح لدى أي أمة في الوقت الحاضر ؟

إن أعظم دليل على التسامح الذي كان يلقاه أهل الذمة هو وقوفهم دائماً إلى جانب المسلمين في كل مناسبة ضد حكوماتهم التي تدين بنفس دينهم، فقد كان أهل الذمة أنفسهم هم الذين يوصلون المؤن إلى المسلمين، وكانوا هم الذين يقيمون الأسواق في معسكرات جيش المسلمين، وكانوا هم الذين يتولون إقامة الطرق والجسور، ويتحملون نفقاتها، وأكثر من هذا كانوا يتجسسون ويبلغون الأخبار للمسلمين؛ أي أنهم كانوا يقدمون للمسلمين جميع أسرار العدو، مع أن هذا العدو كان على دينهم سواء كان نصرانياً أو مجوسياً، ويمكن تقدير الإخلاص الذي أبداه أهل الذمة نتيجة حسن سلوك المسلمين معهم إذا ما عرفنا أنه في الوقت الذي وقعت فيه معركة اليرموك، وخرج المسلمون من مدينة حمص حمل اليهود التوراة في أيديهم وقالوا: لن ندع الروم يأتون هنا أبداً ما دمنا على قيد الحياة، وقال النصارى بحسرة شديدة: والله إنكم أحب إلينا من الروم.

وفي النهاية يجب أن نطلع القارىء على حقيقة هذه الأحداث التي بسببها ظهرت أو يمكن أن تظهر هذه الفكرة الخاطئة لدى الناس، وهي أن عمر أو أن الإسلام نفسه سلك مع أهل الذمة سلوكاً غير عادلٍ.

**بيان المعارضين :**

يمكن للمعارضين أن يقدموا هذه المسألة بقولهم إن عمر أمر أهل الذمة بألا يتشبهوا بالمسلمين بأي شكل من الأشكال من ناحية المظهر والملابس

---

(١) فتوح البلدان البلاذري ص ١٥٧.

وغيرها، وأن يلبسوا الزنار في الخصر، وأن يضعوا القلانس الطويلة على رؤوسهم، وألا يضعوا السروج على الخيول، وألا يبنوا أماكن جديدة للعبادة، وألا يبيعوا الخمر والخنزير، وألا يدقوا الناقوس، وألا يظهروا الصلبان، وأنه أصدر حكمه لبني تغلب ألا يعمدوا أولادهم، وأكثر من كل هذا أن عمر رضي الله عنه لم يترك يهودياً أو نصرانياً يقيم في المناطق التي يكثر فيها العرب، وأنه أجلى كبار الأسر القديمة التي سكنت جزيرة العرب لمئات السنين.

لا شك أن هذه الاعتراضات تستحق الاهتمام البالغ، وسوف نستعين بقدر من التفصيل للرد عليها؛ لأن التعصب والتقليد على مدار سنين طويلة، قد وضع حجاباً ثقيلًا على وجه الحقيقة، صحيح أن عمر رضي الله عنه كان يمنع الأمم الأخرى من التشبه بالمسلمين، ويمنع المسلمين من التشبه بالأمم الأخرى، إلا أن الهدف من هذا كان الحفاظ على السمات والملامح الخاصة بكل أمة، ولا هدف غير ذلك.

وما يستحق البحث في أمر اللباس هو هل كان اللباس الذي فرضه عمر على أهل الذمة، نفسه هو لباسهم القديم ؟ أم أن عمر رضي الله عنه اقترح عليهم لباساً آخر جديداً علامة على تحقيرهم!!

إن من يطالع تاريخ العجم القديم يمكنه أن يعرف على وجه اليقين أن اللباس المذكور هنا كان هو اللباس القديم للعجم، ورغم أن الرواة أضافوا قليلًا أو كثيراً في معاهدة عمر رضي الله عنه التي ذكرت في «كنز العمال» وفي غيره، إلا أن هناك إقراراً من جانب أهل الذمة مذكور، وجاء فيه «نحن لا نرتدي هذا اللباس»، وفي نفس المكان أيضاً وردت هذه الألفاظ، «وأن نلزم زينا حيث ماكنا»[1]، ويتضح من هذا تماماً أن اللباس الذي أمر به عمر كان هو اللباس القديم.

---

(١) كنز العمال المجلد الثاني ص ٣٠٢.

أما الزنار الذي ورد ذكره في كتاب عمر، فقد أخطأ في تفسيره أكثر فقهائنا، وكان ظنهم أنه نوع من النسيج يساوي سُمك الإصبع، وكان المقصود به تحقير أهل الذمة، إلا أن هذا خطأ كبير، فمعنى الزنار الحزام، ولا تزال هذه الكلمة تستخدم حتى اليوم بهذا المعنى، ويقال للحزام في العربية «منطقة»، وهكذا فالزنار والمنطقة كلمتان مترادفتان، وترادف هذين الكلمتين ثابت من كتب الحديث.

وهناك رواية منقولة عن البيهقي وغيره في كنز العمال أن عمر رضي الله عنه أرسل هذا الأمر التحريري إلى قادة الجيش: «وتلزموهم المناطق يعني الزنانير»، وكان يقال لهذا الزنار أيضاً كستيج، وهكذا ورد في الجامع الصغير وغيره كستيج بدلاً من زنار، وهذه الكلمة في الغالب كلمة أعجمية، وعلى كل حال فقد كان أهل العجم منذ القديم يلبسون الزنار، وقد ذكر المسعودي في كتابه التنبيه والإشراف إنني ذكرت سبب هذه العادة القديمة للعجم في كتاب مروج الذهب، وهناك دليل قطعي على أن هذا اللباس كان هو اللباس القديم لأهل الذمة، وهو أن الخليفة المنصور قرر لباساً في بلاطه مشابهاً لذلك اللباس، وكانت القلنسوة الطويلة المصنوعة من القصب هي نفس القلنسوة التي كان يرتديها العجم، ولا تزال نماذج منها تشاهد على رؤوس المجوس حتى اليوم، وكان هذا اللباس المستخدم في البلاط يشتمل أيضاً على الحزام، وهو نفسه الزنار أو المنطقة أو الكستيج بنفس شكله وهيئته لدى العجم قديماً، وقد ذكر جميع المؤرخين العرب عن اللباس الذي اقترحه المنصور أنه كان تقليداً للعجم، والآن يستطيع كل إنسان أن يفهم، فإذا كان اللباس الذي قرره عمر للذميين كان لباساً جديداً مستحدثاً قصد به تحقيرهم، فهل كان للخليفة المنصور أن يختار مثل هذا اللباس لنفسه ولأهل بلاطه ؟!!

**مسألة الصليب والناقوس :**

لا شك أن منع أهل الذمة من بناء معابد جديدة لهم، ومن بيع الخمر،

وإظهار الصليب، ودق الناقوس، والتعميد هو تدخل في شئونهم الدينية، لكني أكشف بجرأة هذا السر، فأقول إن هذه الأحكام التي أصدرها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بكل قيودها كانت مناسبة تماماً، إلا أن مؤرخي العهود التالية تركوا ذكر قيود هذه الأحكام، ولذلك شاع هذا الخطأ العالمي في الدنيا كلها.

ففي معاهدة الصليب ورد هذا القيد أو الشرط «ولا يرفعوا في نادي أهل الإسلام صليباً»[١]، وجاء هذا التصريح فيما يتعلق بالناقوس:

«يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار إلا في أوقات الصلاة»[٢].

وجاء بالنسبة للخنزير مايلي:
«ولا يخرجوا خنزيراً من منازلهم إلى أفنية المسلمين».

**مسألة التعميد:**

بعد بيان هذه القيود لا يمكن لأحد أن يشك في أن منع إظهار الصليب أو دق الناقوس لم يكن منعاً عاماً، بل كان في حالات خاصة، ولا يمكن القول اليوم أيضاً بأن مثل هذا المنع في هذه الحالات الخاصة أمر يتنافى مع العدل. وأهم ما تجدر ملاحظته هنا هو مسألة عدم تعميد أولاد بني تغلب ليصبحوا نصارى، فمن عادة النصارى أن يعمدوا أولادهم قبل سن البلوغ، وكأن هذا حماية لهم حتى لا يعتنقوا أي دين آخر في المستقبل، وهذا الأمر شبيه تماماً باختتان الأطفال عند المسلمين. ولا شك أنه لم يكن لعمر رضي الله عنه الحق في منع هذا التقليد بشكل عام، لكن القضية الجديدة التي ظهرت في ذلك الوقت هي أنه لو أسلم شخص في أسرة نصرانية ثم مات تاركاً أولاده القُصَّر، فعلى أي مذهب يتربى أولاده؟ هل سيعتبر هؤلاء مسلمين أم أن أفراد

(١) كتاب الخراج ص ٨٠.
(٢) المصدر السابق ص ٨٦.

عائلتهم الذين يدينون بالنصرانية سيكون لهم حق تربيتهم وبالتالي يعمدونهم ليصبحوا نصارى.

لقد كان قرار عمر رضي الله عنه من أجل هذه الحالة الخاصة، حتى لا تقوم عائلتهم بتعميدهم، وحتى لا يصبحوا نصارى، وهذا الحكم قرين تماماً للعدل والإنصاف؛ لأنه مادام أبوه كان مسلماً فمن الظاهر أن يكون أولاده القُصَّر مسلمين.

وحين ذكر الطبري واقعة بني تغلب نقل هذه الكلمات التي وردت ضمن شروط الصلح: «على أن لا ينصروا وليداً ممن أسلم أباؤهم»[١]، وفي موضع آخر نقل هذه الكلمات: «أن لا ينصروا أولادهم إذا أسلم آباؤهم»[٢]، وربما يظهر اعتراض هنا لماذا تشدد عمر رضي الله عنه في هذه المعاهدة بعد أن وضع أمامه حالة افتراضية؟ والجواب: هو أنه لم تكن هناك حالة افتراضية، بل كان كثير من أفراد بني تغلب قد أسلموا، ولهذا كان من الضروري ذكر هذه الحالة نظراً لظروفهم الخاصة، وأكثر من هذا نلاحظ أن الطبري قد صرح بأن من أسلموا من تغلب كانوا هم الذين قدموا هذه الشروط لتثبت في المعاهدة.

والآن يمكن لكل إنسان أن يكون مُنصفاً: فإذا كان الحفاظ على الأمن العام قد اقتضى أن تصدر الأوامر للنصارى بألا يظهروا الصليب، أو يحضروا الخنزير في محافل المسلمين، وألا يدقوا الناقوس في أوقات الصلاة، وألا يعمدوا أولاد المسلمين الجدد، فهل يمكن أن يعتبر أحدٌ هذا تعصباً دينياً؟!

ولكن للأسف وللأسف الشديد أن مؤرخينا القدماء حذفوا من كتاباتهم شروط هذه الأحكام وخصائصها، بل إن في القدماء من مالت طبائعهم إلى التعصب، فكانوا لا يذكرون في روايتهم تلك الخصائص - ومع أن هذه

---

(١) الطبري ص ٢٤٨٢.
(٢) المصدر السابق ص ٢٥١٠.

الأخطاء تسببت في ظهور نتائج خطيرة جداً، إلا أنها كانت في ظاهرة بسيطة، فلم يهتم بها ابن كثير وغيره أدنى اهتمام، وبالتدريج انتشرت هذه الأخطاء حتى عمت المؤلفات العربية جميعها، أما الفقهاء فنظراً لمعرفتهم الضئيلة بالتاريخ فقد قبلوا هذه الروايات الخاطئة بلا تحفظ واستخرجوا على أساسها المسائل الفقهية.

**مسألة إجلاء النصارى :**

إن حقيقة مسألة إجلاء النصارى واليهود هي أن اليهود لم يكونوا في أي وقت من الأوقات خالصي النية من ناحية المسلمين، وحين تم فتح خيبر، قيل لهم: ستخرجون من هنا في الوقت المناسب ـ وفي زمان عمر رضي الله عنه وضحت دسائسهم تماماً، فقد دفعوا ذات مرة عبدالله بن عمر من شرفة البيت فجُرحت يداه، فاضطر عمر رضي الله عنه إلى جمع الناس، وإطلاعهم على دسائس ومؤامرات اليهود، ثم أجلاهم عن جزيرة العرب[١]، وقد وردت هذه الواقعة بشيء من التفصيل في صحيح البخاري، كتاب الشروط.

كان نصارى نجران يسكنون اليمن وأطرافها ولم يحدث أن تعرض لهم أحد، ومع هذا بدأوا الاستعداد للقتال سرًّا، وجمعوا كثيراً من الخيل والسلاح، عندئذ فقط، ولهذا السبب أمرهم عمر رضي الله عنه بأن يتركوا اليمن ويذهبوا إلى العراق[٢].

**والخلاصة** أن هذا الأمر ثابت قطعاً بجميع الشواهد التاريخية، فالنصارى واليهود طُردوا لضرورات سياسية، ولهذا لا يستحق هذا الأمر الاعتراض بأي حال من الأحوال، ولا شك أن ما يستحق الملاحظة هنا هو أن اليهود والنصارى وجدوا رعاية من الدولة الإسلامية في هذه الظروف أيضاً، فعندما

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٥ وكتاب الخراج ص ٢٩.
(٢) كتاب الخراج ص ٤٢.

طُرد يهود فدك أرسل عمر رجلًا خبيراً حتى يقوم بتقدير قيمة أراضيهم وبساتينهم، وهكذا أعطاهم عمر من بيت المال القيمة المحددة(١)، كما أعطى ليهود الحجاز أيضاً قيمة أراضيهم(٢).

وعندما أُخرج نصارى نجران من جزيرة العرب، وأُسكنوا الشام والعراق، عوملوا معاملة كريمة، وكتبت هذه الشروط في وثيقة الأمان التي سلمت لهم:

«على الحكام أن يعطوهم الأرض للإقامة الزراعية حيثما ذهبوا في العراق والشام، وعلى المسلم أن يساعدهم إذا ما لجأوا إليه، ولا تؤخذ منهم الجزية أبداً لمدة أربعة وعشرين شهراً.

وقد وقّع كبار الصحابة على هذه المعاهدة، زيادة في الحيطة، وتأكيداً لما ورد بها وقد نقل أبو يوسف هذه المعاهدة كاملة في كتاب الخراج(٣).

فأي رعاية يمكن أن تكون أكثر من تلك التي نالتها هذه الجماعة المسلحة التي ثبت تمردها وتآمرها؟!

وتبقى الآن مسألة الجزية، وقد كتبت بحثاً مستقلًا عنها ونشر هذا البحث باللغات الثلاث: الأردية والإنجليزية والعربية. إلا أنه من الضروري الكتابة عنها أيضًا باختصار.

**مسألة الجزية :**

رغم أن موضوع الجزية وهدفها قد وضح تماماً في بداية الإسلام، وهو أنها تُدفع مقابل الحماية، إلا أن هذه المسألة قد وضحت في عهد عمر رضي الله عنه، بحيث لم يعد هناك أي مجال للتفسيرات الأخرى.

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٩.
(٢) المصدر السابق ص ٢٩.
(٣) الكتاب المذكور ص ٤١.

أولاً: قسَّم عمر الجزية إلى شرائح مختلفة مثل أنوشيروان، وكأنه يوضح بهذه الطريقة أنها ليست بشيء جديد بل هي نفسها الضريبة الأنوشيروانية، وعلاوة على هذا أوضح بطريقة عملية أنها تدفع مقابل الحماية، وقد قرأتم في الجزء الأول من هذا الكتاب أنه عندما انسحبت الجيوش الإسلامية من الأجزاء الغربية للشام نتيجة اندلاع معركة اليرموك الشرسة، وتأكد للمسلمين أنهم لا يستطيعون القيام بمسئولية حماية سكان المدن الذين كانوا يأخذون منهم الجزية أي سكان حمص ودمشق، لهذا أعادوا لهم جميع المبالغ التي جمعوها منهم كجزية، وقالوا لهم بكل وضوح: «نحن الآن لا نستطيع تحمل مسئولية حماية أرواحكم وأموالكم، ولهذا لايحق لنا الآن أن نأخذ الجزية»، ومما يؤكد ذلك بالشهادة القطعية أن عمر رضي الله عنه أعفى من استخدموا لبعض الوقت في أي فرع من فروع الجيش من الجزية، وكانوا قائمين على دينهم لم يدخلوا الإسلام، وقد كتب عمر رضي الله عنه نفسه إلى قادة العراق سنة ١٧هـ أن «يستعينوا بمن احتاجوا إليه من الأساورة، ويرفعوا عنهم الجزية»[١].

ووصل الأمر إلى أنه إذا شارك قوم المسلمين القتال، ولو لمرة واحدة فقط، أعفوا من دفع الجزية لسنة كاملة، وعندما فتحت آذربيجان سنة ٢٢هـ كُتب هذا الأمر لأهل المدينة:

«ومن حُشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة»، وفي نفس السنة عقدت معاهدة مع شهربراز حاكم أرمينية جاء فيها:

«وعلى أهل أرمينية أن ينفروا لكل غارة، وينفذوا لكل أمر ثاب أو لم يثب، رآه الوالي صلاحاً، على أن توضع الجزية»[٢].

وفي نفس السنة فتحت جرجان ووردت هذه العبارة في المعاهدة:

---

(١) الطبري ص ٢٤٩٧.
(٢) المصدر السابق ص ٢٦٦٥.

«إن لكم الذمة وعلينا المنعة على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم، ومن استعنا به منكم، فله جزاؤه في معونة، عوضاً عن جزيته»[١].

وهكذا يتضح تماماً من أقوال عمر، والمعاهدات، وسلوكه ما موضوع الجزية، ولأي غرض قررت؟

لقد كانت الجزية تصرف على الشئون العسكرية فقط، فقد كانت أموال الجزية تصرف على الطعام والملابس والاحتياجات الأخرى لأفراد الجيش، ولهذا فحينما قرر عمر الجزية جعلها تشمل الحبوب والغلال أيضاً، وكان مقدار الجزية في مصر أربعة دنانير لكل شخص، فكانت الجزية تؤدى دينارين نقداً، ويُؤخذ بقيمة دينارين قمح وزيت وزيتون وعسل وخل، وكان هذا هو طعام أفراد الجيش، وحين استقل أمر مئونة الجيش، جعل المبلغ الكلي للجزية نقداً خالصاً بدلاً من تقديم البضائع وهكذا دُفعت الجزية أربعة دنانير نقداً[٢].

## الحد من انتشار الرق

رغم أن عمر رضي الله عنه لم يقض كلية على الرق، ولعله لو أراد ذلك لما استطاع، لكن مما لا شك فيه أنه قلل من انتشاره بشتى الطرق، وما بقي من رق، لم يكن لحسن الحظ رقًّا بمعنى الكلمة بل تحول إلى مؤاخاة ومساواة. وكان عمر رضي الله عنه قد قضى عليه تماماً في جزيرة العرب، واهتم بهذا الأمر اهتماماً كبيراً لدرجة أن أول ما قام به حين تولى الخلافة كان عتق جميع العبيد والجواري الذين ينتمون إلى القبائل المرتدة، ممن دخلوا في الرق في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وأرسى مبدأ ألا يكون العربي عبداً لأحد، وعلى حد قوله: «لا يُسترق عربي»[٣]، مع أن كثيراً من المجتهدين وأئمة العلماء لم

---

(١) المصدر السابق.

(٢) فتوح البلدان ص٢١٦.

(٣) هذا القول نقلاً عن رواية الإمام الشافعي في كنز العمال ص٣١٢ المجلد الثاني.

يعترفوا بمبدئه هذا، فهذا قول الإمام أحمد بن حنبل: «لا أذهب إلى قول عمر ليس على عربي ملك»[١]، وليس هذا موضع بحث هذه المسألة، ولكن القصد هنا هو إيضاح قرار عمر فيما يتعلق بالعرب.

أما بالنسبة للأمم الأخرى من غير العرب فلم يستطع أن يضع قاعدة عامة، فحين كان يفتح بلد ما، كان أفراد الجيش يصرون على أن يعطى لهم جميع رعايا البلد عبيداً، يمتلكونهم مع البلد التي فتحوها، وكما سبق وذكرنا عن تقسيم الدولة، فإن عمر رضي الله عنه أسكت الجميع باستدلالاته القرآنية في أمور كثيرة، ولكنه لم يجد استدلالاً واحداً من القرآن في شأن الرق، ولهذا لم يستطع معارضة جميع أفراد الجيش، إلا أنه قلل بشكل عملي من الرق، فرغم اتساع رقعة البلاد المفتوحة في عهده، والتي بلغت مساحتها عدة آلاف من الأميال يعيش عليها عشرات الملايين من الناس، لكن العبودية بالمعنى الذي كان معروفاً آنذاك في كل مكان، كانت محدودة ومحصورة في مناطق عدة، ولم يُسترق هناك سوى أولئك الذين اشتركوا في معارك القتال، وفي مصر والعراق، وكانتا دولتين مستقلتين، لم يسترق شخص واحد بالرغم من إصرار الجيش، حتى إنه حين حارب أهالي بعض قرى مصر المسلمين، واسترقوا وأُرسلوا إلى الجزيرة العربية، جمعهم عمر رضي الله عنه من كل مكان وصلوا إليه وأعادهم إلى مصر، وقال لا يجوز استرقاقهم، وقد ذكر المقريزي المؤرخ اسم تلك القرى وفصل الكلام عن هذه الواقعة[٢].

ومن بين مدن الشام حارب النصارى في بصرى وفحل وطبرية ودمشق وحمص وحماة وعسقلان وأنطاكية وغيرها، حرباً ضارية، ومع ذلك لا يوجد فيها الرق إلا نادراً، ولعل قيسارية هي المكان الوحيد في الشام الذي استرق فيه أسرى الحرب، وقد كتبت هذه العبارة في معاهدة الصلح الخاصة بفارس

---

(١) منتقى الأخبار لابن تيمية.
(٢) المقريزي المجلد الأول ص ١٦٦.

وخوزستان وكرمان والجزيرة وغيرها: «لا يتعرض لأرواح الناس وأموالهم» وجاءت العبارات الخاصة بمعاهدة صامغان وجنديسابور وشيراز وغيرها واضحة ومنها: لا يُسْبَوا «أي لا يقبض عليهم ويصيروا عبيداً».

ورغم أن الجيش استرق أسرى الحرب في مناذر إلا أن عمر أرسل أوامره بعتقهم وفرض الخراج والجزية عليهم(١) وأرسل أوامره إلى أبي موسى الأشعري بألا يسترق مزارعاً أو صانعاً(٢).

وقد حدّ عمر رضي الله عنه من انتشار الرق بطريقة أخرى، إذ قرر مبدأ عدم إمكانية بيع أو شراء الجارية التي لها أولاد، وهكذا لم تعد هذه المرأة جارية(٣). وهذا القرار كان من عند عمر، فقد كانت هذه الجماعة من الجواري تباع وتشترى مثل غيرهن ممن ليس عندهن أولاد، وهكذا عندما كتب المؤرخون والمحدثون عن أوليات عمر، ذكروا هذا القرار أو القاعدة أيضاً.

كانت هناك طريقة أخرى لعتق الرقيق تسمى «المكاتبة» وتعني أن يقوم الغلام بكتابة تعهد بأن يقوم بسداد مبلغ معين في مدة معينة، فيعتق إذا ما دفع هذا المبلغ المتفق عليه، وهذه القاعدة ذاتها موجودة في القرآن: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:٣٣]، إلا أن الفقهاء لم يجعلوا هذا الحكم حكماً وجوبياً، وفي صحيح البخاري في كتاب المكاتب أن سيرين غلام أنس رضي الله عنه طلب المكاتبة، فرفض أنس رضي الله عنه، فذهب سيرين إلى عمر رضي الله عنه، فضرب عمر رضي الله عنه أنساً رضي الله عنه بالدرة، وقدم له الآية السابقة دليلًا، فاضطر أنس في النهاية إلى الموافقة على طلب غلامه.

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٧٧.

(٢) كنز العمال المجلد الثاني ص ٣١٢.

(٣) وقد أخطأ شبلي هنا لأن هذا لم يكن من عند عمر رضي الله عنه لكنه كان حكماً نبوياً تعليق الناشر مكتبة رحمانية أردو بازار لاهور ص ٢٩٦ إلا أن شبلي ذكر أن المؤرخين أعدوا هذا من أوليات عمر.

**قصة شهربانو :**

في هذه المناسبة يجب أن نذكر قصة شهربانو وهي القصة التي انتشرت بطريقة غير صحيحة، إذ شاع بصفة عامة أنه حين فتحت بلاد فارس، أُسرت بنات يزدجرد إمبراطور الفرس، وأُحضروا إلى المدينة، فأمر عمر رضي الله عنه أن يباعوا في السوق مثل بقية الجواري، لكن علياً رضي الله عنه منع ذلك، إذ لا يجوز هذا السلوك مع العائلة الملكية، ولكن يمكن تقدير قيمتهن، ويعطون لمن يهتم بهن ويرعاهن، ويؤخذ منه أعلى سعر فيهن، وهكذا أخذهن علي رضي الله عنه في رعايته، وأعطى واحدة للإمام الحسين، وأخرى لمحمد بن أبي بكر، وثالثة لعبدالله بن عمر.

وأصل هذه القصة الخاطئة أن الزمخشري ـ الذي لا دراية له بفن التاريخ ـ قد ذكرها في ربيع الأبرار، ثم نقل ابن خلكان هذه الرواية عنه، حين كتب عن سيرة الإمام زين العابدين، ولكن القصة غير صحيحة:

**أولًا**: لم يذكر الطبري وابن الأثير واليعقوبي والبلاذري وابن قتيبة هذه القصة، والزمخشري فقط هو الذي ذكرها، ومكانته في علم التاريخ معروفة.

**ثانياً**: هذه القصة تتعارض مع الحقائق التاريخية، ففي عهد عمر رضي الله عنه لم يستطع المسلمون القبض على يزدجرد وأسرته، ففي معركة المدائن خرج يزدجرد مع أسرته كلها من العاصمة ووصل إلى حلوان، وحين هجم المسلمون على حلوان، فر يزدجرد إلى أصفهان ثم فر إلى كرمان، وظل يفر من مدينة إلى أخرى حتى وصل إلى مرو، ومات سنة ٣٠هـ في خلافة عثمان رضي الله عنه، ولو أسر أحد من أفراد أسرته لكان أسره في تلك الفترة، وإنني أشك في أن يكون الزمخشري على علم بالعهد الذي قتل فيه يزدجرد.

بالإضافة إلى ما ذكرنا فقد كان عمر الإمام الحسين عليه السلام حين وقعت

هذه القصة اثنتا عشرة سنة، وهذا الأمر بعيد عن الإمكان، لأن الإمام الحسين رضي الله عنه ولد في السنة الخامسة من الهجرة، وفتحت فارس في السنة السابعة عشرة للهجرة، فكيف يمنحه علي رضي الله عنه هذه الهبة، وهو لم يصل إلى سن البلوغ ؟!

ونضيف هنا أيضاً أن قيمة أولاد الملوك كانت عظيمة وكبيرة، وكان علي رضي الله عنه يعيش حياة الزهد والفقر، والخلاصة أنه لا يمكن تصديق هذه القصة بأي شكل من الأشكال. إذ يثبت من الوقائع المسلم بها في تاريخ عمر رضي الله عنه أنه كان يسلك سلوكاً يقتضيه التحضّر والإنسانية، وهو السلوك الذي يعمل به اليوم في جميع البلدان المتحضرة.

**معاملة أسرى الحرب من العائلة الملكية :**

حين هجم عمرو بن العاص على مصر، كانت بداية هجومه على بلبيس، وانتصر المسلمون بعد معركة حامية الوطيس وأسر ثلاثة آلاف نصراني، وتصادف أن كانت أرمانوسة ابنة المقوقس ملك مصر تقيم هناك فتم أسرها أيضاً. فما كان من عمرو بن العاص إلا أن أرسلها إلى المقوقس معززة مُشرفة، وحتى يأمن وصولها بسلام أرسل معها أحد قواده، ويدعى قيس بن أبي العاص السهمي[١].

**رعاية العبيد عامةً :**

كانت تلك هذه الأعمال العظيمة التي قام بها عمر رضي الله عنه لمنع الرق، أما من استرقوا فقد أوجد لهم من الرعاية ما جعلهم يصلون إلى منزلة الأحرار، ولعلكم قرأتم في بيان التنظيم العسكري أن عمر رضي الله عنه عندما قرر رواتب مجاهدي بدر وغيرها، قرر أيضاً رواتب مماثلة لعبيدهم، وقد راعى هذه الأصول فيما بعد في جميع الإجراءات، وكان إذا ما سأل عن عمال

---

(١) المقريزي المجلد الأول ص ١٨٤.

الأقاليم، يستفسر أيضاً ودائماً عن سلوكهم مع العبيد، لدرجة أنه لو عرف أنهم لا يعودون العبيد، كان يعزلهم لهذا السبب فقط(١).

وكثيراً ما كان يطلب العبيد، ويتناول الطعام معهم، ويخبر الحاضرين بأن الله لعن الناس الذين يعتبرون الأكل مع عبيدهم عاراً وكتب إلى رؤساء الجيش بأن عبدكم لو أمّن قوماً من الناس، فإن هذا يعتبر أماناً من جانب المسلمين جميعاً، ويجب أن يلتزم به الجيش، وهكذا كتب هذه العبارة لأحد رؤساء الجيش:

«إن عبد المسلمين من المسلمين، وذمته من ذمتهم، يجوز أمانه»(٢).

**عدم التفريق بين العبيد وأقاربهم ومعارفهم :**

كان أكثر مايؤلم العبيد هو فصلهم عن أقاربهم ومعارفهم فكان يفرق بين الابن وأبيه وبين البنت وأمها، ومن يكتب اليوم مقالات عن مساوىء العبودية يشير إلى هذا الأمر بصورة محزنة، لقد وضع عمر رضي الله عنه مبدأ عدم فصل العبد عن أقاربه، أي لا يمكن أن يكون الابن عند شخص، ويكون الأب عبداً لشخص آخر، فإذا ما بيع الأب والأبناء والأخ والأخت والأم والبنات كان ذلك يتم شريطة أن يكون بيعهم معاً، وإذا بقوا في الرق بقوا معاً.

وأحكام عمر في هذا الصدد منقولة في كنز العمال عن مستدرك الحاكم والبيهقي ومصنف بن أبي شيبة وغيرها وهي:

- لا يفرق بين أخوين إذا بيعا.
- لا يفرقوا بين الأم وولدها، ولا يفرق بين السبايا وأولادهن.

وفي هذا الصدد جمع عمر رضي الله عنه جميع المهاجرين والأنصار واستدل أمامهم بهذه الآية القرآنية: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٢٢]، وقال:

---

(١) الطبري ص ٢٧٧٥.

(٢) كتاب الخراج ص ١٢٦.

هل يمكن أن يكون قطع رحم أكثر من هذا، وقد ذكر الحاكم والبيهقي هذه الواقعة بالتفصيل[١].

وعندما أرسل عمر رضي الله عنه مُسمط بن أسود أحد القادة إلى مهمة بالشام وأرسل ابنه شرحبيل إلى الكوفة في مهمة، قال مسمط لعمر رضي الله عنه شاكياً، إذا كنت لا تفرق الغلام عن أقاربه، فلماذا رميت ابني بعيداً عني؟![٢].

**أهل الكمال من العبيد :**

كان للمنزلة التي أنزل فيها عمر العبيد، كما كان لمعاملته لهم التي اعتبرت نموذجاً يحتذى في جميع أنحاء الجزيرة العربية أثرها في ظهور جماعة من العبيد اتصفوا بالكمال، فكانت البلاد كلها تكرمهم وتوقرهم، فها هو عكرمة يعد من أئمة الحديث، أذن له عبدالله بن عباس بالفتوى، ونافع الذي كان أستاذاً لمالك، ويطلق المحدثون على سلسلة روايته سلسلة الذهب، كانا عبدين وهما من نتاج ذلك العهد.

كتب العلّامة ابن خلكان في أحوال الإمام زين العابدين أن الناس في المدينة المنورة كانوا يحتقرون الجواري وأبنائهن، ولكن عندما وصل قاسم (حفيد أبي بكر) وسالم (حفيد عمر رضي الله عنه) والإمام زين العابدين سنّ الرشد، وزادوا وعلوا في العلم والفضل جميع أهل المدينة، تغيرت أفكار أهل المدينة، فارتفع قدر الجواري والعبيد، إلا أننا نرى أن السبب الحقيقي لاحترامهم وعلو شأنهم هو أسلوب عمر رضي الله عنه، ولا شك أن فضل كل من قاسم وسالم (وأرى أن ذكر اسم الإمام زين العابدين هنا يخرج عن اللياقة والأدب) كان له أثره في هذه المسألة ولكن إذا لم يضع عمر أمهات الأولاد

(١) كنز العمال المجلد الثاني ص ٢٢٦.
(٢) فتوح البلدان ص ١٣٨.

في هذه المنزلة، لما سنحت الفرصة لهؤلاء العظام لنيل الفضل والكمال.

ومع كل ما ذكرناه هنا يجب أن نشير إلى أن عمر رضي الله عنه لم يوجد مسألة جديدة أو أنه ـ لا قدّر الله ـ كان له الحق في ذلك، إذ أن تقليص العبودية أو اتباع مسلك المساواة كان هدف رسول الإسلام نفسه ﷺ، وما فعله عمر رضي الله عنه كان تطبيقاً لهذا الهدف، ويؤكد هذا الأمر ما أثبته الإمام البخاري في كتاب المفرد من أفعال الرسول وأقواله التي تتعلق بالعبيد.

## السياسة والتخطيط والعدل والإنصاف

### الفرق بين سياسة عمر رضي الله عنه وسياسة عامة السلاطين :

انتشرت الخلافة الفاروقية على سطح الكرة الأرضية فضمت إليها بلاداً مختلفة ومذاهب متعددة، وأقواماً متباينة، ومع هذا انتشر الأمن والأمان والسكينة والاطمئنان جميع أرجائها، وقد مرّ على العالم ملوك وأباطرة كانوا يتمتعون بالجاه والعظمة، ولم يكن في مقدور أحد أن يرفع رأسه أمامهم، ولكن هذا الأمر كان نتيجة لسياستهم التي قامت على مبدأ قلب موازين العدل فجأة، إذا ظهرت في الأفق ملامح عصيان أو تمرد، فكانوا يلقون القبض على أسرة بأكملها؛ لأن أحد أفرادها ارتكب جرماً، وكانوا يستخدمون القياس في إثبات الوقائع بدلاً من اليقين، كانت العقوبات عقوبات وحشية، وكانت المدن تحرق وتباد عن آخرها، ولم تكن هذه المبادىء قاصرة على العصور القديمة فقط إذ لا تزال أوربا تستخدم نفس هذه الأساليب برغم ماهي فيه من تمدن وحضارة.

ولكن الأمر يختلف تماماً ففي الخلافة الفاروقية لم يكن من الممكن تجاوز العدل قيد شعرة، لقد نقض أهل عربسوس العهد مرة من بعد مرة، فأجلاهم عن بلادهم، ولكنه أعد قائمة مفصلة بممتلكاتهم، وأموالهم

وأمتعتهم وأعطاهم ضعف قيمتها.

أما نصارى نجران فاستعدوا للتمرد والانفصال وجهزوا لذلك أربعين ألف رجل، فأخرجهم عمر رضي الله عنه من جزيرة العرب، وأسكنهم في مناطق أخرى، ولكنه سلك معهم مسلكاً طيباً فدفع لهم قيمة ممتلكاتهم وأمتعتهم وغير ذلك، وأرسل لعماله أن يهيئوا لهم سبل الراحة حيثما مروا، فإذا ما اختاروا الإقامة الدائمة في مكان ما، لا تؤخذ منهم جزية، لمدة أربعة وعشرين شهرًا(١).

**مشكلات عمر رضي الله عنه :**

ربما يظن القارىء أن عمر تيسر له من الرعايا من اتصف بالطاعة والانقياد، ولهذا لم ير ضرورة لاستخدام سياسة القهر، لكن هذا الظن خاطىء، فعمر رضي الله عنه - حقيقةً - واجه نوعين من المشكلات، الأمم الأجنبية التي دخلت في طاعته، أمة المجوس وأمة النصارى، وكانت كل أمة منها تلقب لفترة طويلة بالإمبراطورية لهذا كان إدخالهم ضمن رعايا الدولة الإسلامية من الصعوبة بمكان.

أما الوضع الداخلي فقد كان في جزيرة العرب الكثير ممن يدّعون أحقيتهم بالخلافة فكانوا ينظرون إلى خلافة عمر بحسد وحقد، وعلى سبيل المثال كانت هناك جماعة «المؤلفة قلوبهم» وكان هؤلاء يقولون بأحقية بني هاشم أو بني أمية في الحكم، وعمر ليس منهم. وها هو عمرو بن العاص حاكم مصر، حين عنفه عمر رضي الله عنه في مسألة الخراج، فقال بحسرة: «هذه مشيئة الله! كان أبي في الجاهلية يرتدي قباء مزركشة والخطاب (والد عمر) يتجول وقد وضع على رأسه حزمة من الحطب، واليوم ابن الخطاب يتأمرني»، وكان

---

(١) سبق أن ذكرنا هذه الأحداث من قبل عند بيان حقوق الذميين، وأشرنا إلى المصادر التي اعتمدنا عليها.

بنو هاشم ينظرون دائماً نظرة استعجاب لماذا يتولى الخلافة من هو تيمي وعدوي، وكانوا يتشاورون في نقض الخلافة في عهد أبي بكر علانيةً، مثلما ذكر شاه ولي الله الدهلوي في كتابه «إزالة الخفاء»: اجتمع الزبير وجماعة من بني هاشم في بيت فاطمة، وراحوا يتشاورون في مسألة نقض الخلافة(١).

ومع أن قوة عمر وسطوته حدّت من ادعاءات بني هاشم، لكنها لم تقض عليها تماماً، بالإضافة إلى هذا كان العرب بفطرتهم يميلون إلى الحرية والعناد والتمرد وهذا هو السبب في أنهم لم يخضعوا مطلقاً لحكم أي حاكم، ولو أن عمر رضي الله عنه قضى على هذه الحرية، والعناد، والتمرد مثل معاوية، وأسس حكمه على القهر والإرهاب، لما كان ذلك مثار تعجب، لكنه لم يكن يريد أن يقضي على فطرة العرب هذه بأي شكل من الأشكال بل كان يريد صقلها أكثر وأكثر، وكم من مرة وجه إليه الناس النقد في المحافل العامة بحرية كاملة بل بوقاحة، وكان يتحملهم، ففي سفر الشام حين كان يوضح لحشد من الناس براءته من عزل خالد رضي الله عنه نهض رجل وقال:(٢) «والله ما عدلت ياعمر! لقد نزعت عاملًا استعمله رسول الله، وأغمدت سيفاً سلّه رسول الله، ولقد قطعت الرحم وحسدت ابن العم».

وبعد أن سمع عمر كل هذا لم يزد على أن قال: «لقد غضبت من أجل أخيك»، ومع كل هذا فقد بلغت رهبته وسطوته درجة جعلته يعزل خالداً في الوقت الذي كان الناس في جميع أنحاء العراق والشام يخضعون لأوامره فلم يلفظ أحد بكلمة، وحتى خالد رضي الله عنه لم يستطع أن يفكر في شيء.

إن مكانة معاوية وعمرو بن العاص وعظمتهما لا تحتاج إلى بيان، ولكنهما كانا يرتعدان لسماع اسم عمر رضي الله عنه، لقد ضرب عبدالله بن عمرو بن

---

(١) إزالة الخفاء المجلد الثاني ص ٢٩.
(٢) أسد الغابة تذكرة أحمد بن حفص المخزومي.

العاص رجلًا دونما سبب، فأمر عمر رضي الله عنه المضروب أن يضربه بالسوط أمام عمرو بن العاص، فجعل من الأب والابن عبرة أمام الجميع، وحين طلب سعد بن أبي وقاص فاتح إيران ليستجوبه في شكوى عادية، اضطر إلى الحضور ولم يعتذر.

ويمكن لكل شخص أن يقدر مما ذكرناه من وقائع أن ما ناله عمر رضي الله عنه من كمال في فن السياسة والتخطيط لا يمكن أن يكون له نظير في سيرة أي سياسي أو حاكم.

كان من أهم خصائص حكمه أن الملك والشحاذ، والشريف والرذيل، والقريب والغريب كلهم متساوون أمام دستور الحكومة.

## خصائص حكم عمر رضي الله عنه :

أسلم جبلة بن الأيهم الغساني، وكان أميراً على بلاد الشام بل كان ملكاً، وبينما كان يطوف حول الكعبة، جاء طرف عباءته تحت قدم أحد الطائفين، فضربه جبلة على وجهه، فرد عليه بمثل ما فعل، فتميز جبلة من الغيظ، وذهب إلى عمر رضي الله عنه، فقال له عمر بعد أن استمع إلى شكواه، نلت جزاء فعلتك فتحير جبلة كثيراً وقال: لو ارتكب أحد أمامي هذه الوقاحة لاستحق القتل.

فقال عمر رضي الله عنه: «كان الأمر هكذا في الجاهلية، لكن الإسلام ساوى بين الوضيع والشريف».

فقال جبلة: لو الإسلام هكذا لا يميز بين الشريف والوضيع فأنا مرتد عن الإسلام، وهكذا رجع إلى القسطنطينية صامتاً، لكن عمر رضي الله عنه لم يشأ أن يغير قانون العدل من أجله.

ذات مرة طلب عمر رضي الله عنه جميع عمال البلاد في وقت الحج، وخطب في الناس قائلًا: من كانت له شكوى من هؤلاء الناس فليقدمها، وكان من بينهم عمرو بن العاص وكبار الحكام والعمال، فقام رجل وقال لقد

ضربني العامل فلان مائة سوط دون وجه حق، فقال عمر رضي الله عنه: قم واقتص منه، فقال عمرو بن العاص: «ياأمير المؤمنين! إنك تشق على جميع العمال بهذه الطريقة»، فقال عمر رضي الله عنه: ولكن هذا ضروري، قال هذا والتفت إلى الشاكي وقال: هيا اقتص منه، وفي النهاية استرضى عمرو بن العاص الشاكي على أن يأخذ مائتي دينار، ويتنازل عن شكواه[1].

وذات مرة قدم سادة قريش للقائه، وبالصدفة كان بينهم صهيب، وبلال وعمار وغيرهم، وكان أكثرهم من العبيد الذين نالوا حريتهم وصاروا من الناس العاديين في الحياة الدنيا، فاستدعاهم عمر رضي الله عنه أولاً بينما ظل رؤساء قريش ينتظرون في الخارج، وكان أبو سفيان في الجاهلية سيد قريش كلها، فشق عليه هذا الأمر فقال لرفاقه: يالقدرة الله أن يؤذن للعبيد بالدخول، ونبقى نحن هنا منتظرين. ورغم أن حسرة أبي سفيان كانت تتناسب مع طبيعته لكن كان من بين هؤلاء بعض أهل الحق فقال أحدهم: ياأخوتي! حقًا لا يجب أن نلوم عمر بل يجب أن نلوم أنفسنا، لقد دعانا الإسلام بصوت واحد، ولكن من تأخروا عنه بسوء أعمالهم يستحقون اليوم التأخير أيضاً[2].

وبعد موقعة القادسية قرر الرواتب لجميع القبائل العربية وللصحابة، وهنا ظهر الحسد والتنافر، فكان رؤساء قريش وأفراد القبائل الكبيرة الذين تعودوا على أن يكونوا مميزين في كل مكان، يتوقعون ويأملون أن تحفظ لهم مكانتهم في تحديد الرواتب وأن يروا أسماءهم على رأس القائمة، إلا أن عمر رضي الله عنه خيّب ظنهم، وقضى على جميع مزايا الثروة والجاه، والقوة والشهرة والإعزاز والتميز، وأبقى فقط على ميزة الإسلام، وعليها قرر الزيادة والنقص في الرواتب، فرجح من أسلموا في البداية أو من أظهروا مآثر عظيمة في الجهاد أو من كانت لهم منزلة خاصة عند رسول الله ﷺ على غيرهم، ومن

(١) كتاب الخراج ص ٦٦.
(٢) أسد الغابة تذكرة سهيل بن عمرو.

تساووا في هذه الخصائص، تساوت رواتبهم أيضاً، فلم يكن هناك فرق بين السيد والعبد، رغم أنه لم تكن هناك طبقة أذل وأخس في جزيرة العرب من طبقة العبيد، وحين قرر عمر رضي الله عنه لأسامة بن زيد راتباً أكبر من راتب ابنه عبدالله، فقال عبدالله: إن أسامة لايفضلني في أي ناحية، فقال عمر رضي الله عنه: «نعم لكن أسامة كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك»(١).

وكان من عادة العرب أن يفخروا بقبائلهم في المعارك والقتال، وحتى يقضي عمر رضي الله عنه على هذا الفخر كتب إلى جميع قادته العسكريين بأن يعاقبوا بشدة من يفعل ذلك، وصاح رجل من قبيلة ضبة ذات مرة في إحدى المعارك قائلًا: «ياآل ضبة»، وحين عرف عمر ذلك أوقف راتبه لمدة عام، ويصادفنا كثير من مثل هذه الأحداث في كتب التاريخ(٢).

**مبادىء المساواة :**

وعلى أساس مبادىء المساواة هذه لم يكن عمر رضي الله عنه يحب تمييز أي إنسان مهما كان شكل هذا التمييز، وحين صنع عمرو بن العاص منبراً للمسجد الجامع في مصر كتب إليه عمر: هل تحب أن يجلس المسلمون أسفل، وتكون أنت في أعلى؟ وكان يرسل الأحكام المشددة إلى العمال بألا يميزوا أنفسهم أو يظهروا على غيرهم.

وحدث بينه وبين أُبي بن كعب مرةً نزاع، فرفع مظلمته إلى زيد بن ثابت الذي استدعى عمر رضي الله عنه فأخلى له مكاناً تعظيماً له.

فقال عمر رضي الله عنه هذا أول جورك في هذه القضية، ثم جلس بجوار خصمه، كان هذا هو السر الذي جعل أسلوب حياته بسيطاً للغاية ومتواضعاً، فلم يكن أحد يستطيع أن يعرفه أو يتميزه بعلامة ما في السفر أو الحضر، في

(١) فتوح البلدان ص ٤٥٦.
(٢) كنز العمال المجلد الثالث ص ١٦٧.

السر أو العلن، في البيت أو السوق، حتى إن رسل قيصر وكسرى، كانوا يأتون إلى المسجد، ويبحثون عنه ويتساءلون: أين ملك ملوك الإسلام، بينما هو جالس هناك في ركن من الأركان يرتدي الملابس المرقعة، وكان عماله يرسلون إليه رسائلهم، ويخاطبونه بألقاب مساوية لتلك التي كان يكتبها في رسائله لهم.

ورغم أن بعض الذين يدعون العظمة يُصدمون وتتكدر قلوبهم من جراء مبادىء المساواة تلك، ولكن لما كان هذا من طبع أهل الجزيرة العربية الأصيل، فقد ترك أثراً عظيماً للغاية على الدولة كلها، وأُعجب بها جميع العرب خلال أيام قليلة، واعترف بها خواصهم ممن يعرفون الحق يوماً بعد يوم، أما الأنانيون المغرقون في أنانيتهم، فلم يستطيعوا الإقدام على إبداء رأيهم المعارض للاتجاه العام السائد في الدولة.

وكان العمل بأصول المساواة تلك وتطبيقها ذا فائدة عظيمة، إذا قُضي تماماً على نزعة الفخر والتنافس التي لا فائدة منها، والتي كانت تؤدى إلى إذكاء نار الحروب بين قبائل العرب وجعل الجزيرة العربية بأكملها ميداناً للقتال.

## لماذا تلقب بأمير المؤمنين ؟

من الضروري أن نذكر هنا لماذا لقب عمر رضي الله عنه نفسه بلقب أمير المؤمنين الذي يدعو للفخر، بالرغم من مبادىء المساواة؟!

الواقع أن هذا اللقب لم يكن شيئاً يُفتخر به حتى تلك الفترة، بل كان يدل على الوظيفة والعمل فقط، فقد كان قادة الجيش عادة يلقبون بلقب الأمير، وكان كفار جزيرة العرب يدعون النبي ﷺ أمير مكة، وكان الناس في العراق ينادون سعد بن أبي وقاص بأمير المؤمنين[1].

---

(١) مقدمة ابن خلدون فصل في اللقب بأمير المؤمنين.

ولم يكن عمر رضي الله عنه يفكر حتى في هذا اللقب، وقد بدأ هذا اللقب حين أراد لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم القدوم إلى عمر رضي الله عنه، حين جاءا ذات مرة إلى المدينة، وطبقاً لما كان معمولاً به فقد أُطلع عمر رضي الله عنه على ذلك ولما كانا قد عاشا في الكوفة فقد كان لفظ أمير المؤمنين يتردد كثيراً على لسانها، وحين أرادا أن يخبرا عن وصولهما قالا: أخبروا أمير المؤمنين بوصولنا، فأخبره عمرو بن العاص واستعمل هذا اللقب، فسأل عمر رضي الله عنه عن سبب هذا اللقب، فأخبره بالواقعة، فاستحسن عمر رضي الله عنه هذا اللقب، واشتهر به منذ ذلك التاريخ[١].

وبهذه المناسبة من الممكن أن يظن أحد قصار النظر أن عمر رضي الله عنه لو لم يكن يرغب في منصب أو جاه لما قبل الخلافة، وكان من مستلزمات النزاهة ألا يلمس مائدة النعمة، ولكن هذا التفكير تفكير ساذج، فإذا رفع عمر رضي الله عنه يده عن الخلافة، فمن ذا الذي سيتولى أمرها؟! كان عمر رضي الله عنه يعرف تماماً أن هذا الحمل الثقيل لا يتحمله غيره، فهل كانت أمانته تجعله يتخلى عمداً في ذلك الوقت عن الخلافة، بحجة سوء ظن بعض الناس المتعمدين ذلك؟ وإذا مافعل ذلك فبماذا يُجيب رب العالمين؟ ففي اليوم الأول لخلافته خطب في الناس وقال:

«لولا رجائي أن أكون خيركم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم اضطلاعاً بما ينوب من مهم أمركم، ما توليت ذلك منكم[٢]»، وأكثر من ذلك وضوحاً تلك الألفاظ التي رواها الإمام محمد في الموطأ:

«لو علمت أن أحداً أقوى على هذا الأمر مني لكان أن أُقدَّم فيُضرب عُنقي أهون عليّ»[٣].

---

(١) الإمام البخاري كتاب الأدب المفرد ط آره ص ١٨٤.
(٢) أنساب الأشراف للبلاذري.
(٣) كتاب الأشراف للبلاذري ط مصطفائي ص ١٢٤.

فكروا في كلمات عمر رضي الله عنه، وانظروا هل خالف حرف منها الواقع؟.

**السياسة :**

كان عمر رضي الله عنه خبيراً بأصول السياسة ومبادئها، وكانت هذه هي الميزة التي ينفرد بها عن بقية الصحابة، قسم عمر رضي الله عنه الدول التي دخلت دائرة الخلافة إلى ثلاثة أقسام أساسية وهي الجزيرة العربية، وإيران والشام ومصر، وجعل لكل منها تدابير خاصة مناسبة لوضعها، ففي العراق وإيران راج نظام المرازبة والدهاقين منذ زمن بعيد، واستمرت قوتهم وسلطتهم حتى بعد الفتح الإسلامي، ولهذا قرر لهم رواتب «سياسية» اقتنعوا بها تماماً، وهكذا قرر لرؤساء العراق، ومن بينهم ابن النخجيرجان، وبسطام ابن نرسي، ورفيل، وخالد، وجميل رواتب معقولة، أما في مصر والشام لم يترك الرومان أصحاب أملاك من الأهالي الأصليين ولهذا لم يكن هناك خطر من ناحية هؤلاء، إذ كانوا يريدون حكومة عادلة عوضاً عن حكومة الرومان، وهكذا شملهم عمر رضي الله عنه بالمعاملة الحسنة حتى قالوا عدة مرات: إن المسلمين أحب إلينا من الروم، وهكذا كان سلوك عمر مع الشعوب الأخرى في عمومه سلوكاً كريماً، وقد سبق شرح هذا في حقوق أهل الذمة، ولكن إذا ما تعمقنا في الأمر عرفنا أنه بذل جهداً خاصاً، ورعاية خاصة مع رعايا الشام ومصر.

في مصر كان المقوقس من سكان مصر، وكان نائباً للحاكم من قبل الروم، فسلك عمر رضي الله عنه، منذ البداية سلوكاً طيباً حتى خضع له خضوعاً حقيقياً، ونتج عن هذا بالتالي خضوع جميع الرعايا المصريين أيضاً. ولم يكتف عمر رضي الله عنه بهذا فقط بل أسكن القبائل العربية في المناطق العسكرية، وأنشأ المعسكرات للجيش مما ترك أثره على مساحات شاسعة بلغت مئات الأميال، كما لم يجرؤ أحد على شق عصا الطاعة، أما الكوفة والبصرة اللتان أصبحتا مركزاً لقوة العرب، فقد أُنشئتا لهذا الغرض، مثلما أُنشئت معسكرات

الجيش على جميع سواحل الشام ومصر لهذه الضرورة أيضاً.

أما في جزيرة العرب بصفة خاصة فقد اتخذ تدابير سياسية مختلفة، فأخرج اليهود والنصارى كليةً من جزيرة العرب، وكان يغير بصفة دائمة القادة الكبار في الدولة، ولم يُعين حاكم إلا وتنقل بين مختلف الأقاليم، إلا عمرو بن العاص، وكان عمر يعزل من الحكام من يستشعر منه خطر التمرد، ولم يسمح لأصحاب النفوذ بمغادرة دار الخلافة، وذات مرة طلب هؤلاء الناس الإذن للذهاب إلى الجهاد فقال: «جمعتم ثروة كبيرة»، ثم قال: لا تخرجوا فتسللوا بالناس يميناً وشمالاً[١].

وذات مرة سأله عبدالرحمن بن عوف: لماذا تمنعنا من الخروج؟ فقال: لأن أسكت عن الجواب خير من أن أجيب[٢].

كما أنه لم يسند أبداً أي منصب في الدولة لأحد من قبيلته إلا نعمان بن عدي، فقد عينه حاكماً على أحد الأقاليم ثم عزله لسبب معقول، وكذلك لم يسند إلى أحد من بني هاشم أي منصب في الدولة، وقد راعى في كل هذا المصلحة العامة للدولة.

كان في جزيرة العرب في ذلك الوقت ثلاثة أشخاص عرفوا بالتدبر والدهاء وهم: الأمير معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، ولم يكن من بين العرب مثلهم لتولي مهام الدولة، ولهذا ولاهم عمر في المناصب الهامة، واضعاً في اعتباره ومراعياً ألا يخرجوا عن نطاق سيطرته، وبعد وفاته رضي الله عنه لم يعد هناك من يستطيع أن يكبح جماحهم، وهكذا كان هؤلاء هم سبب الفتنة التي ظهرت زمان عثمان وعلي رضي الله عنهما.

إن السياسة من مستلزمات الحكم والسلطة، إلا أن ما تميز به عمر عن

---

(١) تاريخ اليعقوبي ص ١٨١.
(٢) المصدر السابق.

العالم كله في هذا الشأن هو أن ما قام به الملوك الآخرون، بمقتضى السياسة كان في الأساس هو الخداع والمكر، والرياء والنفاق، ولا يقتصر الأمر على الملوك فقط بل إن المصلحين الكبار، لم ينجوا أيضاً من هذه الشائبة، ولكن عمر رضي الله عنه لم يكذب في أي إجراء اتخذه، ولم يخفى أي خطة وضعها، فما كان يقوم به كان يقوم به علانية، ويطلع الجميع على مافيه من خير وصلاح، فعندما عزل خالداً أرسل إلى جميع الأقاليم يطلعها بما يلي:

إني لم أعزل خالداً عن سُخطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به، فخفت أن يوكلوا إليه[١].

وأوضح أيضاً هذه الأفكار حين عزل المثنى وقال: «لم أعزلهما عن ريبة، ولكن الناس عظموهما، فخشيت أن يؤكلوا إليهما»[٢].

وقد بيّن لعبدالله بن عباس بوضوح تام سبب عدم تولية بني هاشم في مناصب الدولة، وسيأتي تفصيل ذلك في موضع آخر مناسب.

**الاختيار الموفق لمسئولي الدولة :**

من أعظم مآثر حسن سياسة عمر رضي الله عنه ومن أهم أسباب نجاحه وتوفيقه هو أنه استعمل في جهاز إدارته للحكم أجزاء في غاية التوازن والانسجام.

ومن المسلّم به عموماً أن صفة الفراسة كانت من أعظم صفاته، وعن طريقها تمكن من معرفة الرجال المؤهلين في جزيرة العرب ومعرفة مؤهلاتهم المختلفة وقدراتهم، فكان يسند إليهم الوظائف التي تتناسب مع قدراتهم تلك. وكما ذكرنا كان في جزيرة العرب أربعة أشخاص لا مثيل لهم في فن

(١) الطبري ص ٢٥٢٨.
(٢) المصدر ص ٢٣٩٣.

السياسة والإدارة وهم: الأمير معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن سمية، وهكذا أسند إليهم المناصب الكبرى في الدولة، وفي الحقيقة لم يكن هناك غيرهم يستطيع أن يسيطر على الشام والكوفة ومصر.

كما اختار للمهمات العسكرية عياض بن غنم، وسعد بن أبي وقاص، وخالد بن الوليد، والنعمان بن مقرن وغيرهم، وبالرغم من أن عمرو بن معديكرب، وطلحة بن خالد لم يكن لهما مثيلًا في الفروسية والمصارعة لكنهما كانا لا يقدران على قيادة الجيش، ولهذا أصدر عمر رضي الله عنه حكماً خاصًّا بهما بألا يُسند إليهما قيادة أي قسم من أقسام الجيش، وكان زيد ابن ثابت وعبدالله بن الأرقم من البارعين المنفردين في فن الإنشاء والتحرير فعينهما رؤساء ديوان الإنشاء، وكان القاضي شريح وكعب بن سور وسلمان ابن ربيعة وعبدالله بن مسعود بارعين في أمور القضاء، فاستخدمهم في القضاء، والخلاصة أنه عين في كل منصب ذلك الرجل الذي خلقه الله له، وقد اعترف بهذا الأمر المؤرخون الأجانب أيضاً، ويذكر مؤرخ نصراني مشهور أن عمر رضي الله عنه كان لا يُحابي أحداً في اختياره لقادة الجيش والحكام، وإذا ما تجاوزنا عن المغيرة وعمار فإن تعيين جميع القادة والحكام كان مناسباً للغاية وموزوناً.

**العدل النزيه والإنصاف الحرّ :**

كان عدل عمر النزيه وإنصافه الحر أعظم شيء جعل من حكمه حكماً مقبولاً لدى أهل الجزيرة العربية، وجعلهم يتحملون صرامة أحكامه وشدتها، فعدله أو إنصافه لا يفرق بين صديق وعدو، ومن الممكن أن يوجد من لا يرضى عن منهج عمر في تطبيق العدل والإنصاف الذي كان لا يلتفت فيه إلى عظمة أحد أو مكانته، ولكن عندما يرى هؤلاء أن عمر رضي الله عنه كان يسلك هذا المسلك مع أولاده وأقاربه، كانوا يصبرون، فعندما شرب ابنه أبو

شحمة الخمر جلده بنفسه ثمانين جلدة حتى قضى نحبه من جراء هذه الصدمة[١]، وعندما اتهم قدامة بن مظعون بهذا الجرم، وكان صحابياً جليلًا بلغ منه الكبر عتيا، ضربه علانية ثمانين درة.

**معرفة أحوال الإمبراطوريات القديمة ونظمها :**

كان من أكبر أصول سياسة عمر الاطلاع على قواعد الإمبراطوريات القديمة ونظم حكامها، فيأخذ منها ما يعجبه ويناسبه، فها هو يأخذ بالقواعد والأصول القديمة التي كانت متبعة في إيران والشام في مجال الخراج والعشور والديوان والمؤن والدفاتر والحسابات وغيرها من نظم، ولا شك أنه كان يصلح أي نقص يجده في هذه المجالات، وعندما أراد تنظيم الأمور الإدارية في العراق أرسل أوامره إلى حذيفة وعثمان بأن يرسلا إليه اثنين من كبار دهاقين العراق، فقدما إليه مع مترجم، فسألهما عن طريقة تحديد الخراج لدى ملوك العجم[٢].

ومع أن الجزية تبدو في ظاهرها مرتبطة بالأمور الدينية إلا أنه في تحديدها راعى نفس الأصول والقواعد التي أقرها أنوشيروان في حكومته، وعندما ذكر العلّامة أبو جعفر محمد بن جرير الطبري تنظيمات أنوشيروان، وذكر بصفة خاصة الجزية، كتب ما يلي:

«وهي الوضائع التي اقتدى بها عمر بن الخطاب حين افتتح بلاد فارس».

وقد كتب العلّامة ابن مسكويه في هذا الموضوع بوضوح أكثر من ذلك، وكان العلّامة المذكور حكيماً وفيلسوفاً ومعاصراً للشيخ أبي علي بن سينا، وله

---

(١) خلط الوعاظ أموراً كثيراً في قصة أبي شحمة، ولكن الأمر الصحيح المستخلص منها هو أن عمر رضي الله عنه عاقبه عقاباً شرعياً مات من جرائه (انظر معارف ابن قتيبة ذكر أولاد عمر).

(٢) كتاب الخراج ص ٢١.

نفس مكانته، كتب كتاباً في التاريخ بعنوان: تجارب الأمم[١] وجاء فيه عند ذكر التنظيمات الإدارية للدولة في عهد عمر ما يلي:

«وكان عمر يكثر الخلوة بقوم من الفرس يقرأون عليه سياسات الملوك، ولا سيما ملوك العجم الفضلاء وسيّما أنوشيروان، فإنه كان معجباً بها كثير الاقتداء بها».

ويصدق بيان العلّامة المذكور ما كتبه المؤرخون عموماً من أنه عندما أسلم هرمزان رئيس فارس، أدخله عمر رضي الله عنه ضمن خاصة مستشاريه، فكان يتشاور معه كثيراً فيما يتعلق بأمور التنظيم الإداري للدولة.

**المراسلون وكتبة الحوادث لمعرفة الأحوال والأخبار :**

كان عمر رضي الله عنه يبذل جهداً كبيراً لمحاولة التعرف على جميع ما يحدث في البلاد، فلا يخفى عليه شيء، وهكذا عين في كل إدارات الدولة المراسلين والكتبة الذين كانوا يسجلون الأخبار والحوادث، ومن هنا كانت تصل إليه حتى جميع الوقائع الصغيرة في البلاد، يذكر الإمام الطبري أن:

«. . . عمر لا يخفى عليه شيء في عمله، كُتب إليه من العراق بخروج من خرج من الشام بجائزة ومن أُجيز فيها»[٢].

وفي إحدى معارك العراق لم يعط أمير الجيش لعمرو بن معد يكرب نصيبه الآخر، فسأله عمرو بن معد يكرب عن السبب، فقال له لأن حصانك ليس بأصيل ولهذا أنقصت نصيبه، وكان معد يكرب مغروراً بقوته فقال: نعم الخسيس يمكن أن يعرف الخسيس، وبلغ هذا الخبر عمر على الفور، فما كان منه إلا أن عنَّف عمرو بن معد يكرب بشدة، فلم يجرؤ على مثل هذه الوقاحة بعد ذلك.

---

(١) يوجد هذا الكتاب في مكتبة مسجد أيا صوفيا بالقسطنطينية ونقلت ما ذكرته هنا عن هذه النسخة.

(٢) الطبري ص ٢٥٢٦.

وكان النعمان بن عدي حاكماً على ميسان، وحين استطاب الثروة والنعمة كتب إلى زوجته رسالة جاء فيها هذا البيت من الشعر:

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

وعلم عمر بهذا فوراً فعزله وكتب إليه: نعم لقد ساءني هذا العمل[(١)].

وكان حذيفة بن اليمان من كبار الصحابة، وكان يعرف كثيراً من الأسرار، فقد كان كاتم أسرار الرسول ﷺ أيام النبوة، ولهذا السبب كانوا يسمونه «صاحب السر»، فسأله عمر رضي الله عنه ذات يوم «هل بين عمالي وموظفيَّ من هم من جماعة المنافقين فقال: نعم شخص واحد، فسأله عمر رضي الله عنه عن اسمه، لكنه لم يذكره وحفظ السرّ.

ويذكر حذيفة أن عمر رضي الله عنه عزل هذا الشخص بعد هذه الواقعة مباشرة فعرفت من هذا أنه قد عرفه من تلقاء نفسه[(٢)].

ونظراً لهذه الدقة واليقظة لم يكن باستطاعة أحد من القادة والعمال القيام بعمل ما دون مشورته، يذكر العلاّمة الطبري مايلي:

«وكانوا لا يدعون شيئاً ولا يأتونه إلا وآمروه فيه»[(٣)].

**الاهتمام ببيت المال :**

كان رضي الله عنه يوجه اهتماماً كبيراً لبيت المال أي الخزانة، فلا يوجد أي مبلغ مهما كان يخفى عليه، وحين اجتمعت النذور بالكعبة فترة قال عنها:

«لقد هممت ألا أدع فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمته»[(٤)].

---

(١) أسد الغابة ذكر النعمان بن عدي.
(٢) أسد الغابة ذكر حذيفة بن اليمان.
(٣) الطبري ص ٢٤٨٧.
(٤) صحيح البخاري باب كسوة الكعبة.

وذات مرة جاء مال الغنيمة وعلمت به حفصة رضي الله عنها (ابنة عمر وزوج رسول الله ﷺ) فأتت عمر رضي الله عنه وقالت: ياأمير المؤمنين أعطني حقي منه لأني من ذوي القربى، فقال عمر رضي الله عنه: ياروح أبيك حقك من مالي الخاص، أما هذا فهو مال الغنيمة أتريدين أن تخدعي أباك فخجلت ونهضت من عنده[١].

بعد فتح الشام صارت هناك علاقة صداقة رسمية مع قيصر الروم، واستمرت المراسلات والمكاتبات، وذات مرة أرسلت أم كلثوم (زوجة عمر رضي الله عنه) عدة زجاجات عطر هدية إلى زوجة القيصر، فأرسلت زوجة القيصر إليها زجاجات مملوءة بالجواهر ردًا على الهدية السابقة، وعندما علم عمر بالأمر قال: مع أن العطر كان عطرك لكن الرسول الذي حمله كان من موظفي الدولة الرسميين، يصرف له راتبه من المال العام، وأخذ عمر الجواهر وأدخلها في بيت المال وعوضها عن الجواهر.

ومرض ذات يوم فأشار عليه الناس بالشهد علاجاً لمرضه، وكان الشهد موجوداً في بيت المال، لكنه لم يكن يستطيع أن يأخذ منه شيئاً بدون إذن، فذهب إلى المسجد النبوي وخاطب الناس قائلًا: «لو تأذنوا لي أن آخذ قليلًا من الشهد من بيت المال»[٢]، ويتضح من إجرائه هذا، وطلبه الإذن أنه أراد أن يبين للناس أن الخليفة ليس له هذا الحق في التصرف في الخزانة العامرة، أي: في بيت المال.

كان رضي الله عنه يكسب رزقه قبل الخلافة من التجارة، ولم يكن يستطيع أن يستمر في التجارة مع قيامه بمسئوليات الخلافة فجمع الصحابة، وأوضح لهم حاجاته الضرورية، وقال: كم أستطيع أن أتقاضى من بيت المال لسد

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل.
(٢) كنز العمال المجلد ٦ ص ٣٥٤.

نفقاتي؟ فاختلف الناس في الرأي، وبقي الإمام علي رضي الله عنه صامتاً فنظر إليه عمر رضي الله عنه، فقال: «قدر بسيط من الطعام واللباس»، وهكذا صرف له ولزوجه وأولاده الطعام واللباس فقط من بيت المال[١].

وحين قرروا الرواتب العسكرية للبدريين (الصحابة الذين شهدوا غزوة بدر) قرر له مع غيره من الناس مبلغ خمسة آلاف درهم سنوياً، وكان هذا هو المبلغ الذي كان يتلقاه الفاروق الأعظم طوال السنة من الدخل الذي وصل إلى ملايين الدراهم.

وسوف تطالعون فيما بعد عن سيرته الاجتماعية، فكثيراً ما كان يرتدي الملابس الممزقة، ويفترش الأرض، ولا يطهي دقيق القمح في بيته لشهور، ولم يكن السبب في هذا الميل إلى الرهبانية أو النسك بل كان السبب هو أنه لم يكن له نصيب من دخل الدولة أكثر من هذا، وكان إذا ما نال مبلغاً كبيراً من المال أنفقه بسخاء، وهكذا عندما تزوج بأم كلثوم عقد لها مهراً قدره أربعون ألف درهم، وذلك لحسبها ونسبها المرتبط بالأسرة النبوية، وقدمه لها في ذلك الوقت.

كان من أكبر الأسباب التي جعلته لا يسند وظيفة في الدولة لبني هاشم أنه كان يخشى أن يأخذ بنو هاشم ـ الذين كانوا يعتبرون أن خمس الغنيمة حقهم الشرعي ـ نصيبهم من الخمس رغم ثرائهم، مع أن نفقات الخمس في رأيه كانت ترتبط برأي إمام ذلك الوقت، وسيأتي بحث هذا بالتفصيل، وكان قد أظهر سوء ظنه هذا ناحية بني هاشم، حين مات عامل حمص، وأراد أن يعين عبدالله بن العباس رضي الله عنه، لكنه لم يكن مطمئنًا إليه، ولهذا استدعاه وقال له: في نفسي منك شيء، قال: لماذا؟ فقال: إني خشيت عليك أن تأتي على الفيء الذي هو آت»[٢].

---

(١) تاريخ الطبري أحداث سنة ١٥ هجرية.

(٢) كتاب الخراج أبو يوسف ص ٦٤، ٦٥.

ولم يكن هذا سوء ظن فحسب، بل حدث فعلًا ما توقعه عمر رضي الله عنه، فقد عين عليٌّ رضي الله عنه زمان خلافته عبدالله عاملًا، فأخذ من بيت المال مبالغ كثيرة، وحين آخذه عليّ رضي الله عنه على هذا، كتب إليه: أنا لم آخذ حقي كاملًا حتى الآن.

ويجب أن نتذكر أن التوفير والدقة فيما يتعلق ببيت المال كانا من أعظم أسباب نجاح الخلافة الفاروقية، فالاضطرابات التي قام بها الناس في النهاية في خلافة عثمان رضي الله عنه، كان من أهم أسبابها السلوك السخي الذي اتبعه عثمان رضي الله عنه، فيما يتعلق ببيت المال، أي أنه وهب أقاربه وأصحابه مبالغ ضخمة استناداً على قوله تعالى: «وذوي القربى».

## أداء الأعمال في أوقاتها :

من العجيب أنه رغم الأعمال التي لا حصر لها، فقد كانت جميع تحركات الجيوش المنتشرة على بعد مئات الآلاف من الأميال تتم بإشارة منه، وقد قرأتم قبلًا عن الأقسام المختلفة للتنظيمات الإدارية في الحكومة وترتيب الفقه والإفتاء، وهو عمل مستقل ويُعد من مآثره العظيمة، كل هذه الأمور وغيرها كانت مستقلة عن أعماله الخاصة ومشاغله الذاتية، ومع هذا فقد كان كل عمل يتم في وقته وحينه، ولا يؤثر على عمل آخر أبداً.

حين وقعت معركة نهاوند الضارية التي تجمعت فيها جميع القوى الإيرانية، جاءه من يشكو سعد بن أبي وقاص والي الكوفة، فقال عمر رضي الله عنه مع أن الوقت حرج لكن لا يمكن وقف التحقيق مع سعد، وهكذا مضت عملية تنظيم إرسال الجيوش من الكوفة جنباً إلى جنب مع استمرار إجراءات التحقيق مع سعد بكل جدية.

وحين أراد أهل الجزيرة التحالف مع قيصر والهجوم على الشام، أرسل رضي الله عنه الجيوش من جميع المراكز، فأغلقت جميع السبل المؤدية إلى

الجزيرة، فلم يستطع أهل الجزيرة الوصول إلى قيصر.

كان زياد بن حدير مسئولاً عن تحصيل عشور العراق، فحدد قيمة فرس لأحد النصارى بعشرين ألفاً ثم طلب منه الضريبة فقال: أعطني الفرس وخذ تسعة عشر ألفاً ـ وحين مرّ النصراني مرة أخرى من حدوده، طلب منه ضريبة مرة ثانية، فذهب النصراني إلى مكة واشتكى لعمر رضي الله عنه، فلم يكن من عمر إلا أن قال له: اطمئن ـ ورجع النصراني إلى زياد بن حدير وهو ينوي أن يعطيه ألف درهم ويسترد فرسه، فوجد أمر عمر قد سبقه إلى هناك: «لا يمكن أن تؤخذ ضريبة على شيء واحد مرتين في السنة».

ووقعت حادثة أخرى شبيهة بتلك لأحد النصارى الذي وصل إلى عمر رضي الله عنه حين كان يخطب في الحرم، فقدم إليه شكواه وهو على هذه الحال، فنادى: «لا يمكن أن تؤخذ ضريبة على شيء واحد مرتين في السنة»، وظل النصراني مقيماً بمكة عدة أيام، وذات يوم ذهب إلى عمر رضي الله عنه وقال: أنا النصراني الذي شكوت إليك أمر الضريبة.

فقال عمر: وأنا الحنيفي (المسلم) الذي قضيت حاجتك، وأدرك النصراني أن عمر رضي الله عنه كان قد أرسل أمره منذ ذلك اليوم إلى زياد[١].

**المصلحة العامة :**

أولى عمر رضي الله عنه هذا الأمر اهتماماً شديداً، وهو ألا يعاني أي فرد في الدولة الإسلامية من الفقر والفاقة، فأصدر حُكماً عاماً ـ ظل يطبق دائماً ـ أن تصرف مرتبات من بيت المال للمعاقين والعاطلين والمقعدين وغيرهم، وهكذا بلغ عدد المسجلين في ديوان الجند أكثر من سبعمائة ألف رجل، يصلهم طعامهم، وهم في بيوتهم، وحين بدأ تنظيم هذا الأمر في البداية أمر

---

(١) هاتان الروايتان من كتاب الخراج ص ٧٨، ٧٩.

أن يطهي جريب من الدقيق[١] وبعد الطهي يدعي إلى الطعام ثلاثون رجلًا، وفي الشام تطهى كمية مماثلة لإطعام نفس العدد من الناس، وحين قدرت هذه الكمية لوجبتين، أشار إلى أن جريبين من الدقيق يكفيان لطعام شهر، ثم أمر بأن يصرف لكل شخص هذه الكمية من الدقيق، وصعد على المنبر ليعلن هذا للناس فأمسك المكيال بيده وقال: لقد قررت للناس هذه الكمية من الطعام، وسيعلم الله من ينقصها، وفي رواية أنه أمسك المكيال في يده وقال:

«إني قد فرضت لكل نفسٍ مسلمة في شهر مُدي حنطة وقطي خل».

فقال رجل وهل هذا للعبد أيضاً، فقال: نعم وللعبد[٢].

**رواتب الفقراء والمساكين :**

أمر عمر رضي الله عنه أن تصرف رواتب للفقراء والمساكين دون تحديد دينهم، (سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين) كما سبق وذكرنا قبلًا في حقوق الذميين، فكتب إلى عامل بيت المال أن المقصود بالفقراء في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾ [التوبة: ٦٠] هم المسلمون، والمقصود بالمساكين هم أهل الكتاب.

**بيوت الضيافة :**

شيد عمر رضي الله عنه بيوتاً للضيافة في معظم المدن حيث يجد الضيوف الطعام من بيت المال، وقد أشرنا إلى بيت الضيافة عند ذكرنا لبناء الكوفة، وكان بالمدينة المنورة مطبخ عام، يذهب إليه رضي الله عنه معظم الأوقات ليشرف بنفسه على إطعام الناس.

**اللقطاء :**

أعد عمر رضي الله عنه سنة ١٨هـ نظاماً للقطاء الذين تركتهم أمهاتهم في

(١) الجريب حوالي ٢٥ سير (والسير حوالي رطلين).

(٢) تفصيل ذلك في فتوح البلدان ص ٤٦٠ وقد ذكرت هذه الرواية في جميع كتب التاريخ باختلاف بسيط.

الطرق وغيرها، وكان هذا النظام يقضي بأن ترتب نفقات هؤلاء الأطفال حيث وجدوا، وأن يتم إرضاعهم، وصرف جميع نفقاتهم من بيت المال[1]؛ فقرر لهم في البداية مائة درهم سنوياً، ثم زاد المبلغ من سنة لأخرى.

**الاهتمام باليتامى :**

كان عمر رضي الله عنه يهتم اهتماماً بالغاً بتربية اليتامى، والحفاظ على ممتلكاتهم إن كانت لهم ممتلكات، وكان يزيد فيها عن طريق التجارة، وقد قال ذات مرة للحكم بن أبي العاص: إن مال اليتامى الموجود لدي يتآكل بسبب إخراج زكاته، فاستخدمه في التجارة ورد مكاسبه، وهكذا سلمه مبلغ عشرة آلاف، فأخذ يزيد ويزيد حتى وصل مائة ألف.

**مواجهة القحط :**

حين عمّ القحط أنحاء الجزيرة العربية سنة ١٨هـ أظهر نشاطاً عجيباً، فصرف في البداية جميع أموال وغلال بيت المال، ثم كتب إلى جميع عمال الأقاليم، ليرسلوا الغلال من كل مكان، وهكذا أرسل أبو عبيدة رضي الله عنه أربعة آلاف بعير محملة بالغلال، وأرسل عمرو بن العاص عن طريق بحر القلزم (البحر الأحمر) عشرين سفينة، تحمل كل منها ثلاثة آلاف أردب من الغلال، وذهب عمر رضي الله عنه بنفسه لاستقبالها عند الميناء المسمى «جار» وهو على بعد ثلاثة منازل من المدينة، وأمر ببناء مخزنين كبيرين في الميناء، وأمر زيد بن ثابت ليعد قائمة بالأماكن التي أُضيرت بسبب القحط، وهكذا أعد سجلًا باسم المكان، ومقدار ما يناله من قمح، ووزع على كل شخص صكاً[2] يتناول بموجبه نصيبه اليومي من القمح، وكان الصك مختوماً

---

(١) البلاذري ص ٤٥٢ واليعقوبي المجلد ٢ ص ٧١.

(٢) التفاصيل في كتاب اليعقوبي ص ٧٧ وجاء في الفقرة الأخيرة مايلي: ثم أمر زيد بن ثابت أن يكتب الناس على منازلهم، وأمر أن يكتب صكاكاً من قراطيس ثم=

بخاتم عمر رضي الله عنه، وبالإضافة إلى ذلك أمر بذبح عشرين ناقة يومياً تحت إشرافه، وكان يأمر بطبخ الطعام وإطعام من أصابهم القحط.

**مفهوم عمر رضي الله عنه للمصلحة العامة :**

من الجدير بالإشارة هنا وبصفة خاصة أنه رغم اهتمام عمر رضي الله عنه بتنمية الدولة وتطويرها إلى حد كبير، لكن كرمه هذا لم يكن من نوع الكرم الآسيوي الذي يُشيع بين الناس نوعاً من الكسل والتواكل.

يُذكر كرم السلاطين والأمراء في آسيا بإعجاب شديد لكن الناس لا يفكرون في أن هذا الكرم الذي يمتدحون به السلاطين والأمراء هو من ناحية أخرى يؤدي إلى فقر الأمة، وغرس روح الاستجداء بداخلها، كان هذا هو الكرم الآسيوي الذي جعل في أمتنا اليوم مئات الآلاف من الناس الذين لا يريدون حتى تحريك أيديهم وأرجلهم كسلًا أو تكاسلًا، ويقضون حياتهم على العطايا والهبات. لكن عمر رضي الله عنه لم يكن يجهل هذا الأمر، فكان يبذل كل الجهد حتى لا تظهر في الناس بذرة الكسل والتواكل، فقد كانت الرواتب والطعام تصرف لأولئك الناس الذين يتوقع منهم أن يخدموا في الجيش في يوم ما، أو لأولئك الذين قاموا بعمل بارز من قبل، أو من لا يستطيعون كسب رزقهم بسبب الضعف أو المرض، وماعدا هؤلاء لم يكن باستطاعته أن يشمل أحداً بأي نوع من أنواع الكرم والسخاء.

كتب ابن الجوزي المحدث في «سيرة العمرين» أن سائلًا جاء إلى عمر ذات يوم، فنظر عمر فوجد كيسه مملوءاً بالدقيق، فأخذه منه ووضعه أمام البعير وقال: لك الآن أن تسأل ما تريد.

وكتب العلامة الماوردي في الأحكام السلطانية أن مهمة المحتسب كانت تنبيه القادرين على كسب عيشهم ممن كانوا يأخذون الصدقات والهبات،

---

= يختم أسفلها، فكان أول من صك وختم أسفل الصكاك.

وتأديبهم، وبعدها استدل الماوردي في سنده بما فعله عمر وكتب: «وقد فعل عمر مثل ذلك بقوم من أهل الصدقة»[١].

وكان من عادته إذا رأى شخصاً ظهرت عليه علامات الترف أن يسأل: أليس لديه حرفة؟ وعندما يقول الناس: لا، يقول رضي الله عنه: لقد سقط هذا الشخص من نظري، وكان يقول: «مكسبة فيها دناءة خير من مساءلة الناس» وكثيراً ما يجد العلماء والصوفية الفرصة لتناول طعامهم مجاناً، وفي عصره لم تكن الصوفية قد ظهرت، لكنه كان يخاطب العلماء علانية ويقول: لا تكونوا عيالاً على المسلمين[٢].

**الاهتمام بالجزئيات :**

في تاريخ حياة عمر أمر عجيب وهو أنه إذا كان له السبق في التعامل مع الأمور الهامة جداً إلا أنه أيضاً كان يتولى بنفسه أداء الأمور الصغيرة جداً، ولم يكن يُشكل عليه ذلك أن يضيق لها وقته، ومن بينها أعمال لم تكن تتناسب وعظمة الخلافة ولكنه لم يكن يتعفف، أو يشعر بالعار من أداء أي منها، فكثيراً ما كان يذهب بنفسه ليوزع الرواتب على من كانت تصرف لهم. كانت قديد وعسفان منطقتان تبعدان عن المدينة بعدة منازل، حيث كانت تسكن قبيلة خزاعة، فكان عمر رضي الله عنه يذهب بنفسه إلى هاتين المنطقتين، يحمل فيه يده سجل الأرزاق، وعندما يرونه يخرج الصغار والكبار من بيوتهم، ويأتون إليه فيوزع عليهم عمر الأرزاق بيده، وكثيراً ما كان يذهب إلى دار الصدقة، فيقف عند كل بعير يعد أسنانه ويكتب أوصافه.

كتب المحب الطبري نقلًا عن أبي حذيفة أنه كان من عادة عمر رضي الله عنه أن يذهب إلى بيوت المجاهدين، ويسأل النساء إن كُن يردن شيئاً من السوق

---

(١) الأحكام السلطانية ط. مصر ص ٢٣٥.

(٢) سيرة العمرين لابن الجوزي.

ليحمله إليهم، فكنّ يبعثن الجواري معه فيشتري لهن حاجياتهن ويسلمها لهن، وكان الرسول يأتيه من أرض المعركة حاملًا معه رسائل الجند، فكان يقوم بتوزيعها بنفسه على بيوتهم ويقول لهم إن الرسول سيعود في تاريخ كذا فاكتبوا جواب رسائلكم حتى ترسل في حينها، وكان يجهز لهم الورق والقلم والدواة، ومن لم يكن في بيته من يعرف الكتابة، كان يجلس بنفسه على عتبة البيت ويكتب مايملى عليه.

**وسائل وسبل معرفة شكاوى الرعايا :**

كان من أكثر اهتمامات عمر رضي الله عنه هو ألا يكون هناك أي حائل يحول بينه وبين وصول شكاوى الرعايا إليه، فجعل من عادته أن يجلس في صحن المسجد بعد كل صلاة، فيستمع إلى من يريد التحدث إليه، فإن لم يوجد أحد انتظر قليلًا ثم نهض[١] فيمضي يتفقد حال الرعية في الليل، ويسأل عن أحوال المسافرين على دروبهم، ويظل يسأل الرُسل المعينين من قبل الدولة والقادمين من جميع المراكز والأقاليم عن كل شيء.

**السفارة :**

كانت أهم وسيلة لمعرفة الأحوال هي مجيء السفارات كل سنة من جميع الأقاليم، فتعرض جميع الأمور الضرورية المتعلقة بتلك المناطق، وكان يطلق على هذه السفارة اسم «وفد»، وكانت هذه من عادات العرب قديماً، لكن عمر استخدمها في عصره كما تستخدم الدول حديثا اليوم الأعضاء النواب عن الرعايا.

ويوجد في العقد الفريد وغيره تفصيل هذه السفارات التي كانت تأتي من مختلف الأقاليم في عهد عمر، وما كانت تعرضه من موضوعات.

---

(١) كنز العمال المجلد ٢ ص ٢٣.

**السفر إلى الشام والسهر على الرعية :**

ورغم كل هذا لم يكن مطمئناً على جميع الأمور، ويقول إن العمال لا يهتمون بالرعايا، ولا يستطيع كل إنسان أن يصل إليّ، وعليه عقد العزم لزيارة الشام والجزيرة والكوفة والبصرة وأن يقيم في كل مكان مدة شهرين، إلا أن الموت لم يمهله، ومع ذلك فحين سافر في المرة الأخيرة إلى الشام، أقام في كل مركز من مراكزها، واستمع إلى شكاوى الناس، وأنصفهم، وفي هذا السفر واقعة فيها عبرة وعظة، فعندما كان عائداً إلى دار الخلافة، إذا به يرى خيمة، فترجل واقترب من الخيمة، فرأى عجوزاً، فسألها هل تعرفين شيئاً عن عمر ؟ فقالت: نعم، لقد ذهب إلى الشام لكن قاتله الله لم أتلق منه حبة إلى اليوم.

فقال عمر: كيف يمكن لعمر أن يعرف أحوال هذا المكان البعيد؟

قالت: إذا كان لا يعرف حال الرعية فلماذا يتولى الخلافة.

فتأثر عمر رضي الله عنه كثيراً وبكى رغماً عنه.

وننقل هنا عدة حكايات ربما نقدر منها إلى أي مدى كان عمر رضي الله عنه يسعى ويهتم براحة الرعايا، وإلى أي مدى كان يتعاطف معهم ويرعاهم.

ذات مرة كانت قافلة قادمة إلى المدينة، فنزلت خارجها فقدم عمر رضي الله عنه بنفسه للسهر عليها ورعايتها وحمايتها، وبينما كان يتجول في حراستها سمع صوت بكاء في ناحية، فاتجه إليها فرأى طفلًا رضيعاً يبكي في حضن أمه، فطلب من الأم أن تهدىء من روع طفلها، وبعد فترة مرّ من نفس الناحية فوجد الطفل يبكي فاغتاظ وقال: أنت أم قاسية القلب.

فقالت: إنك لا تعرف الحقيقة، فلماذا تزعجني، إن عمر أمر بألا يصرف للطفل راتب من بيت المال طالما لم يتم فطامه، وقد فطمته، ولهذا السبب يبكي.

وتأثر عمر رضي الله عنه كثيراً وقال: واأسفاه ياعمر! كم طفلًا قتلت ؟

وأمر المنادي أن ينادي في نفس اليوم بأنه قد تقرر صرف الرواتب للأطفال منذ اليوم الأول لولادتهم.

ويذكر أسلم (وكان غلاماً لعمر رضي الله عنه) أن عمر رضي الله عنه خرج ذات مرة في الليل ليتفقد أحوال الرعية، فوصل إلى صرار وهو مكان يبعد عن المدينة مسافة ثلاثة أميال، وهناك رأى امرأة تطبخ شيئاً بينما يبكي من حولها عدة أطفال، فذهب إليها، وسألها عن الأمر فقالت: لا أجد طعاماً للأولاد منذ مدة فوضعت الماء في القدر، ورفعته على النار حتى أسليهم، فنهض عمر رضي الله عنه من فوره وقدم إلى المدينة، وأخذ من بيت المال دقيقاً ولحماً وسمناً وتمراً وقال لأسلم: ضعها على ظهري، فقال أسلم أنا أحملها، فقال عمر: نعم لكنك لن تحمل عني أثقالي يوم القيامة.

والخلاصة أن عمر رضي الله عنه حمل جميع الأشياء ووضعها أمام المرأة فعجنت الدقيق، ووضعت القدر على النار، وأخذ عمر رضي الله عنه بنفسه ينفخ النار وأُعدّ الطعام، وأكل الأطفال حتى شبعوا وبدأوا يقفزون ويمرحون، وكان عمر ينظر إليهم وهو مسرور فرح، فقالت المرأة: جزاك الله خيراً، وحري أن تكون أنت أمير المؤمنين لا عمر.

وبينما كان يتجول ليلاً ذات مرة، رأى بدوياً يجلس على الأرض خارج خيمته، فذهب إليه وجلس بجواره، وشرعا يتجاذبان أطراف الحديث، وفجأة انبعث من الخيمة صوت بكاء، فسأله عمر عمن يبكي فقال زوجتي في حالة مخاض، فقدم عمر إلى بيته وأخذ معه أم كلثوم (زوجته) ـ رضي الله عنها ـ واستأذن البدوي لتدخل أم كلثوم الخيمة، وبعدها بقليل ولد طفل، فنادت على أمير المؤمنين حتى يبارك لصاحبه، وسمعها البدوي تقول ياأمير المؤمنين فاعتدل وجلس في أدب، فقال عمر رضي الله عنه لا عليك، عليك أن تأتي إليّ في الغد لأقرر راتباً لهذا الطفل.

وذكر عبدالرحمن بن عوف أن عمر رضي الله عنه جاء إلى بيته ذات مرة،

فقلت لماذا أتعبت نفسك ؟ كان من الممكن أن تستدعيني، فقال: علمت الآن أن قافلة نزلت خارج المدينة، وسيكون أهلها متعبين فهيا معاً نذهب ونتولى حراستها، وهكذا ذهبا معاً وقاما بحراستها طوال الليل.

وفي عام المجاعة كان عمر في حالة عجيبة فلم يتناول قط طعاماً لذيذاً كاللحم والسمن والسمك، وكان يدعو الله في تضرع وخشوع ويقول: اللهم لا تهلك أمة محمد بسيىء أعمالي، ويذكر غلامه أسلم أن عمر رضي الله عنه ظل طوال أيام القحط يفكر ويفكر حتى خشي عليه أن يهلك من الحزن والغم إذا لم ينته القحط[١]، وقد سبق أن ذكرنا ما قام به عمر من إجراءات لمواجهة القحط.

وقد قدم إليه أحد البدو مرة وأنشد هذه الأبياتِ:

يـاعمـر الخيـر خيـر الجنة اكسـي بُنيـاتـي وأمهنـه
أقسـم بـالله لـتـفـعـلـنـه

فقال عمر: وإذا لم أفعل ماقلت فماذا يكون؟ فقال البدوي:

تكون عن حالي لتسألنه والواقف المسئول يُبهتنه
إمـا إلـى نـار وإمـا إلـى جنـة

فأخذ عمر يبكي حتى تبللت لحيته ثم قال للغلام: اعطه قميصي هذا، فليس عندي الآن سواه[٢].

وبينما كان يتفقد أحوال الرعية ليلًا فسمع امرأة تجلس فوق سطح بيتها تتغنى بهذا الشعر:

تطـاول هـذا الليـل وازور جـانبـه وليس إلى جنبي خليل أُلاعبه

---

(١) وردت جميع هذه الروايات في كنز العمال المجلد السادس ص ٣٤٣ بمصادرها الأصلية.

(٢) سيرة العمرين وإزالة الخفاء.

وكان زوجها قد خرج للجهاد، فكانت تنشد هذه الأبيات المؤلمة في فراقه، فاضطرب عمر كثيراً وقال: لقد ظلمت نساء العرب، وقدم إلى حفصة رضي الله عنها وسألها كم يوماً يمكن للمرأة أن تبقى بعيدة عن زوجها؟ فقالت أربعة أشهر، وفي الصباح أرسل أوامره إلى كل مكان بعدم بقاء أي جندي بعيداً عن بيته أكثر من أربعة أشهر.

كان سعيد بن يربوع صحابياً ذهب بصره، فسأله عمر لماذا لا تأتي في الجمعة؟ فقال له: ليس عندي من يدلني على الطريق، فعين له عمر رجلًا فكان يرافقه على الدوام[١].

ومرة كانت جماعة من الناس يتناولون الطعام فرأى رجلًا من بينهم يتناول الطعام بيده اليسرى فذهب إليه وقال له: كُل بيمينك، فقال الرجل، لقد فقدت يدي اليمنى في غزوة مؤتة، فتأثر عمر رضي الله عنه، وجلس بجواره، وأخذ يبكي ويقول: واأسفاه من يوضئك؟ ومن يغسل لك شعرك؟ ومن يلبسك الملابس؟ ثم عيّن له خادماً وأعد له بنفسه جميع لوازمه.

## الإمامة والاجتهاد

منصب الإمامة منصب له صلة بالنبوة، وطبيعة الإمام تقترب من طبيعة الرسول، يذكر شاه ولي الله أن من بين الأمة جماعة يقترب معدن طبيعتهم من معدن الأنبياء وهذه الجماعة هي بطبيعتها تخلف الأنبياء في الأمة[٢].

ومع أن العقائد والأحكام بسيطة وواضحة في ظاهرها لأن الإيمان بخالق العالم والاعتراف بكمال صفاته، والإيمان بالثواب والعقاب، والزهد والعبادة ومحاسن الأخلاق، وهذه الأمور كلها هي المبادىء الأصلية للدين

---

(١) أسد الغابة تذكرة سعيد بن يربوع.
(٢) إزالة الخفاء الجزء الأول ص ٩.

وأحكامه، وهي أمور بسيطة وواضحة في ظاهرها، لكنها تحمل من الغموض والإيهام الكثير بحيث لو لم يستخدم الإنسان فهمه وذكاءه لتغيرت حقيقتها تماماً. وهذا هو السبب في وقوع أخطاء متفاوته في فهمها رغم أنها مشتركة تقريباً في جميع الأديان ـ وقد جاء الإسلام لمحو هذه الأخطاء واهتم بها وأكد عليها، ولكن الطبائع العامة لا تدرك عادة كنه الأشياء، لذا يبتعد معظم الناس في العصور المختلفة عن أصل الحقيقة، ومن هنا تظهر أهمية الأئمة والمجتهدين لكي لا تختفي هذه الأسرار وراء الحجب، فمثلًا قضى الإسلام على الشرك بكل قوة، ومع هذا لو أمعنا النظر أدركنا إلى أي مدى يوجد الأثر الخفي للشرك في الأسلوب الخاص لتعامل العوام مع مسألة القبور والمزارات، كما أن أسلوب الخواص أيضاً لا يزال فيه مسحة من الأثر الخفي للشرك، وكأن الألفاظ البديعة والجميلة التي تقال للحصول على البركة والاستعانة بالقبور قد أخفت هذا الأمر.

**مسألة القضاء والقدر :**

فهم عمر رضي الله عنه الحقيقة الأصلية لهذه المسائل الدقيقة المشتبهة، وعرضها على الناس بشجاعة قلما يوجد لها نظير في عصر الصحابة.

إن مسألة القضاء والقدر من أكبر قضايا العلوم الدينية الحساسة، وقد أخطأ فيها كبار أئمة الدين حتى أنه حدث لبس واشتباه لدى بعض كبار الصحابة، فعندما سافر عمر رضي الله عنه إلى الشام في طاعون عمواس، وصل إلى سرغ، وهناك علم أن الوباء اشتد بها، فأراد العودة إلا أن أبا عبيدة قال ـ وهو غاضب، فهو يرى أن ما يحدث هو قضاء الله ـ : «أفرار من قدر الله؟!».

فحل عمر رضي الله عنه هذه المسألة الدقيقة الحساسة بألفاظ مختصرة بليغة حين قال: «نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله»[1].

---

(١) ذكرت هذه الواقعة بالتفصيل في صحيح مسلم باب الطاعون.

ومن أصول الإسلام تعظيم شعائر الله، وهكذا كان الأمر باحترام الكعبة والحجر الأسود وغيرها، ولكن هذا كان فيه تشابه إلى حدٍ ما مع عبادة الأوثان، وهذا هو السبب الذي أدى إلى ظهور عبادة الأوثان تدريجياً في جميع المذاهب والأديان؛ فنهى عمر رضي الله عنه الناس في مناسبات مختلفة عن الانزلاق في هذا الخطأ، وذات مرة وقف أمام الحجر الأسود وقال على الملأ: «إني أعلم أنك حجر وأنك لا تضر ولا تنفع».

**تعظيم شعائر الله :**

وكان فعل عمر رضي الله عنه هذا يختلف عن الذوق العام تماماً، ويمكن أن ندرك هذا مما رواه كثير من المحدثين حين نقلوا قوله هذا، فأضافوا رواية تقول بأن عليًا رضي الله عنه سخر منه في ذلك الوقت، وأكد أن الحجر الأسود يمكن أن ينفع ويضر، لأنه سوف يشهد في حق الناس يوم القيامة، ولكن هذه الإضافة محض خطأ وتزييف كما صرح نقاد علم الحديث.

وقد بايع النبي ﷺ المسلمين ذات مرة على الجهاد تحت شجرة، فاعتبرت بناءً على هذا شجرة مباركة، وبدأ الناس يأتون للتبرك بها، وعندما رأى عمر هذا استأصلها من جذورها[١].

وذات مرة كان عائداً من الحج، وفي الطريق كان هناك مسجد صلى فيه النبي ﷺ مرةً، ولهذا تدافع الناس نحوه، فخاطب عمر رضي الله عنه هؤلاء الناس قائلًا: إنما هلك أهل الكتاب بسبب هذه الأمور، إذ اتخذوا آثار أنبيائهم أماكن لعبادتهم[٢].

---

(١) إزالة الخفاء، الجزء الثاني ص ٩١ وقد كتب العلامة الزرقاني في شرح المواهب اللدنية عن هذه الواقعة عند ذكر بيعة الرضوان، وذكر أن ابن سعد روى هذه الواقعة بسند صحيح في الطبقات.

(٢) إزالة الخفاء الجزء الثاني ص ٩١.

## إلى أي حد ترتبط أقوال النبي ﷺ وأفعاله بمنصب النبوة ؟ :

يخطىء الناس عموماً فيما يتعلق بحقيقة النبوة، ولم يتوقف هذا أيضاً في زمن الإسلام، فيعتقد الكثيرون أن كل فعل وقول للنبي يكون من عند الله، وإذا ما تشجع البعض استثنى منها الأمور الاجتماعية فقط، لكن الحقيقة هي أن ما يتلقاه النبي من أحكام من حيث كونه نبياً، هو بلا شك من عند الله، أما الأمور الأخرى فتكون حسب الوقت والضرورة؛ لأنها ليست أموراً تشريعية ودينية.

وقد أوضح عمر رضي الله عنه هذه المسألة بشكل تام لم يسبقه أحدٌ إليه. وقد استدل الإمام الشافعي في كتبه فيما يتعلق ومسائل تحديد الخراج، وتحديد الجزية وبيع وشراء «أم الولد»(١) وغيرها من المسائل بأحاديث غير صحيحة، وقام بانتقاد عمر بشجاعة كبيرة حين وجد أسلوب عمر يختلف في هذه القضايا، عما ورد في تلك الأحاديث، ولكن الإمام الشافعي صرف النظر عن أمر هام، وهو أن هذه الأمور لا تتعلق بمنصب النبوة، ولهذا أذن الشارع ـ عليه السلام ـ نفسه لكل إنسان أن يجتهد في هذه المسائل، وسيأتي بحث ذلك بالتفصيل.

إن الأصول العظيمة التي وضعها عمر رضي الله عنه فيما يتعلق بأحكام الشريعة هي أن جميع الأحكام الشرعية قائمة على أسس عقلية.

وهناك رأيان يتعلقان بالأحكام الدينية منذ البداية، الأولى أنه ليس للعقل دخل فيها، والثاني أن جميع الأحكام مبنية على الأصول العقلية، وهذا الرأي الثاني هو أساس علم أسرار الدين، ومع أن هذا العلم الدقيق كان بعيداً عن

---

(١) هل أبطل النبي ﷺ مسألة بيع أم الولد أم عمر؟ الصحيح هو أن النبي ﷺ منع بيعها، وقام عمر رضي الله عنه بتطبيق هذا الحكم، حاشية بقلم محمد عبدالله مفتي خير المدارس بملتان الفاروق ط المكتبة الرحمانية أردو بازار لاهور.

متناول الطبائع العامة، هذا بالإضافة إلى أن الشغف الديني والولع من شأنهما أن يؤديا إلى قبول أي أمر بدون نقاش، ولا يسمحا للرأي والعقل بالتدخل.

**عمر رضي الله عنه وعلم أسرار الدين :**

ولكن عمر رضي الله عنه كان من أنصار الفريق الثاني فهو أول من وضع أساس علم أسرار الدين، وقد كتب شاه ولي الله في كتابه «حجة الله البالغة» أن عمر وعلي وزيد بن ثابت وعبدالله بن عباس وعائشة رضي الله عنهم بحثوا في هذا العلم وأظهروا علله[1].

وكان من بين من ذكرهم شاه ولي الله «عبدالله بن عباس»، وكان عمره عند وفاة رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة، ولم يزد عُمر علي رضي الله عنه عند بعثة الرسول ﷺ عن عشر سنوات أو إحدى عشرة سنة، وكان عمر زيد بن ثابت عند هجرة الرسول ﷺ إحدى عشرة سنة، وكان عمر السيدة عائشة عند وفاة الرسول ﷺ ثمانية عشر عاماً، ويثبت من هذا أن جميع هؤلاء الصحابة كانوا ممن طوروا هذا العلم إلا أن عمر رضي الله عنه كان أول من قام بذلك.

كان عمر رضي الله عنه يفكر ويُمعن دائماً في أسباب المسائل الشرعية، فإذا مابدت له مسألة تتعارض مع العقل، بادر بسؤال رسول الله ﷺ عنها، فصلاة القصر التي قررت في السفر كانت بناءً على أن الطرق لم تكن آمنة في بداية الإسلام، وكان هناك خوف دائم من الكفار، وقد وردت الإشارة إلى هذا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [النساء: ١٠١].

وحين أصبحت الطرق آمنة، استمر الحكم بالقصر في الصلاة، وتعجب عمر لهذا وسأل رسول الله ﷺ: لماذا نقصر الآن في السفر؟ فقال النبي ﷺ :

(١) حجة الله البالغة ص ٦.

«هذه مكافأة من عند الله»[١].

والرمل ركن من أركان الحج ففي الطواف يهرول الطائفون في الأشواط الثلاثة الأولى، وكانت بدايته أن الرسول ﷺ حين قدم من المدينة إلى مكة أشاع الكفار أن المسلمين صاروا ضعافاً نحفاء لدرجة أنهم لا يستطيعون الطواف حول الكعبة، وحين سمع الرسول ﷺ بهذا أمر بالرمل[٢]، واستمر هذا الحكم معمولاً به فيما بعد، حتى اعتبره الأئمة الأربعة سنة مؤكدة من سنن الحج، لكن عمر قال بوضوح: مالنا وللرمل إنما كنا رآينا به المشركين، وقد أهلكهم الله[٣].

كان عمر رضي الله عنه ـ كما ذكر شاه ولي الله ـ يريد ترك الرمل، لكنه أبقى عليه بعد أن اعتبره ذكرى لرسول الله ﷺ، كما أن عبدالله بن عباس الذي تربى في المدرسة العمرية حين قيل له إن الناس يفهمون الرمل على أنه سنة فقال: أخطأوا في فهمهم[٤].

أوضح عمر رضي الله عنه الكثير من مسائل الفقه لدرجة أنه من الممكن أن يُعد منها رسالة كاملة، ويتضح بجلاء في جميع هذه المسائل أنها كانت موافقة للمصالح العقلية، ويثبت من هذا بداهة أن عمر رضي الله عنه كان أستاذاً وخبيراً في هذا العلم؛ أي: علم أسرار الدين.

**المحافظة على الأخلاق الإسلامية وتطويرها :**

كان أعظم أعمال عمر رضي الله عنه من حيث كونه أميراً للمسلمين وإمامهم هو الحفاظ على الأخلاق الحميدة الظاهرة داخل الأمة، تلك

---

(١) صحيح مسلم أحاديث صلاة السفر.
(٢) صحيح مسلم.
(٣) صحيح البخاري باب الرمل.
(٤) إزالة الخفاء المجلد الثاني ص ١٩٥.

الأخلاق التي علمها النبي ﷺ للدنيا، والتي كانت الهدف الأصلي لبعثته، فقد قال ﷺ: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق». لقد ظلت هذه الأخلاق محفوظة بفضل عمر، وتأثرت بها أيضاً الأمم الأخرى التي دخلت الإسلام.

كان عمر رضي الله عنه نفسه صورة مجسمة للأخلاق الإسلامية، ومن هنا كانت قلوب الناس تتأثر تلقائياً من إخلاصه وانقطاعه إلى الله، واجتنابه لذائذ الدنيا، وحفظ اللسان والصدق، وقول الحق، كما كان كل من يصاحبه يتأثر بهذه الصفات ويتمثلها إلى حد كبير، يذكر مسور بن مخرمة: كنا نجلس مع عمر حتى نتعلم التقوى والورع، والمسعودي المؤرخ بدأ ذكر سيرة عمر رضي الله عنه بهذه الجملة: إن الصفات التي كان يتصف بها تغلغلت في قادته وعماله، ثم ذكر على سبيل المثال سلمان الفارسي وأبي عبيدة وسعد بن عامر وذكر أوصافهم.

## استئصال الفخر والغرور :

قضى عمر رضي الله عنه على الأخلاق الذميمة التي ظل أثرها في جزيرة العرب من الجاهلية، وكانت مدعاة للتفاخر والتعالي مثل: الفخر بالأنساب، وتحقير عامة الناس، والهجاء والذم، والعشق والهوى، وشرب الخمر والتغني بها، كما أمر بالقضاء على عادة الصياح، والنداء بأسماء القبائل في الحرب، وألغى تماماً التمييز بين السادة والعبيد، وذات مرة دعاه صنوان بن أمية مع بعض سادة القوم، ولم يسمح للعبيد بالجلوس للطعام، فقال له في غضب شديد: لماذا سب الله الذين يحتقرون العبيد ؟

وذات مرة ذهبت جماعة من الناس للقاء أبيّ بن عتبة وكان صحابيًّا جليلًا، وعندما نهض من المجلس مضى معه الناس احتراماً وتعظيماً، وظهر عمر بالصدفة فرأى ذلك فضرب أبيّ بن عتبة بالدرة، فتعجب وقال: خيراً ماذا تفعل ؟ قال عمر رضي الله عنه: أو ماترى فتنة للمتبوع ومذلة للتابع[1].

---

(١) مسند الدارمي.

**منع الهجاء :**

كان الشعر وسيلة الهجاء والذم، وكان الشعراء يهجون الناس في كل مكان، ولما كان الشعر قد راج وانتشر في جزيرة العرب؛ لهذا انتشر الهجاء أيضاً بسرعة كبيرة، فظهرت من جرائه مئات المفاسد، واعتبر عمر رضي الله عنه الهجاء جُرماً يعاقب عليه، وحدد العقوبة، ويعد هذا من أوليات عمر رضي الله عنه، وكان الحطيئة من الشعراء المشهورين آنذاك، وقد بلغ الكمال في هذا الفن مثله مثل شاعر الأردية «سودا» فاستدعاه عمر ووضعه في السجن، ثم أطلق سراحه شريطة ألا يهجو أحداً[١].

وفي زمان النبي ﷺ حين عجزت قريش بكل حيلها وخططها، بدأت تهجو المسلمين، وبدأت تهجو الرسول ﷺ نفسه، فأذن النبي ﷺ لحسان أن يرد عليهم، وظلت هذه الأشعار متداولة بعد اعتناق قريش للإسلام، فأمر عمر رضي الله عنه في زمان خلافته بألا تُنشد لأنها تجدد الشقاق والحساسيات القديمة[٢].

**منع التغزل وإصلاح الشعر :**

كان الشعر أيضاً أكبر وسيلة للعشق والمجون، فكان الشعراء ينظمون أشعار الغزل المملوءة بالمجون والفحش، ويصرحون فيها بأسماء من يعشقون، ونظراً لطبيعة تلك الفترة كانت هذه الأشعار تتردد حتى على ألسنة الأطفال، ونتيجة لهذا كانت الخلاعة تجد طريقها إلى أغوار الناس، ومن هنا أصدر عمر حكماً قطعياً يقضي بألا يقرض الشعراء الغزل، وألا يتغزلوا في النساء، وقد ذكر صاحب أسد الغابة هذه العبارة في تذكرة حميد بن نور «تقدم عمر بن الخطاب إلى الشعراء ألا يشبب أحد بامرأة وإلا جلده».

---

(١) أسد الغابة ترجمة الزبرقان.
(٢) الأغاني، تذكرة حسان بن ثابت.

## شرب الخمر :

شدد عمر كثيراً وزاد على العقاب المقرر قبلًا في حق شارب الخمر، الذي كان يجلد قبلًا أربعين جلدة، فجعلها ثمانين بدلاً من أربعين.

وكانت النتيجة عدم ابتلاء الناس بالترف والدعة والرفاهية، رغم كثرة الأموال في هذا العصر، واتساع الفتوحات، وتوافر أسباب الراحة والرفاهية، وهكذا استحكمت أسس الحياة الدينية التي أرساها الشارع صلوات الله عليه.

## الحرية وقول الحق :

إن أساس نضج الأخلاق واستحكامها يقوم على الحرية والاعتزاز بالنفس، ولهذا اهتم عمر رضي الله عنه بهذا الأمر كثيراً، وهذه خصوصية لا توجد في تاريخ الخلفاء الآخرين من غيره، ففي عهد بني أمية ظهر العداء للحرية منذ البداية حتى إن عبدالملك أصدر أوامره بألا يعترض أحد على ما يصدره من أحكام، أما عثمان وعلي رضي الله عنهما فلم يتعرضا مطلقاً للحرية، لكنهما لم يستطيعا أن يمنعا أخطارها، والتي نتج عنها شهادة عثمان رضي الله عنه، وتعرض علي رضي الله عنه لمتاعب معركة الجمل وصفين، وعلى العكس من هذا كان عمر رضي الله عنه، فمع إقامته للحرية الكاملة لم يجعل الضعف يطول قوة الحكومة من قريب أو بعيد.

وقد ذكر عمر رضي الله عنه في رسائله وخطبه في مناسبات متفرقة أن كل إنسان يولد حُرًّا، ولا يمكن لإنسان مهما كانت درجته أن يذل أمام أحد، فحينما ضرب ابن عمرو بن العاص المعزز المكرم أحد الأقباط دونما سبب، أمر عمر رضي الله عنه القبطي أن يقتص منه بنفسه أمام الناس جميعاً، وقال مخاطباً عمرو بن العاص وابنه:

«مذكم تعبَّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً»[1].

---

(١) كنز العمال المجلد السادس ص ٣٥٥.

وفي جزيرة العرب كان أكثر الناس عزة يلقب بسيد القبيلة، فيخاطبه من هم أدنى منه بعبارات من مثل: جعلني الله فداءك، بأبي أنت وأمي... ولما كانت رائحة العبودية والسُّخرة تفوح من هذه العبارات، أعلن عمر رضي الله عنه في مناسبات مختلفة عن كراهيته لها، وحين خاطبه شخص قائلًا: جعلني الله فداءك ـ قال: إذاً يهينك الله ـ وهكذا شجع عمر رضي الله عنه بأسلوبه هذا الناس على الصراحة والحرية، والأحداث التالية تدل على ذلك.

ذات مرة صعد عمر رضي الله عنه المنبر ثم قال: أيها الناس ماذا تفعلون لو استسلمت لملذات الدنيا؟ فقام رجل وسحب السيف من غمده وقال: أُطيح برأسك، فزجره عمر ليختبره وقال: أتقول هذا في حقي؟ فقال: نعم، نعم في حقك، فقال عمر: الحمد لله أن يوجد في الأمة مثل هؤلاء الناس كي يقوّموني إذا اعوججت.

وبعد فتح العراق تزوج أكثر الصحابة من نصرانيات، فكتب عمر رضي الله عنه إلى حذيفة بن اليمان يبين له عدم رضاه، فرد عليه حذيفة: هذا الحكم هو رأيك الشخصي أم هو حكم شرعي؟ فكتب إليه عمر: إنه رأيي الشخصي، فكتب إليه حذيفة: نحن لا يجب علينا الالتزام برأيك الشخصي، وهكذا تزوج كثير من الناس رغم اعتراض عمر رضي الله عنه.

وذكر اليعقوبي المؤرخ أن عمر عقد ذات مرة مزاداً لبيع أمتعة تخص الولاة وأدخل نصفه في بيت المال، فقال له أحدهم صراحة وكان يدعى أبو بكرة: إذا كان هذا مال الله، فيجب أن تدخله كله في بيت المال، وإذا كان مالنا فبأي حق تأخذ منه؟

كان تأثير تقليد عمر وتربيته وتعليمه واضحاً على جميع أفراد الأمة الإسلامية، حتى أصبحوا جميعاً نموذجاً لطهارة النفس، والطيبة، والحلم والتواضع، والجرأة والحرية، وقول الحق والاستغناء، ولو شاهدت مجالس

ومحافل ذلك الوقت على صفحات التاريخ، لظهرت لك بوضوح ملامح هذه الصفات الطيبة، على وجه كل إنسان في المجتمع الإسلامي.

## الاجتهاد في الحديث والفقه :

إن علم الحديث والفقه بأكمله في الحقيقة من وضع عمر رضي الله عنه، وقد كان في الصحابة رضوان الله عليهم محدثون وفقهاء تجاوز عددهم العشرين، إلا أن بداية هذا العلم كان على يد عمر رضي الله عنه، وهو أول من أرسى أصول هذا العلم وقواعده.

## تفحص الأحاديث :

كان أول ما قام به عمر رضي الله عنه فيما يتعلق بالأحاديث هو الاهتمام بتدقيق الروايات وتفحصها، ففي عهد الرسول ﷺ لم يكن هناك اهتمام باستقصاء الأحاديث، فكان من تواجهه مسألة ما، يسأل عنها الرسول ﷺ، ولهذا لم يكن من بين الصحابة من يحفظ الأحاديث المتعلقة بجميع أبواب الفقه، وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه ظهرت الحاجة إلى الأحاديث، ومن هنا كانت هناك ضرورة للاستفسار من مختلف الصحابة، وهكذا بدأت عملية استقراء الأحاديث، وفي عهد عمر رضي الله عنه، ظهرت قضايا كثيرة، فقد أدى اتساع الفتوحات، وكثرة المسلمين الجدد إلى ظهور قضايا جديدة، ولهذا اهتم عمر رضي الله عنه بتدقيق الأحاديث بطريقة جيدة حتى يفصل في هذه القضايا طبقاً لأقوال النبي ﷺ . وفي الغالب كان إذا ما ظهرت قضية جديدة دعا معظم الصحابة الموجودين بين الناس قائلاً: هل منكم من يعرف حديثاً يتعلق بهذه القضية ؟ وهكذا استقصى عمر الأحاديث النبوية المتعلقة بالقضايا المذكورة بالتفصيل في كتب الحديث كالتكبيرة والجنازة وغسل الجنابة وجزية المجوس وغيرها من قضايا، وسأل واستفسر عنها جماعة الصحابة.

## نشر الحديث :

تزداد مكانة الحديث كلما زاد انتشاره فيصبح سنداً مؤكداً للمتأخرين، ولهذا اتخذ عمر رضي الله عنه كثيراً من التدابير والاحتياطات لنشر الحديث ومن بينها:

١ـ كتابة الأحاديث النبوية بألفاظها وإرسالها إلى حكّام الأقاليم مما أدى إلى انتشار الأحاديث النبوية وكانت في معظمها تتعلق بالمسائل والأحكام.

٢ـ أرسل الصحابة الذين كانوا عمداء هذا العلم إلى مختلف البلاد لتدريس الحديث (يكتب شاه ولي الله:) ولهذا بعث الفاروق الأعظم عبدالله بن مسعود مع جماعة إلى الكوفة، وأرسل معقل بن يسار وعبدالله بن مغفل وعمران بن حصين إلى البصرة، كما أوفد عبادة بن الصامت، وأبا الدرداء إلى الشام، وأرسل إلى معاوية بن أبي سفيان ـ الذي كان أميراً على الشام ـ تحذيراً شديداً بألا يتجاوز أوامره[١].

## موضوع دقيق :

وهناك موضوع دقيق جدير بالاهتمام بهذه المناسبة، وهو أن عمر رضي الله عنه اهتم كثيراً بنشر الحديث، ومع هذا لم يرو هو نفسه منها إلا القليل، فلم تزد الأحاديث المرفوعة المروية عنه برواية صحيحة عن سبعين حديثاً، وهذا أمر صحيح في الظاهر، لكن هناك سوء فهم في الواقع فمن الأصول المسلّم بها لدى المحدثين أن الصحابي إذا ذكر مسألة ما يجتهد فيها برأيه، ولم يذكر فيها اسم الرسول ﷺ فهذا يعني أنه سمعها عن رسول الله ﷺ، وهذه الأصول في الواقع مطابقة تماماً للعقل.

وعلى سبيل المثال أرسل عمر رضي الله عنه إلى جميع الممالك أن الزكاة فرض على كذا وكذا، وحسابها كذا وكذا، هنا لا يوجد مجال للشك، بأن

---

(١) إزالة الخفاء المجلد الثاني ص ٦.

عمر هو الشارع وأنه يصدر الأحكام من جانبه، فلا محالة أن الرسول ﷺ كان قد أصدر هذه الأحكام المتعلقة بالزكاة، أما الاحتمال الذي قد يطرأ ـ على أكثر تقدير ـ هو أن عمر رضي الله عنه لم يفهم معنى الحديث بطريقة صحيحة، ولهذا فمن الممكن ألا يكون الرسول ﷺ قد قرر هذا المقدار بهذه الكمية، ثم جاء عمر واعتبره فرضاً طبقاً لفهمه للحديث، ويظل هذا الاحتمال قائماً أيضاً في الأحاديث التي لم يذكر الصحابة فيها علانية اسم الرسول ﷺ.

وبناءً على هذه الأصول بين عمر رضي الله عنه في خطبه، وفي توجيهاته المكتوبة وفي أوامره، المسائل الأصولية المتعلقة بالصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها، وهي في الحقيقة الأحكام التي أمر بها الرسول ﷺ ، وإن لم يذكر اسم الرسول ﷺ.

(يذكر شاه ولي الله:)

سابعاً: أنه يذكر مضمون الأحاديث في خطبه حتى يكون للأحاديث قوتها من خلال مفهوم الخليفة، أما أولئك الذين لم يكونوا يتعمقون في الحديث، فكانوا مقيدين دائماً بالأحاديث المتفق عليها، فلم يصح عن أبي بكر الصديق إلا ستة أحاديث، ولم يصح عن الفاروق إلا سبعين حديثاً، وهم لا يتهمون ولا يعلمون أن الفاروق قد أحكم جميع علوم الحديث ونشرها[1].

## فرق المراتب في الأحاديث :

إن ما قام به عمر رضي الله عنه فيما يتعلق بتدقيق الحديث وتفحصه ونشره هو في حد ذاته عملًا اختص به عمر رضي الله عنه، إلا أن المأثرة الأساسية لفضائله في هذا المجال هي شيء آخر اختص به، إن الرغبة العامة لدى المسلمين تجاه الحديث في ذلك الوقت كانت السبب الأكبر في انتشار الأحاديث بشكل تلقائي، لكن ما أوجده عمر من تدقيق الأحاديث وإيجاد

---

(١) إزالة الخفاء الجزء الثاني ص ٦.

فرق المراتب في الأحاديث لم يسبقه إليه أحد على الإطلاق، لقد راعى في البداية مسألة نوعية الأحاديث التي يجب أن يوجه إليها الاهتمام ضمن مجموعة الأحاديث كلها، لأنه رغم أن كل قول وفعل للرسول كنز منشود لأصحاب الإيمان والعقيدة، لكن من الواضح أن هناك من بين الأحاديث ماهو الأهم فالأهم، وعلى هذا الأساس اهتم عمر رضي الله عنه اهتماماً بالغاً برواية ونشر تلك الأحاديث التي تستنبط منها قضايا العبادات أو المعاملات أو الأخلاق، ولم يكن يهتم كثيراً برواية تلك الأحاديث التي لا تتصل بهذه الموضوعات، وهناك نقطة هامة وجه اهتمامه إليها، وهي ألا تختلط أقوال الرسول ﷺ وأفعاله التي تتعلق بمنصب الرسالة وتلك التي تتعلق بصفته البشرية.

يكتب شاه ولي الله الدهلوي: «عُرف بالاستقراء التام أن الفاروق الأعظم كان يبذل جهده في اختيار الأحاديث الصحيحة المتعلقة بنشر الشريعة وتعليم الناس، وهو اهتمام فاق اهتمامه بالأحاديث الأخرى، ولهذا كان لايروي إلا القليل من الأحاديث التي تتعلق بشمائل النبي ﷺ وأحاديث السنن الزائدة والعادات، وكان ذلك لسببين: أولهما أنها ليست من العلوم التكليفية والتشريعية، فمن الممكن أن يحدث اشتباه وخلط ما بين السنن الزائدة والسنن التشريعية»[١].

ولم يكن عمر رضي الله عنه يهتم برواية تلك الأحاديث التي وردت فيها الأدعية بألفاظ معينة، مع أن هذه الأحاديث تمثل مجلداً ضخماً من روايات الكثير من الصحابة، والسبب كما ذكر شاه ولي الله أن عمر رضي الله عنه كان يعرف أن قبول الدعاء من عدمه، يتوقف على الإخلاص والتضرع لا على الكلمات[٢].

إن أعظم ما قام به عمر رضي الله عنه في علم الحديث هو اختراعه علم

---

(١) المصدر السابق ص ١٤١.
(٢) المصدر السابق.

الجرح والتعديل وتحقيق الأحاديث ونقدها.

## تحقيق الرواية وتدقيقها :

في هذه الأيام، بل ومنذ زمن بعيد ينال أي قول أو فعل ينسب إلى الرسول ﷺ انتشاراً سريعاً حتى لو لم يكن صحيحاً، ومن هنا دخلت الإسرائيليات في الأحاديث النبوية، ومن هنا وضع المحدثون قيود الجرح والتعديل لمنع انتشارها، ولكن إذا ثبت لهم عدل الراوي لم يدققوا كثيراً في أمر الحديث، ومع هذا فقد أوجدوا قضية عامة فيما يتعلق بالفرق الأول، وهو عدم إمكانية ضعف أي رواية، ولكن عمر رضي الله عنه كان على دراية بهذه النكتة، وهي أن ما يتعلق بالخصائص البشرية لا يمكن استثناؤه في أي عصر من العصور، ولهذا كان يراعي جميع الاحتمالات في تحقيق رواية الأحاديث وتدقيقها، تلك التي أوجدها المحدثون في العصور التالية.

وذات مرة جاء للقائه أبو موسى الأشعري، وردد قوله «السلام عليكم حضر أبو موسى» ثلاث مرات يستأذنه، وكان عمر رضي الله عنه آنذاك مشغولاً بعمل ما، لهذا لم ينتبه إليه، وحين فرغ من عمله قال: أين أبو موسى؟ وحين جاء سأله: لماذا رجعت؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا طلبت الإذن ثلاث مرات، ولم يؤذن لك فارجع، فقال عمر رضي الله عنه أُذكر الدليل على ثبوت هذه الرواية وإلا عاقبتك.

فذهب أبو موسى الأشعري إلى الصحابة وشرح لهم الأمر وهكذا جاء أبو سعيد وأدلى بشهادته قائلاً: لقد سمعت هذا الحديث من رسول الله ، وقال أُبي بن كعب: ياعمر أتريد أن تعذب أصحاب رسول الله ؟ فقال: سمعت رواية وأردت تأكيدها ؟[1].

وهناك مسألة مختلف فيها في الفقه وهي أن المرأة التي طُلقت طلقة بائنة

---

(١) وردت هذه الواقعة بالتفصيل بطرق متعددة في صحيح مسلم، باب الاستئذان.

هل تحصل على النفقة والمسكن حتى انقضاء العدة أم لا ؟

ورد في القرآن الكريم: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ [الطلاق: ٦]، وهكذا يثبت من الآية وجوب حصولها على المسكن، والنفقة شيء لازم للمسكن، وكانت فاطمة بنت قيس صحابية طلقها زوجها طلقة بائنة، فذهبت إلى رسول الله ﷺ وسألته: هل لي حق النفقة أم لا ؟ فقال لها الرسول بعد أن سمع منها: لا، فقصت فاطمة هذه الرواية أمام عمر فقال لها: «لا نترك كتاب الله بقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت».

وحين عرضت مسألة السقط استشار عمر رضي الله عنه الصحابة، فروى المغيرة حديثاً يتعلق بهذه المسألة، فقال عمر لو كنت صادقاً فأشهد على ذلك، وهكذا وافق عمر على رأيه بعد أن صدق على ذلك محمد بن مسلمة، وهكذا في قضية العباس عندما رُوي حديث، فطلب عمر من يشهد لتأكيد رواية الحديث، وحين شهد كثير من الناس، قال عمر: ما ظننت بك ظن السوء، لكن أردت أن أطمئن إلى الحديث[١].

**الحدُّ من كثرة الرواية :**

كان عمر رضي الله عنه على يقين من أن الرواية قد يحدث فيها نقص أو زيادة لهذا بدأ في وضع احتياطات شديدة فيما يتعلق بالرواية، وما وضعه من قيود يجعل الناس في أيامنا هذه يجدون صعوبة في الثقة بها، ولهذا لن أكتب هنا شيئاً من عندي بل سأنقل ما ذكره كبار المحدثين مع ترجمته إلى الأردية ترجمة حرفية، فالعلّامة الذهبي الذي لم يأت بعده من يفضله في العلم، وهو شيخ شيوخ ابن حجر والسخاوي يكتب في تذكرة الحفاظ عن أحوال عمر ما يلي:

«وقد كان عمر من وجله أن يخطىء الصاحب على رسول الله، يأمرهم أن يقلُّوا الرواية عن نبيهم، ولئلا يتشاغلوا بالأحاديث عن حفظ القرآن، عن

---

(١) ذكرت هاتان الروايتان في تذكرة الحفاظ في سيرة عمر.

قريظة بن كعب قال: لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا عمر، وقال: أتدرون لماذا شيعتكم قالوا: نعم، مكرمة لنا، قال: ومع ذلك فإنكم تأتون أهل قرية لهم دوِيّ بالقرآن كدوي النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جردوا القرآن: وأقلوا الرواية عن رسول الله، وأنا شريككم، فلما قدم قريظة قالوا: حدثنا، فقال: نهانا عمر عن أبي سلمة وعن أبي هريرة، قلت له كنت تحدث في زمان عمر هكذا فقال لو كنت أحدث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربني بمحففته، إن عمر قد حبس ثلاثة: ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصاري فقال: «قد أكثرتم الحديث عن رسول الله ﷺ».

وبعد نقل رواية قريظة بن كعب جاء في مسند الدارمي أن كان قصد عمر رضي الله عنه أن نقل الروايات المتعلقة بالغزوات، لا المتعلقة بالفرائض والسنن، وقد نقل شاه ولي الله قول الدارمي وكتب: «في رأيي أن الأحاديث المقصودة هي تلك المتعلقة بشمائل الرسول وعاداته لأنها لا تتعلق بأي أمر شرعي، والتي لم يتم حفظها وضبطها باهتمام ودقة»[١].

ومن ناحيتي لا أرى هناك ضرورة لتلك التأويلات، لأن هدف عمر يتضح من تصريحه، والبلاذري المؤرخ والذي كان محدثاً أيضاً، روى في أنساب الأشراف أن الناس كانوا إذا ما سألوا عمر في مسألة قال لهم: «لولا أني أكره أن أزيد في الحديث أو أنقص لحدثتكم به».

وقد روى المؤرخ المذكور هذه الرواية بسند متصل ورواته هم: محمد بن مسعد، وعبدالحميد بن عبدالرحمن الحماني، والنعمان بن ثابت (أي الإمام أبو حنيفة)، وموسى بن طلحة وأبو الحويتكة، والخوف الذي كان يطرأ على عمر يجب أن يطرأ على الآخرين أيضاً، وأكثر ما يؤكد على هذا الأمر أن المحدثين كتبوا عن عبدالله بن مسعود الذي تربى وتأدب على يد عمر تأدباً

(١) إزالة الخفاء المجلد الثاني ص ١٤١.

علمياً أنه: «يشدد في الرواية ويزجر تلامذته عن التهاون في ضبط الألفاظ»[١].

وكتب المحدثون أيضاً أنه كان مُقلًّا في رواية الحديث حتى إنه كان يمضي عليه الحول ولا يقول: قال رسول الله، فالحذر والحيطة التي كان عمر يراعيها في رواية الحديث، كان كبار الصحابة من قبله يراعونها، وقد كتب الذهبي في تذكرة الحفاظ في سيرة أبي بكر رضي الله عنه أن أبا بكر كان أول من أخذ الحيطة في باب الأحاديث، وقد روى العلّامة المذكور عن حاكم أن أبا بكر كان قد كتب خمسمائة حديث، لكنه أحرقها في النار وقال: من الممكن أن أكون قد رويت عن شخص رأيت أنه ثقة وهو في الحقيقة ليس بثقة، ولكن كان هناك فرق بين حيطة عمر وحيطة بقية الصحابة، فقد كان الصحابة يراعون فقط كون الراوي ثقة من عدمه، أما عمر رضي الله عنه فبجانب اهتمامه بكون الراوي ثقة كان يهتم بفهم الراوي الكامل للواقعة أو الحدث من عدمه، وبناءً على هذا كان للسيدة عائشة على أبي هريرة كثير من المؤاخذات، وإلا فليس هناك ما يقال في كون أبي هريرة ثقة.

كان من نتيجة قيود عمر لرواية الحديث، وضبطه وتدقيقه لها أن قلت رواية الحديث، ورغم كل هذه الاحتمالات فلم يسلم الأمر، ولم تخلو الروايات من الشوائب، ورغم أن الأحاديث انتشرت كثيرًا من بعد عمر رضي الله عنه، لكن لم تعدلها تلك المكانة من الثقة والقوة، وقد صدق شاه ولي الله حين كتب أن الصحابة جميعهم عدول، وروايتهم موثوق بها، وينبغي العمل بها إذا ما ثبت صدق الرواية، أما الفرق بين الحديث والفقه في عهد الفاروق الأعظم، والحديث والفقه من بعده فهو كالفرق بين السماوات والأرض[٢].

## الصحابة قليلو الرواية :

إن ما أبداه عمر رضي الله عنه من الاحتياط والتشدد في رواية الأحاديث لم

---

(١) تذكرة الحفاظ، تذكرة عبدالله بن مسعود.

(٢) إزالة الخفاء ص ١٤١.

ينتشر بين الناس، إلا أن المحققين من الصحابة لم يكونوا بعيدين عن التأثر بما أبداه عمر رضي الله عنه، فقد عُرف عن عبدالله بن مسعود وجاء في مسند الدارمي وغيره صراحةً أن لون وجهه كان يتغير في أثناء روايته للحديث، وكان حين يذكر ألفاظ النبي ﷺ كان يقول: إن الرسول قال هذه الألفاظ أو قال ألفاظاً قريبة منها أو مشابهة لها أو كما قال، وهكذا كان يفعل أبو الدرداء وأنس وهما صحابيان جليلان، ويشير الإمام الشعبي أنه ظل مع عبدالله بن عمر سنة كاملة سمعت منه خلالها حديثاً واحداً، وعن رواية لثابت بن قطبة الأنصاري أن عبدالله بن عمر كان يروي حديثين أو ثلاثة فقط طوال الشهر، ويقول سائب بن يزيد أنه ذهب مع سعد بن أبي وقاص من مكة إلى المدينة، ورجع معه أيضاً فلم يرو حديثاً واحداً طوال هذه المدة، وهذه الوقائع والروايات منقولة بسند متصل في صحيح الدارمي(١).

ويمكن إجمال الأصول السابقة التي وضعها عمر للسند والرواية فيما يلي:

١ـ يجب أن تكون الرواية بلفظها.

٢ـ يحتاج الخبر الواحد إلى شهادة تؤيده، وهو ما يطلق عليه باصطلاح المحدثين التابع والشاهد.

٣ـ لا يكفي لصدق الرواية أن يكون الراوي ثقة فقط.

٤ـ الخبر الواحد ليس جديراً بالحجة دائماً.

٥ـ أن مراعاة خصوصات المكان والمناسبة شروط في اعتبار الرواية.

## علم الفقه

علم الفقه هو بأكمله من عمل عمر رضي الله عنه وترتيبه، وقد اعترف جميع الصحابة بكفاءته وأفضليته في هذا العلم، وفي مسند الدارمي أن حذيفة ابن اليمان قال: إن الإفتاء هو مهمة الشخص الذي يكون إماماً أو عارفاً

---

(١) مسند الدارمي طبعة مطبعة نضال كابنور ص٤٥ـ ٤٨.

بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن الكريم، فسأل الناس ومن يكون هذا الشخص، فقال حذيفة: عمر بن الخطاب.

ويقول عبدالله بن مسعود لو وضع علم العرب جميعاً في كفة وعلم عمر رضي الله عنه في كفة لرجحت كفة عمر[١]، وكتب العلامة أبو إسحاق الشيرازي ـ وكان برتبة «مدرس أول» بالمدرسة النظامية ـ كتاباً في سيرة الفقهاء نقل فيه في تذكرة عمر كثيراً من أقوال الصحابة والتابعين فيما يتعلق بهذا الأمر، وكتب في النهاية:

«ولولا خوف الإطالة لذكرت من فقهه ما يتحير فيه كل فاضل».

**عمر رضي الله عنه مرجع سلسلة الفقه :**

وسوف نذكر ما كتبه العلّامة سابق الذكر بشيء من التفصيل فيما بعد، ولكننا نشير هنا إلى أن سلسلة الفقه الموجودة اليوم في الإسلام، من أولها إلى آخرها، كان مصدرها ومرجعها الأساسي عمر رضي الله عنه وفيضه المبارك، والأماكن التي تعد مراكز للفقه في البلاد الإسلامية هي مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام، وكان الانتساب إلى هذه المدن والبلاد، مردّه أن كبار شيوخ الفقه ومؤسسي هذا العلم كانوا من سكانها، وعلى سبيل المثال كان عبدالله بن عباس هو شيخ مكة وكان زيد بن ثابت وعبدالله بن عمر من شيوخ المدينة المنورة، وكان علي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود وأبي موسى الأشعري من شيوخ الكوفة، وكان أبو الدرداء ومعاذ بن جبل من شيوخ الشام، وقد استفاد أكثر هؤلاء الصحابة (عدا علي رضي الله عنه) من صحبة عمر رضي الله عنه، ونخص بالذكر عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر ويقول عبدالله بن مسعود: «أرى أن الجلوس مع عمر ساعة أفضل من عبادة سنة بأكملها»[٢].

---

(١) الاستيعاب للقاضي ابن عبدالبر وإزالة الخفاء الجزء الثاني ص ١٨٥.
(٢) الاستيعاب للقاضي ابن عبدالبر وإزالة الخفاء الجزء الأول ص ٣١٩.

وقد تولى عمر رضي الله عنه تربية عبدالله بن مسعود في رعايته حتى كان الناس يحسدونه على ذلك، ويروي عبدالله بن عباس نفسه في صحيح البخاري[١] أنه كان يجلسه مع شيوخ بدر فاعترض بعض الصحابة لصغر سنه ولأن اقرانه من أولادهم لا ينالون هذه الفرصة، فقال عمر رضي الله عنه: «إنكم تدركون أنكم تعلمون كفاءة هذا الشخص» وكتب ابن عبد البر المحدث في الاستيعاب: «كان عمر يحب ابن عباس ويقربه»، وكثيراً ما كانت تعرض مسألة في مجلس عمر فيرغب عبدالله بن عباس في الإجابة عليها، لكنه كان يتردد بسبب صغر سنه، وكان عمر رضي الله عنه يشجعه ويقول: إن العلم لا يتوقف على صغر السن أو كبره، ولو حاول إنسان أن يوافق ما بين اجتهادات عبدالله بن عباس ومسائل عمر، فسيتضح جليًّا من خلالها التناسب بين الأستاذ وتلميذه.

وعبدالله بن عمر كان نجل عمر رضي الله عنه، بينما كان زيد بن ثابت يقوم مع عبدالله ولسنوات طويلة بمهمة الكتابة، وكانا دائماً في صحبة عمر رضي الله عنه. ويوضح الإمام الشعبي أن عمر رضي الله عنه كان يستفيد من التعاون القائم بين عبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت ولهذا كانت مسائلهما متشابهة[٢].

**أئمة الفقه الستة بين الصحابة :**

يشير المحدثون بشكل عام إلى أن هناك ستة من بين صحابة رسول الله ﷺ قام على أكتافهم علم الفقه وهم: علي، وعبدالله بن مسعود وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهم، وقد روى الإمام محمد في كتاب الآثار أن «ستة من أصحاب النبي ﷺ يتذاكرون الفقه بينهم عليّ بن أبي طالب وأُبّي وأبو موسى على حدة، وعمر وزيد بن مسعود على حدة».

---

(١) صحيح البخاري، المطبعة الأحمدية ميرته.
(٢) فتح المغيث ص ٣٨١.

ويقول صفوان بن سليم: «لم يكن يفتى في زمن النبي ﷺ غير عمر وعلي ومعاذ وأبي موسى»[١].

ويقول الإمام الشعبي: «كان العلم يؤخذ عن ستة من الصحابة»[٢].

ورغم أن هذا التحديد يبدو في الظاهر أمراً مستبعداً نظراً لأن وجود أربعة أو ستة مفتين فقط من بين آلاف الصحابة هو خلاف للقياس والمنطق، لكن الحقيقة أن هناك كثيراً من المسائل فيها حديث صحيح وصريح وواضح، ولا يوجد حديث آخر يعارضه، فمثل هذه المسائل يكتفي فيها بمعرفة الأحاديث فقط، وعلى العكس منها يوجد كثير من المسائل ليس فيها حكم صريح في الحديث، بل يستخرج الحكم فيها عن طريق استنباط القواعد، أو أن لها حكماً صريحاً لكن الأحاديث الأخرى معارضة لهذا الحكم، في مثل هذه الأحوال يلزم الاجتهاد ويلزم الاستنباط، وهذا في الأصل ما يطلق عليه علم الفقه، وكان من بين الصحابة من يفتون في مسائل النوع الأول، وكانوا يطلقون عليهم «المفتي» وقد وصل عددهم إلى عشرين مفتياً، أما الحكم في مسائل النوع الثاني فكان من مهام أولئك الناس الذين أسسوا هذا العلم، وكانوا أئمة وكان على هذا المستوى الستة الصحابة الذين سبق ذكرهم قبلًا، ويكتب شاه ولي الله عند ذكره للصحابة الأربعة أي عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس:

«وأما غير هؤلاء الأربعة فكانوا يروون دلالة، ولكن ما كانوا يميزون الركن والشرط من الآداب والسنن، ولم يكن لهم قول عند تعارض الأخبار، وتقابل الدلائل إلا قليلًا كابن عمر وعائشة وزيد بن ثابت»[٣].

---

(١) تذكرة الحفاظ للعلامة الذهبي ذكر أبي موسى الأشعري.

(٢) فتح المغيث ص ٣٨١.

(٣) حجة الله البالغة ص ١٣٧.

وعلى كل حال فإن الصحابة المجتهدين لم يكونوا أكثر من ستة، والحقيقة أن من كانوا في صحبة علي رضي الله عنه لم يكن لهم باع طويل في علم الحديث والرواية، ففي مقدمة صحيح مسلم أن «الرواة الذين يروون عن الإمام علي رضي الله عنه لا يعتد بهم فيما عدا أصحاب عبدالله بن مسعود» أما معاذ بن جبل فقد كان عمر رضي الله عنه قد أرسله إلى الشام للتعليم والرواية، لكنه توفي عام ١٨ للهجرة ولهذا ـ وكما ذكر شاه ولي الله ـ «لم يبق كثير من حديثه»[١].

وكان عبدالله بن مسعود وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما من خاصة تلامذة عمر رضي الله عنه، وكان أبو موسى الأشعري يدرس في الغالب مسائل الحديث والفقه عن طريق كتابات عمر، بينما كان زيد بن ثابت في الأصل مقلداً لعمر رضي الله عنه، يكتب شاه ولي الله: «وزيد بن ثابت أيضاً كثيراً ما يقلده»[٢].

ويتضح من هذه الوقائع أن من اشتهروا بالفقه من بين الصحابة قد تعلموا جميعاً على يد عمر رضي الله عنه، وكان تعمق عمر في المسائل الفقهية واجتهاده اجتهاداً لم يسبقه فيه أحد من بين الصحابة، لقد جعل الفقه ـ منذ بداية الإسلام ـ هدفه، وكان إذا ما وجد في القرآن الكريم مسائل فقهية غامضة رجع إلى رسول الله ﷺ يسأله ويستفسر منه، ولم يكن يهدأ حتى يطمئن تماماً، وهذا ما لم يكن يتأتى لغيره من الصحابة؛ إذ لم يكن من بينهم من يدانيه في جرأته على المثول بين يدي رسول الله، والتحدث إليه والاستماع منه، فمسألة الكلالة مسألة دقيقة، ومن المسائل التي اختلف فيها كثيراً، سأل عمر عنها الرسول ﷺ مراراً وتكراراً حتى تضايق الرسول ﷺ وقال: «يكفيك

---

(١) إزالة الخفاء الجزء الثاني ص ٨١.
(٢) إزالة الخفاء الحزء الثاني ص ٨٣.

الآية الآخيرة من سورة النساء»[١].

**تدوين المسائل الصعبة :**

كان رضي الله عنه يدون المسائل الصعبة على شكل مذكرات ويمعن النظر فيها دائماً، ويدون الرأي الذي يظهر عنها من وقت لآخر، فيحذف ويضيف بناء على التفكير والتدقيق المستمر في هذه المسائل، وهكذا كتب رأيه عن «ميراث العمة» ثم حذفه، وقد أشار الإمام محمد إلى ذلك في الموطأ[٢]، ونقل القسطلاني في شرح البخاري عن مصدر معتمد أن عمر أثبت مائة رأي مختلف فيها عن «ميراث الجد».

وظل عمر رضي الله عنه يحاول ويحاول في بعض المسائل ولم يستطع أن يجزم برأي حتى لحظة وفاته، وفي مسند الدارمي أنه كتب رقعة تتعلق بميراث الجد، لكنه طلبها عند دنو أجله وطمسها وقال: «احكموا فيها بأنفسكم».

وقد وردت هذه الرواية أيضاً في هذا الكتاب، وهي أن عمر رضي الله عنه حين جُرح استدعى الصحابة وقال: كنت قد وصلت إلى رأي فيما يتعلق بميراث الجد فاقبلوه إن أحببتم، فقال عثمان: «لو قبلنا رأيك فهذا أفضل، ولكن لو قبلنا رأي أبي بكر فقد كان صاحب رأي سديد»، وكان كثيراً ما يقول: ليت رسول الله ﷺ دون شيئاً عن هذه المسائل الثلاث: الكلالة وميراث الجد، وبعض أقسام الربا. والمثال التالي يكفي لإيضاح التفكير الذي كان يراوده في المسائل الفقهية واهتمامه بها.

ذكر الله تعالى في بيان الورثة قسماً جاء التعبير عنه بالكلالة، وقد حدث خلاف بين الصحابة بالنسبة للورثة المندرجين تحت هذا القسم، نظراً لأن القرآن الكريم لم يتضمن تعريفاً مفصلاً للكلالة، وسأل عمر رضي الله عنه

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل.
(٢) موطأ الإمام محمد ص ٣١٦.

الرسول نفسه عدة مرات عن ذلك، وظل يسأله لأنه لم يقتنع، وكتب مذكرة أعطاها للسيدة حفصة لتستفسر من رسول الله ﷺ، وفي عهد خلافته جمع الصحابة كلهم، وعرض عليهم هذه المسألة، ولكنه لم يطمئن بكل هذه الأمور وكان يقول: لو أن رسول الله ﷺ أخبرني عن حقيقة هذه الأمور الثلاثة، لكان ذلك خيراً لي من الدنيا وما فيها، وقد نقل المحدث عماد الدين ابن كثير مسائل الخلافة والكلالة والربا مثلما نقل جميع الوقائع في تفسيره للقرآن مستعيناً بالأحاديث الصحيحة.

### ظهور مسائل جديدة بسبب اتساع الفتوحات :

في زمان عمر رضي الله عنه اتسعت الفتوحات بسرعة كبيرة، وتطورت المدنية والحضارة يوماً بعد يوم، ولهذا ظهرت بكثرة أنماط جديدة من المسائل والقضايا، وبالرغم من تعيين قاضٍ ومفتي في كل مكان، وكان هؤلاء من كبار الصحابة، إلا أنهم كانوا يعجزون أمام الكثير من هذه المسائل، ويضطرون إلى الرجوع إلى دار الخلافة، وهكذا اضطر عمر رضي الله عنه إلى التفكير والإمعان الدقيق في الكثير من المسائل المعقدة التي لم يرد فيها نص، وفتاويه منقولة بكثرة في جميع الكتب، وبخاصة فتاوى تلك المسائل التي كانت تأتيه من البلاد المختلفة، وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره تلك الفتاوى وأسماء المستفتين أيضاً من مثل: عبدالله بن مسعود وعمار بن ياسر وأبي موسى الأشعري، وأبي عبيدة بن الجراح، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم وغيرهم.

### الحكم في المسائل بمشورة الصحابة :

رغم أن عمر رضي الله عنه كان بنفسه فقيهاً كبيراً، وكان رأيه وحده يمكن أن يكون كافياً للفتوى، لكنه رغم ذلك كان يعرض عموماً أكثر المسائل في مجلس الصحابة، فتبحث بحرية كاملة وبدقة متناهية، وقد كتب العلامة البلاذري في كتاب أنساب الأشراف أن عمر رضي الله عنه كان لا يفصل في

مسألة إلا بعد استشارة الصحابة، ويكتب شاه ولي الله في حجة الله البالغة:

«كان من سيرة عمر أنه كان يشاور الصحابة، ويناظرهم حتى تنكشف الغمة، ويأتيه الثلج، فصار غالب قضاياه وفتاواه متبعة في مشارق الأرض ومغاربها».

**المسائل الإجماعية :**

إن عدد المسائل التي فصل فيها عمر بعد عرضها على مجمع الصحابة ليس بقليل، وتوجد بتفاصيلها الكاملة في كتب الأحاديث والآثار، فقد روى البيهقي مثلًا أن خلافاً كان بين الصحابة على وجوب غسل الجنابة بطريقة خاصة (وقد صرح البيهقي بها أيضاً)، فأمر عمر رضي الله عنه أن يجتمع المهاجرون والأنصار، وعرضت هذه المسألة على المجلس، واتفق جميع الصحابة على رأي واحد، لكن عليًا ومعاذ خالفوا هذا الرأي فقال عمر: إذا كنتم وأنتم أصحاب بدر قد اختلفتم في الرأي فماذا يكون حال من بعدكم ؟.

**وخلاصة القول** أن عمر رضي الله عنه ترك الفصل في القضية لأزواج النبي المطهرات، ونفذ عمر رضي الله عنه حكمهن بعد أن فصلن فيها، وهكذا أيضاً كان هناك خلاف بين الصحابة على عدد تكبيرات الجنازة، فعقد عمر مجلس الصحابة، وتقرر في المجلس النظر إلى ما كان عليه النبي في آخر مرة، وثبت أن صلاة الجنازة الأخيرة التي صلاها النبي ﷺ كبّر فيها أربع تكبيرات، وهكذا يوجد الكثير من المسائل لكن المجال لا يسمح بتفصيلها.

**حصر المسائل الفقهية لعمر رضي الله عنه :**

يصل عدد المسائل الفقهية المنقولة بروايات صحيحة عن عمر إلى عدة آلاف، من بينها ألف مسألة تقريباً تعد من أهم مسائل الفقه وأولياته، وقد قلده الأئمة الأربعة في جميع هذه المسائل، يكتب شاه ولي الله «إن المجتهدين اتبعوا مذهب الفاروق الأعظم في مسائل الفقه الأساسية وهي بالتقريب ألف مسألة»[1]،

---

(١) إزالة الخفاء الجزء الثاني ص ٨٤.

وهذه المسائل مذكورة عند ابن أبي شيبة وغيره وقد كتب شاه ولي الله اعتماداً على هذا رسالة مستقلة عن الفقه الفاروقي، وألحقها بكتابه «إزالة الخفاء».

**أصول الفقه :**

كان البحث الذي قدمناه متعلقاً بتدوين المسائل، ولكن فيما يتعلق بعلم الفقه فإن المأثرة الخالدة لعمر رضي الله عنه شيء آخر، فهو لم يدون فقط الجزئيات بل قرر أيضاً تفريع المسائل وأصول وضوابط الاستنباط، وهو ما يعرف اليوم باسم «أصول الفقه».

كانت المرحلة الأولى هي إمكانية أن تكون الأقوال والأفعال المنقولة عن النبي ﷺ مصدر المسائل بصورة كلية، أو طرح البعض منها، وقد كتب شاه ولي الله مقالاً مفيداً جداً عن هذا المبحث في كتابه حجة الله البالغة، وخلاصته أن الأفعال والأقوال التي تُروى عن النبي ﷺ تنقسم إلى قسمين:

أحدهما يتعلق بمنصب النبوة، وهو الذي قال عنه سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: ٧].

والثاني هو مالا يتعلق بمنصب الرسالة، وقد قال النبي ﷺ عنه:

«إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر».

ويكتب شاه ولي الله بعد ذلك أن ما قاله النبي ﷺ فيما يتعلق بالطب، أو الأفعال التي صدرت عن النبي ﷺ على سبيل العبادة أو على سبيل الصدفة لا قصداً، أو ما ذكره النبي ﷺ طبقاً لمزاعم العرب مثل «حديث أم زرع»، أو «حديث حزافة»، أو ما اختاره النبي ﷺ طبقاً لمصلحة جزئية مثل حشد الجيش وأحكام أخرى كثيرة من هذا النوع تدخل كلها في القسم الثاني[1].

---

(١) حجة الله البالغة ص ١٣٣.

والفرق في مراتب الحديث الذي أوضحه شاه ولي الله، والذي لا يمكن أن ينكره أي إنسان ذكي فاهم، هو من اختراع عمر رضي الله عنه؛ فهو الذي أوجد التمييز في مراتب الحديث، ولعلكم قرأتم في كتب السير والأحاديث أن الرسول ﷺ في مناسبات كثيرة، أراد أن يفعل شيئاً أو يقول شيئاً، فإذا بعمر رضي الله عنه يبدي رأياً مخالفاً لذلك، وعلى سبيل المثال جاء في صحيح البخاري أنه عندما أراد النبي ﷺ أن يصلي على جنازة عبدالله بن أُبي، قال عمر رضي الله عنه: أتصلي على جنازة منافق؟

وفي مسألة أسرى بدر كان رأيه مختلفاً تماماً عن الرأي الذي اقترحه النبي ﷺ، وفي صلح الحديبية قدم إلى الرسول ﷺ وقال: «لماذا نعطي الدنية في ديننا؟».

ويمكنكم من خلال هذه الأمثلة أن تقدروا موقف عمر الذي كان يرى أن هذه الأمور منفصلة عن منصب النبوة؛ لأنه لو كان يعلم أن هذه الأمور تتعلق بمنصب الرسالة، ورغم ذلك يتدخل فيها، لما اعتبرناه صحابياً جليلاً بل اعتبرناه خارجاً عن دائرة الإسلام.

ونتيجة لأصول فرق المراتب تلك فإنه كان يعمل بآرائه في كثير من الأمور التي لا تتعلق بالدين، وعلى سبيل المثال كانت أمهات الأولاد أي الجواري اللاتي أنجبن تباع وتشترى حتى عهد أبي بكر، فجاء عمر ومنع ذلك منعاً باتاً، وفي غزوة تبوك كان النبي ﷺ قد قرر جزية قدرها دينار لكل فرد، فجاء عمر وقرر نسباً مختلفة في مختلف البلاد، وفي عهد النبي ﷺ لم يكن هناك حدّ معين للشراب فجاء عمر وقرر حد الشراب ثمانين جلدة.

ويبدو أنه لو كانت أقوال وأفعال النبي ﷺ بالنسبة لهذه المعاملات لها خاصية تشريعية لما كان هناك مجال لعمر رضي الله عنه حتى يمكنه أن ينقص أو يزيد فيها، ولو أراد فعل هذا ـ لا قدر الله ـ لما أمكن أن تحتمل جماعة

الصحابة جلوسه على كرسي الخلافة للحظة واحدة.

كانت جرأة عمر رضي الله عنه في فرق المراتب بسبب أن الرسول ﷺ لم يظهر سخطه عندما تدخل عمر في أحكام عديدة أصدرها رسول الله ﷺ، بل إن الرسول ﷺ أخذ برأي عمر في مسائل متعددة، وفي بعض المناسبات نزل الوحي الإلهي مؤيداً لرأي عمر رضي الله عنه، فالوحي الذي نزل في أسرى بدر، وفي حجاب أزواج النبي المطهرات، وفي الصلاة على جنازة المنافق، نزل موافقاً لرأي عمر رضي الله عنه؛ لأنه في الأمور التي لم تكن أوامر الرسول فيها متعلقة بمنصب الرسالة كانت الفرصة سانحة لوضع قوانين جديدة، تتناسب للعصر والأوضاع الحاضرة، وهكذا وضع عمر رضي الله عنه الكثير من القواعد والأصول الجديدة طبقاً لضرورات العصر والظروف، وهذه توجد اليوم بكثرة في الفقه الحنفي، وخلافاً لهذا يرى الإمام الشافعي أن ترتيب الجيش، وتعيين الشعار وتحديد الضرائب وغيرها من الأمور المتعلقة بها من أقوال النبي ﷺ، وبالتالي فهي تشريعية، ويقول بالنسبة لأفعال عمر: إنه لا أساس لقول أحد وفعله أمام رسول الله ﷺ.

## بحث حجية خبر الآحاد :

المرحلة الثانية بعد هذا البحث هي مرحلة حجية خبر الآحاد[1]؛ (أي الحديث الذي لا يزيد راويه عن واحد)، وقد أنزل كثير من العلماء الكبار هذا القسم من الأحاديث منزلة إلى درجة يمكن بها أن يكون له تأثير على نصوص القرآن المجيد، بمعنى أنه يمكن تخصيص الأحكام العامة في القرآن بخبر الآحاد، بل يمكن أيضاً أن يُنسخ حكم القرآن بهذا الحديث، وهذا هو مذهب الإمام الشافعي.

---

(١) في أصول الحديث: الحديث الذي لا يزيد راويه عن واحد لكن يقل عن حد الشهرة والتواتر ينطبق عليه حديث خبر الآحاد، وهذا مصطلح استحدث فيما بعد، ولم يكن له وجود حتى عهد عمر.

وفي رأي عمر رضي الله عنه أنه لا يمكن أن يحتج بخبر الآحاد في كل مناسبة، وبناءً عليه لم تعتبر روايات عمار بن ياسر وأبي موسى الأشعري والمغيرة بن شعبة وأُبي بن كعب في مسائل إذن الزيارات وإسقاط الجنين وشراء منزل عباس بن عبدالمطلب وتيمم الجنابة، روايات لها صفة الحجية طالما لم يجد شهادات مؤكدة أخرى، وقد كتبت هذه الوقائع بالتفصيل في تذكرة الحفاظ، وبناءً على هذا لم يكن يجيز نسخ القرآن الكريم أو التخصيص بخبر الآحاد، فعندما روت فاطمة بنت قيس حديث رسول الله ﷺ عن سكن المرأة المطلقة ونفقتها، قال عمر لا يمكن أن يتغير حكم القرآن الكريم برواية امرأة؛ لأن ذلك الحكم في رأي عمر رضي الله عنه كان مخالفاً لنص القرآن الكريم، واستدلال الإمام الشافعي ومن هم على مذهبه بأن عمر رضي الله عنه نفسه قبل أخبار الآحاد في كثير من الأحداث، لكن الإمام الشافعي لم ير أنه ليس هناك فرق في أصول عمر عنها، ومذهب عمر هنا هو أنه ليس كل خبر الآحاد صالح لأن يكون حجة، كما أنه ليس كل خبر الآحاد غير صالح لأن يكون حجة، والفرق واضح في كلا الحالتين، فهناك وقائع كثيرة تلغى فيها شهادة شخص واحد، مثلما يعمل عليها كل شخص في الحياة اليومية المعتادة، لكن أحياناً ما تكون هناك وقائع هامة وحساسة لا يمكن أن يكتفي فيها بشهادة شخص أو شخصين، بل يظل الاحتمال قائماً أن يكون هؤلاء قد أخطأوا في روايتهم أو في فهم كيفية حدوث الواقعة، والقصد هنا هو أن حالة كل راوٍ وحيثية كل واقعة تكون مختلفة، ولهذا لا يمكن وضع أي قاعدة عامة.

ولا شك أن عمر رضي الله عنه قد استدل بأخبار الآحاد في مواقع كثيرة، لكنه أيضاً عمل خلافاً لها في مواقع متعددة. ويتضح من أسلوبه هذا أنه كان يراعي خصوصية الحالات في أخبار الآحاد، وهناك اختلاف شديد في الرأي بين الفقهاء والمحدثين فيما يتعلق بأخبار الآحاد، وقد ظهرت بحوث طويلة، ولكن في جميع الأبحاث التي أمكن الاطلاع عليها رأيت أنه لا مثيل لدقة

الفهم، وإدراك المعنى الذي يتميز به مذهب عمر، ومن الضروري التنبيه في هذا الموضع على أن الأصول التي كان يتبعها عمر في قبول أو رفض خبر الآحاد، كانت قائمة فقط على إحقاق الحق، ولم يكن الهدف منها اتباع الهوى كما هو لدى أصحاب «مذهب التنوير» في هذا الزمان، فالحديث الذي يريدونه يعتبرونه صحيحاً والعكس بالعكس.

لا تقارن عمل الطاهرين بأعمالك، وإن تشابهت لفظتا شير (الأسد) وشير (حليب) في الكتابة.

**القياس :**

إن اتساع مجال الفقه، وكفايته لجميع المتطلبات يعتمد على القياس، فمن الواضح أن جميع الجزئيات ليست مذكورة في القرآن الكريم والأحاديث، ولهذا فمن الضروري أن يستخدم القياس الشرعي للحكم في تلك الجزئيات، وانطلاقاً من هذه الضرورة فإن الأئمة الأربعة؛ أي الإمام أبو حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل جميعهم يقولون بالقياس، والقياس مصدر عظيم في مسائلهم، لكنه القياس الذي وضع أساسه عمر الفاروق رضي الله عنه.

ويعتقد عامة الناس أن مؤسس القياس هو معاذ، ويستدل هؤلاء بأن النبي ﷺ حين أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن سأله: ماذا ستفعل إذا واجهتك مسألة ما، فقال سأجيب عنها من القرآن الكريم، وإذا لم تكن هذه الحالة مذكورة في القرآن والحديث فسأجتهد برأي[1]، ولكن لا يمكن أن يستدل بهذه الرواية على أن المقصود هنا هو القياس، فالاجتهاد لا ينحصر على القياس، فابن حزم وداود الظاهري وغيرهما لم يعترفوا بالقياس كلية مع أنهم بلغوا مرتبة الاجتهاد، وكانوا يجتهدون في المسائل الشرعية، وقد ذكر في مسند

(١) الحديث في مسند الدارمي مطبعة نظامي ص ٤٣.

الدارمي[١] بسند أنه كان من عادة أبي بكر رضي الله عنه عندما تعرض له مسألة ما أن يرجع إلى القرآن الكريم، فإذا لم تكن هذه الحالة مذكورة في القرآن الكريم يرد عليها بالحديث، وإذا لم تكن موجودة في الحديث أيضاً كان يجمع كبار الصحابة ويحكم بالأمر الذي تقرر باتفاق آرائهم، ويثبت من هذا أيضاً أنه حتى عهد أبي بكر رضي الله عنه كان القرآن الكريم والحديث والإجماع كلها تستخدم في الرد على المسائل، ولم يكن هناك وجود للقياس، والرسالة التي أرسلها عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري، وكانت تتعلق بالقضاء، أرشده فيها بوضوح إلى القياس كما في العبارة التالية:

«الفهم الفهم فيما يختلج في صدرك من لم يبلغك في الكتاب والسنة، واعرف الأمثال والأشباه ثم قس الأمور على ذلك»[٢].

وقد كُتب هذا التعريف للقياس في كتب أصول الفقه:

«تعدية الحكم من الأصل إلى الفرع لعلةٍ متحدةٍ».

وعلى سبيل المثال قال النبي ﷺ بعد أن ذكر بالاسم القمح والشعير وغيرها إن الربا أن يؤخذ بدل مقدار مقداران ـ فالقياس في هذه المسألة أن النبي ﷺ ذكر أسماء لعدة أشياء خاصة، لكن الحكم ينطبق على جميع الأشياء التي لها مقدار ونوعية، فمثلًا لو أعطى شخص لشخص آخر كيلًا من الجص ثم أخذه منه بزيادة ربع كيل، أو أخذ كيلًا واحداً لكن من نوع أكثر جودة من النوع الأول، صار هذا ربا.

وهناك شرطان مقدمان للقياس في رأي الأصوليين:

١ـ ألا تكون المسألة المثبتة بالقياس منصوصاً عليها؛ أي لا يوجد حكم خاص بها.

---

(١) مسند الدارمي ص ٣٢.

(٢) هذه الرواية مذكورة في الدارقطني، انظر إزالة الخفاء ص ٨٦.

٢ـ أن يكون هناك علة مشتركة بين المقيس والمقيس عليه. وفي كتابة عمر إشارة بل تصريح بهذين الشرطين.

إذ أوضح الشرط الأول بالألفاظ التالية: مما لم يبلغك في الكتاب.

وأوضح الشرط الثاني بالألفاظ التالية: واعرف الأمثال والأشباه ثم قس الأمور.

وفيما عدا هذه الأصول الهامة وضع عمر كثيراً من القواعد لاستنباط الأحكام وتفريع المسائل وتعد أساس علم أصول الفقه اليوم، وقبل تفصيل هذا الأمر يجب فهم هذه النكتة:

**أصول استنباط الأحكام :**

من المسلم به أن الإمام أبا حنيفة والإمام مالك وغيرهما تختلف آراؤهم كثيراً في المسائل الفقهية، والسبب في هذا في بعض الأحيان هو أن الواحد فيهم كان يجد حديثاً صحيحاً في بعض المسائل بينما الآخر لا يجد، لكن سبب الاختلاف عموماً كان اختلاف أصول الاستنباط لديهم، وقد ذكرت تلك الأصول المختلف فيها بالتفصيل في كتب أصول الفقه، ويجب أن يفهم من هذا أن هؤلاء الأئمة قد ذكروا صراحة تلك الأصول.

لا شك أن الإمام الشافعي كتب رسالة ضبط فيها عدداً من أصوله، ولكن لم ينقل صراحة عن الإمام أبي حنيفة ولا عن الإمام مالك أو غيرهما قاعدة واحدة، بل إن هؤلاء الأئمة كانوا يستنبطون مسائلهم أو يقررون ما يتعلق بهذه المسائل، مما يثبت أن استنباطهم كان مبنياً على تلك الأصول، فمثلًا استدل أحد الأئمة بهذه الآية القرآنية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: ٢٠٤] على عدم وجوب قراءة الفاتحة على المأموم خلف الإمام، وقال له أحد الناس إن هذه الآية كانت قد نزلت في الخطبة، فقال: هذه الآية نزلت في أمر ما لكن الحكم هنا حكم عام، ويتضح من هذا أنه كان من القائلين بهذه الأصول: «العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب»؛ أي أن

خصوصية السبب لا تؤثر على تعميم الحكم.

إن الأصول المنسوبة للإمام أبي حنيفة وغيره في أصول الفقه، قد استنبطت بمثل هذه الطرق، وإلا فإن هذه الأصول لم تذكر صراحة عن هؤلاء الأئمة في أي مكان.

ودعوانا بأن عمر رضي الله عنه هو الذي أسس أصول وقواعد استنباط المسائل قائمة على أساس أن معظم المسائل التي فصل فيها، إنما كان فصله فيها بعد بحث ومناظرة ومناقشة مع جماعة الصحابة، وإذا ما قمنا باستقصاء الخطب التي ألقاها في تلك المناسبات لظهر لنا الكثير من هذه الأصول، وكانت هناك روايات متناقضة أو مآخذ عدة للاستدلال في أكثر المسائل، لذلك اضطر في الفصل بينها إلى ترجيح أحد الطرفين: فجعل أحدهما ناسخاً والآخر منسوخاً، أو جعل أحدهما عامًّا وجعل الآخر خاصًّا، أو جعل أحدهما مؤقتا وجعل الآخر مطلقاً، وهكذا تقررت أصول النسخ والتطبيق والتخصيص وغيرها من أصول الفقه، وعندما كان يخطب للفتوى في مسألة ما، كانت خطبته كثيراً ما تتضمن أصلًا من هذه الأصول، وعلى سبيل المثال قال له رجل: اسمح لي بأن أقطع يد غلامي لأنه سرق مرآة زوجتي وكان ثمنها ستين درهماً، فقال عمر رضي الله عنه كان غلامك وسرق شيئاً لك، فلا يمكن أن تقطع يده على هذا[1].

ومن هذا استنبطت الأصول وهي أنه من الضروري لتطبيق حد السرقة ألا يكون للسارق حق في المال المسروق، وهناك شخص آخر سرق شيئاً من بيت المال، فأطلق عمر رضي الله عنه سراحه على هذا الأساس، لأن لكل إنسان حق في بيت المال، ونزل مرة بالقرب من بحيرة في إحدى أسفاره، وكان معه عمرو بن العاص، فسأل الناس: «ألا تشرب الضواري من هذا

(١) موطأ الإمام مالك.

الماء ؟ فمنع عمر الناس ألا يخبروا[١]، ويثبت من هذا قاعدتين: الأولى هي أن الأصل في الأشياء الإباحة، والثانية لو كانت الحالة الظاهرة صحيحة، فنحن غير مكلفين بالفحص والبحث، وذات مرة في رمضان غابت الشمس خلف سحابة وانخدع عمر رضي الله عنه فأفطر، وبعد فترة قصيرة ظهرت الشمس، فتردد الناس فقال عمر رضي الله عنه: «الخطب يسير وقد اجتهدنا»؛ أي أن الأمر ليس بهذه الأهمية لأننا اجتهدنا»[٢].

وهناك أمثلة أخرى كثيرة على هذا النسق يستطيع من أراد، أن يضبط عن طريقها الكثير من كليات أصول الفقه.

**مسائل عمر الفقهية :**

إن المسائل الفقهية التي ذكرها عمر رضي الله عنه اتفق الصحابة معه في كثير منها، وقد قلده الأئمة المجتهدون، ويصل عدد هذا النوع من المسائل طبقاً لاستقراء شاه ولي الله إلى ما يقرب من ألف مسألة، لكن هناك الكثير من المسائل التي اختلف الصحابة فيها معه، فهل كانوا على حق ؟ ويتضح مثلًا في مسائل التيمم والجنابة ومنع تمتع الحج، والطلقات الثلاث وغيرها أن اجتهاد الصحابة كان أصح من اجتهاد عمر، ولكن في معظم المسائل وخاصة تلك التي كانت موضع نزاع شديد، وتدخل في نطاق الأمور الحضارية وشئون الدولة، فقد بنى عمر رضي الله عنه عموماً اجتهاده على البصيرة النافذة والفهم العميق، ويمكن من خلال هذه المسائل إدراك علو باعه في الاجتهاد.

ونشير هنا إلى بعض هذه المسائل:

**مسألة الخمس :**

كان مسألة الخمس من أكبر المسائل التي اختلف فيها، فقد جاء في القرآن الكريم:

---

(١) المصدر السابق ص ٦٦.
(٢) المصدر السابق ص ١٨٤.

﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

ويثبت من هذه الآية أن أقارب الرسول ﷺ لهم نصيب في الخمس، وعلى هذا كان رأي عبدالله بن عباس الذي كان يسمى بين الصحابة «ببحر العلم» وكان يستدل بقوة بهذه الآية، ومع أن عليا رضي الله عنه لم يعط نصيباً من الخمس لبني هاشم لسبب أو آخر لكنه كان أيضاً يرى أن بني هاشم لهم الحق فعلًا في الخمس[١].

ولم يكن هذا فقط رأي علي رضي الله عنه وعبدالله بن عباس رضي الله عنه فقط بل اجتمع على هذا جميع أهل بيت النبي، ويقول بهذا أيضاً من الأئمة المجتهدين الإمام الشافعي الذي استدل عليها بقوة وشدة في مؤلفاته.

أما ما قاله الناس عن عمر فهو أنه لم ير مطلقاً أحقية أقارب الرسول في الخمس، ولهذا لم يعط أهل البيت نصيبهم في الخمس أبداً، وكان الإمام أبو حنيفة من بين الأئمة المجتهدين الذين لم يعترفوا بالخمس لذوي القربى، فكان رأيه أن نصيب أقارب الرسول قد انقضى بانقضاء نصيب الرسول ﷺ.

والآن يجب أن نلاحظ بدقة كيف يُستخرج هذا الحكم من القرآن الكريم، وكيف كان عمل رسول الله ﷺ في هذا الأمر.

يثبت من الآية القرآنية أن مصارف الخمس خاصة بشكل كلي لخمس مجموعات، لكن لم يثبت منها أن التقسيم لكل مجموعة على حدة واجب، وعندما ذكرت مصارف الزكاة في القرآن الكريم، وردت الألفاظ التالية محددة:

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ [التوبة: ٦٠].

---

(١) كتاب الخراج ص ١١ برواية محمد بن إسحق.

ففي الآية تحددت مصارف الزكاة لثمان فئات: للفقراء، والمساكين، والعاملين على الزكاة، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، والمجاهدين، والمسافرين، فهؤلاء الذين يمكن أن تؤدى الزكاة إليهم، وليس من الضروري أن تؤدى الزكاة إليهم مجتمعين، وإذا افترضنا أن اجتمعت الفئات الثماني وجب عندئذ مراعاة شدة إحداها إلى الزكاة أكثر من الأخرى، أو عدم حاجة إحداها مطلقاً إلى الزكاة، أما «التزام مالا يلزم» فكانت فكرة الإمام الشافعي، وتقضي بأن يتم تقسيم الزكاة بالتساوي بين المجموعات الثماني سواء كانت بحاجة إليها أم لا، وهكذا فإن مصارف الخمس الذي أخبر به الله تعالى يفهم منه أن الخمس لا يعطى لأحد سوى هؤلاء الناس، ولا يعني بالضرورة أن يقسم بالتساوي إلى خمسة أقسام تعطى للفرق الخمس المذكورة.

وانظر الآن ماذا فعل رسول الله ﷺ؟

يثبت من استقراء الأحاديث والروايات مايلي:

١ـ كان الرسول ﷺ يعطي بني هاشم وبني عبدالمطلب فقط من بين ذوي القربى، ورغم أن بني نوفل وبني عبد شمس يندرجون ضمن ذوي القربى، لكنه لم يعطهم شيئاً رغم أنهم طلبوا بأنفسهم، وقد نقل العلّامة ابن القيم هذه الواقعة في كتابه زاد المعاد معتمداً على كتب الحديث[1].

٢ـ لم يكن يساوي بين بني هاشم وبني عبدالمطلب في العطاء، وقد كتب العلّامة ابن القيم في زاد المعاد:

**«ولكن لم يكن يقسم بينهم على السواء بين أغنيائهم وفقرائهم، ولا كان يقسمه قسمة الميراث، بل كان يصرفه فيهم بحسب المصلحة والحاجة فيزوّج منهم أعزبهم، ويقضي منه عن غارمهم، ويعطي منه فقيرهم كفايته».**

---

(١) زاد المعاد الجزء الثاني ص ١٦١.

وهكذا ثبت من هذه الوقائع أنه ليس هناك تعميم في لفظ «ذوي القربى»، وإلا كان الرسول ﷺ أعطى لبني نوفل وبني عبد شمس حقهم أيضاً؛ لأنهم كانوا من أقارب النبي ﷺ، كما ثبت أيضاً أن جميع أفراد بني هاشم وبني عبدالمطلب لم يكونوا متساوين في العطاء.

وقد أبقى عمر رضي الله عنه ـ كما هو ثابت من الروايات الصحيحة ـ على حق بني هاشم لكنه خالفهم في أمرين:

الأول: أنه كان لا يرى أن الخمس بأكمله من حق ذوي القربى.

والثاني: أنه كان يرى أن الزيادة والنقص في التقسيم طبقاً للمصلحة والضرورة من حق الخليفة.

وخلافاً لهذا كان عبدالله بن عباس وغيره يزعمون أن الخمس بأكمله حق خاص لذوي القربى، وليس لأحد حق التصرف في أي مقدار منه، وقد نقل القاضي أبو يوسف في كتابه الخراج والنسائي في صحيحه رأي عبدالله بن عباس.

«عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوج من الخمس أيّمنا، ونقضي منه عن مغرمنا فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى ذلك عَلِيٌّ»[١].

وتتفق الروايات الأخرى مع هذا أيضاً ماعدا رواية الكلبي فقط الذي يرى أن أبا بكر وعمر قد أسقطا حق ذوي القربى، والكلبي ضعيف الرواية تماماً، ولهذا لا يمكن الاعتداد بهذه الرواية.

ويثبت بما لا يدع مجالاً للشك من فحوى الآيات القرآنية وطريقة النبي ﷺ أن ما قام به عمر رضي الله عنه كان مطابقاً تماماً للقرآن والحديث، ولم يستطع الإمام الشافعي وغيره أن يقدموا دليلاً واحداً على أن النبي ﷺ كان يعطي دائماً الخمس كاملاً، كما لا يمكن أن يثبت هذا التحديد والتعيين من القرآن الكريم، أما الحق غير المحدد لبقية ذوي القربى فلم ينكره عمر رضي الله عنه مطلقاً.

---

(١) كتاب الخراج ص ١١.

ولتنظروا إلى هذه المسألة من الناحية العقلية أي على أساس أي أصول كان تحديد نصيب من الخمس للرسول ﷺ ولقرابته؟.

من الواضح أن الرسول ﷺ لم يكن يستطيع أن ينشغل في البحث عن الرزق بسبب قيامه بأعباء تبليغ الرسالة، وتعليم أحكام الدين، ولهذا كان من الضروري أن يكون له نصيب من دخل الدولة، ولم يكن هناك دخل للدولة آنذاك سوى مال الغنيمة؛ أي «الفيء والأنفال»، ولهذا حدد الله له نصيباً منها، وقد ورد ذكر هذا في آيات مختلفة من القرآن الكريم، وهذا شبيه بما يقرر للملك من نفقات شخصية، أما حق ذوي القربى، فكان قد تقرر؛ لأن هؤلاء الناس وقفوا إلى جانب النبي ﷺ منذ بداية الإسلام، فكانوا يعانون كثيراً من كفار مكة، وقد وقف جميع بنو هاشم - والذين لم يسلموا منهم أيضاً - مع رسول الله ﷺ، وحين خرج النبي ﷺ من مكة وآوى إلى شعب جبل خارج مكة خرج معه بنو هاشم كلهم.

وبناءً عليه فإن ما تقرر للنبي ﷺ ولذوي القربى كان لضرورة وقتية، ولمصلحة اقتضتها الظروف، أما تحديد الخمس لأقاربه حتى يوم القيامة، مهما تزايد نسلهم ومهما كانوا أثرياء وأغنياء فإن هذا يتعارض مع أصول التمدن والحضارة، فمن ذا الذي يمكنه أن يؤمن بأن مؤسس الشريعة الحق يضع هذه القاعدة التي تفرض أن يتلقى جميع أولاده مبلغاً معيناً حتى يوم القيامة، فلو قام مؤسس شريعة بمثل هذا فلن يكون بينه وبين الكهنة البرهمنيين أي فرق!! كما أن عليًا رضي الله عنه وعبدالله بن عباس رضي الله عنه حين زعما حقهما في الخمس، لايمكن أن يكون قصدهما أن يستمر ذلك حتى يوم القيامة بل كانا يريدانه لمن بقي على قيد الحياة بعد وفاة النبي ﷺ.

**مسألة الفيء :**

أما المسألة الأخرى الهامة فهي مسألة الفيء؛ أي الأرض أو الممتلكات التي استولى عليها المسلمون عن طريق الفتح، وهي مسألة صعبة لدرجة أنه

يفصل فيها بشكل نهائي منذ عهد الصحابة وحتى يومنا هذا، ومسألة حديقة الفدك فرع من هذه المسألة أيضاً.

إن اللبس الشديد الذي حدث في هذا المبحث إنما يرجع إلى أن الناس لم يفرقوا بين الألفاظ المتشابهة والقريبة في المعنى مثل النفل والغنيمة والسلب، وسوف نتناول هذا البحث بالتفصيل، فالحقيقة أنه كان من عادة العرب قبل الإسلام أن يقسموا ما يحصلون عليه بعد الانتصار في المعركة على جميع المحاربين بالتساوي، وكان رئيس القبيلة يحصل دون شك على نصيب أكبر أي الربع، وبعد بعثة النبي ﷺ بقي كثير من العادات والتقاليد كما هي في البداية، وبقيت هذه القاعدة كما هي مع تغيير بسيط، ولهذا كان ما يأتي بعد الانتصار في المعركة يوزع على المجاهدين، ولما كانت هذه الطريقة متبعة منذ القديم، واستمرت في عهد رسول الله ﷺ لهذا ظن الناس أن مال الغنيمة حق مكتسب للمجاهدين، يمكنهم المطالبة به على أي حال، حتى نشب عليه ذات مرة نزاع في غزوة بدر، فأخذ بعض الناس يتعقبون الكفار لمسافة بعيدة، بينما بقي البعض الآخر مع النبي ﷺ، وعندما جاء أولئك الناس زعموا أن الغنيمة من حقهم، لأنهم حاربوا العدو، فقال الآخرون: ونحن كنا ندافع عن رسول الله ﷺ ولهذا نستحق نصيباً أكبر، وهنا نزلت الآية الكريمة:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ [الأنفال: ١] فمحت هذه الآية الكريمة تلك الأصول القديمة القائلة بأن مال الغنيمة كله حق مكتسب للمحاربين، وليس للقائد سلطة التصرف في أي نصيب منه، ولكن لم ترد في الآية الكريمة كيفية توزيع الغنيمة فنزلت هذه الآية:

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

يفهم من هذه الآية قاعدة تقسيم مال الغنيمة إلى خمسة أقسام: أربعة منها للمجاهدين والقسم الخامس وهو الخمس يكون لنفقات النبي ﷺ ولذوي

القربى والمساكين وغيرهم، وكانت جميع هذه الأحكام تتعلق بالأموال والأمتعة، ولم تحدد هناك قاعدة، ولم يصدر حكماً، يتعلق بالأرض والأملاك، وفي غزوة بني النضير سنة ٥هـ نزلت الآية التالية في سورة الحشر:

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ . . . ﴾ [الحشر: ٧] إلى قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ . . . ﴾ [الحشر: ٨] إلى قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا . . . ﴾ [الحشر: ١٠].

والنتيجة التي نستخرجها من الآيات المذكورة أن الأرض التي يتم فتحها لا تُقسم بل تظل محفوظة على شكل وقف، يتمتع بمنافعه جميع المسلمين في الوقت الحالي وجميع المسلمين في العصور التالية أيضاً، وهذه حقيقة النفل والغنيمة والفيء، وقد وقع الناس في بعض المغالطات في هذه الأحكام؛ لأنهم فهموا أن الغنيمة والفيء شيءٌ واحدٌ، وهذا أيضاً رأي الإمام الشافعي من بين الأئمة المجتهدين، وطبقاً لمذهبه يجب تقسيم الأرض المفتوحة على المجاهدين بعد فتحها، وهكذا حين فتحت الشام والعراق، طلب الناس من عمر رضي الله عنه أن تقسم عليهم البلدان المفتوحة، وأصر على ذلك بشدة كلٌّ من عبدالرحمن ابن عوف، والزبير بن العوام وبلال بن رباح رضي الله عنهم، لكن عمر رضي الله عنه لم يوافق، واجتمع كثير من الناس ـ كما ذكرنا قبلًا في الفصل الخاص بالخراج ـ وظلوا يتناقشون لعدة أيام، وفي النهاية استدل عمر رضي الله عنه بالآيات المذكورة قبلًا وقرأ هذه الألفاظ من الآية الكريمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾، ثم قال: «فكانت هذه عامة لمن جاء من بعدهم، فقد صار هذا الفيء بين هؤلاء جميعاً، فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من يخلف بعدهم»[1].

---

(١) كتاب الخراج ص ١٥ واقرأ مادار في هذا النقاش الحاد في كتاب الخراج من ص ١٤ـ١٥.

ومن أعظم ما استدل به الإمام الشافعي وأتباعه أن النبي ﷺ قسم أرض خيبر على المجاهدين، لكنهم لا ينتبهون إلى أن أماكن كثيرة فتحت أيضاً بعد خيبر، حتى أن جزيرة العرب بأكملها كانت قد فتحت قبل وفاته ﷺ لكنه لم يقسم منها شبراً واحداً!!

**مسألة فدك :**

وتأتي مسألة فدك ضمن هذه المسألة التي ظلت محل نقاش وبحث شديدين لمدة طويلة، فترى فرقة أن بستان فدك كان ملكاً للنبي ﷺ، لأنه لم يستولى عليه بل سلمه له الناس هناك ولهذا فيصدق عليه ما جاء في الآية الكريمة:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦].

ولما كان هذا البستان ملكاً خاصاً للرسول ﷺ لذلك تنطبق عليه القاعدة العامة التي وردت في القرآن الكريم بشأن الوراثة، وبالتالي يُصبح من حق ورثة النبي ﷺ، إلا أن عمر رضي الله عنه حرم فيه آل النبي ﷺ رغم مطالبة عليّ رضي الله عنه به.

ومع أن هذه المسألة ازدادت تعقيداً بسبب الاختلاف الفكري بين الفريقين، لكن الأمر في الحقيقة بسيط للغاية، والمسألة لم تعد جديرة بأن تطرح للبحث بعد أن اتضحت أصول سياسة المدن الآن، وصارت قريبة من فهم عموم الناس، فالأصل أن المال الذي يكون لدى نبي أو إمام أو ملك ينقسم إلى قسمين: الأول ملك خاص به ولا صلة له بمنصب النبوة أو الإمامة أو الملكية في تحصيله، وعلى سبيل المثال كان الملك داؤود يكسب رزقه من صناعة الدروع بينما كان الإمبراطور المغولي عالمكير يعيش حياته من نسخه للقرآن الكريم، فهذا الدخل كان دخلا خاصاً به له حرية التصرف فيه كما يشاء، والنوع الثاني يكون ملكاً للحكومة مثل البلدان المملوكة لداؤود وهي

ورثها عنه سليمان.

ففي هذا النوع الثاني لا تطبق قاعدة الوراثة، بل تنتقل هذه الأشياء للشخص الذي يخلف النبي أو الإمام أو الملك كلٌّ في منصبه ـ فيكون هو صاحبها أو المتولي لأمرها، وهذا أمر بديهي يتماشى الآن مع طبيعة عصرنا، وعلى سبيل المثال لم تقسم بلاد السلطان عبدالحميد خان من بعده، ولم تقسم أملاكه الخاصة من بعده على أبنائه وأخوته وأمه وأخته وغيرهم، بل آلت لمن جلس على العرش من بعده. ومن الناحية الدينية فإن جميع فرق المسلمين تسلم دائماً بهذه القاعدة. وعلى سبيل المثال فإن من فهموا أن بستان فدك من حق الأئمة الاثنى عشر واحداً بعد الآخر، هم أيضاً لا يقولون بقاعدة الوراثة في هذا الأمر، فلو كان الإمام عليّ رضي الله عنه على سبيل المثال متولياً عليها أو مالكاً لها في عهده، لطبقت قاعدة الوراثة بعد وفاته، ونال كل من الحسين والعباس ومحمد بن الحنفية وزينب نصيبهم؛ لأنهم كانوا ورثة الإمام علي رضي الله عنه، لكن الملكية آلت إلى الإمام حسن ـ عليه السلام ـ فقط لأنه طبقاً لشروط الإمامة كان خليفة لعلي رضي الله عنه، والخلاصة أن هذه قاعدة عامة ومسلّم بها، وهي أن الأملاك التي يرتبط الحصول عليها بمنصب النبوة أو الإمامة أو الملكية لا تكون ملكاً خاصًّا، وهنا يجب فقط أن نلاحظ كيف تم الحصول على بستان فدك ؟

وحقيقة الأمر أن الرسول ﷺ عندما فتح خيبر أرسل إلى أهل فدك محيصة بن مسعود ليدعوهم إلى الإسلام، وكانت فدك تحت يد اليهود الذين كان يرأسهم يوشع بن نون، فأرسل اليهود رسالة صلح على أن يسلموا نصف الأرض[1]، ومنذ ذلك الوقت آل هذا البستان للمسلمين.

والآن يمكن لكل إنسان أن يفهم كيف تكون هذه الأملاك ملكاً خاصًّا للنبي

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري، ذكر فدك.

ﷺ ، إن الزعم بأنها ملكية خاصة جاء نتيجة عدم فتحها عن طريق الجيش، بل مصداقاً لهذه الآية: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ [الحشر: ٦]، ولكن هل البلاد التي يتم الاستيلاء عليها عن طريق الصلح تصبح ملكية خاصة للإمام أو الملك؟ لقد تم الاستيلاء على مناطق أخرى في الجزيرة العربية بنفس الطريقة ولم يضطر المسلمون لغزوها عسكرياً، فهل اعتبرها أحد ملكاً خاصاً للنبي ﷺ؟ لا شك أن هذا أمر يحتاج إلى إعمال الفكر، لماذا لم ينشأ هذا النوع من التفكير بالنسبة للأماكن المفتوحة الأخرى؟ وأي خصوصية لفدك تميزها عن غيرها أدّت إلى ظهور سوء الفهم هذا؟

إن حقيقة الأمر هو أن الأراضي المفتوحة الأخرى ظلت علانية وقفاً عاماً، إلا أن فدك خصصها النبي ﷺ لنفقاته، ومن هنا ظهرت هذه الفكرة؛ أي أنها ملك خاص للنبي ﷺ ، وما أكد هذه الفكرة أكثر وأكثر هو أن فدك دخلت في ممتلكات الإسلام بدون غزو عسكري، وهكذا لم يكن لأحد الحق في المطالبة بتقسيمها، كما كان يحدث عادة ـ إلا أن هذا التصور غير صحيح في الأصل؛ فلا شك أن الرسول ﷺ قد خص فدك لنفقاته الخاصة، ولكن كيف؟!

هناك روايات مفصلة عن هذا الأمر:

«فكان نصف فدك خالصاً لرسول الله، وكان يصرف ما يأتيه منها إلى أبناء السبيل»[(١)].

وفي رواية أخرى:

«إن فدك كانت للنبي ﷺ، فكان ينفق منها ويأكل ويعود على فقراء بني هاشم ويزوج أيّمهم»[(٢)].

وقد صرح البخاري وغيره أن النبي ﷺ كان يأخذ منها نفقات السنة كاملة

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٩.
(٢) المصدر السابق، ص ٣١.

ثم كان يعطي الباقي لمصالح عامة المسلمين.

يتضح من هذه الروايات أن فدك كانت ملكاً للنبوة مثلها في ذلك مثل أي أملاك خاصة بالسلاطين، وعلى هذا الأساس، وبرغم خصوصيتها (للنبي) فإنها لم تكن سوى وقف ليس إلا.

ونرى الآن هل كان عمر رضي الله عنه يعرف هذه القواعد والأصول؟ وعليه لم يطبق قاعدة الوراثة على فدك أم أن هذه الأمور ظهرت فيما بعد؟

خطب عمر رضي الله عنه عند فتح العراق والشام في جمع الصحابة رضوان الله عليهم، واستدل في خطبته بالآية القرآنية: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ...﴾ الآية، وقال بوضوح تام: إن الأماكن المفتوحة ليست ملكاً خاصاً لأي شخص بل هي وقف عام ـ وقد سبق هذا البحث عند ذكر الفيء ـ ولا شك أنه يمكن الظن بأن الآية السابقة لهذه الآية يثبت منها أن فدك وغيرها كانت ملكاً خاصاً بالرسول ﷺ وأن عمر نفسه كان يقر هذا المعنى، والآية هي: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [الحشر: ٦]، ولهذا فبعد أن قرأ عمر رضي الله عنه هذه الآية قال:

«فكانت خالصة لرسول الله ﷺ»، وقد ذكرت هذه الواقعة بالتفصيل في صحيح البخاري في باب الخمس وباب المغازي وباب الميراث.

وليس في هذا شك أن عمر رضي الله عنه كان يعتبر فدكاً ملكاً خاصاً لرسول الله ﷺ بناءً على هذه الآية الكريمة، لكن هذا النوع من الملكية ليس ملكية شخصية، فهي كتلك الأرض التي تعطي لتغطية نفقات السلاطين لا تنطبق عليها القاعدة العامة في الميراث بل يمكن أن يتمتع بها فقط الشخص الذي يخلف على الحكم، والدليل القاطع لفكرة عمر رضي الله عنه هذه هو أنه حين قال: إن فدك خالصة لرسول الله ﷺ بناءً على الآية سابقة الذكر، ذكر معها هذه الكلمات كما هو مذكور في صحيح البخاري باب الخمس وباب

المغازي وغيرها. «فكان رسول الله ينفق على أهله نفقة سنتهم من المال، ثم يأخذ مابقي فيجعله كجعل مال الله، فعمل رسول الله بذلك في حياته، ثم توفى الله نبيه ﷺ، فقال أبو بكر أنا ولي رسول الله، فقبضها أبو بكر فعمل فيها بما عمل رسول الله، ثم توفى الله أبا بكر، فكنت أنا ولي أبي بكر، فقبضتها سنتين من إمارتي أعمل فيها بما عمل رسول الله ﷺ وبما عمل فيها أبو بكر».

ويتضح تماماً من هذه الخطبة أن عمر رضي الله عنه رغم أنه كان يعتبر فدك وغيرها ملكاً لرسول الله ﷺ، إلا إنه لم يعتبرها أملاكاً شخصية للرسول، يمكن أن تطبق عليها قواعد الوراثة، ولهذا قرر أن من يستحق ملكيتها هو فقط خليفة رسول الله ﷺ. وهكذا ذكر سبب استيلاء أبي بكر واستيلائه هو أيضاً عليها.

وكان عمر رضي الله عنه قد ألقى هذه الخطبة حين جاءه العباس وعلي رضي الله عنهما يريدان الفدك، فأخبرهما بأنه لا يمكن أن يطبق عليها قواعد الوراثة.

**والخلاصة** أن فدك وغيرها كانت في رأي عمر ملكاً للنبي ﷺ كما كانت أيضاً وقفاً، ولهذا قرأ عمر رضي الله عنه أثناء فتح العراق تلك الآية التي يتضح منها أنها ملكاً للرسول ﷺ وبعد هذا قال: «فهذه عامة في القرى كلها»؛ أي أن الحكم في الآية غير محدد بتلك الأماكن فقط (فدك وغيرها) بل يطبق على جميع البلاد.

والأصل هو أن وجود اتجاهين في مسألة الفدك كان سبباً في سوء الفهم، هذا وقد بيّن ابن القيم في زاد المعاد هذا الأمر بطريقة رائعة للغاية: «فهو ملك يخالف حكم غيره من المالكين، وهذا النوع من الأموال هو القسم الذي وقع بعده فيه من النزاع ما وقع إلى اليوم، ولولا إشكال أمره عليهم لما طلبت فاطمة بنت رسول الله ﷺ ميراثها من تركته، وظنت أنه يورث عنه ما كان ملكاً له كسائر المالكين، وخفي عليها رضي الله عنها حقيقة الملك الذي ليس مما يورث عنه».

ويمكنكم أن تقدروا كيف فصل عمر رضي الله عنه في أمر تلك المسائل التي ظل الخلاف حولها قائماً منذ البداية وحتى يومنا هذا، والتي أشكلت على كبار الصحابة رضوان الله عليهم. فحكمه هذا من ناحية يعد صحيحاً إذا وضع على محك القرآن والحديث، ومن ناحية أخرى يعد مطابقاً لأصول الحكم ونظام التمدن.

# السيرة الذاتية
# و
# أخلاقه وعاداته

مع أن بداية التربية الروحية في جزيرة العرب بدأت بالإسلام، إلا أنه وجد قبل الإسلام بين أهل الجزيرة العربية من اتصفوا بتلك الصفات التي كانت كأوسمة الشرف، والتي تستطيع كل أمة أن تفاخر بها على مر الأزمان، ومع أن تلك الصفات كانت توجد بنسب متفاوته في جميع أفراد الأمة إلا أن بعض أفرادها كانوا يتميزون أكثر من غيرهم بتلك الصفات، وكان هؤلاء يحرزون منصب الرئاسة والحكم، وتأتي في مقدمة تلك الصفات: الفصاحة والبلاغة، والشعر وقوة الخطابة، والفراسة، والفروسية والشجاعة، والحرية، وكانت هذه الأوصاف تراعي في الحصول على منصب الرئاسة والقيادة، وقد منحت المشيئة الإلهية لعمر رضي الله عنه نصيباً وافراً من هذه الصفات.

## قوة الخطابة :

كانت ملكة الخطابة هبة من عند الله، شحذتها وصقلتها معارك سوق عكاظ، وكانت هذه الكفاءة هي التي دفعت قريشاً لتسند إليه مهمة السفارة، التي كان يختص بها أولئك الذين تميزوا بفصاحة اللسان، فقد كانت عباراته العادية تحمل أثر الإبداع، وكانت الفقرات التي تخرج من فمه على البديهة تحمل روح البلاغة، فعندما رأى عمرو بن معد يكرب لأول مرة، وكان رجلًا قوي البنية تعجب وقال: الله خالقه وخالقنا واحد!!»، ومعنى هذا «أن هناك تفاوتاً في جسمنا وفي جسمه إلى حد لا يبدو منه أنهما من إبداع خالق واحد».

وفي حادثة الوباء اعترض عليه أبو عبيدة قائلًا: أتفر من قدر الله؟ فرد عليه بألفاظ بليغة قائلًا: «نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله».

ولا تزال الخطب التي ألقاها في أوقات مختلفة موجوده حتى اليوم ونستطيع أن نقدر منها مدى قوة بيانه وتناسق ألفاظه.

كانت الفقرة الأولى في الخطبة التي ألقاها حين ولي الخلافة كما يلي:

«اللهم إني غليظ فليِّني، اللهم إني ضعيف فقوني، ألا وإن العرب جمل أنف وقد أُعطيت خطامه، ألا وإني حامله على المحجة».

وفي اليوم الثاني والثالث لخلافته عندما جمع الناس لحشد الجيوش إلى العراق، كان الناس يترددون بعد أن سمعوا اسم إيران، وخاصة حين أُستدعى خالد من هناك، فكان من تأثير قوة خطبة عمر رضي الله عنه بهذه المناسبة أن نهض المثنى الشيباني من فوره، وهو من الأبطال المشهورين، ثم اشتعل الناس حماساً، وفي سفر دمشق تجمع في الجابية أناس من كل قبيلة، وكل ملة حتى أن أسقف النصارى انضم إليهم، وانضم معه أيضاً الكثير من الأقوام الذين كانوا يدينون بديانات مختلفة، فبين رضي الله عنه لهم مختلف الموضوعات ومختلف المعاني، وخص المسلمين ببيان التعاليم الأخلاقية، وخص غير المسلمين ببيان حقيقة الإسلام وأغراض الحرب والسلم في الإسلام، وقدم للجيش اعتذاره عن عزل خالد، وهكذا بين رضي الله عنه هذه المعاني كلها بطريقة طيبة رائعة حتى أن بعض فقرات خطبته ظلت لفترة على ألسنة الناس، واستنبط منها الفقهاء المسائل الفقهية، وأظهر منها الأدباء أمثلة لقواعد الفصاحة والبلاغة، كما استفاد منها أيضاً الكتاب الذين يكتبون في موضوعات الزهد والورع وعلم الأخلاق.

وحج عمر سنة ٢٣هـ وكانت هذه آخر حجة له، وذكر أحد الناس لرفيق له أنه سيبايع طلحة رضي الله عنه بعد وفاة عمر، وكان عمر رضي الله عنه قد جاء إلى منى حين وقع هذا الأمر، وعندما علم بهذا غضب غضباً شديداً وقال: سوف أخطب اليوم في هذا الأمر، فقال عبدالرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين في مجمع الحج يجمع الصالح والطالح من الناس، ولو أنك خطبت هنا، فقد

لايفهم معظم الناس بطريقة صحيحة ما تريد قوله، ولن يستطيعوا بالتالي اتباعه، فانطلق إلى المدينة، واخطب في جمع من الخواص، فهؤلاء الناس يمكنهم أن يفهموا الموضوع من كل جوانبه، فوافق عمر رضي الله عنه على هذا الرأي، فقدم إلى المدينة في آخر ذي الحجة، وفي يوم الجمعة تجمع الناس في المسجد، ينتظرون بشوق ولهفة، وكان أكثرهم شوقاً ولهفة عبدالله بن عباس، ولهذا جلس بالقرب من المنبر وخاطب سعيد بن زيد قائلًا: سيخطب عمر اليوم خطبة لم يخطب مثلها من قبل، فتعجب سعيد وقال: هل يمكن أن يكون هناك مالم يذكره لنا من قبل؟ وهنا انتهى الأذان وخطب عمر في الناس، وقد ذكرت الواقعة كاملة والخطبة بأكملها في صحيح البخاري[١]، وقد ورد فيها حادثة سقيفة بني ساعدة، وآراء الأنصار، ورد أبي بكر وكيف تمت البيعة وحقيقة الخلافة، وذلك بطريقة رائعة وبديعة، وبجودة وطرافة لا يمكن أن تُقارن، وبعد إلقاء هذه الخطبة وقر في الأذهان أن ما حدث في ذلك الوقت كان يجب أن يحدث، وليس في الإمكان أبدع مما كان، وكانت خطبته تترجم ترجمة فورية إذا ما ألقاها في حشود تضم أمماً أخرى، مثلما حدث في خطبته التي ألقاها في الجابية بدمشق، فقد كان المترجم يترجمها ترجمة فورية[٢].

ورغم أنه كان يلقي خطبه في معظم الأحيان على البديهة لكنه كان عادة يستعد للخطب التي يلقيها في الأزمات، وقد أوضح هو نفسه هذا الأمر حين قال في واقعة سقيفة بني ساعدة: لقد ذهبت وأنا في كامل الاستعداد.

وحين ولي عثمان رضي الله عنه الخلافة وصعد على المنبر ليخطب توقف فجأة ولم يطاوعه لسانه، عندئذ اعتذر قائلًا: إن أبا بكر وعمر كانا يستعدان للخطبة، وسوف أفعل هكذا مستقبلًا.

---

(١) صحيح البخاري المجلد الثاني طبعة أحمدي ميرته ص ١٠٠٩ .
(٢) إزالة الخفاء الجزء الثاني ص ١٣٥ .

## عمر وخطبة النكاح :

مع أن عمر رضي الله عنه كان يستطيع أن يخطب في كل موضوع إلا أنه كما قال لا يجيد خطبة النكاح، وقد سأل الناس عبدالله بن المقفع، وكان أديباً مشهوراً في الدولة العباسية عن سبب عجز عمر عن إلقاء خطبة النكاح، فقال: في خطبة النكاح يتساوى جميع الحضور في المكانة والدرجة فلا يكون الخطيب في وضع متميز، وعلى العكس من هذا، ففي الخطابة العامة حين يصعد الخطيب على المنبر، فإن جميع الناس يظهرون وكأنهم تابعين لهم، ومن هنا تظهر القوة والرفعة في الخطبة تلقائياً، إلا أن سبب عجز عمر عن خطبة النكاح في رأينا هو أن موضوع الحديث ضيق ومحدود، والكلام الذي يقال كل مرة هو الكلام العادي الذي يعاد ويكرر.

## الخطب السياسية :

من الجدير بالملاحظة أن الموضوعات التي كان الناس يتناولونها في خطبهم قبل عمر رضي الله عنه كانت تتناول الحكمة والموعظة والفخر وبيان الأحداث الطبيعية وموضوعات السعادة والحزن، ولكن لم يكن في مقدورهم الخطابة في أمور الدولة المتداخلة، فعمر رضي الله عنه كان أول من خطب في الأمور السياسية، ومع هذا فقد كان في خطبه يبدو وكأنه يتناول الأمور العادية، وكثيراً ما كان يخرج منها إلى تناول جوانب أخرى متعددة.

## شروط الخطابة :

إن ملكة الخطابة، والأمور الأخرى اللازمة لهذا الفن كانت كلها تتوافر في عمر رضي الله عنه: الصوت العالي المهيب، القامة الفارهة، حتى إنه حين كان يقف على الأرض يبدو وكأنه يعلو منبراً، وأعتقد أن من المناسب هنا أن ننقل بعض خطبه، وهذه الخطبة ألقاها في العمال في إحدى المناسبات، جاء فيها: [١]

---

(١) كتاب الخراج ص ٦٧ .

«إني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث: أن يؤخذ بالحق، ويعطى بالحق، ويمنع من الباطل، ولست أدع أحداً يظلم أحداً حتى أضع خده على الأرض، وأضع قدمي على خده الآخر حتى يذعن للحق، يا أيها الناس إن الله قد عظّم حقه فوق حق خالقه، فقال فيما عظّم من حقه، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة أرباباً، ألا وإني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين، ولكن بعثتكم أئمة الهدى، يهتدي بكم، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم».

وهذه بعض العبارات من خطبة أخرى:

«فأنتم مستخلفون في الأرض، قاهرون لأهلها، قد نصر الله دينكم، فلا تصبح أمة مخالفة لدينكم إلا أمتين: أمة مستعبدة للإسلام وأهله يتجرأون لكم، عليهم المؤنة ولكم المنفعة، وأمة ينتظرون وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة، قد ملأ الله قلوبهم رعباً، قد دهمتهم جنود الله، ونزلت بساحتهم مع رفاهة العيش واستفاضة المال وتتابع البعوث وسد الثغور... الخ»(١).

وكان عمر رضي الله عنه ينهي خطبه بالعبارة التالية:

«اللهم لا تدعني في غمرة، ولا تأخذني على غرة، ولا تجعلني من الغافلين»(٢).

## قوة أسلوبه الإنشائي :

بلغ عمر رضي الله عنه الكمال في الإنشاء إلى جانب قوة الخطابة وكتاباته المختلفة مثل: الأوامر، الرسائل، القوانين والأحكام، وتوقيعاته، وجميع أنماط الكتابة التي صدرت عنه لا تزال موجودة حتى اليوم، ولا مثيل لما كتب في أي نمط من أنماط الكتابة، وننقل هنا بعض كتاباته:

من خطاب كتبه إلى أبي موسى الأشعري :

---

(١) إزالة الخفاء نقلًا عن تاريخ الطبري.

(٢) العقد الفريد، خطب عمر.

«أما بعد فإن للناس نفرة من سلطانهم، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياء مجهولة وضغائن مجهولة وأهواء متبعة، كن من مال الله على حذر، وخف الفساق، واجعلهم يداً يداً، ورجلًا رجلًا، وإذا كانت بين القوم ثائرة: يالفلان يالفلان، فإنما تلك نجوى الشيطان، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله وتكون دعوتهم إلى الإسلام».

وفي خطاب آخر إلى أبي موسى الأشعري :

«أما بعد فإن القوة في العمل أن لا تؤخروا عمل اليوم لغدٍ، فإنكم إذا فعلتم ذلك تداركت عليكم الأعمال فلم تدروا أيها تأخذون فأصغتم».

وحين عين عمرو بن العاص والياً على مصر، تأخر في إرسال الخراج، فكتب له عمر يستعجله، فماطل عمرو بن العاص، فغضب عمر رضي الله عنه، وكتب إليه خطاب زجر وتهديد، فرد عليه عمرو بن العاص بجرأة وشجاعة، وقد نقل المقريزي هذه الخطابات في تاريخ مصر بنصها، ويمكن الوقوف على قوة بيان عمر من كتابته لهذه الخطابات، وهذه بعض فقراتها:

«وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عمالك - عمال السوء - اتخذوك كهفاً، وعندي بإذن الله دواء فيه شفاء، إن عجبت من كثرة كتبي إليك في إبطائك بالخراج وكتابك إليّ بثنيات الطرق عما أسألك فيه، فلا تجزع أبا عبدالله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فإن النهر يخرج الدُرّ».

## تذوق الشعر :

مع أن شهرة عمر رضي الله عنه بالشعر والشعراء كانت قليلة فلا شك أنه نظم الشعر قليلًا، ومع هذا فقد كان له ذوق جيد تجاه الشعر وفنونه بحيث لا يمكن أن نهمل هذا الجانب من تاريخ حياته، وهو الذي حفظ بكثرة معظم أشعار شعراء العرب المشهورين، وكانت له آراء خاصة في أشعارهم، ويعترف الأدباء أنه لم يكن في زمانه من هو أفضل منه في نقد الشعر، يقول العلامة ابن

رشيق القيرواني في كتاب العمدة ـ ولدي نسخة خطية منه ـ:

«وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنقدهم فيه معرفة».

كما كتب الجاحظ في كتاب البيان والتبيين:

«كان عمر بن الخطاب أعلم الناس بالشعر»[١]، وكان النجاشي شاعراً هجا قبيلة تميم بن مقبل، فشكاه هؤلاء الناس إلى عمر، فجعل عمر حسان بن ثابت الشاعر المعروف حكماً، ونفذ ما حكم به حسان، ولما كان البعض قد يسيء فهم هذه الواقعة، فيعتقد أن عمر رضي الله عنه كان لا يفهم الشعر، ولهذا أحال الأمر إلى حسان، نقول بأن مؤرخي الأدب عندما ذكروا هذه الواقعة يشيرون إلى أن هذه كانت سياسة عمر رضي الله عنه، لأنه لم يكن يريد أن يتدخل بين شعراء الهجاء، وإلا فمن ذا الذي يمكن أن يفهم دقائق الشعر أفضل منه[٢].

## عمر رضي الله عنه يشيد بشعر زهير :

مع أن عمر رضي الله عنه كان عالما بشعر جميع مشاهير الشعراء لكنه اختار من بينهم ثلاثة: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة، وكان يعجب أكثر بشعر زهير وكان يقول إنه أشعر الشعراء، وهذه مسألة لم تقرر حتى اليوم بين أهل العربية ومؤرخي الأدب، فلم يتفقوا على من كان أكبر شاعر في جزيرة العرب، إلا أن الجميع اتفق على أن الأفضلية مقصورة على الثلاثة المذكورين قبلًا، وكان عمر رضي الله عنه يرى أن زهيراً يفوقهم جميعاً، وكان هذا نفسه رأي جرير، وذات مرة رافق عبدالله بن عباس عمر رضي الله عنه في إحدى الغزوات، فقال عمر رضي الله عنه لعبدالله بن عباس: أنشد بعض أشعار أشعر الشعراء، فقال عبدالله بن عباس: من هو أشعر الشعراء، فقال: زهير، فسأله عن سبب

---

(١) كتاب البيان والتبيين ط مصر ص ٩٧.

(٢) انظر البيان والتبيين للجاحظ ص٩٧ وكتاب العمدة باب تعرض الشعراء.

تفضيله على الآخرين فقال عمر رضي الله عنه وهو يبدي رأيه عن زهير: «لأنه لا يتبع حوشي الكلام، ولا يعاظل من المنطق، ولا يقول إلا مايعرف، ولا يمتدح الرجل إلا بما يكون فيه».

ثم أنشد هذه الأشعار سنداً لما قال:

إذا ابتدرت قيس بن غيلان غاية    من المجد من يسبق إليها يُسوّد
ولو كان حمد يخلدُ الناس لم تمت    ولكن حمد الناس ليس بمخلد

والخصائص التي ذكرها نقاد الأدب بعد قراءتهم لأشعار زهير كلها هي: أن شعره سهل، ورغم أنه كان من شعراء الجاهلية إلا أن لغته غاية في الوضوح حتى يُظن أنه شاعر إسلامي، هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن يعمد إلى المبالغة ـ ولقد بين عمر رضي الله عنه هذه الخصائص كلها في كلمات موجزة.

كان هرم بن سنان أحد سادة العرب هو ممدوح زهير، ومن المصادفة أن يدرك أولاد كل من زهير وهرم عهد عمر رضي الله عنه، وقد حضرا إلى بلاطه، فقال عمر رضي الله عنه لابن هرم: أسمعنى بعض ما قاله زهير في مدح أبيك، ففعل، فقال عمر: كان زهير يمدحكم فيحسن، فقال: كنا نجزل له العطاء: قال عمر: «لقد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم». وقال لابن زهير: كيف حال الخلع التي أعطاها هرم لأبيك؟ فقال: بليت، قال عمر: لكن الخلع التي أعطاها أبوك لهرم لم يستطع الدهر أن يبليها.

**مدح النابغة :**

ويشيد عمر رضي الله عنه ـ بعد زهير ـ بالنابغة، وكان يحفظ معظم أشعاره، ويذكر الإمام الشعبي أنه خاطب الناس ذات مرة فقال: من هو أشعر الشعراء ؟ قالوا من يعرف أكثر منك، فقال: لمن هذا البيت ؟

ألا سليمـــان إذا قـــال الإلـــه لـــه    قم في البرية فاحددها عن الفند

قالوا: إنه للنابغة، فسأل: ولمن هذا البيت ؟

أتيتك عارياً خَلِقاً ثيابي ... على خوفٍ تظن بي الظنونا

قالوا: إنه للنابغة، فسأل: ولمن هذا البيت ؟

خلفت فلم أترك لنفسي ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا: إنه للنابغة، فقال هذا الرجل هو أشعر العرب(١).

## رأيه في امرىء القيس :

ومع هذا لم ينكر أستاذية امرىء القيس وبراعته وأصالة أفكاره ومعانيه وجدتها، وقد سأله عبدالله بن عباس رأيه في الشعراء فقال عن امرىء القيس مايلي:

«سابقهم خسف لهم عين الشعر، وافتقر عن معان عور أصحّ بصر».

وهذه الفقرة الأخيرة وردت لأن امرأ القيس كان يمنياً، وكان أهل اليمن يعدون أقل درجة في الفصاحة والبلاغة، وهذا ما كتبه ابن رشيق في شرح عبارة عمر رضي الله عنه هذه(٢).

## تذوقه للشعر وحفظه له :

وقد بلغ تذوقه للشعر إلى حد أنه كان إذا استمع للشعر الجيد تذوقه، وراح ينشده مرة تلو الأخرى، وذات مرة كان يستمع إلى شعر زهير فوصل إلى هذا البيت.

وإن الحق مقطعه ثلاث ... يمين أو نفار أو جلاء

فسر كثيراً بحسن تقسيم هذا البيت، وظل يردده أكثر من مرة لفترة طويلة، وذات مرة كان يستمع إلى لامية عبدالله بن الطيب، وحين سمع هذا البيت :

---

(١) الأغاني تذكرة النابغة.

(٢) كتاب العمدة، باب المشاهير من الشعراء.

والمرء ساعٍ لأمرٍ ليس يدركه    والعيش شح وإشفاق وتأميل

فأعجبه كثيراً وراح يردد المصرع الثاني عدة مرات، وهكذا عندما سمع قصيدة أبي قيس بن الأصلت، فظل يردد لفترة بعض أشعارها[١].

ومع أنه بسبب انشغاله بمهام الخلافة لم يجد الفرصة لمثل هذه الأمور، لكنه رغم ذلك حفظ مئات بل آلاف الأشعار نظراً لأن التذوق الشعري كان من طبعه، ويشير علماء الأدب أنه كان يحفظ كماً هائلاً من الشعر لدرجة أنه حين كان يفصل في قضية ما كان ينشد بعض الأشعار.

أما الأشعار التي كانت تعجبه فهي فقط تلك الأشعار التي تعبر عن معاني الإباء والحرية وشرف النفس والحمية والغيرة والعبرة، وعليه أمر رؤساء الجند والعمال والولاة في الأقاليم أن يشجعوا الناس على الاهتمام بالشعر، وهكذا أرسل إلى أبي موسى الأشعري:

«مُر مَن قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب».

أما الأمر الذي أصدره إلى جميع الأقاليم والمراكز فجاء فيه[٢]:

«علموا أولادكم العوم والفروسية، ورَوُّوهم ماسار من المثل وحَسُن من الشعر».

## إصلاح الشعر:

وبهذه المناسبة ومما يجدر معرفته هنا أن عمر رضي الله عنه قد أصلح كثيراً من عيوب الشعر، فقد كان من عادة العرب آنذاك أن يعرضوا علانية بالنساء المحصنات في أشعارهم، ويضمنون أشعارهم مشاعر الحب لهؤلاء النسوة،

---

(١) نقل الجاحظ جميع هذه الروايات في البيان والتبيين ص ٩٧، ٩٨.
(٢) إزالة الخفاء ص ١٩٣.

فقضى عمر رضي الله عنه على هذه العادة كلية، وحدد لها عقاباً شديداً، كما حدد أيضاً عقاباً للهجاء، وسجن الحطيئة شاعر الهجاء المعروف بهذا الجرم.

وكانت قبيلة بني العجلان قبيلة لها مكانتها بين العرب، فهجاها أحد الشعراء، فقدموا إلى عمر واشتكوا إليه، فقال عمر، وما الشعر الذي قال، فأنشدوه هذا البيت:

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بني العجلان رهط بن مقبل

فقال عمر رضي الله عنه: هذا ليس بهجاء، إنما هو دعاءٌ عليكم ولعل الله لا يستجيب لهم.

فأنشدوه بيتاً آخر:

قبيلتهم لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

قال عمر رضي الله عنه: ليت قبيلتي كلها هكذا، بينما ذكر الشاعر ما قاله من صفات لأنها كانت علامة على الضعف عند العرب.

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوارد عن كل منهل

وقد ذكر الشاعر في هذا البيت أيضاً هذه الصفات التي كانت تدل على ضعف من يتصف بها وعدم مروءته، ولكن عمر رضي الله عنه عندما سمع هذا البيت قال:

«هذا أطيب حتى يتجنبوا الزحام».

فأنشدوه في النهاية هذا البيت:

وما سُميِّ العجلان إلا لقولهم خذ القعب احلب أيها العبد واعجل

فقال عمر رضي الله عنه: «سيد القوم خادمهم».

**علم الأنساب:**

علم الأنساب يعني حفظ أسماء القبائل وأنسابهم، وكان هذا العلم متأصلًا

في أسرته، أي منذ عدة أجيال فقد كان أبوه الخطاب نسّاباً مشهوراً، وكان عمر رضي الله عنه ينقل عنه، ويشير إليه كثيراً فيما يتعلق بالمعلومات الخاصة بهذا العلم، وكان نفيل جد عمر رضي الله عنه أيضاً مشهوراً في هذا العلم، وقد كتبنا عن هذه الأحداث في بداية سيرة عمر رضي الله عنه.

وبالنسبة للقراءة والكتابة وكما ذكرنا في أول الكتاب، كان عمر رضي الله عنه قد تعلمها قبل الإسلام.

**معرفته باللغة العبرية :**

تدل القرائن على أن عمر رضي الله عنه كان قد تعلم اللغة العبرية بعد أن وصل إلى المدينة المنورة، ويثبت من الروايات أن التوراة لم تكن قد ترجمت إلى اللغة العربية حتى ذلك الوقت، وعندما كانوا يضطرون إلى استخدام التوراة في أمر ما في عهد رسول الله ﷺ كانوا يضطرون إلى الرجوع إلى النسخة العبرية، وكان المسلمون يستمعون إلى التوراة بعد أن يقرأها لهم اليهود، ويترجمونها إلى العربية نظراً لعدم معرفتهم للعبرية، ويروى عن أبي هريرة في صحيح البخاري قوله:

«كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام»[(١)].

وفي رواية في مسند الدارمي أن عمر رضي الله عنه ذهب إلى النبي ﷺ ومعه نسخة من التوراة، وبدأ في القراءة، فكان يقرأ ويتغير وجه النبي ﷺ [(٢)].

وعلى هذا القياس يفهم أن عمر رضي الله عنه كان قد تعلم قدراً من اللغة العبرية يُمكّنه من أن يقرأ التوراة بنفسه، ويثبت أيضاً من الروايات الصحيحة أن عمر رضي الله عنه كان كثيراً ما يشترك مع اليهود في يوم درسهم للتوراة، وعلى حدّ قوله: «كنت أذهب إلى اليهود في يوم درسهم حتى كان اليهود يقولون

---

(١) صحيح البخاري ص ١٠٩٤ المطبعة الأحمدية.

(٢) مسند الدارمي ص ٦٢ طبعة كانبور.

أنت أعز إلينا من أهل ديننا لأنك تأتي عندنا»[(١)].

## ذكاء عمر وفطنته :

وقد لعبت حصافته رضي الله عنه، وفطنته دوراً هنا أيضاً؛ أي أنه بقدر ما تعلم من كتب اليهود بقدر ما كان ينفر من حكاياتهم وأساطيرهم السخيفة، وتوجد روايات كثيرة جداً تدل على أن عمر رضي الله عنه منع الناس من قراءة مؤلفات اليهود حين حصلوا عليها في العراق والشام، ومع أننا يمكن أن نقدر ذكاءه وفطنته بطريقة صحيحة مما سبق ذكره عن اجتهاداته الفقهية، إلا أن ذكاءه وفطنته كانا واضحين أيضاً في أمور حياته اليومية، ولهذا نذكر هنا بعضاً من الأمثلة كنموذج على ذلك.

حين عين عمار بن ياسر رضي الله عنه حاكماً على الكوفة لم يكد يمر عام حتى شكاه الناس إلى دار الخلافة لأنه ليس رجل سياسة، وليس من ذوي المكانة، فاستدعاه عمر رضي الله عنه وقال له: كنت أعلم هذا بنفسي، ولكني اعتقدت أنه ربما يجعلك الله مصداقاً لهذه الآية: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

وذات مرة سمع رجلاً يدعو الله: «ياإلهي احفظني من الفتن»، فقال له عمر: هل تريد أن يحرمك الله من الأموال والأولاد ؟[(٢)] فقد قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وذات مرة سأله رجل: هل في سفر البحر قصر للصلاة أم لا ؟ وكان يعني هل سفر البحر مشروع أم لا ؟ فقال عمر ولِمَ لا ؟ والله تعالى يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢].

---

(١) كنز العمال برواية البيهقي وغيره الجزء الأول ص ٢٣٣.

(٢) إزالة الخفاء ص ٢٠٥.

## مقولات عمر الشهيرة :

في كتب الأدب وبخاصة في خاتمة كتاب مجمع الأمثال للميداني مقولات تتسم بالحكمة، قالها عمر رضي الله عنه، وننقل هنا بعضاً منها على سبيل المثال:

- من كتم سره كان الخيار في يده.
- أعقل الناس أعذرهم للناس.
- لا تؤخر عمل يومك إلى غدك.
- أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها.
- ما أدبر شيء فأقبل.
- من لم يعرف الشر وقع فيه.
- ما سألني رجل إلا تبين لي في عقله.

ويخاطب الوعاظ فيقول:

- لا يهلك الناس عن نفسك.
- أقلل من الدنيا تعش حراً.
- ترك الخطيئة أسهل من معالجة التوبة.
- لي على كل خائن أمينان الماء والطين.
- لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما ركبت.
- رحم الله امرأ أهدى إليّ عيوبي.

## صواب الرأي :

كان عمر رضي الله عنه يتمتع برأي صائب تماماً، كان عبدالله بن عمر رضي الله عنه يقول: عندما كان عمر يقول هذا في أمر ما: «هذا رأي فيما يتعلق بهذا الأمر» فكان يحدث دائماً مثلما كان يظن ويعتقد[1].

---

(١) صحيح البخاري باب إسلام عمر.

فأي دليل أكثر من هذا على صواب رأيه حتى إن معظم آرائه صارت، ولا تزال حتى يومنا هذا، أحكاماً دينية.

**رأي عمر في طريقة الأذان :**

عندما قدم عمر رضي الله عنه رأيه للإعلان عن الصلاة بطريقة معينة، تقدم الناس بآراء مختلفة، فذكر بعضهم الناقوس، ورأى بعضهم أن يستعمل البوق، فقال عمر رضي الله عنه: لماذا لا يعين رجل يقوم بالنداء للصلاة، عندئذ أمر الرسول ﷺ بلالاً ليؤذن. وهكذا كان هذا أول يوم نودي فيه للأذان بهذه الطريقة، ولم تكن هناك في الحقيقة طريقة أخرى أكثر تأثيرًا منه من أجل أداء فريضة دينية.

**أسرى بدر :**

وحين ظهر خلاف في مسألة أسرى بدر، نزل الوحي مؤيداً للرأي الذي أبداه عمر رضي الله عنه.

**حجاب الزوجات المطهرات :**

كانت زوجات النبي ﷺ لا يرتدين الحجاب في البداية، وفكر عمر مراراً في هذا الأمر، وعرضه على النبي ﷺ لكن النبي ﷺ كان ينتظر الوحي، حتى نزلت الآية الخاصة بالحجاب، والتي يقال لها «آية الحجاب».

**صلاة الجنازة على المنافقين :**

عندما مات عبدالله بن أُبيّ زعيم المنافقين، أراد النبي ﷺ ـ لخلقه النبوي الشريف ـ أن يصلي عليه صلاة الجنازة، فمنعه عمر رضي الله عنه بشدة قائلًا: هل تصلي على جنازة منافق؟ وهنا نزلت الآية: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم . . . ﴾ [التوبة: ٨٤] الآية. وقد ذكرت جميع هذه الوقائع في صحيح البخاري ومسلم وغيرها.

وكان من نتيجة رأي عمر رضي الله عنه الصائب ترتيب القرآن وتدوينه، إذ

كان أبو بكر، وزيد بن ثابت (كاتب الوحي) يعارضان هذا الاقتراح في البداية.

وكانت آراء عمر رضي الله عنه صائبة في أهم المسائل الدينية والإدارية الهامة التي اختلف فيها مع الصحابة، باستثناء بعض المناسبات، فقد اتفقت آراء معظم الصحابة فيما يتعلق بتقسيم البلاد المفتوحة بين الجيش[١]، وكان عمر رضي الله عنه الوحيد الذي عارض هذا الرأي، ولو لم يوافق الناس على رأيه لكان العالم الإسلامي اليوم في أسوأ حال، وفي إيراد الفتوحات كان أبو بكر وعلي رضي الله عنهما يريدان أن توزع بين الأفراد بالتساوي، ولكن عمر رضي الله عنه قرر نسباً مختلفة طبقاً لمراتب الناس في الحقوق والأعمال، وأجاز أبو بكر وعلي رضي الله عنهما بيع أمهات الأولاد، وخالف عمر هذا الرأي، ولا يحتاج رأي عمر الذي رجحه في جميع تلك الوقائع إلى دليل أو برهان.

## رأي عمر في شروط الخلافة :

عندما ظهر البحث في قضية الخلافة، ومن يستطيع أن يتحمل هذا العبء الثقيل بعد عمر رضي الله عنه، ذكر عمر رضي الله عنه ستة من الصحابة، وأبدى رأيه الخاص في كلٍّ منهم وكان صائباً فيما ذكره.

## الفراسة والدقة :

كان عمر رضي الله عنه يمعن النظر ويعمل الفكر في كل عمل يقوم به، ولم يكن يعتمد على الأمور الظاهرية، فكان يقول: «لا يعجبنكم من الرجل طنطنته»، وكثيراً ما كان يقول: «لا تنظروا إلى صلاة امرىء ولا صيامه ولكن انظروا إلى عقله وصدقه».

---

(١) يكتب القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج أن عمر بن الخطاب استشار الناس في السواد حين افتتح، فرأى عامتهم أن يقسمه، ويكتب في موضع آخر: أن أصحاب رسول الله ﷺ وجماعة المسلمين أرادوا عمر بن الخطاب أن يقسم الشام، الخراج ص ١٥.

وذات مرة امتدح شخص أمامه أحد الناس فقال له: هل عاملته؟ قال لا، فسأله: هل سافرت معه؟ قال: لا فقال له عمر رضي الله عنه: إنك تقول مالا تعرف[١].

والخطأ الكبير الذي حدث من الناس فيما يتعلق بالحديث هو أنهم اعتبروا أكثر المحدثين الذين توسموا فيهم الزهد ثقة، فبدأوا بالرواية عنهم، وقد كان عبدالكريم بن أبي المخارق ضعيف الرواية، روى عنه الإمام مالك فسأله الناس متعجبين: أتروي عن مثل هذا الرجل، فقال: «غرّني بكثرة جلوسه في المسجد»[٢].

**الحياة الدينية :**

نظراً لانشغال عمر رضي الله عنه بمهام الخلافة فقد قرر أن يجعل وقت العبادة في الليل، فكان من عادته أن يصلي النفل في الليل، وعندما يحين الفجر يوقظ أهله ويتلو هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾[٣] [طه: ١٣٢]، وكان يتلو السور الطوال في صلاة الفجر، ولكنه لم يكن يتلو أكثر من مائة وعشرين آية، يقول عبدالله بن عامر: صليت الفجر خلفه مرة فقرأ سورة يوسف والحج.

وروى عنه أيضاً أنه قرأ سورة يونس والكهف وهود.

**الصلاة :**

كان عمر رضي الله عنه يفضل صلاة الجماعة وكان يقول: إني أفضلها على عبادة الليل بطوله، وعندما كان يضطر للقيام بعمل هام، ولا يخشى من تأخير الوقت، فكان يُتمه أولاً، وأقيمت الصلاة ذات مرة، وسوىّ بين الصفوف، فخرج رجل من الصف، وتقدم نحوه فقابله عمر رضي الله عنه، ودار بينهما

---

(١) نقلًا عن إزالة الخفاء الجزء الثاني ص ١٩٧.
(٢) فتح المغيث ص ١٣٨.
(٣) موطأ الإمام مالك.

حديث لفترة من الوقت[١].

وكان يقول صلِّ بعد أن تفرغ من الطعام، وكثيراً ما كان يفكر ويفكر بعمق في أمر الجهاد إلى حد أن يظل هذا التفكير يلازمه في الصلاة، وكما قال هو: أصلي وأنا أجهز الجيوش ـ وفي رواية أخرى، عملت حساب جزيرة البحرين في الصلاة.

وبينما هو يصلي ذات مرة وردت هذه الآية: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾ [قريش: ٣]، فأشار بإصبعه نحو الكعبة ـ وقد نقل شاه ولي الله هذه الرواية ثم ذكر أن الإشارة بهذا القدر جائزة في الصلاة[٢].

وفي بعض الأحيان وبينما هو يخطب الجمعة تحدث مع شخص، وجاء في موطأ الإمام مالك أن عثمان رضي الله عنه تأخر مرة عن الجمعة، وعندما وصل إلى المسجد كان عمر قد بدأ الخطبة، فنظر إليه عمر وهو يخطب وقال: أي وقت هذا؟ فقال: بينما أنا قادم من السوق سمعت الأذان فتوضأت من فوري، وحضرت. فقال عمر رضي الله عنه: لماذا اكتفيت بالوضوء؟ كان الرسول ﷺ يأمر بالغسل.

**الصوم :**

روى أبو بكر بن شيبة أن عمر رضي الله عنه قد بدأ بالصوم المتواصل قبل وفاته بسنتين، ولكن يروى عنه أيضاً أن عمر رضي الله عنه سمع شخصاً يصوم الدهر فرفع الدرة ليضربه[٣].

وكان يحج كل عام ويتولى بنفسه مهمة أمير القافلة، وكان يخاف كثيراً من مساءلة يوم القيامة، وكان يفكر في هذا الأمر كل وقت، وقد ورد في صحيح

---

(١) إزالة الخفاء نقلاً عن ابن أبي شيبة ص ٩٠.
(٢) المصدر السابق ص ٩٣.
(٣) إزالة الخفاء ص ١٠٢.

البخاري أنه قال لأبي موسى الأشعري ذات مرة: «هل أنت راض يا أبا موسى على هذا؟ آمنا بالإسلام، وآثرنا الهجرة، وسرنا خلف رسول الله حيث سار، ثم نلقى جزاء هذه الأمور كلها، فلا ننال ثواباً ولا ننال عقاباً»، فقال أبو موسى رضي الله عنه: لا أنا لا أرضى على هذا فقد تقربنا إلى الله بقربان كثيرة، وأملنا أكثر من هذا، قال عمر: «والذي نفس عمر بيده، إنني أزيد هذا القدر فقط، وهو ألا أحاسب»، وكان ينشد هذا الشعر عند مماته:

ظلــــوم لنفسي غير أني مسلــــم — أصلي الصـــلاة كلهـــا وأصـــوم

**التسامح وعدم التعصب :**

رغم أن عمر رضي الله عنه كان صورة مجسمة للتدين إلا أنه لم يكن زاهداً متقشفاً، كما لم يكن متشدداً متعصباً كما هو الحال لدى بعض المتشددين في الوقت الحاضر، فعلماؤنا يعتبرون أن استعمال آنية النصارى وأوعيتهم وأدواتهم الأخرى أمراً يخالف التدين، إلا أن البخاري والشافعي رضي الله عنهما رويا فيما يتعلق بعمر أنه[١] «توضأ من ماء جيء به من عند نصرانية»، ورواية البغوي أوضح من الرواية السابقة وهي: توضأ عمر من ماء في جرّ نصرانية[٢]، ونقل البغوي هذا القول لعمر رضي الله عنه «كلوا الجبن الذي يصنعه النصارى»[٣]، بينما يقال في الوقت الحاضر أن طعام النصارى مكروه وممنوع. إلا أن عمر رضي الله عنه قد ضمن هذا الشرط في المعاهدات، ويقضي بأن يضيّف النصراني المسلم ثلاثة أيام إذا ما مرّ عليه، أما اليوم فيتم تعليم الناس العداوة والبغضاء للأمم الأخرى.

ولكن عمر رضي الله عنه لم ينس الرعايا اليهود والنصارى حتى في لحظات

---

(١) إزالة الخفاء الجزء الثاني ص ٨٨.
(٢) إزالة الخفاء ص ١٣٨.
(٣) نفسه ص ١٠٢.

موته الأخيرة، والوصية التي أوصى فيها بالرحمة بهم والإحسان إليهم موجودة في صحيح البخاري، وفي كتاب الخراج وغيرها، ويُعد شاه ولي الله هذا من محاسن عمر رضي الله عنه وفضائله، لأنه يؤكد على حسن معاملة أهل الذمة، (أي النصارى واليهود الذين يسكنون في بلاد الإسلام)، وعبارة شاه ولي الله هي: «ومن بينها أنه أكد على الإحسان إلى أهل الذمة»[١].

روى المحب الطبري أن عمر رضي الله عنه كان يمنع قادته من استعمال النصارى (أي توظيفهم)، وللأسف وافق شاه ولي الله على هذه الروايات، ولكن من يتصفح كتاب محب الطبري «الرياض النضرة» يدرك من أول نظرة ماهو أساس رواياته تلك؟ ألا يدري هؤلاء الكبار أن دواوين الخراج بأكملها في العراق ومصر والشام كانت بالسريانية والقبطية، ولهذا السبب كان جميع عمال ديوان الخراج من المجوس أو النصارى، وإذا ما وضعنا الوظيفة والعمل جانبا، فإن عمر رضي الله عنه قد استدعى أحد نصارى الرومان إلى المدينة المنورة ليرتب له فن (علم) الفرائض ويصححه، وهكذا ذكر البلاذري بوضوح هذه الواقعة في كتاب الأشراف، وهذه عبارته:

«ابعث إلينا برومي يقيم لنا حساب فرائضنا».

واليوم لا يمكن لغير المسلم أن يذهب إلى مكة والمدينة، ويعتقد أن هذه مسألة شرعية، ولكن في أيام عمر كان غير المسلم يذهب بسهولة إلى مكة، وكانوا يقيمون فيها لو أرادوا ذلك، كما ذكر القاضي أبو يوسف في كتابه الخراج في معرض حديثه عن كثير من الوقائع[٢]، واليوم على أهل أوربا الذين يتهمون الإسلام بالتعصب، وضيق الأفق أن يفهموا أن صورة الإسلام يمكن أن تشاهد في مرآة سيرة الخلفاء الراشدين.

---

(١) نفسه الجزء الثاني ص ٧٣.
(٢) كتاب الخراج ص ٧٨، ٧٩.

**اللقاءات العلمية :**

في مجلس عمر رضي الله عنه كانت المناقشات تدور عن المسائل العلمية في معظم الأحيان، وذات يوم اجتمع صحابة بدر (الصحابة الذين شاركوا رسول الله ﷺ في غزوة بدر) في المجلس، فخاطب عمر رضي الله عنه جماعة الصحابة قائلًا: ماهو المراد من «إذا جاء نصر الله والفتح»؟ قال بعضهم أمر الله أن نشكره عندما يتم النصر، وسكت البعض الآخر تماماً.

فالتفت عمر رضي الله عنه إلى عبدالله بن عباس، فقال: «فيها إشارة إلى وفاة النبي ﷺ ، أي يامحمد إذا جاء النصر والفتح فهذه علامة على انتقالك من دنياك هذه، لهذا سبح بحمد ربك واستغفره إن الله كان تواباً»، فقال عمر رضي الله عنه: إن ما قلته هو نفس ما أعتقده[١].

وذات يوم وفي جمع من الصحابة كان يضم أيضاً عبدالله بن عباس، سأل عمر رضي الله عنه عن معنى هذه الآية ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾ [البقرة:٢٦٦]، فقال الناس: الله أعلم. فغضب عمر من هذه الإجابة السلبية وقال: من لا يعلم يجب أن يقول بوضوح أنه لا يعلم، وكان عبدالله بن عباس يعرف المعنى الصحيح للآية لكنه كان متردداً بسبب صغر سنه، فنظر إليه عمر رضي الله عنه وقال: لا تقلل من شأن نفسك، أخبرنا بما في ذهنك، فقال عبدالله بن عباس: لقد ضرب الله مثلًا بالرجل العامل، ولما كان الجواب ناقصاً، لم يقتنع به عمر، لكن عبدالله بن عباس لم يستطع أن يزيد عليه شيئاً، فقال عمر رضي الله عنه هذا تشبيه بالرجل الذي أنعم الله عليه بالثروة والنعمة حتى يعبده حق عبادته، فعصاه فبدد الله حسناته أيضاً[٢].

وذات مرة شرب أحد الصحابة من صحابة المهاجرين الخمر، وجاء إلى عمر

---

(١) صحيح البخاري، طبعة ميرته ص ٦٥١.
(٢) نفسه.

ليعاقب على ما اقترف من ذنب، فأراد عمر أن يعاقبه، فقال الصحابي: الثابت من آيات القرآن الكريم أنني ممن لا يمكن أن يعاتبوا على هذا الذنب، واستدل بقوله تعالى:

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ [المائدة: ٩٣]

وقال: لقد شاركت مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر والحديبية والخندق وغيرهما من الغزوات ولهذا فأنا من بين هؤلاء الناس الذين «عملوا الصالحات»، فنظر عمر رضي الله عنه إلى الصحابة، فقال عبدالله بن عباس: هذا العفو يتعلق بالعهد السالف أي يتعلق بأولئك الناس الذين شربوا الخمر قبل نزول التحريم، فلو أنهم «آمنوا وعملوا صالحاً» فليس عليهم جناح، وبعدها قرأ الآية التي ورد فيها الحكم الصريح بمنع الخمر[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة: ٩٠].

## أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه :

كان أصحاب مجلسه عموماً من أهل العلم والفضل، ولم يكن يميز فيهم بين الشباب والشيوخ وفي صحيح البخاري[2]، «وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً».

إن قسماً كبيراً من الفقه الذي تم تنقيحه وأطلق عليه «الفقه العمري» ظهر عن طريق مجالسه العلمية تلك، وكان كبار أعضاء هذا المجلس هم أُبي بن كعب وزيد بن ثابت وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عباس وعبدالرحمن بن عوف وحر بن قيس، وكان عمر يكرمهم، ويعزهم لما لهم من فضل علمي، فكان

---

(١) إزالة الخفاء، نقلاً عن رواية حاكم ص ٢١٣.

(٢) صحيح البخاري الجزء الثاني ص ٦٦٩ وقد روى البغوي عن الزهري: «كان مجلس عمر مغتصاً في القراءة» ـ إزالة الخفاء ص ١١٩.

من عادته عندما يأتي إلى المجلس أن يأذن للناس بالحضور إلى المجلس مراعياً في ذلك الفروق التي تميزهم، فيأتي أولاً قدامى الصحابة ثم الأقربون وعلى هذا.

ولكن هذا الترتيب كان يتغير أحياناً، وكان هذا فقط بالنسبة لأولئك الذين كانوا يمتازون بفضل العلم مثل عبدالله بن عباس الذي ضمه إلى قدامى الصحابة. ومع هذا أمره ألا يتساوى مع كبار الصحابة في السؤال والجواب، أي يتحدث بعدهم بما يريد[١]، وكثيراً ما كان يتردد الناس الأصغر سناً في إبداء رأي ما يتعلق بمسألة ما، فكان عمر رضي الله عنه يشجعهم ويحمسهم ويقول: إن العلم لا يرتبط بصغر السن أو كبره»[٢].

وكان عبدالله بن عباس آنذاك شاباً صغيراً فاشتكى بعض أكابر الصحابة من مشاركته لمجلسهم، فبين لهم عمر سبب هذا الأمر، وعرض أمامهم مسألة علمية لم يستطع الإجابة عليها إجابة صحيحة غير عبدالله بن عباس، وكان عمر رضي الله عنه يقدر عبدالله بن عباس أيضاً، وهكذا حين أرسله سنة ٢١هـ مفتياً للكوفة ومسئولاً عن الخزانة كتب إلي أهل الكوفة: أرسله بعد أن عينته معلماً لكم ووزيراً وإنني أفضله لكم على نفسي، ولهذا أرسلته من عندي»، وكثيراً ما قال حين حل عبدالله بن مسعود مسألة «كنيفٌ مُلِيء علماً».

ورغم أنه لم يكن يدانيه في الفضل والكمال غير علي رضي الله عنه إلا أنه كان يتعامل مع أهل الكمال مثلما يتعامل الصغار مع الكبار، كتب العلّامة الذهبي في تذكرة الحفاظ أن عمر رضي الله عنه كان يحترم كثيراً أُبي بن كعب، وكان يهابه، وحين توفي أُبي قال: مات اليوم قائد المسلمين، وكثيراً ما كان يعين زيد بن ثابت ليخلفه في غيابه، وعندما يعود كان يهبه شيئاً على شكل عقار[٣]، وكذلك كان يحترم أبا عبيدة وسلمان الفارسي وعمير بن سعيد وأبا موسى

---

(١) فتح الباري شرح البخاري تفسير إذا جاء نصر الله.
(٢) إزالة الخفاء نقلًا عن البغوي صفحة ١١٩.
(٣) سيرة العمرين لابن الجوزي.

الأشعري وسالم وأبا الدرداء وعمران بن حصين وغيرهم أشد الاحترام، كما كان هناك كثير من الصحابة الذين قرر لهم راتباً لا لشيء إلا لأنهم متميزون في الفضل والكمال، فأبو ذر الغفاري لم يشهد غزوة بدر ولكنه قرر له راتباً مساوياً لأصحاب بدر، لأنه لا يقل عن هؤلاء الناس فضلاً وكمالاً.

**تقدير أهل الكمال :**

لم يكن تقديره قاصراً على جماعة ما، فقد كان يرعى رعاية خاصة أي شخص يُظهر إبداعاً في أي مجال، فقرر لعمير بن وهب الجمحى رضي الله عنه منحة سنوية قدرها ٢٠٠ دينار وذلك لرباطة جأشه وثباته في المعارك الخطيرة(١)، كما قرر لكل من خارجة بن حذافة وعثمان بن أبي العاص راتباً لأن الأول كان بطلاً شجاعاً بينما كان الثاني في منتهى الكرم(٢).

**نكتة :**

أرسل عمر رضي الله عنه ذات مرة إلى المغيرة بن شعبة يطلب منه الأشعار التي كتبها جميع الشعراء بالكوفة في زمن الإسلام، فاستدعى المغيرة أغلب العجلي أولاً وعرض عليه أمر الخليفة فأنشده هذا البيت:

لقد طلبت هنيئاً موجوداً ... أرجزاً تريد أم قصيدا

ثم طلب لبيد وقرأ عليه أمر الخليفة، فكتب سورة البقرة وجاء بها وقال: وهبني الله هذه بدلاً من الشعر فكتب المغيرة لعمر ماجرى، فأتاه الرد من الخليفة بأن ينقص من راتب أغلب خمسمائة، يضيفها إلى راتب لبيد، فجاء أغلب إلى عمر رضي الله عنه وطلب مكافأة لأنه أطاع حكم الخليفة، فأبقى عمر راتبه كما هو إلى جانب ما أمر بزيادته في راتب لبيد.

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٥٦.
(٢) كنز العمال الجزء الثاني ص ٣١٧.

لقد قدم إلى دار الخلافة في ذلك العهد جميع أهل الكمال من الشعراء والخطباء والنسّابين والمصارعين والأبطال، وشكروا عمر رضي الله عنه على تقديره لهم، وكان مُتمم بن نويرة أعظم شعراء ذلك الزمان، وكان خالد رضي الله عنه قد قتل أخاه خطأً في عهد أبي بكر رضي الله عنه فأصابته هذه الحادثة بصدمة شديدة حتى إنه كان يبكي دائماً وينشد المراثي، وكان يجتمع من حوله الرجال والنساء حيثما توجه فيطلبون منه أن ينشدهم المراثي، فكان ينشد ويبكي فيُبكي الجميع من حوله، وحضر إلى عمر رضي الله عنه فطلب منه أن يسمعه أشعاراً في الرثاء، فأنشده بعض الأشعار كان آخر ما جاء فيها هذان البيتان:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

فخاطبه عمر رضي الله عنه قائلًا: لو كنت أجيد الرثاء هكذا لرثيت أخي زيداً، فقال متمم: ياأمير المؤمنين، لو أن أخي مات مثل أخيك (أي شهيداً) لما رثيته أبداً، فكان عمر رضي الله عنه يقول دائماً: ما عزاني أحد بمثل ما عزاني به متمم.

ومن شعراء الرثاء في ذلك العهد أيضاً الخنساء، ولا يزال ديوانها موجوداً حتى اليوم، وليس فيه غير المراثي، ويجمع علماء الأدب على أنه لم يظهر حتى اليوم مثيل للخنساء في فن الرثاء، وقد رآها عمر رضي الله عنه، وهي تبكي وتصرخ في الكعبة، فذهب إليها ليعزيها، وحين استشهد أبناؤها الأربعة في حرب القادسية صرف أربعة رواتب باسمها.

وفي فن المصارعة والشجاعة تفوق طليحة بن خالد، وعمرو بن معديكرب على سائر جزيرة العرب، وعُرف أن الواحد منهما يعادل ألف فارس، فكرمهما عمر باستقبالهما عنده في دار الخلافة، وحين أرسلهما إلى معركة القادسية كتب

إلى سعد بن أبي وقاص أني ممدكم بألفي فارس، وكان عمرو بن معديكرب خطيباً وشاعراً أيضاً، وكان عمر رضي الله عنه يناقشه دائماً في فنون الحرب، مثلما حدث في إحدى الجلسات حين سأله عن قبائل العرب، وأسلحة الحرب، وأجاب عنها عمرو بن معديكرب بعبارات مختصرة بليغة، تناقلتها العرب عموماً، وكتبها المسعودي بالتفصيل في مروج الذهب. فعندما سُئل عمرو بن معديكرب عن الرمح قال:

«أخوك وربما خانك»

ثم سئل عن السهام فقال:

«بُرُدُ المنايا تخطىء وتصيب»

وقال عن الترس:

«عليه تدور الدوائر»

وهكذا ذكر فقرات عجيبة بليغة عن كل نوع من أنواع الأسلحة، ولا يسمح المجال هنا بتفصيل الحديث عنها.

وهكذا كان لأسلوب عمر رضي الله عنه هذا أثره في حشد جميع النوابغ من أهل الجزيرة العربية في دار الخلافة، فكان رضي الله عنه يستفيد كثيراً من كفاءتهم ومهارتهم.

## مراعاة أقارب رسول الله ﷺ وتقريبهم :

كان عمر رضي الله عنه يقرب إليه كل من كان يرتبط برسول الله ﷺ، فحين أراد أن يقرر الرواتب للصحابة، وغيرهم، رأى عبدالرحمن بن عوف وغيره أن يُقدم عمر رضي الله عنه، لكن عمر رضي الله عنه رفض ذلك، وقال يجب أن يراعى في ترتيب الدرجات أن يأتي أولاً من تربطه قرابة برسول الله ﷺ، وهكذا بدأ أولاً بقبيلة بني هاشم، فبدأ بأسماء العباس والإمام علي، وبعد بني هاشم ذكر بني أمية أقارب النبي ﷺ في النسب، ثم بني عبد شمس وبني نوفل

وعبدالعزى حتى جاءت قبيلة عمر أي بنو عدي في المرتبة الخامسة، وهكذا وعلى نفس الترتيب كتبت أسماء الجميع، وقد راعى رضي الله عنه هذا الأمر أيضاً في تقديره للرواتب، فكانت أكبر الرواتب لأولئك الذين شهدوا بدراً، ومع أن الحسن والحسين عليهما السلام لم يكونا ضمن هذه الجماعة إلا أن رواتبهم قررت بنفس المقدار، كما قرر لزوجات النبي ﷺ رواتب بلغت اثنا عشر ألفا لكل منهن، فكانت هذه أعلى نسبة في الرواتب، وحين جعل راتب أسامة بن زيد أكبر من راتب ابنه عبدالله (ابن عمر رضي الله عنهما) اعتذر عبدالله، فقال له عمر رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ كان يفضل أسامة عليك وكان يحب أباه أكثر من أبيك[١].

وكان بينه وبين عليّ رضي الله عنه في بداية خلافة أبي بكر (كما سبق وذكرنا) نوع من المشاحنة، أدت إلى إعراض عليّ عن مبايعة أبي بكر على الخلافة لستة أشهر، وفي صحيح البخاري باب غزوة خيبر ورد أنه بعد ستة أشهر أي حين توفيت فاطمة الزهراء أراد علي رضي الله عنه أن يدعو أبا بكر رضي الله عنه لمصالحته وبيعته، فأرسل إليه صراحة أن يأتيه وحده لأن عليًا رضي الله عنه كان لا يفضل وجود عمر رضي الله عنه[٢].

إلا أنه حين زال أثر مشكلة الخلافة تدريجياً عادت الأمور إلى طبيعتها، وهكذا لم يكن عمر رضي الله عنه يقدم على عمل هام وكبير دون أن يستشير عليًا رضي الله عنه، وكان علي رضي الله عنه أيضاً يشير عليه بمنتهى الود والإخلاص والصداقة. وأراد أن يعينه قائداً في معركة نهاوند لكنه لم يوافق، وحين ذهب عمر رضي الله عنه إلى بيت المقدس أوكل إليه شئون الخلافة، وزادت علاقتهما ارتباطاً في المرحلة الأخيرة عندما زوّجه علي رضي الله عنه من أم كلثوم ابنة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وسيأتي ذكر هذا بالتفصيل.

---

(١) هذه التفاصيل كلها في كتاب الخراج ص ٢٤،٢٥ .
(٢) الألفاظ التي وردت في البخاري هي: كراهيةً لمحضر عمر.

## الأخلاق والعادات والتواضع والبساطة :

أفرد المؤرخون في بيانهم لأخلاقه وعاداته عنواناً مستقلّاً لتواضعه وبساطته، والحقيقة أن البساطة التي اتصف بها تظهر جلية على تاج عظمته فهو من ناحية يرسل الجيوش إلى الشام والروم، ويتعامل مع سفراء قيصر وكسرى ويحاسب خالد ومعاوية رضي الله عنهما، ويرسل أوامره إلى سعد بن أبي وقاص وأبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص، ومن ناحية أخرى يرتدي قميصاً فيه اثنتا عشرة رقعة وعلى رأسه عمامة ممزقة وفي قدميه نعال ممزقة، ثم يحمل ـ وهو في هذه الحالة ـ على كتفه قربة ليملأ جرار الأيامى بالماء. أو يتمدد على الثرى في ركن من أركان المسجد لأنه كان يعمل حتى أصابه التعب فغلبه النعاس[١].

وسافر رضي الله عنه مرات كثيرة من مكة إلى المدينة، ولم يكن يحمل معه أبداً خيمة أو سرادقاً، فكان حيثما حل يلقي بردائه على شجرة ويستلقي في ظله، ويروي ابن سعد أن نفقات بيته اليومية كانت درهمين. وذات مرة ذهب الأحنف بن قيس مع رؤساء العرب للقائه، فرآه قد شمر قميصه وراح يعدو هنا وهناك، وحين رأى الأحنف قال له: أسرع أنت أيضاً وساعدني فقد هرب جمل من بيت المال هل تعلم كم من الفقراء لهم حق في الجمل الواحد، فقال شخص: ياأمير المؤمنين لماذا كل هذا التعب ؟ فلتأمر عبداً ليبحث عنه، فقال عمر رضي الله عنه:

«أي عبدٍ أعبدُ مني».

ويروى في موطأ الإمام محمد أنه عندما سافر إلى الشام، واقترب من المدينة نزل من على دابته ليقضي حاجته، وكان معه غلامه أسلم أيضاً، فلما انتهى ركب على جمل أسلم (ناسياً أو لحكمة ما) وقدم أهل الشام لاستقباله هناك،

---

(١) الكتاب المذكور ص ٣٨٧ باب الزهد.

فكان من يأتي يتجه أولاً ناحية أسلم، فكان أسلم يشير إلى عمر رضي الله عنه، والناس يتعجبون، وكانوا يهزون رؤوسهم فيما بينهم متحيرين، فقال عمر رضي الله عنه، إن عيونهم تتفحص العظمة والأبهة العجمية (ولكن أين هي هنا ؟).

وذات مرة قال في خطبة: «أيها الأصحاب! كنت في زمان مفلساً لدرجة أنني كنت أحمل الماء للناس، فكانوا يعطوني أجري على هذا تمراً جافاً آكله وأعيش عليه»، ثم نزل من على المنبر فدهش الناس وقالوا: هل هذا الكلام يقال على المنبر، فقال رضي الله عنه، لقد انتابني شيء من الغرور فكان هذا دواؤه.

وسافر إلى الحج سنة ٢٣هـ حين كانت شمس سطوته وجبروته قد بلغت أوجها، فمر عليه سعيد بن المسيب وهو تابعي معروف، وكان من بين المرافقين في هذا السفر، يقول سعيد بن المسيب: عندما وصل عمر إلى أبطح ألقي بردائه على الحصى، وجعل منه وسادة رقد على الثرى ورفع يديه إلى السماء وقال: «ياإلهي بلغ مني العمر مبلغه، وخارت قواي فاقبضني من هذه الدنيا»[١].

## روح الدعابة والظرافة :

مع أن مسئوليات الخلافة والتفكير فيها جعلته حاد الطبع لكن لم تكن هذه طبيعته أصلًا، فكان إذا ما وجد فرصة راح يتسلى بالدعابة والفكاهة، وذات مرة طلب من عبدالله بن عباس أن ينشده الشعر طوال الليل، وحين حان الفجر قال له: الآن اقرأ القرآن.

كتب ابن الجوزي المحدث في سيرة العمرين أنه كان يتجول ذات مرة في الليل فسمع صوت غناء في ناحية، فاتجه إليه ووقف يستمع إليه لمدة، وكان يحج ذات مرة مع عثمان وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير رضي الله عنهم، فكان عبدالله ابن الزبير يمزح مع أقرانه، وكانوا يتقاذفون حبات الحنظل، فلم يكن من عمر رضي الله عنه إلا أن قال خذوا حذركم حتى لا تنفر البعير، ولم يزد على ذلك،

(١) موطأ الإمام محمد ص ٣٠٤ .

وطلب الناس من رباح أن يغني، وكانوا يظنون أن عمر رضي الله عنه سيمنعه، ولكن حين لم يظهر عمر رضي الله عنه أي اعتراض، بدأ رباح في الغناء (الحداء) فكان عمر رضي الله عنه يستمع أيضاً، ولما طلع الصباح قال: كفى! الآن حان وقت ذكر الله[١].

وذات مرة كان يغني وهو راكب في طريقه إلى الحج فقال الناس له: ألم تنه عنه؟ قال: إن الغناء زاد الطريق لراكبي الجمال[٢].

ويذكر خوات بن جبير أنه كان مسافراً ذات مرة مع عمر رضي الله عنه، وكان معهم أيضاً أبو عبيدة وعبدالرحمن بن عوف، فأمره الناس أن يغني أشعار ضرار، فقال عمر رضي الله عنه، من الأفضل أن يغني أشعاره هو، وهكذا بدأ خوات يغني وظل يغني طوال الليل[٣].

**غلظة الطبع :**

كان بطبيعته حاد المزاح، سريع الغضب، وكان في الجاهلية صورة مجسمة للغضب، ولم يذهب أثره لفترة من الزمن بعد الإسلام.

قال رسول الله ﷺ في غزوة بدر (مامعناه) إني أعلم أن الكفار يجبرون بني هاشم ويأخذونهم معهم، وإلا ما جاءوا من تلقاء أنفسهم أبداً، ولهذا إن رأيتم أبا النجتري أو العباس فلا تقتلوهما، فقال أبو حذيفة على الفور: نحن لا نصفح عن آبائنا وأبنائنا وإخواننا فلماذا يتميز بنو هاشم؟ والله لو وقع العباس في يدي لأذيقنه سيفي، وكان لهذه الوقاحة أثرها على نفسية رسول الله ﷺ، فخاطب عمر قائلاً: ياأبا حفص (كنية عمر رضي الله عنه) أترى وجه عم الرسول يستحق السيف؟ فخرج عمر عن طوره وقال: إن أذنت لي أطحت

---

(١) إزالة الخفاء ص ٢٠٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٨ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٨ .

برأسه، وكان حذيفة من كبار الصحابة، وقد خرجت الجملة من لسانه بطريقة عفوية غير مقصودة، ولهذا لم يؤاخذه الرسول ﷺ عليها.

وكان حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه صحابياً جليلًا ممن شاركوا في غزوة بدر، تراسل مرة مع كفار قريش سرًّا في ظروف ما، وانكشف هذا السر، فغضب عمر رضي الله عنه غضباً شديداً وذهب إلى رسول الله ﷺ وقال: لقد كفر فأذن لي أن أقتله، فقال النبي ﷺ: «ياابن الخطاب ألا تعلم أن الله قال لأهل بدر: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم»، وذات مرة قال رجل يسمى ذو الخويصرة مخاطباً رسول الله بوقاحة: «اعدل» فغضب عمر كثيراً وأراد أن يقتله، لكن رسول الله ﷺ منعه.

ويمكن للقارىء أن يقدر من هذه الوقائع كيف كان سيف عمر يخرج من غمده في كل واقعة منها، وإذا كان هذا سلوكه مع المسلمين أنفسهم فكيف كان مع الكفار ؟! إلا أن بركة الإسلام، وكبر السن، ومهام الخلافة كل هذه العوامل مجتمعة جعلته بالتدريج إنساناً رقيقاً حليماً حتى إنه كان يعامل الكفار في عهد خلافته برحمة وحلم، وهي الرحمة التي لا يتعامل بها المسلم مع أخيه المسلم في يومنا هذا.

**محبته لأهله وأولاده :**

إن المعلومات المتوفرة عن حياة عمر العائلية قليلة جداً، ولكن يثبت من القرائن أنه لم يكن مولعاً كثيراً بأزواجه وأولاده، وبخاصة أزواجه، ويرجع السبب في الغالب إلى أنه لم يكن يحترم النساء كما يجب، فقد ورد كلامه عن نفسه في صحيح البخاري باب اللباس، فقد ذكر أنهم لم يكونوا يقدرون النساء في الجاهلية على الإطلاق وعندما نزل القرآن الكريم، وورد فيه ذكر النساء علموا أنه يمكن أن يكون لهم شأن ما، إلا أنهم لم يسمحوا لهن بالتدخل في الأمور، وقد وردت في رواية البخاري ذاتها أنه رضي الله عنه عنّف زوجته ذات مرة فردت عليه بالمثل، فقال: هل وصل بك الأمر إلى هذا الحد، فقال: إن

ابنتك أيضاً تتحدث هكذا مع رسول الله.

كانت جميلة إحدى زوجاته، ولد له منها عاصم، وطلقها عمر رضي الله عنه لسبب ما، وعاصم لا يزال صغيراً، وكان هذا في عهد أبي بكر، وترك عمر قباء حيث كان يقيم، وجاء إلى المدينة المنورة، وذات مرة ذهب إلى قباء فرأى عاصماً يلعب مع أقرانه، فناداه وأركبه على فرسه، وأراد أن يصطحبه معه، وحين علمت أم عاصم منعته قائلة: ابني وسأحتفظ به عندي، وطال النزاع، فذهبت إلى أبي بكر تستغيث به، فحكم لها ضد عمر، وهكذا اضطر عمر إلى تركه، وقد ذكرت هذه الواقعة في موطأ الإمام مالك وغيره.

ويتضح من هذا أن محبته وعطفه على النساء لم تكن بنفس درجة الصحابة الآخرين، ولم يكن يحب أولاده وأهل أسرته حبًّا غير عادي، ومما لا شك فيه أنه كان بينه وبين شقيقه زيد محبة عظيمة، ولهذا بكى كثيراً واضطرب عندما استشهد في حرب اليمامة، وكان يقول: إنني أشم رائحة زيد عندما تأتي الرياح من اليمامة، وعندما قدم إليه متمم بن نويرة شاعر الرثاء والعرب قال له: «ارث زيداً فلو أنني أستطيع أن أقول مثلك لقلت».

**محل إقامته:**

هاجر عمر رضي الله عنه ـ كما ذكرنا في الجزء الأول ـ من مكة وقدم إلى «عوالي» فأقام بها، وهي تبعد عن المدينة المنورة مسافة ميلين أو ثلاثة، ولكنه ترك الإقامة هناك بعد توليه الخلافة، وأقام بصفة دائمة في المدينة، فكان محل إقامته متصل بالمسجد النبوي، ويقع بين باب السلام وباب الرحمة؛ لأنه أوصى عند وفاته بأن يباع البيت ويؤدى ما عليه من دين، وهكذا اشتراه معاوية وسدد الدين بثمنه، ولهذا ظل هذا البيت لفترة يعرف باسم دار القضاء[1].

---

(١) انظر خلاصة الوفا في أخبار دار المصطفى ط مصر ص ١٢٩، ص ١٧٩ وحاشية موطأ الإمام محمد ص ٢٧٢.

**كسبه للرزق عن طريق التجارة :**

كانت التجارة هي الوسيلة الأساسية لكسب الرزق، ولهذا ورد في صحيح البخاري أنه اعتذر عن عدم معرفته لحديث الاستئذان بأنه كان مشغولاً بالبيع والشراء ولهذا كان يحضر قليلًا عند رسول الله ﷺ.

لكن عمر رضي الله عنه كان يكسب أحياناً الأموال بطريقة أخرى، فقد ذكر القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج أن الرسول ﷺ منح أبا بكر وعمر عقارين بعد أن وصل إلى المدينة، ولما فتحت خيبر قسمها رسول الله ﷺ على جميع الصحابة الذين اشتركوا في المعركة.

**الممتلكات والعقارات :**

كانت الأرض التي آلت ملكيتها إلى عمر تسمى ثمغ، وكانت أرضاً خصبة جداً، وقد كتب البلاذري المؤرخ أن النبي ﷺ كان قد سجل أسماء جميع المنتفعين بخيبر في كتاب، وقد حصل على قطعة من الأرض من يهود بني حارثة، وكانت هذه الأرض تسمى أيضاً ثمغ إلا أنه جعل القطعتين وقفاً في سبيل الله[1].

وقد وردت واقعة وقف أرض خيبر في صحيح البخاري باب «الشروط في الوقف» هذه الشروط هي: ألا تباع هذه الأرض، وألا تعطى هبة، وألا تورث، وما يخرج منها يكون حقًّا للفقراء وذوي القربى والغلمان والمسافر والضيف.

**الراتب :**

بعد سنوات قليلة من الخلافة طلب رضي الله عنه من الصحابة الموافقة على أن ينال راتباً لتغطية النفقات الضرورية، وطبقاً لما رآه علي رضي الله عنه تقرر له

---

(١) خلاصة الوفا لفظ ثمغ.

راتب بما يكفي طعامه ولباسه العادي، وفي سنة ١٥ هجرية عندما تقررت الرواتب لجميع الناس تقرر له أيضاً خمسة آلاف درهم في السنة مثله مثل بقية كبار الصحابة.

**الزراعة :**

من المعروف أن عمر رضي الله عنه اشتغل أيضاً بالزراعة، حين وصل المدينة المنورة، ولكنه كان يقوم بتأجير مناطق الزراعة ويقدم بنفسه للمستأجرين البذور، وكان يتحمل أحياناً مسئولية إيصالها بنفسه، وهذه الواقعة مذكورة في صحيح البخاري باب المزارعة.

**الطعام :**

كان طعامه في غاية البساطة، فكان يتناول عادة الخبز وزيت الزيتون، وكان الخبز يصنع من دقيق القمح، لكن الدقيق لم يكن يغربل، وفي عام القحط التزم الشعير دائماً، وكان على مائدته اللحم وزيت الزيتون والحليب والخضروات والخل حتى إذا قدم الضيوف، والسفراء تناولوا هذا الطعام لأنهم لم يتعودوا ذلك الطعام العادي البسيط الذي كان يتناوله عمر رضي الله عنه.

**اللباس :**

كان لباس عمر رضي الله عنه عادياً، فكان في الغالب يرتدي قميصاً فقط، وكان يستعمل أحياناً البرنس، وهو نوع من القلانس كان يرتديه رهبان النصارى وراج في المدينة المنورة، وكان حذاؤه مثل أحذية العرب يربطه في قدميه برباط.

**بساطة عمر رضي الله عنه :**

كان عمر رضي الله عنه يعيش حياة بسيطة لا تكلف فيها، كانت ملابسه مرقعة بأكثر من رُقعة، وذات مرة تأخر داخل بيته، بينما كان الناس ينتظرونه في الخارج، وبعدها عرفوا أنه لم يكن لديه ما يرتديه فغسل ثوبه وتركه ليجف ثم

ارتداه وخرج.

ولكن لا يجب أن يفهم من كل ماذكرناه أنه كان يميل إلى الرهبانية، والتقشف ويمكن أن ندرك رأيه في هذا، فقد جاءه رجل كان قد عينه والياً على اليمن، طالباً لقاءه، وكان يرتدي ملابس فاخرة، وقد طيب شعره بالزيت، فغضب عمر كثيراً وخلع عنه هذه الملابس، وألبسه بدلاً منها ملابس خشنة، فجاءه ثانية أشعث يرتدي ملابس قديمة ممزقة، فقال له عمر: لم يكن هذا قصدي، فلا يجب أن يكون الرجل أشعث ولا يجب أن يبالغ في تصفيفه، والخلاصة أنه كان لا يميل إلى التكلف والزخرفة الفاحشة، ولا يستحسن حياة الرهبنة.

**أوصافه رضي الله عنه :**

كانت أوصافه هكذا: قمحي اللون، فارع الطول، فإذا ما وقف بين مئات بل آلاف من الناس كان قوامه يشاهد، غير ممتلىء الخدين، لحيته كثة، شواربه طويلة أما شعر رأسه فقد تطاير من مقدمته.

وقد جمع المؤرخون أوليات عمر في جميع شئون الإدارة تحت عنوان «أولياته»[1]، وهكذا نختم سيرته بتفصيل هذه الأوليات حتى تكون البداية مرتبطة بالنهاية:

١ـ أسس بيت المال أي «الخزانة».

٢ـ أنشأ المحاكم وعين القضاة.

٣ـ وضع التقويم (التاريخ والسنة) المعمول به حتى اليوم.

٤ـ اتخذ لقب أمير المؤمنين.

٥ـ رتب الدواوين العسكرية.

---

(١) ذكرت معظمها في كتاب الأوائل لأبي هلال العسكري، وفي تاريخ الطبري كما ورد بعضها أيضاً في أماكن متفرقة.

٦ـ قرر الرواتب للمتطوعين .
٧ـ أنشأ إدارة المالية .
٨ـ أجرى نظام المساحة .
٩ـ أجرى إحصاء السكان .
١٠ـ أمر بحفر الأنهار .
١١ـ بنى المدن (الكوفة والبصرة والموصل والجيزة والفسطاط ) .
١٢ـ قسم البلاد المفتوحة إلى أقاليم وولايات .
١٣ـ قرر العشور (التي سبق تفصيلها في إدارة المحاصيل) .
١٤ـ فرض الضرائب على المنتجات البحرية مثل العنبر وغيره وعين المحصلين لها .
١٥ـ سمح لتجار البلاد غير المسلمة بدخول دولة الإسلام والتجارة فيها .
١٦ـ أقام السجون .
١٧ـ استعمل الدرة .
١٨ـ أوجد طريقة التجول في الليل لمعرفة أحوال الرعية .
١٩ـ أقام إدارة للشرطة .
٢٠ـ أقام معسكرات الجيش في كل مكان .
٢١ـ فرق بين الأصيل وغيره في الخيل، ولم يكن هذا الأمر معروفاً في جزيرة العرب .
٢٢ـ عين الجواسيس والعيون .
٢٣ـ أمر ببناء الاستراحات لراحة المسافرين بين مكة والمدينة المنورة .
٢٤ـ قرر نفقات يومية لتربية اللقطاء ورعايتهم .
٢٥ـ أمر ببناء دور للضيافة في مختلف المدن .
٢٦ـ وضع قاعدة تقضي بعدم استبعاد أي عربي (حتى لو كان كافراً) .
٢٧ـ قرر راتباً لفقراء النصارى واليهود .
٢٨ـ بنى المدارس والكتاتيب .

٢٩ـ قرر الرواتب للمعلمين والمدارس.

٣٠ـ حمل أبا بكر على ترتيب القرآن الكريم، واكتمل هذا العمل برعايته.

٣١ـ وضع أصول القياس.

٣٢ـ أوجد مسألة العول في الفرائض.

٣٣ـ أضاف إلى أذان الفجر «الصلاة خير من النوم»، وقد فصّل ذلك في موطأ الإمام مالك.

٣٤ـ أقام صلاة التراويح في جماعة.

٣٥ـ جعل الطلقات الثلاثة التي ينطق بها معاً طلاقاً بائناً.

٣٦ـ قرر حد شرب الخمر بثمانين جلدة.

٣٧ـ قرر الزكاة على خيل التجارة.

٣٨ـ قرر الزكاة على نصارى بني تغلب بدلاً من الجزية.

٣٩ـ أوجد طريقة الوقف.

٤٠ـ جمع الناس كلهم على التكبيرات الأربع في صلاة الجنازة.

٤١ـ أوجد طريقة الوعظ في المساجد، وقام تميم الدارمي بالوعظ بعد استئذانه، فكان أول من وعظ في الإسلام.

٤٢ـ قرر راتباً للأئمة والمؤذنين.

٤٣ـ أوجد نظام الإضاءة في المساجد ليلاً.

٤٤ـ أوجد عقوبة تأديبية على الهجاء.

٤٥ـ منع ذكر أسماء الناس في الشعر والغزل، وكان هذا شائعاً في العرب منذ فترة طويلة.

هذا بالإضافة إلى الكثير من الأوليات الأخرى التي لم نسجلها هنا خوف الإطالة.

# الأزواج والأولاد

تزوج عمر رضي الله عنه عدة مرات في الجاهلية والإسلام، وكان أول زواج له من زينب أخت عثمان بن مظعون، وكان من الصحابة السابقين، ويأتي ترتيبه الرابع عشر من بين من أسلموا، وتوفي في العام الثاني من الهجرة، وحزن الرسول ﷺ لوفاته حزناً شديداً حتى إنه كان يقبل جثته ويبكي رغماً عنه، وكان قدامة الأخ الثاني لعثمان من بين كبار الصحابة أيضاً، وقد أسلمت زينب وتوفيت في مكة المكرمة، ومن أولادها عبدالله رضي الله عنه وحفصة رضي الله عنها.

والزوجة الثانية هي قريبة بنت أبي أُمية المخزومية وهي أخت أم سلمة زوج الرسول ﷺ، طلقها عمر بعد صلح الحديبية عام ٦هـ؛ لأنها لم تدخل في الإسلام ولا يجوز الزواج من امرأة مشركة، وكانت الزوجة الثالثة مليكة بنت جرول الخزاعي، ويقال لها أيضاً أم كلثوم وقد طلقها لأنها لم تعتنق الإسلام وذلك عام ٦هـ أنجبت عبيدالله، كانت زينب وقريبة من قبيلة قريش، وكانت مليكة من قبيلة خزاعة، وعندما قدم عمر رضي الله عنه إلى المدينة، وحدثت المؤاخاة مع الأنصار تزوج عمر رضي الله عنه سنة ٧هـ من جميلة بنت عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح وكان أنصارياً جليلًا، شهد غزوة بدر، وكان اسم جميلة عاصية، وحين أسلمت غير النبي ﷺ اسمها فسماها جميلة، ولكن عمر رضي الله عنه طلقها لسبب ما.

وفي آخر أيام حياته فكر في الارتباط بالعائلة النبوية فكان ذلك سبباً في مزيد من الشرف والبركة وهكذا طلب يد أم كلثوم من عليّ رضي الله عنه، إلا أنه رفض بسبب صغر سنها، ولكن حين أظهر عمر رضي الله عنه رغبة شديدة في ذلك قائلًا إن هدفه من ذلك هو التشرف بالزواج منها، وافق عليّ رضي الله عنه

وفي عام ١٧هـ تزوجها على مهر بلغ أربعين ألفاً[١].

وكان لعمر رضي الله عنه زوجات أخريات وهن: أم حكيم بنت الحارث بن هشام المخزومي، وفكيهة اليمنية، وعاتكه بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت عاتكة ابنة عمه، وكانت قد تزوجت قبله من عبدالله بن أبي بكر، وكان عبدالله يحبها كثيراً لأنها كانت على قدرٍ كبير من الحسن والجمال، وحين استشهد عبدالله في غزوة الطائف أنشدت عاتكة مرثية تفيض بالألم والحزن جاء فيها:

فآليت لا تنفك عيني حزينة ‎ ‎ ‎ ‎ عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

وتزوجها عمر رضي الله عنه في سنة ١٢هـ وشارك علي رضي الله عنه في وليمة زواجها.

---

(١) كتب جميع المؤرخين الكبار عن واقعة تزويج أم كلثوم بالتفصيل، فقد ذكرها الطبري في التاريخ الكبير، وابن حبان في كتاب الثقات، وابن قتيبة في المعارف، وابن الاثير في الكامل وأوضحوا أن أم كلثوم بنت فاطمة الزهراء كانت زوجة لعمر، وكانت له زوجة أخرى تدعى أم كلثوم، وقد فرق المؤرخون بينهما بوضوح، وقد اطلعت بنفسي على تصريحات الطبري وابن حبان وابن قتيبة ولا يوجد سند على أحداث التاريخ أكثر مما ورد في كتبهم ولهذا أنقل هنا العبارات الخاصة، ففي كتاب الثقات لابن حبان (ذكر خلافة عمر أحداث سنة ١٧هـ)، ثم تزوج عمر أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وهي من فاطمة ودخل بها في شهر ذي القعدة، وفي معارف ابن قتيبة ذكر أولاد عمر: وفاطمة وزيد وأمهما أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب من فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وقد ذكر ابن الأثير في أحوال الصحابة حين ذكر أحوال أم كلثوم حادثة تزويج أم كلثوم بالتفصيل وهكذا صرّح الطبري بذلك في عدة أماكن ونمسك عن إثباتها هنا مخافة الإطالة، وأهم من كل هذا أنه ورد في صحيح البخاري ذكر أم كلثوم في أحد المواضع ضمنياً، عندما كان عمر يقسم الأردية على النساء، فتبقى رداءٌ فتردد عمر لمن يعطيه، فقال له رجل: ياأمير المؤمنين أعط هذا بنت رسول الله ﷺ التي عندك يريدون أم كلثوم، (صحيح البخاري باب الجهاد ط ميرته ص٤٠٣) وهذا تصريح واضح بأن أم كلثوم التي كانت زوجة لعمر كانت من بيت النبوة.

**أولاد عمر رضي الله عنه :**

كان لعمر رضي الله عنه أولاد كثيرون منهم حفصة رضي الله عنها وكانت أكثرهم تميزاً فقد دخلت ضمن أزواج النبي المطهرات، وكانت قد تزوجت قبلًا من خنيس بن حذافة، وهو من الصحابة المهاجرين، واستشهد خنيس في غزوة أُحد فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٣هـ وقد روت عنه كثيراً من الأحاديث، وروى كثير من الصحابة الأحاديث عنها رضي الله عنها، توفيت سنة ٤٥ هجرية وهي في الثالثة والستين من عمرها.

أما أولاده الذكور فهم عبدالله، وعبيدالله، وعاصم، وأبو شحمة عبدالرحمن، وزيد ومجير، واشتهر من بينهم عبدالله وعبيدالله وعاصم.

**عبدالله بن عمر :**

يعتبر عبدالله من عُمَد الفقه والحديث الكبار، وقد وردت مسائله ورواياته بكثرة في البخاري ومسلم، أسلم مع عمر رضي الله عنه في مكة ورافق النبي ﷺ في معظم الغزوات، وقد كتب العلامة الذهبي في تذكرة الحفاظ وابن خلكان في وفيات الأعيان سيرته بالتفصيل، ويتضح منها مدى علمه وفضله، وقدر زهده وتدينه، وبالإضافة إلى هذا لم يكن يخشى في قول الحق أحداً.

كان الحجاج بن يوسف يخطب ذات مرة في الكعبة، فوقف عبدالله رضي الله عنه في نفس الوقت وقال: هذا عدو الله؛ لأنه قتل أحباب الله، فعين الحَجاج رجلًا لينتقم منه، فجرحه بآلة مسمومة، فمرض عبدالله ومات. وقد كتب العلامة الذهبي أنه عندما أُحيلت مسألة علي رضي الله عنه، ومعاوية رضي الله عنه إلى التحكيم، جاء الناس إلى عبدالله وقالوا: إن جميع المسلمين راضون بك خليفة، فاستعد حتى نبايعك، فرفض وقال لا أريد أن أشتري الخلافة بدماء المسلمين.

**سالم بن عبدالله :**

يعد سالم بن عبدالله من فقهاء المدينة السبعة الذين كان يعتمد عليهم في الحديث والفقه، فكان لا يجوز لقاض أن يقضي في مسألة بدون فتواهم، وكان الفقهاء الآخرون هم: خارجة بن زيد، وعروة بن الزبير، وسليمان بن يسار، وعبيدالله بن عبدالله، وسعيد بن المسيب وقاسم بن محمد.

ومن الجدير بالذكر أن هناك سلسلتين للرواة الأكثر ثقة عند جميع المحدثين، يطلق عليها المحدثون سلسلة الذهب، والسلسلة الأولى هي الأحاديث التي يكون ضمن سلسلة رواتها الإمام مالك، ونافع وعبدالله بن عمر، والسلسلة الثانية هي الأحاديث التي يكون ضمن سلسلة رواتها الزهيري وعبدالله بن عمر ـ وهؤلاء عدا مالك والزهيري من عائلة عمر رضي الله عنه، فعبدالله هو ابنه، ونافع وسالم كانا من غلمانه.

**عبيدالله :**

عبيدالله هو الابن الثاني لعمر رضي الله عنه وقد اشتهر بالشجاعة والمصارعة.

**عاصم :**

وعاصم هو الابن الثالث، كان طاهر النفس عالماً وفاضلاً،وتوفي سنة ٧٠هـ ورثاه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما بمرثية جاء فيها:

فليت المنايا كن خلّفن عاصماً فعشنا جميعاً أو ذهبن بنا جميعاً

كان عاصم ضخماً له قامة فارهة، وكان يجيد قول الشعر، وكما يقول أهل الأدب: يضطر كل شاعر إلى استخدام ألفاظ في شعره لا يقصدها، وعاصم يستثنى من هذا، وكان عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه حفيده، وقد كتب ابن قتيبة بالتفصيل في كتابه «المعارف» سيرة أحفاد عمر رضي الله عنه وحفيداته، ونكتفي بهذا اختصاراً.

# خاتمة

ليس من الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وهكذا كُتبت سيرة عمر، وأحواله بالتفصيل، وبدقة وأمانة مع مراعاة أصول الكتابة التاريخية إلى أبعد حد، وتوجد من قبل سير كبار المشهورين، وأمامكم الآن هذين العملين ولديكم الفرصة للوصول إلى قرار فاصل من خلال الإجابة على هذا السؤال:

هل ظهر في هذا العالم رجل مثل عمر؟

إن العارفين بقانون الفطرة يدركون أن فضائل البشر متنوعة، ولكل منها طريقة منفصلة، فمن الممكن بل كثيراً ما يحدث أن ينفرد إنسان بالشهرة في جميع أنحاء العالم بسبب فضيلة واحدة، بينما يفتقر إلى بقية الفضائل، فالإسكندر الأكبر هو أكبر فاتح لكنه لم يكن فيلسوفاً، وكان أرسطو فيلسوفاً لكنه لم يكن فاتحاً، فمن الصعب أن تجتمع الفضائل الصغرى في رجل واحد فما بالك بالفضائل الكبرى، مر علينا كثير من المشهورين كانوا شجعاناً وأبطالاً، لكنهم لم يتحلوا بحسن الخلق، وإذا ماتحلوا بحسن الخلق، لم يكونوا أهل تدبر، وإذا ماجمعوا بين الصفتين، لم يكن لهم نصيب من العلم والفضل.

والآن لننظر إلى سيرة عمر رضي الله عنه ولندقق في جوانبها المختلفة، سنرى أنه كان الإسكندر، وكان أرسطو أيضاً، كان المسيح، وكان سليمان أيضاً، وكان تيمور، وكان أنوشيروان أيضاً، وكان الإمام أبا حنيفة، وكان إبراهيم بن أدهم أيضاً.

ولنأخذ أولاً مكانته كحاكم وفاتح للبلاد، جميع الحكام الذين مرّوا عبر التاريخ في العالم، كان وراء كل منهم بشكل أو بآخر حاكم مشهور أو قائد

عسكري غير معلن عنه، فإذا قضى ذلك الحاكم أو زال القائد العسكري صدفة، توقفت الفتوحات فجأة أو أصيب هيكل نظام الحكومة بالخلل.

كان الإسكندر يمضي في كل مناسبة مستعيناً بنصائح أرسطو، كما كان أبو الفضل (الوزير) وتودرمل يعملان مع الإمبراطور أكبر خلف الكواليس، وكانت عظمة العباسيين وعلو شأنهم بأنفاس البرامكة، لكن الأمر يختلف بالنسبة لعمر رضي الله عنه، فقد كان اعتماده الأساسي على قوة ساعده، وعندما رأى الناس معارك خالد العجيبة الغريبة ظنوا أن مفتاح الفتح والظفر رهن يديه، ولكن حين عزله عمر رضي الله عنه، لم يشعر أحد بأن الآلة التي تدور فقدت أحد أجزائها، ونفس الشيء حدث بالنسبة لسعد بن أبي وقاص فاتح إيران، فحين عزله عمر لم يحفل به أحد، صحيح لم يكن عمر رضي الله عنه نفسه يقوم بكل الأعمال، ولم يكن باستطاعته ذلك إلا أن من استعملهم، لم يكن من بينهم من لم يرتبط به ارتباطاً وثيقاً، وكان في إدارته لآلة الحكم، إذا شاء استبدال جزء بجزء آخر، سواء وضعه في مكان ما أو أبعده تماماً، قام بصنع أجزاء أخرى جديدة، إذا اقتضت المصلحة ذلك، أو دعته الحاجة إلى ذلك.

لم تشهد الدنيا حاكماً لم يضطر إلى تجاوز حدود العدل والإنصاف بسبب متطلبات الدولة ومستلزماتها، فأنوشيروان الذي يعد رسولاً للعدل والإنصاف لم يبرأ طرفه من هذا العيب، وعلى العكس من ذلك إذا ما فحصنا ودققنا جميع الوقائع التي شارك فيها عمر فلا يمكن أن نجد مثالاً لأي عيب من العيوب.

وسلاطين العالم الآخرون ظهروا في بلاد كانت لها قوانين حكم وأصول حكم راسخة منذ زمن بعيد، لهذا لم يضطر هؤلاء إلى إقامة أسس جديدة للحكم فقد كانت النظم القديمة تكفيهم، أو كانوا يضيفون عليها القليل، وعلى العكس من ذلك ولد عمر رضي الله عنه في بلد لم يكن حتى يعرف اسم تلك الأشياء، بل إن عمر رضي الله عنه نفسه لم يكن يحلم بالحكم والسلطة حتى

بلغ الأربعين، وأمضى الفترة الأولى من شبابه يرعى الإبل، ورغم ذلك فمن غير عمر رضي الله عنه كان يمكنه أن يقيم دولة مترامية الأطراف، ويوجد جميع تنظيمات ومؤسسات الدولة مثل: تقسيمها إلى ولايات ومراكز، وتنظيم جمع الضرائب، وتنظيم إدارة العدل، والجيش والشرطة، والأشغال العامة والنظام العسكري بهذا القدر من الرقي، بالإضافة إلى تحديد قواعدها وضوابطها!!

وهل يمكن أن يشاهد حاكم مثله عبر تاريخ العالم كله، كان يعيش وعليه قميص مرقع بعشرات الرقع، يحمل على كتفيه قربة، يحمل فيها الماء إلى النسوة الفقيرات، ويفترش الأرض، ويدور في الأسواق، يمضي وحده بمفرده حيثما ذهب، يرعى الإبل فيدهن جسمها بالزيت، لا يعرف البلاط، ولا النقيب ولا الحاجب ولا الخدم والحشم، ثم يكون له هذه الهيبة التي جعلت العجم والعرب يرتعدون إذا ما سمعوا اسمه والأرض تهتز حيثما اتجه.

كان تيمور والإسكندر يخرجان في ركاب ثلاثين ألف جندي، حتى تكون لهم هيبة، بينما خرج عمر الفاروق في سفر الشام وليس معه إلا ناقة يركبها، ولكن الأرض بجوانبها الأربعة اهتزت وكأن مركز العالم قد تحرك.

ولنلقي الآن نظرة على مكانته العلمية، ونقارن ونوازن بين اجتهاد عمر ومسائله وبين اجتهادات ومسائل أولئك الصحابة الذين كانوا يشتغلون بهذا الأمر ليل نهار مثل عبدالله بن عباس وزيد بن ثابت وأبي هريرة وعبدالله بن عمر وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم، سيبدو لنا واضحاً أن الفرق بينه وبينهم كالفرق بين المجتهد والمقلد، ولقد تطورت العلوم الإسلامية كثيراً في العصور التالية، وظهر كبار الأئمة والمجتهدون في هذا العلم مثل الإمام أبي حنيفة والشافعي والبخاري والغزالي والرازي، ولكن علينا أن ننظر بعين الإنصاف هل أمكن أن يضيف هؤلاء شيئاً فيما قاله عمر رضي الله عنه. فلا تزال المعارك محتدمة منذ فجر الإسلام وحتى يومنا هذا في مسألة القضاء والقدر، وتعظيم شعائر الله، ومكانة النبوة وأحكام الشريعة هل هي عقلية أو نقلية؟ وكيفية

الحكم على الصحيح والضعيف من الأحاديث، وقابلية الحجة بخبر الآحاد، وأحكام الخمس والغنيمة. هل تمكن أئمة هذا العلم أن يتقدموا ولو خطوة واحدة عن تلك التي وصل إليها عمر رضي الله عنه ؟ إنهم جميعاً إما قلدوه واتبعوه أو انحرفوا فارتكبوا خطأ فاحشاً.

ولننظر إلى الجانب الأخلاقي هل يمكن أن يكون له قريناً بعد الأنبياء عليهم السلام ؟ لقد بلغ الكمال في زهده وقناعته، وتواضعه وانكساره، وبساطته واستقامته، وعدله وصبره، ورضاه وشكره وتوكله، هل يمكن أن يوجد في لقمان وإبراهيم بن الأدهم، وأبي بكر الشبلي ومعروف الكرخي صفات أكبر من أوصافه تلك التي بلغت أعلى درجات الكمال لديه؟.

وقد وصف شاه ولي الله خصوصية عمر رضي الله عنه هذه (أي جمعه لصفات الكمال والفضل) وصفاً جميلًا يمكن للقارىء أن يرجع إليه إن شاء.

**شبلي النعماني**

**كشمير**

٥ يوليو ١٨٠٨م

# الفهــرس

| الموضـوع | الصفحة |
|---|---|
| مقدمة الناشر | ٥ |
| مقدمة بقلم المراجع | ٧ |
| الجزء الأول | |
| تمهيد | ٢٤-٤١ |
| عنصر التاريخ ـ الخصائص المميزة للعرب ـ بداية علم التاريخ ـ أول كتاب في السيرة النبوية ـ مؤلفات القدماء الموجودة اليوم ـ عصر المتأخرين ـ خصائص ومميزات القدماء ـ تعريف التاريخ ـ ماهي الأمور اللازمة لعلم التاريخ ـ عيوب الكتابات التاريخية القديمة وأسبابها ـ معيار صحة الوقائع التاريخية ـ الرواية والدراية ـ الأمور التي يمكن معرفتها من أصول الدراية. | |
| عمر رضي الله عنه | ٤٢-٤٨ |
| اسمه ونسبه وبلوغه سن الرشد وتربيته | |
| جد عمر ـ أولاد عم عمر رضي الله عنه ـ الخطاب والد عمر ـ ولادة عمر ـ سن الرشد | |
| إسلام عمر رضي الله عنه وهجرته | ٤٩-٥١ |
| الهجرة | ٥٢-٥٤ |
| أسماء من هاجروا مع عمر رضي الله عنه ـ مكان إقامة عمر رضي الله عنه ـ التآخي بين المهاجرين والأنصار ـ الأخوة الإسلامية لعمر رضي الله عنه ـ موافقة رأي عمر رضي الله عنه في طريقة الأذان | |
| الغزوات والوقائع الأخرى | ٥٥-٧٧ |
| السنة الأولى للهجرة حتى وفاة الرسول ﷺ | |
| غزوة بدر ٢هـ/ ٦٢٤م ـ رأي عمر في أمر الأسرى ـ غزوة السويق ـ غزوة أحد | |

الموضوع | الصفحة

٣هـ/ ٦٢٥م ـ زواج حفصة برسول الله ﷺ ـ واقعة بني نضير سنة ٤هـ/ ٦٢٦م ـ غزوة الخندق أو الأحزاب ٥هـ/ ٦٢٧م ـ واقعة الحديبية ٦هـ/ ٦٢٨م ـ طلاق عمر رضي الله عنه لزوجاته ـ معركة خيبر ٧هـ/ ٦٢٩م ـ غزوة حنين ـ واقعة القرطاس.

**سقيفة بني ساعدة وخلافة أبي بكر واستخلاف عمر** ........ ٧٨-٨٤

**الخلافات والفتوحات** ........ ٨٥-٨٨

**فتوحات العراق** ........ ٨٩-١٢٧

**واقعة بويب رمضان ١٤هـ/ ٦٣٥م** ........ ٩٦-١٠٩

**معركة القادسية والنصر محرم ١٤هـ/ ٦٣٥م** ........ ١١٠-١٢٤

**جلولاء ١٦هـ/ ٦٣٧م** ........ ١٢٥-١٢٧

**فتوحات الشام** ........ ١٢٨-١٦٢

فتح دمشق ـ فحل ذو القعدة ١٤هـ/ ٦٣٥م ـ حمص ١٤هـ/ ٦٣٥م ـ اليرموك ٥ رجب ١٥هـ/ ٦٣٦م ـ بيت المقدس ١٦هـ/ ٦٣٧م ـ محاولة النصارى استرداد حمص ١٧هـ/ ٦٣٨م ـ هجوم النصارى على حمص ـ عزل خالد رضي الله عنه ـ وباء عمواس ١٨هـ/ ٦٣٩م ـ فتح قيسارية شوال ١٩هـ/ ٦٤٠م

**الجزيرة ١٦هـ/ ٦٣٧م** ........ ١٦٣

**خوزستان** ........ ١٦٥

**العراق العجمي ٢١هـ/ ٦٤١م** ........ ١٧٠

**الحرب الشاملة ٢١هـ/ ٦٤٢م** ........ ١٧٥

**آذربيجان ٢٢هـ/ ٦٤٣م** ........ ١٧٨

**طبرستان ٢٢هـ/ ٦٤٣م** ........ ١٧٩

**آرمينية** ........ ١٧٩

**فارس ٢٣هـ/ ٦٤٤م** ........ ١٨٠

| الموضـوع | الصفحة |
|---|---|
| كرمان ٢٣هـ/ ٦٤٤م | ١٨٣ |
| سيستان (سجستان) ٢٣هـ/ ٦٤٤م | ١٨٣ |
| مكران ٢٣هـ/ ٦٤٤م | ١٨٤ |
| فتح خراسان وهزيمة يزدجرد ٢٣هـ/ ٦٤٤ | ١٨٥ |
| فتح مصر ٢٠هـ/ ٦٤١م | ١٨٧ |
| فتح الإسكندرية ٢١هـ/ ٦٤١ـ٦٤٢م | ١٩٠ |
| شهادة عمر رضي الله عنه في السادس والعشرين من ذي الحجة ٢٣هـ/ ٦٤٤م | ١٩٥ |
| الجزء الثاني | |
| نظرة إجمالية على الفتوحات | ٢٠٠-٢٠٨ |
| اتساع الفتوحات الفاروقية ـ أسباب الفتح في رأي المؤرخين الأوربيين ـ الأسباب الحقيقية للفتوحات ـ الموازنة بين فتوحات الإسكندر وغيره والفتوحات الإسلامية ـ اختصاص عمر في الفتوحات. | |
| نظام الحكم | ٢٠٩-٢١٧ |
| موازنة بين حكم الشورى والحكم الفردي ـ مجلس الشورى في خلافة عمر رضي الله عنه ـ أعضاء مجلس الشورى وطريقة انعقاده ـ جلسات مجلس الشورى ـ مجلس آخر ـ مشاركة عامة الناس ـ مساواة الخليفة للجميع في الحقوق العامة. | |
| تقسيم الدولة ـ الأقاليم والمحافظات ـ الموظفون الرسميون | ٢١٨-٢٣٢ |
| تقسيم عمر لأقاليم الدولة ـ الأقاليم في عهد كسرى أنو شيروان ـ فراسة عمر رضي الله عنه ـ مجلس الشورى وتعيين الموظفين ـ مسألة الرواتب ـ تفصيل واجبات العمال طبقًا لما ورد في أوامر عمر ـ العهد الذي يؤخذ على العمال ـ قائمة أموال العمال وممتلكاتهم ـ استدعاء جميع العمال في موسم الحج ـ التحقيق مع العمال ولجنة التحقيق. | |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |
| **إدارة الأموال (الخراج)** | ٢٣٣-٢٥٠ |
| أوجد عمر رضي الله عنه طريقة الخراج عند العرب ـ استدلال عمر ـ تنظيم العراق وإدارته ـ تعيين مسئول المساحة ـ مساحة العراق الإجمالية ـ نسبة الضريبة ـ خراج العراق ـ صاحب الأرض والمزارع ـ تنمية الدخل والإنتاج الزراعي ـ قواعد الخراج في مصر في عهد الفراعنة ـ الزيادة التي أجراها الرومان ـ إصلاح عمر للطريقة القديمة ـ طريقة تحصيل الخراج في مصر ـ الخراج الكلي لمصر ـ خراج مصر في عهد بني أمية والعباسيين ـ الشام ـ إصلاحات عمر في قانون الخراج ـ استشارة أهل الذمة في تنظيم الخراج، التنمية الزراعية ـ مصلحة الري ـ الخراج والعشر ـ مصادر الدخل الأخرى ـ زكاة الخيل ـ العشور. | |
| **إدارة العدل** | ٢٥١-٢٦٢ |
| هيئة القضاء ـ وثيقة عمر عن أصول القضاء ـ اختيار القضاة ـ مسئولو القضاء في عهد عمر ـ تعيين القضاة بعد امتحانهم ـ طريقة الوقاية من الرشوة ـ المساواة في العدل ـ كفاية عدد القضاة بالنسبة لعدد السكان ـ شهادة الخبراء كلٌّ في مجال تخصصه ـ مكان المحكمة ـ هيئة إيجاد الحسبة ـ العقاب بالنفي. | |
| **بيت المال أو الخزانة** | ٢٦٣-٢٦٥ |
| تأسيس بيت المال ـ مسئول بيت المال ـ مباني بيت المال ـ المبلغ المتبقي في خزانة دار الخلافة. | |
| **الأشغال العامة أو النظارات النافعة** | ٢٦٦-٢٧٨ |
| الأنهار التي أجراها عمر ـ المباني التي أقامها عمر ـ نظام الطرق والجسور ـ المخافر والخانات بين مكة والمدينة ـ تعمير المدن ـ البصرة ـ الكوفة ـ الفسطاط ـ اتساع الفسطاط ـ الموصول ـ الجيزة. | |
| **إدارة الجيش** | ٢٧٩-٣٠٣ |
| النظام العسكري في الإمبراطورية الرومانية ـ النظام العسكري في فارس ـ النظام العسكري في فرنسا ـ النظام العسكري في عهد عمر ـ بناء جيش الدولة | |

**الموضـوع** **الصفحة**

الإسلامية ـ الوحدات العسكرية المركزية ـ معسكرات الجيش ـ تربية الخيل ـ ديوان الجيش ـ الحبوب والغلال الخاصة بمئونة الجيش ـ معسكرات الجيش ـ الأصول التي أقيمت عليها معسكرات الجيش ـ اتساع ديوان الجيش ـ زيادة الرواتب ـ نظام المؤن ـ الإدارة المستقلة للمؤن ـ الطعام والملابس والبدلات ـ طريقة تقسيم الرواتب ـ مراعاة زيادة الرواتب ـ توزيع الجيش طبقًا لاختلاف الفصول ـ راحة الجنود في فصل الربيع ـ مراعاة المناخ ـ الراحة في السفر ـ قواعد الإجازات ـ لباس الجيش ـ الخازن والمحتسب والمترجم في الجيش ـ تطور فن القتال ـ أقسام الجيش ـ ما يجب أن يحتفظ به الجندي ـ آلات مهاجمة القلاع ـ سلاح المهندسين ـ المخابرات والجاسوسية ـ تنظيم المراسلات والتقارير.

**إدارة التعليم** ........................................ ٣٠٤

**الإدارة الدينية** ........................................ ٣٠٤

**طريقة نشر الإسلام ـ من أسلموا في عهد عمر** .................... ٣٠٤-٣١٠

**جهود عمر رضي الله عنه في جمع القرآن وترتيبه** .................... ٣١١-٣١٥

احتياطات حفظ القرآن الكريم وضبطه وإعرابه ـ تنظيم تعليم القرآن الكريم ـ كتاتيب القرآن ـ التعليم الإلزامي للبدو ـ تعليم الكتابة ـ ابتعاث القراء من الصحابة ـ تعليم القرآن الكريم في المناطق البعيدة ـ طريقة تعليم القرآن الكريم ـ عدد طلبة القرآن في مسجد دمشق ـ وسائل نشر القرآن الكريم ـ عدد حفظة القرآن الكريم ـ وسائل ضبط القرآن الكريم.

**تعليم الآداب والعلوم العربية** .................... ٣١٦-٣٢٢

**تعليم الحديث** .................... ٣١٦-٣٢٢

**الفقه** .................... ٣١٦-٣٢٢

نشر المسائل الفقهية ـ الإجماع في المسائل الفقهية ـ تنظيم تعليم الفقه ـ رواتب الفقهاء وعلو شأن معلمي الفقه ـ الأشخاص المسموح لهم بتعليم الفقه ـ التنظيم العملي.

| الموضـوع | الصفحة |
|---|---|

**تعمير المساجد** ........................ ٣٢٣

**توسعة الحرمين الشريفين** ........................ ٣٢٣

**ترتيبات متفرقة** ........................ ٣٢٥-٣٢٩

تحديد السنة الهجرية ـ أقسام الدواوين ـ ديوان الخراج ـ ديوان بيت المال ـ ديوان نفقات الحرب ـ ديوان تعداد السكان ـ طريقة تدوين الديوان ـ النقود

**حقوق أهل الذمة** ........................ ٣٣٠-٣٤٦

سلوك البارسين والنصارى مع غيرهم من الأمم ـ معاهدة بيت المقدس ـ مراعاة أهل الذمة عند تنظيم الخراج ـ استشارة أهل الذمة في تنظيمات الدولة ـ الوفاء بشروط أهل الذمة ـ مراعاة كرامة أهل الذمة ـ سلوك الدولة المسلمة مع أهل الذمة في حالة التآمر والعصيان ـ بيان المعارضين ـ مسألة الصليب والناقوس ـ مسألة التعميد ـ مسألة إجلاء النصارى ـ مسألة الجزية.

**الحد من انتشار الرق** ........................ ٣٤٧-٣٥٣

قصة شهربانو ـ معاملة أسرى الحرب من العائلة الملكية ـ رعاية العبيد عامة ـ عدم التفريق بين العبيد وأقاربهم ومعارفهم ـ أهل الكمال من العبيد.

**السياسة والتخطيط والعدل والإنصاف** ........................ ٣٥٤-٣٨٠

الفرق بين سياسة عمر وسياسة عامة السلاطين ـ مشكلات عمر رضي الله عنه ـ خصائص حكم عمر رضي الله عنه ـ مبادىء المساواة ـ لِمَ تلقب بأمير المؤمنين؟ ـ السياسة ـ الاختيار الموفق لمستوى الدولة ـ العدل النزيه والإنصاف الحر ـ معرفة أحوال الإمبراطوريات القديمة ونظمها ـ المراسلون وكتبة الحوادث لمعرفة الأحوال والأخبار ـ الاهتمام ببيت المال ـ أداء الأعمال في أوقاتها ـ المصلحة العامة ـ رواتب الفقراء والمساكين ـ بيوت الضيافة ـ اللقطاء ـ الاهتمام باليتامى ـ مواجهة القحط ـ مفهوم عمر رضي الله عنه للمصلحة العامة ـ الاهتمام بالجزئيات ـ وسائل وسبل معرفة شكاوى الرعايا ـ السفارة ـ السفر إلى الشام والسهر على الرعية.

**الإمامة والاجتهاد** ........................ ٣٨١-٣٩٨

**الموضـوع** **الصفحة**

مسألة القضاء والقدر ـ تعظيم شعائر الله ـ إلى أي حد ترتبط أقوال النبي ﷺ وأفعاله بمنصب النبوة ؟ ـ عمر رضي الله عنه وعلم أسرار الدين ـ المحافظة على الأخلاق الإسلامية وتطويرها ـ استئصال الفخر والغرور ـ منع الهجاء ـ منع التغزل وإصلاح الشعر ـ شرب الخمر ـ الحرية وقول الحق ـ الاجتهاد في الحديث والفقه ـ تفحص الأحاديث ـ نشر الحديث ـ موضوع دقيق ـ فرق المراتب في الأحاديث ـ تحقيق الرواية وتدقيقها ـ الحد من كثرة الرواية ـ الصحابة قليلو الرواية.

**علم الفقه** ........................................ ٣٩٩-٤٢٧

عمر رضي الله عنه مرجع سلسلة الفقه ـ أئمة الفقه الستة بين الصحابة ـ تدوين المسائل الصعبة ـ ظهور مسائل جديدة ـ سبب اتساع الفتوحات ـ الحكم في المسائل بمشورة الصحابة ـ المسائل الاجتماعية ـ حصر المسائل الفقهية لعمر رضي الله عنه ـ بحث حجية خبر الآحاد ـ القياس ـ أصول استنباط الأحكام ـ مسائل عمر الفقهية ـ مسألة الخمس ـ مسألة الفيء ـ مسألة فدك.

**السيرة الذاتية وأخلاقه وعاداته** ........................................ ٤٢٨-٤٦٤

قوة الخطابة ـ عمر وخطبة النكاح ـ الخطب السياسية ـ شروط الخطابة ـ قوة أسلوبه الإنشائي ـ تذوق الشعر ـ عمر رضي الله عنه يشيد بشعر زهير ـ مدح النابغة ـ رأيه في امرىء القيس ـ تذوقه للشعر وحفظه له ـ إصلاح الشعر ـ علم الأنساب ـ معرفته باللغة العبرية ـ ذكاء عمر وفطنته ـ مقولات عمر الشهيرة ـ صواب الرأي ـ أسرى بدر ـ حجاب الزوجات المطهرات ـ صلاة الجنازة على المنافقين ـ رأي عمر في شروط الخلافة ـ الفراسة والدقة ـ الحياة الدينية ـ الصلاة ـ الصوم ـ التسامح وعدم التعصب ـ اللقاءات العلمية ـ أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه ـ تقدير أهل الكمال ـ نكتة ـ مراعاة أقارب رسول الله ﷺ وتقريبهم ـ الأخلاق والعادات والتواضع والبساطة ـ روح الدعابة والظرافة ـ غلظة الطبع ـ محبته لأهله وأولاده ـ محل إقامته ـ كسبه للرزق عن طريق التجارة ـ الممتلكات والعقارات ـ الراتب ـ الزراعة ـ الطعام ـ

